

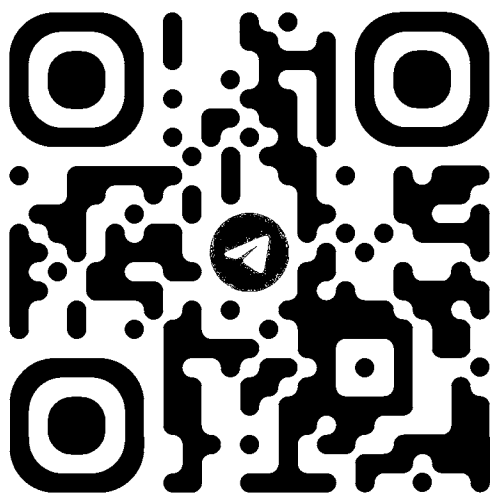
"قراءة هذه الرواية أشبه بتسلق قمة جبلية خطيرة،
ثمّ النظر إلى المنظر الواسع بالأسفل"
الروائي الصيني مويان الحاصل على جائزة نوبل في الآداب

麦家
ماي جيا

هكذا
رواية مكتبة
الحياة
人生海海

ترجمة:
د. يحيى مختار

//kalemat



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

هكذا الحياة
人生海海

هكذا الحياة
人生海海

ماي جيا
麦家

ترجمة: د. يحيى مختار
دار كلمات للنشر والتوزيع
البريد الإلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www.kalemat.com

© China Intercontinental Press & Media Co., Ltd.,

© Thinkingdom Media Company Ltd.

ردمك: 978-9921-809-81-7

طبع في مطابع الخط - الكويت

مكتبة
t.me/soramnqraa

هكذا الحياة 人生海海

ماي جيا
麦家

ترجمة:
د. يحيى مختار

مكتبة
t.me/soramnqraa

2025

///kalemat

7	الجزء الأول
7	الباب الأول
27	الباب الثاني
42	الباب الثالث
63	الباب الرابع
83	الباب الخامس
97	الباب السادس
110	الباب السابع
128	الباب الثامن
142	الباب التاسع
158	الجزء الثاني
158	الباب العاشر
179	الباب الحادي عشر
203	الباب الثاني عشر
231	الباب الثالث عشر
251	الباب الرابع عشر
275	الباب الخامس عشر
302	الباب السادس عشر

323	الجزء الثالث
323	الباب السابع عشر
346	الباب الثامن عشر
373	الباب التاسع عشر
403	الباب العشرون

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1)

الباب الأول

حدَّثني جدِّي أنَّ أصل الجبل الأمامي تتين؛ تتين أسطوري لو رأيت رأسه فلن ترى ذيله ولا نهايته، تمامًا كالبحر، ولذلك يُسمى أيضًا جبل تتين البحر. أما الجبل الخلفي، فأصله نمر هرب من الجبل الأمامي، ولذلك يُسمى أيضًا جبل النمر. للنمر رأس، ورقبة، وظهر، ومؤخرة، وذيل نصف مُلتفٍّ، وقدم يسرى أمامية، ولأنه مُستلقٍ ونائم، كان يمدد ساقًا واحدة فقط. الجبل الأمامي شاسع كالبحر، قممه الشاهقة تشبه الأمواج المتقلبة، تلاحق الواحدة الأخرى. تسلَّق النمر الجبال وعبر القمم، وسار على مدار أجيال طويلة، كل جيل منها يفوق زمنه الألف عام، حتى أنهكه التعب، وبمجرد عبور الجبل الأمامي، قفز متجاوزًا الجدول، فنجأ من الخطر، واستلقى غارقًا في النوم. كانت نومته على هذه الهيئة، رأسه منخفض، وظهره محدَّب، ومؤخرته مرفوعة، وذيله ممدد على الأرض ملتف إلى الأعلى، يضم ثلاثًا من أرجله الأربع يتوسَّدها بجسده. فقط تلك الساق اليسرى الأمامية كانت ممدودة إلى أقصى حد ممكن، كأنها تتعاون مع الذيل الملفوف كطرفي كماشة يطوِّقان القرية، واحد من الأمام والآخر من الخلف.

عند الصعود إلى قمة الجبل -أي مؤخرة النمر- والنظر إلى الأسفل، تبدو القرية كأن السماء تدهسها، وكأن بيوتها تجمعت امتثالَ صوتٍ أمر، فبدت متماسكة. لكنها في الواقع متناثرة، وهي إما متراسة وإما متلاصقة، إمَّا كبيرة وإمَّا صغيرة، إمَّا أنيقة وإمَّا متهاكة. إنها قرية جبلية قديمة الطراز، تقع جنوب نهر اليانغتسي، بجوار الجبل على أطراف جداول المياه، منازلها كثيفة مكتظة بالسكان. معظم بيوتها مكوَّنة من طابقين، مبنية من الطين والخشب،

جدرانها مطلية باللون الأبيض، وسقوفها مغطاة بالقرميد الأسود. الجبل أخضر، مغطى ببراعم الخيزران والشجيرات والأشجار، أما الجداول فمياهها صافية، مجاريها واسعة، رائحة تُرى قيعانها، عميقة سريعة التدفق، مفعمة بقوة الجبال. مياه الجدول هي السبب في صقل الحصى المحيط، لذلك كان يُستخدم في رصف الأزقة، وأصبح لاحقاً أكثر نعومة ولمعاناً وصلابة نتيجة وقع أقدام المارة والعجلات -عجلات الدراجات الهوائية والجرارات- على مدار مئات السنين. الأزقة متعرجة، تبدو كأنها بأكملها طرق مسدودة، ولكنها في الواقع متصلة من جميع الاتجاهات، وتؤدي في النهاية إلى قاعة الأسلاف. قاعة الأسلاف مهيبة شامخة، تحتل أكبر قطعة أرض وتحتضن أكبر شجرة في القرية، شأنها شأن مالك أرض إقطاعي. الشجرة من نوع الجنكة، وتُعرف أيضاً باسم شجرة المعبد. جذعها سميك جداً لدرجة أنه لا يمكن لأحد احتضانه، وقمتها أعلى من قمة قاعة الأسلاف. تعيش طيور العقعق وتضع بيضها عليها بكل طمأنينة، لتُنجب أجيالها القادمة. عندما يحل الربيع وتفتح الأزهار، تتبثق براعم الأوراق الخضراء النضرة من تحت لحائها المزركش كجيش سري، وبمجرد أن تنتشر، تصبح خارج السيطرة، تتنافس في جنون على التمدد نحو السماء والسيطرة على الفروع. وفي غضون أيام قليلة، تتكدس أوراقها المروحية الشكل بكثافة، فتُخفي الفروع، وتغطي السماء، وتحجب الرياح والأمطار، وتستدعي عصافير القرية للمبيت فوقها. وفي أواخر الخريف وأوائل الشتاء، تتحول الرياح إلى مادة صبغية، تصبغ الأوراق الخضراء طبقة فوق طبقة، لتحولها في النهاية إلى اللون الأصفر النحاسي. وبعد ليلة من هبوب الرياح الباردة، تسقط الأوراق على الأرض تباعاً، تفرش الأرض أمام بوابة قاعة الأسلاف، وتغطي الألواح الحجرية السوداء، ثم تتبع خطوات الناس إلى الأزقة المحيطة.

الأزقة غير منتظمة، لكنها دائماً عميقة وملتوية كالأمعاء. بعضها واسع، وبعضها ضيق. بينما تتسع الأزقة الواسعة لمرور جرّار، لا تتسع الضيقة لكتفين، فقط تكفي لمرور القطط والكلاب.

أواخر الربيع وأوائل الخريف كلاهما صيف، تمامًا ككون الساعة الرابعة أو الخامسة فجرًا والساعة السابعة أو الثامنة مساءً في الصيف كلتاها نهار.

في كل صيف، تبدو القرية كأنها تحولت إلى وباء يفتك بالجميع. في البداية تُتهكم في العمل، فهناك حقول عليهم حرثها، وماشية عليهم إطعامها، وسقوف عليهم رتقها، وفيضانات عليهم صدّها، ومجارير عليهم تسليكها، ومراحيز عليهم تنظيفها، وهناك أيضًا حظائر الأبقار، وأقنة الدجاج، وسقائف البط، وأقفاص الأرانب، كلها بحاجة إلى بذل جهود مرهقة. كومة من المهمات التي تنتظرهم تتراكم كالطفح الجلدي، ومهما طالَت الأيام، فلن تكفيهم لإنجازها. بعد ذلك تُفرقهم القرية في الأجواء الحارة، فالقرية تقع في وادٍ جبليّ مسدود من ثلاث جهات، بلا تدفق لهواء يبدد الحرارة، فتعزلهم في أجواء خانقة. يستندون إلى الجدران الرطبة، يتهايمسون ليلاً ونهاراً وسط الزوايا المظلمة، تحفهم رائحة الفئران الميتة، والطين المتعفن، وروث الكلاب، ومخلفات الدجاج، وبراز الأطفال وبولهم، وأفواههم التي تفوح بالروائح الكريهة. أجسادهم أيضًا كانت تتضح بالعرق الكريه الذي يجذب البعوض والحشرات للدغهم. الخلاصة؛ القرية تبدو كل صيف كقطعة من زلاية الأرز المتعفنة منزوعة القشرة، لزجة كريهة الرائحة. الناس منهمكون في أعمالهم، والحشرات على اختلاف أنواعها في أوج نشاطها: الذباب، البعوض، الجداجد، اليراعات، السحالي، العلق، النمل، اليعاسيب، الجراد، الثعابين، جميعها منتشرة في كل مكان، وتتدس وسط تجمعات البشر، تقتحم حياتنا مسببة الفوضى، وتزيد متاعبنا، وتُفاقم أمراضنا، وتجعلنا في ترقُّب لحدوث الشتاء ليخلصنا منها.

بحلول الشتاء، تبدو القرية كأنها مغلّفة بغطاء، تصبح مغلقة فجأة، باردة وهادئة. خاصةً في الأيام التي تتساقط فيها الثلوج، تصبح هادئة إلى درجة التأنق، فلا أثر للدجاج أو الكلاب داخل الأزقة المرصوفة

بالحصى أو خارجها، والثلج يتساقط في صمت، ونادرًا ما يُرى أثر للناس في الجوار. ما إن تتراكم الثلوج، فلن تسمع صوت وقع أقدام الناس المعتادة، حتى إن تصادف مرورهم بجوارك، إذ يصبح الثلج المتراكم مثل منشار في ورشة نجارة، أو كقالب في مخبز، يوحد بين أصوات وقع أقدام الناس المتباينة، ويساوي بين أشكالها المتفاوتة، فلا يصدر سوى صوت واحد فقط: صوت الطقطقة.

طق —

طق —

طق —

هذا الصوت يبدو متماسكًا، مكتومًا، رتيبًا، جامدًا. لا يبدو كصوت شخص يمشي، بل كصوت حصى يتحرك. أشبه بحصى مات منذ آلاف السنين، ثم عادت واحدة منه -أو ربما اثنتان- على قيد الحياة، ثم زحفت من أسفل الثلج، وشرعت تتقاذف على الأرض المغطاة بالثلوج مثل الزومبي. فقط هناك شخص واحد، عندما يمر يبدو الصوت مختلفًا، حينها لا يكون صوت الطقطقة الصوت المسموع، بل صوت آخر، صوت تكتكة، هذا الصوت أكثر قوة وصلابة وحدة وسرعة من صوت الطقطقة.

تك!

تك!

تك!

كانت أصوات وقع أقدامه مزعجة ومفرعة، مثل جليد قاسٍ يُقطع بسكين، أو يُضرب بمطرقة.

عادة ما كان هذا الصوت يتردد مع ضوء الفجر الخافت، أو مع ضوء القمر في جوف الليل الساكن. فيبدو مفاجئًا، جريئًا، شرسًا، غاضبًا وسط الأزقة الضيقة، ثم يقفز فجأة إلى السطح، ويرتفع عاليًا في الهواء،

ثم يدوِّي في الفضاء، فيبدو أجوف وبعيداً وسط الصمت، كما لو كان آتياً من وسط غيوم داكنة أو من على سطح القمر.
كلما دقَّ هذا الصوت، كان جدي يقول: «أسمعتُم، لقد عاد المخصي». أو يقول: «لقد غادر المخصي ثانية».
كلما سُمع هذا الصوت، كان والدي يضحك ويقول: «ههه، لقد عاد العقيد». أو يقول: «لقد غادر العقيد ثانية».

(2)

العقيد هو المخصي، كلاهما الشخص نفسه، يكمن الاختلاف في الشخص الذي يناديه. البعض يناديه المخصي، والبعض الآخر يناديه بلعقيد. قليلون -مثل جدي- ينادونه العقيد في وجهه، والمخصي من ورائه، وكثيرون -مثل والدي- ينادونه العقيد في وجهه، ومن ورائه أيضاً. فمناداته المخصي أمر مشين على أي حال. لذلك، فليس هناك من بين جميع أبناء القرية الذين يُقدِّرون بالآلاف من يناديه المخصي في وجهه. فقط في بعض الأحيان يتجمع الأطفال المشاغبون ويغنون في وجهه قائلين:

«المخصي أتى! طاخ طاخ! المخصي ذهب! طاخ طاخ!».

يصفقون ويغنون بانسجام، وبإيقاع منتظم، تماماً كحفل غناء جماعي. في أغلب الأحيان، كان يحني رأسه مبتعداً، متجاهلاً ما يجري، فهم كثرة، وليس بإمكانه صدهم. قد ينذر أن يتظاهر بمطاردتهم، فيهربون مذعورين كالفئران. ذات مرة، حاول الأعمى الصغير استعراض قوته، وناداه المخصي في وجهه. حينها كان العقيد منبطحاً فوق سطح منزله يُنظِّف المدخنة، ولأن العمل في الأماكن العالية محفوف بالمخاطر، فقد ظنَّ الأعمى الصغير أنه لن يستطيع النزول، وشرع يصيح فيه من الأسفل بكل غطرسة. ولكنه لم يكن يتخيل أنه بعد صيحتين فقط، سيقفز العقيد

على يديه وقدميه، ويهبط من أعلى السطح مثل القرد، ثم ينطلق يطارده بلا هوادة. طارد الأعمى الصغير عبر زقاقين، ولم يتوقف إلا عندما أمسك به، ثم ثبَّته على الأرض، وفتح فمه عنوة، وملاًه برماد المدخنة. الأعمى الصغير هو زميل ابن عمي في الصف. يجلسان معاً على المقعد نفسه في أثناء الدراسة، ويلهوان معاً بعد انتهائهما؛ ظِلان لا يفترقان. ولأن والده أعمى -أعمى بالفعل، حدقناه بيبضاوان- أطلقنا عليه اسم الأعمى الصغير. هذا لقب، فلدى كل الشخصيات المعروفة في المدرسة والقرية ألقاب، مثل المخصي أو العقيد، النمرة، العراف العجوز، الأعمى العجوز، الأعمى الصغير، إلهة الرحمة الحية، اليسوعي، الصعلوك العجوز، الثعلبة، اللقيط، المتملق، الأعرج، كماشة اللحم، الدجاجة المسلوقة، الفلفل الأحمر، اللحم المحمر، وما إلى ذلك. والذي يُسمَّى النمرة، وجدي يُسمَّى العرَّاف العجوز، وابن عمي يُسمَّى الزرافة، ورفيقي المفضَّل في الصف يُسمَّى النمر القزم، وجده يُسمَّى الأعرج، والشرطي العجوز يُسمَّى الصعلوك العجوز. جميعهم شخصيات معروفة في القرية أو المدرسة، ولأنهم كذلك، فهم مادة للسخرية على ألسنة الناس.

قال جدي: «اللقب، مثل الندبة على وجه الشخص، قبيح المنظر. لكن من دون لقب، فأنت بوصفك جندياً في الجيش بلا منصب، لن يعيرك أحد أي انتباه، وستكون بلا قيمة».

كان الأعمى الصغير يحظى بمكانة كبيرة في المدرسة. لديه أب، لكنه نشأ بلا أم، وأبوه أعمى لا يستطيع تأديبه أو تربيته، فأصبح صبيّاً جامحاً وشقيّاً، وأكثر جرأة من المجانين، ودائماً ما يثير المشكلات. جميع المعلمين يكرهونه، بل ويخافه بعضهم، لكن هذه المرة ارتعدت فرائصه خوفاً من العميد، حتى أنه بال في سرواله. رأيتُ أنا وابن عمي ذلك المشهد بأعيننا؛ كان وجهه وفمه ممتلئين بسواد المدخنة ورمادها، فبدا كالغفريت، يبيكي بحدة كما لو كان نعجة تُذبح، وصوته ممتزج بالدماء

التي تتناثر في كل مكان، فأصاب الطيور فوق الأشجار بالذعر، حتى أنها طارت هاربة إلى الجبال. كان الأمر مخيفاً حقاً!

الأعمى الصغير في الثالثة عشرة من عمره هذا العام، ولا يزال ضعيف البنية عديم القدرة على التحمل على أي حال. يتظاهر بالقوة والشجاعة في الأوقات المعتادة، لكنه يتراجع كالجبان في مواجهة المشكلات. في المساء، حكيت لهم في البيت عن هذا الموقف، فارتسمت على وجه أبي ابتسامة من النادر رؤيتها، وشرع يسب الأعمى الصغير ويقول إنه يستحق ما جرى له، وبدا كطفل شامت في مصيبة غيره.

وبَّخه جدي قائلاً: «ألا تعرف شيئاً عن الأخلاق؟ أي نوع من الناس هذا الذي لا يتورع عن ضرب الأطفال؟ وكيف لك أن تدافع عنه؟».

ردَّ أبي معانداً: «ومَن قال إنه طفل؟! هو ليس سوى حيوان صغير؛ حيوان بهيئة إنسان، لم يجد من يريه».

ثم استدار وحذرنى وهو يقول: «لا تلهُ مع هذا الحيوان الصغير بعد الآن».

قلتُ: «لم يحدث أن لهوت معه قطّ. ابن عمي هو من يلهو معه كل يوم».

كنتُ في العاشرة من عمري فقط؛ ما في قلبي على لساني، ولا أعرف كيف أكنم الأسرار.

غضب والدي وشرع يشتم ابن عمي، لكنه في الحقيقة كان يقصد لفت انتباهي: «لو استمر يتسكع مع هذا الحيوان، فسيورط نفسه في المشكلات عاجلاً أم آجلاً».

غمغم جدي، ثم استدار محدثاً والدي بقفاه: «انصح نفسك أولاً، وقلّل تواصلك معه».

يقصد بذلك العقيد، أو المخصي حسبما يناديه. ثم استمر يقول: «ما زلت عند موقفك منه، لقد طفح الكيل، عليك أن تقطع علاقتك به، لا

تزد متاعبي، أنا رجل عجوز، وأريد فقط أن أعيش سنواتي الأخيرة في سلام».

سمعت جدي يقول هذا الكلام عشرات الآلاف من المرات، وفي كل مرة يقوله، كان يستدير بجسده، كما لو أنه يخجل من قوله وجهاً لوجه، أو كما لو كان يشمئز من الحديث عنه. في كل مرة، كان والدي يتجاهل الأمر، كأن الكلام يدخل من أذنه اليمنى ويخرج من أذنه اليسرى، لا يُلقى له أي بال وكأنه لم يسمعه، يستمر في معاملة العقيد معاملة الأخ لأخيه، ويذهب إلى منزله كلما سنحت له الفرصة. أحياناً كانا يغادران القرية معاً، ولا أحد يعلم إلى أين يذهبان، وهو ما يُغضب جدي بشدة، فيرفع بصره إلى السماء ويقول بحق:

«هذا الابن عنيد كالنمرة بالفعل، يوماً ما سيكون السبب في موتي غيضاً!».

أعتقد أن جدي كان قد مات غيضاً بالفعل، وإلا لما كان ليوبّخ والدي بهذه الطريقة. يعلم جدي أن مناداته والدي بلقب النمرة يشبه مناداته العقيد بالمخصي، يقصد به التحقير من شأنهما، والأمر أشبه بالضغط على خصيتي شخص لقتله ألماً. لو كان من سبّه بهذه الطريقة شخص آخر لأوسعه أبي ضرباً بلا شك. قال الشرطي العجوز إنه لا يجوز أن يلمس ثديي المرأة أو خصيتي الرجل سوى شخص واحد، ولو لمسها شخص غيره، فهو كمن يسعى إلى حتفه، وقد يكلفه ذلك حياته. قال الشرطي العجوز أيضاً إن لوالدي خصيتين، واحدة بين فخذه وواحدة داخل صدره. أعلم أن تلك التي في صدره يُقصد بها لقب والدي- النمرة. قد يتسامح مع الآخرين حال مناداته بهذا اللقب وقت المزاح، لكن لا يتهاون في ذلك أبداً لو حدث وقت الجد. ولو حدث، سيتحول إلى نمرة حقيقية، وبعض من يناديه.

أبي شخص قليل الكلام. لم يكن يتكلم قطّ في أثناء اجتماعات فرقة الإنتاج في القرية، فقط كان يجلس ويدخن. نادراً ما كان يتحدث في المنزل أيضاً، إذ إن الأصوات التي يطلقها من مؤخرته أكثر من تلك التي يتقوه بها. لكن إياك أن تعتقد أنه أخرس، فهو كاللغم الأرضي سينفجر في وجهك فوراً حال وطأته بقدمك. السبب وراء تسميته بالنمرة هو أنه حاد الطبع، سريع الهجوم، على الأقل هذا ما أعتقده. النمرة هي أنثى النمر، تحمي صغارها وتتنفّض لمهاجمة من يقترب منهم بشراسة بالغة، فمن هذا الذي يرغب في مصادقة شخص كهذا؟ بالطبع لا أحد يرغب في ذلك. لم يكن لوالدي أصدقاء في القرية، باستثناء ذلك العقيد الذي كانت تربطه به علاقة جيدة دوماً.

قال جدي: «ما من شيء في السماء أو على الأرض يمكنه أن يفرقهما». كلاهما وُلدا في العام نفسه والشهر نفسه، يلهوان معاً منذ نعومة أظفارهما، يصطادان الحشرات، ويسرقان بيض الطيور، ويحطمان القواقع، ويطاردان الجداجد، لا يتورعان عن إثارة المشكلات، كانا طفلين شقيين مشاغبيين. وعندما بلغا الثالثة عشرة، ذهبا لتعلم مهنة النجارة على يد نجار من مدينة دونغيانغ اسمه المعلم وانغ، وبعد ثلاث سنوات أو أربع، أصبحا مسؤولين عن ورشة النجارة، كانا يأكلان من القدر نفسها، وينامان على الفراش نفسه. توطدت علاقتهما أكثر، وأصبحا كأخوين حقيقيين تربطهما علاقة لا تنفصم عراها.

قال جدي: «حتى السجارة كانا يتقاسمانها».

ولمّا كانت علاقتهما جيدة إلى هذا الحد، كان من الطبيعي أن ينبري والدي لحماية سمعة العقيد، وألا يسمح للناس بأن يطلقوا عليه لقب المخصي. ليس بإمكانه التحكم في أفواه الغريباء، لكن على الأقل كان بإمكانه التحكم في ما نقوله في المنزل. لم يكن يسمح لنا بذلك، حتى إن

كان على سبيل المزاح، كان صارمًا للغاية حيال هذا الأمر. الوحيد الذي لم يكن يستطيع منعه هو جدي، فجدي هو والده على أي حال. لو تجرأت أنا وناديته بهذا اللقب، فمن المؤكد أنني سأتلقى صفعه على وجهي فوراً. حدث مرةً أن ناداه ابن عمي بهذا اللقب، فصفعه والدي بعنف، حينها شعر كما لو أن بعوضة دخلت في أذنه، وظلت تطنّ ليالي عدة، حتى كادت تُفقد سمعه.

وبغض النظر عن مدى قوة العلاقة بين والدي والعقيد، فإن جدي لم يكن يرغب في مجيئه إلى منزلنا. لماذا؟ لأنه مخصي انقطع نسله. فهناك تقليد في القرية أصله مقولة يرددونها كبار السن مفادها أن أولئك الذين انقطع نسلهم قد ارتكبوا ذنباً لا تُغتفر في حياتهم السابقة، وأنهم جالبون للنحس، وقلوبهم ممتلئة بالحق، ومن ثم لم يكن جدي يسمح لأحد هؤلاء الحقودين الجالبيين للنحس بدخول منزلنا. ولو جاء، كان يطرده. لكنه كان يخجل من طرده مباشرةً، فكان غالباً ما يلجأ إلى أساليب ملتوية؛ كأن ينهر الكلب، أو يطارد الدجاج، أو يرمي أوعية الطعام وعيدانه، أو يركل المقاعد، أو يثور لأتفه الأسباب. لذلك، في كل مرة كان العقيد يأتي إلى منزلنا، كان المنزل يفرق في حالة من الفوضى والاضطرابات. ولهذا السبب، سبق أن تشاجر والدي مع جدي.

قال والدي: «أي نحس هذا الذي تحدث عنه؟ هذه خرافات لا أصل لها، فالرجل يعيش حياته منعمًا أفضل من أي شخص آخر». قال جدي: «حتى إن كانت حياته منعمة، فهو لا يزال مخصياً على أي حال، ينقصه شيء بين فخذه».

صاح والدي: «أنت جاهل حقاً!».

وبخه جدي قائلاً: «الجاهل هو أنت! ألا تعلم أن برّ الوالدين هو أهم الفضائل؟ ألا تخشى أن تحل عليك اللعنات لمخالطتك رجلاً مقطوع النسل؟».

قال والدي: «وماذا في ذلك؟ هل يُمكن أن يُصيبني بالعدوى؟».

قال جدي: «وكيف عرفت أنه لن يصيبك بالعدوى؟».

قال والدي: «لديّ ثلاثة أبناء بالفعل، فكيف يمكن أن يصيبني بالعدوى؟».

قال جدي: «ما المشكلة في أن يكون لديك ثلاثة أبناء؟ هذا الشخص كان الأشهر في قريتنا. من كان يتخيل أن يكون هذا مصيره؟ الحياة لا تستمر على حال، وقد تتقلب حياتك رأسًا على عقب لو تهاديت في عنادك ولم تلقِ بالاً للأمر».

عندما يتشاجر أبي وجدي، دائمًا ما كنت أتمنى أن يكون جدي الفائز، وبالفعل كان يفوز دائمًا. درس جدي في كُتَّاب القرية، ثم افتتح كُتَّابًا في قاعة الأسلاف، وعقله ممتلئ بمبادئ وتعاليم قديمة كثيرة، ويشمل ذلك ما يخص ماضي حياة كل شخص وحاضره، بما في ذلك كل ما يخص حياة العقيد؛ كان قادرًا على سرد كل تفاصيلها، ليبرهن في النهاية أنه على حق.

أخبرني جدي أن العقيد رجل ذكي للغاية. عيناه تلمعان منذ صغره كقطع زجاجية برّاقة، يتعلم الأشياء بشكل أسرع، وينجزها بشكل أفضل من غيره. على سبيل المثال: في السنة الأولى من تعلُّم النجارة، لم يكن بمقدور أبي سوى مساعدة المعلم في نشر الخشب، وأداء الأعمال البدنية. أما العقيد فكان قد تمكَّن من صنع الخزائن والرفوف بنفسه، وبرع في استخدام المقاشط والمناشير والبُلَط والمطارق والمثاقب والأزاميل، وصار يفعل كل شيء بسهولة بالغة. وفي السنة الثانية، تعلَّم صنع الدلاء ذات الأرجل وأحواض الغسيل، الكبيرة منها والصغيرة، وبجودة عالية، حتى أن نقطة مياه واحدة لم تكن لتتسرب منها، بل حتى أن مهارته الفائقة لم تكن لتقل عن مهارة المعلم نفسه. وفي السنة الثالثة، أرسل الجنرال تشيانغ كاي شيك قواته إلى بلدتنا، تركزت في الجبل لمنع قوات

الشيوعيين من التراجع نحو جيانغشي. وبسبب حالة الفوضى والقتال، عاد المعلم وانغ النجار إلى مسقط رأسه. ظن جدي أن ورشة النجارة ستغلق أبوابها، لذا طلب من أحد معارفه أن يبحث لوالدي عن عمل مؤقت في المدينة، لكن على غير المتوقع، استمر العقيد في العمل في الورشة بمفرده كما لو أن شيئاً لم يحدث، فكان المعلم والصبي، حتى أن أحوال الورشة تحسنت على يديه. وبعد أن علم والدي بهذا الأمر، هرب عائداً من المدينة ليعمل مساعداً له.

قال جدي: «والدك فاشل للغاية. لا يمكنه الابتعاد عن العقيد، ولا يستطيع عمل أي شيء من دونه، فقد التحق المخصي بالجيش لاحقاً، ولم يستطع والدك الاستمرار وحده في العمل في ورشة النجارة، فاضطر إلى إغلاقها. النجار يعتمد على مهارته لكسب رزقه، لكن والدك ظل يتعلم سنواتٍ، ولم تكن مهارته تضاهي أولئك الذين تعلموا شهوراً فقط، فالمياه كانت تتسرب من الدلاء وأحواض الغسيل التي يصنعها وكأنها مثل المنخل».

(4)

التحق العقيد بالجيش في العام الرابع والعشرين لقيام جمهورية الصين، أي في عام 1935. وفي أحد أيام الخريف، حدث أن ذهب العقيد البالغ من العمر سبعة عشر عاماً حينها برفقة والدي إلى سوق المدينة كعادتهما، كانا يبيعان ويشتریان؛ يشتریان الخشب والمسامير والكبروسين والزيت وصفائح الحديد وورق الصنفرة وحديد الزوايا وغيرها، ويبيعان أحواض الغسيل والدلاء وأوعية الحبوب والطاولات والكراسي والمقاعد وغيرها. عند وصولهما إلى المدينة، تصادف أن كانت قوات الكومينتانغ تُجنّد مجندين جددًا. أعجب قائد كتيبة بالعقيد فأخذه معه هو وكل ما بحوزته. كان الجيش يتوسع، ويحتاج إلى أفراد وإمدادات، لذلك لم يكونوا يدققون في احتياجاتهم، بل يأخذون كل ما يصادفونه، وينفقون المال

لشرائه، لكنهم كانوا يدققون في اختيار الأفراد، ولا يختارون إلا الشباب الأذكياء؛ طوال القامة أقوياء البنية. لذلك وقع اختيار قائد الكتيبة على العقيد من النظرة الأولى، وتجاهل والدي الذي كان في عمره نفسه. أراد والدي الذهاب برفقتهم، لكن قائد الكتيبة قال إنه سينظر في الأمر في المرة القادمة، وهذا بالطبع يعني رفضه والدي. في الواقع، صار والدي قوي البنية لاحقاً. كان قصير القامة عريض البدن، وإلا لما أُطلق عليه لقب النمرة. لكن نمو والدي حينها كان متأخراً، ولم يكن نموه الجسدي قد اكتمل بعد. كان حينها كقطعة عجين لم يكتمل تخمُّرها، صغيراً تنقصه الهمة، وهيئته بالغة السوء.

ومنذ ذلك الحين، انفصل الاثنان وعاشا في أماكن مختلفة. قال جدي: «لهذا السبب، صار والدك كالخروف المريض. ظل أكثر من عشرة أيام يأكل ويشرب ثم ينام دون أن يؤدي أي عمل، إلى أن وصله في أحد الأيام طرد أرسله المخصي. كان الطرد يحتوي على قميص عسكري وزوجين من الجوارب، بالإضافة إلى رسالة خطية. بعد أن طالع والدك الرسالة، شعر كأنه تناول ترياقاً فبراً من مرضه».

أخبر العقيد والدي في رسالته أنه تلقى تدريبات عسكرية في الجبال القريبة أكثر من عشرة أيام، وأن القوات على وشك التحرك للقتال على خط المواجهة في جيانغشي، وطلب من والدي أن يعتني جيداً بورشة النجارة، وأن ينتظر عودته من الحرب ليوسِّع أعمالهما معاً. ومع ذلك، ورغم رغبة والدي في الاعتناء بالورشة، لم تكن لديه القدرة على ذلك. تدهورت أعمال ورشة النجارة يوماً تلو الآخر، إلى أن أُغلقت أبوابها قبل حلول رأس السنة الصينية. وفي الوقت نفسه، صار العقيد البارِع أكثر براعة في الجيش، وأظهر براعة قتالية عالية، وحظي بتقدير كبير. خدم في البداية مساعداً لقائد الفوج، ثم ترقى إلى قائد فرقة، ثم قائد فصيل، ثم قائد سرية. وكلما رُقِيَ إلى منصب أعلى، زادت نجاحاته.

عندما عاد إلى مسقط رأسه بعد مغادرته بأربع سنوات، كان قد أصبح قائد كتيبة. قال جدي إن القرية كلها كانت تنظر إليه آنذاك وكأنه واحد من الأجانب. مظهره كان مهيباً للغاية، يدس مسدساً سوفيتياً أسود كبيراً في خصره، ويرتدي ساعة فضية لامعة على معصمه، وقبعة عسكرية بإطار ذهبي على رأسه. كان ظهره مستقيماً، وصدره منتصباً كفتاة بالغة. كان سبب عودته حضور جنازة والده الذي لم يكن قد ناهز الخمسين، ولا يزال في أوج عنفوانه، كان مفتول العضلات قوي البنية، بمقدوره إسقاط بقرة بمفرده، لكنه في أحد الأيام، عثر على فارغة قذيفة مدفعية يابانية في حقله؛ كانت أكثر سمكاً من رقبة بقرة، وثقيلة للغاية. ولأنه قوي كالثور، حمل فارغة القذيفة على كتفه وعاد بها إلى منزله، ووضعها داخل حظيرة الماشية، كان ينوي بيعها للحداد في الشتاء، فالوقت كان صيفاً حينها، والحداد لا يزال في مسقط رأسه يمارس أعمال الزراعة.

جميع النجارين هنا من دونغيانغ، وجميع الحدادين من يونغكانغ. عادةً ما يعملون في الزراعة في مسقط رأسهم، ولا يكون لديهم ما يفعلونه في الشتاء، فيغادرون قراهم لصنع الأثاث وأدوات الزراعة لكسب دخل إضافي. عادة ما يكون هناك نجار واحد وحداد واحد في كل قرية، وهؤلاء النجارون والحدادون يأتون ويغادرون حسب الفصول كالطيور المهاجرة. نجار قريتنا هو المعلم وانغ، أما الحداد فاسمه المعلم تشانغ، لديه ندبة على وجهه تمتد قطرياً من جبهته إلى أذنه، لذلك كان القرويون يطلقون عليه من وراء ظهره لقب «ذي الندبة». وبمجرد حلول الشتاء، يحمل «ذو الندبة» أمتعته ويأتي إلى القرية، يشرع أولاً في شراء خرقة النحاس والحديد من بيوت القرويين، ثم يبني فرنًا، ويستخدم خرقة النحاس والحديد لصنع أدوات زراعية وسكاكين جديدة، وبييعها هنا وهناك. سكاكين المطبخ التي يصنعها ذو الندبة سميكة وحادة، وشفراتها لامعة. يمكنها قطع أي شيء، كما أنها كانت تشبه السكاكين العسكرية؛ لذلك كانت رائجة بشدة.

كانت فارغة القذيفة المدفعية ملقاة وسط كومة القش المبعثرة في حظيرة الماشية كجثة صغيرة هامة؛ يبلغ طولها نصف طول شخص بالغ عند وضعها بشكل رأسي، ووزنها لا يقل عن 30 أو 40 كيلوجراماً. لو باعها للحداد، ستكون كافية لشراء ما يحتاج إليه من أدوات الزراعة مدة عام على الأقل. ظل والد العقيد ينتظر مجيء الحداد لشراء الخردة في الشتاء بفارغ الصبر، لكنه لم يعيش حتى قدوم الخريف، مات هو وماشيته ودواجنه بشكل مفاجئ. استدعى الشرطي العجوز مسؤولين من المدينة للتحقيق في هذه الواقعة، وكانت النتيجة أن فارغة القذيفة تحتوي على سم بيولوجي، وأي شخص يلامسها سيتسمم، ثم يتغلغل السم داخل جسده حتى يتعفن لحمه ويموت. مات والد العقيد متعفنًا بهذه الطريقة. كانت ميتة بشعة للغاية، معظم جسده متعفن، لم يبقَ منه شيء تقريباً، كما لو أنه قُطِعَ إرباً بآلاف السكاكين.

بعد دفن والده، كان عليه العودة إلى الصفوف في أقرب وقت ممكن، فالقوات في حالة حرب، وبصفته قائد كتيبة، فحياة مئات الرجال متوقفة عليه، وبالطبع لا يمكنه أخذ إجازة في وقت كهذا. لكن الخاطبات جئن واحدة تلو الأخرى يرشحن له فتيات للزواج، وهو ما عطّله بعض الوقت. كان في الحادية والعشرين من عمره حينها، ولا يزال عازباً، وهو ما جعل فتيات القرية جميعهن يسيل لعابهن رغبة في الزواج به. كانت عمتي الصغرى تصغره بثلاث سنوات، وترغب في الزواج به أيضاً، لذا قضت الليل بأكمله تحوّل له زوجين من الجوارب الصوفية. كان يلتقي فتاتين أو ثلاثاً يومياً، ولم تعجبه واحدة منهن على مدار أربعة أو خمسة أيام.

قال جدي: «ما فعله هو الصواب، فوالده توفي للتو، ولم يمر اليوم السابع على وفاته بعد، فهل هذا وقت مناسب لمواعدة فتيات للزواج؟ ربما كان ينظر إلى الأمور من هذا الزاوية أيضاً، ولذلك لم يركن لفكرة الزواج. وهو ما جعل الجميع يثنون على فطنته. لكنه في الحقيقة كان يحاول

ترضية الجميع حتى لا يسيء لأحد، إن كان والده المتوفي أو الخاطبات». بالطبع، لم يكن أحد يُطلق عليه لقب المخصي أو العقيد في ذلك الوقت، ولم يكن الشرطي العجوز عجوزاً أيضاً، لكن جدي اعتاد أن يناديهما بالمخصي والشرطي العجوز.

وفي الليلة التي سبقت عودة المخصي إلى الجيش، أقام الشرطي العجوز وليمة وداع سرية له في منزله. كان هذا دهاء من الشرطي العجوز. هذا الشرطي العجوز كان شرطياً عميلاً، فهو في الأصل خائن عيَّنه اليابانيون الغزاة، ومن المفترض أن يقبض على هذا المخصي ويسلمه للجيش الياباني في المدينة لأنه يقاتل ضدهم. لكن بالرغم من ذلك، لم يكن الشرطي العجوز يقدم على أي من أفعال الخونة، بل حتى أنه كان يساعد الكومينتانغ والشيوعيين سرّاً. والجميع يقر بذلك، لذلك لم تُوجَّه إليه لاحقاً أي تهم بالخيانة، بل نُسبت إليه إنجازات عديدة، ونال وساماً تقديراً لإسهاماته في حرب المقاومة وبراعته في العمل السري. سمع أن المخصي ساهم في قتل غزاة يابانيين عديدين في أثناء المعارك، وهو ما أثار إعجابه الشديد، حتى أنه خاطر بحياته وأقام له وليمة وداع سرية. أقيمت الوليمة في منزل أحد مرؤوسي الشرطي العجوز، والسبب هو أن الشرطي العجوز كانت لديه عشيقة في ذلك الوقت، ويعاني مشكلات حادة مع زوجته، لذلك لا يستطيع استضافة أي ضيوف في بيته، كما أنه كان يرغب في أن يُحضر عشيقته معه، فهذه وليمة، والولائم لا تخلو من شرب الخمر، ويفضّل أن يدعو إليها أكبر عدد ممكن من الضيوف؛ دعا الشرطي العجوز بعض الأصدقاء القدامى، بالإضافة إلى عشيقته، لتناول الطعام والشراب ولعب الورق برفقة المخصي، فلعب الورق بعد الشرب أمر روتيني، لكن المخصي كان عليه العودة إلى القوات في اليوم التالي، لذلك لم يكن مهتماً بلعب الورق، فاستأذن بالمغادرة، لكنه لم يعد إلى منزله. شعرت أمه التي تنتظره في المنزل بالقلق، وخشيت أن يشمل

ويتأخر عن رحلته في اليوم التالي، فذهبت إلى مكان الوليمة بحثاً عنه. فوجئ الشرطي العجوز وأصدقائه الذين يلعبون الورق عندما علموا بهذا الأمر، فهو قد غادر مبكراً عائداً إلى منزله، إذن إلى أين سيذهب إذا لم يعد إلى منزله؟ حينها تذكر الشرطي العجوز أن سلوك عشيقته وتعبير وجهها في أثناء المأدبة كانت مريبة بعض الشيء. ساورته الشكوك، فتسلل ذاهباً إلى الدكان الذي تديره عشيقته خلسة.

(5)

رافق الشرطي العجوز بضع عشرات من العشيقات في أثناء حياته. في ذلك الوقت، كانت تلك العشيقة مُغنية. لم أعد أذكر اسمها بوضوح، إذ لم ينادها أحد باسمها الحقيقي، وكانوا يطلقون عليها «الثعلبة». الجميع يعرف أصل هذه الثعلبة، فقبل عامين، عندما عُيِّن الشرطي العجوز شرطياً للقرية، دعا فرقة غنائية إلى القرية لتقديم بعض العروض احتفالاً بتوليهِ المنصب. كانت المغنية تؤدي دوراً ثانوياً في الفرقة، تغني فقرة قصيرة للغاية. وبعد انتهاء دورها، كانت تؤدي مختلف الأعمال الأخرى؛ كنس الأرضية، ومسح الطااولات، وتقديم المشروبات. في أثناء استراحة الغداء، ذهب الشرطي العجوز لزيارة أعضاء الفرقة. جاءت «الثعلبة» وقدمت له الشاي وهي تتفنج. ضغط الشرطي العجوز على يدها سراً، فابتسمت له. حينها تجرأ الشرطي العجوز ولمس مؤخرتها. ضحكت وهمست في أذنه تقول إن هذه أمور من المفترض أن تحدث في الليل. في تلك الليلة خلعت ملابسها كاملة تاركة الشرطي العجوز يفعل ما يحلو له، وهنا بدأت علاقتهما. تركت الفرقة الغنائية لاحقاً، وعاشت في كنف الشرطي العجوز الذي افتتح لها دكاناً صغيراً في القرية، وأصبحت عشيقته علناً. لم ينفصلا إلا بعد سنوات عديدة عندما ذهب الشرطي العجوز إلى شنغهاي للمقامرة وخسر كل ماله.

قال جدي: «هذه طبيعة المغنيات، لا يكثرن لسمعتهن».

ذهب الشرطي العجوز إلى دكان عشيقته، كانت شكوكه في محلها، إذ ضبط المخصي معها في السرير! في ذلك الوقت، كان المخصي شاباً فتياً، في أوائل العشرينيات من عمره، عضوه الذكري أكثر صلابة من البندقية، ولأن البلاد غارقة في الحروب، كان الشرطي العجوز يحمل بندقية من طراز ماوزر الألمانية. صاح في وجه المخصي قائلاً إنه سيقبله انتقاماً منه لمعاشرته عشيقته! لم يكن الشرطي العجوز آنذاك عجوزاً أيضاً، صاح غاضباً وأخرج بندقيته. لكن المخصي الذي خاض سنوات من المعارك كان أسرع منه، فقبل أن يتمكن الشرطي العجوز من الضغط على زر أمان البندقية، كان المخصي قد وجّه فوهة مسدسه من طراز توكاريف السوفيتي في وجه الشرطي. كانت فوهتا المسدس السوداوان أشبه بعيني ديك يصارع ديكاً آخر، جاهزة لإطلاق النار في أي لحظة، حتى أن ضوء القمر حولهما كان يهتز خوفاً. ارتجف الشرطي مذعوراً، كأنه يرتعد من شدة البرد.

لكن عندما رأى المخصي ضوء القمر يهتز على فوهة بندقية الشرطي، تراجع قليلاً، اعترف بخطئه أولاً، وقال إنه كان ثملاً، ثم طلب منه أن يسامحه، ونصحه بأن يلقي بندقيته ويحكم عقله. رفض الشرطي العجوز، وأخذ يسب والديه بصوت عالٍ، وفي الوقت نفسه، كان يحكم قبضته على البندقية لمنعها من الاهتزاز. يبدو أن اللجوء إلى الحوار لن يجدي نفعاً، لذلك لجأ المخصي إلى استخدام العنف، وهدد الشرطي العجوز: «سأعد إلى ثلاثة، إذا وضعت سلاحك جانباً، فسأغادر القرية غداً، وأتركك مع عشيقتك. وإلا فسوف أقتلك، وسأخذ عشيقتك معي».

سبّه الشرطي العجوز وهو يقول: «سأقتلك قبل أن تفكر في قتلي!». ضحك المخصي ببرود كاشفاً عن أسنانه البيضاء الكبيرة، وقال ساخراً: «هل تمازحني؟ كم مرة أطلقت النار من بندقيتك هذه؟ لقد

قتلتُ عددًا من البشر يفوق عدد الرصاصات التي أمسكتها بيدك طوال حياتك، فأنا قناص معروف في الجيش، لا أخطئ هدفي أبدًا، إن لم تكن تصدقني، فلنجرّب إذن».

ثم بدأ يعد:

«واحد، اثنان...»، وقبل أن يعد إلى ثلاثة، كان الشرطي العجوز قد وضع بندقيته جانبًا بالفعل.

وفي اليوم التالي عاد المخصي إلى فريقه في الموعد المحدد، وفتحت العشيق دكانها كالمعتاد، وكأن شيئًا لم يكن. قال جدي: «ومن قال كأن شيئًا لم يكن؟ لقد زنى بامرأة قبل أن تبرد جثة والده في قبره، وستحل عليه اللعنات لا محالة. لم يكن هذا كلامي وحدي، بل كلام كبار السن جميعهم في القرية آنذاك». لم يكن جدي من كبار السن حينها، استمر يقول: «لقد كبرت في السن الآن، وما زلت أقول الكلام نفسه. فهذا ذنب لا يُغتفر، ولن ينجو بفعلته تلك».

صدقت مقولة كبار السن بالفعل. ففي ذلك الشتاء، سمع أهل القرية أن خطبًا ما أصاب خصيتي هذا المخصي، فصار مخصيًا بالفعل. أما عن كيفية إخصائه، فهناك روايتان مختلفتان تمامًا؛ إحداهما رواها الشرطي العجوز، الذي قال إنه كان شهوانيًا لدرجة أنه تجرأ على مضاجعة زوجة قائد فرقته، فضبطه القائد متلبسًا، وخيّر بين خيارين لا ثالث لهما: الأول أن ينتحر بإطلاق النار على نفسه، والثاني أن يخصي نفسه بنفسه ويتركه يعيش. هذا اللعين كان يخاف الموت، فاختر الخيار الثاني؛ كان جبانًا خائبًا، تقبّل العقاب والمهانة. وهناك رواية أخرى مخالفة لهذه تمامًا، تقول إنه كان يقاتل اليابانيين في أثناء إحدى المعارك، فطعن في فخذه بسيف جندي ياباني، كانت طعنة غائرة أصابت خصيته. ومع ذلك، تحامل على نفسه واستمر في قتال اليابانيين. من الواضح أن هذه الرواية تُصوّر في صورة البطل الشجاع، وهي مختلفة تمامًا عما قاله الشرطي العجوز.

ولكن بغض النظر عن الرواية الصحيحة من الروایتين، فالنتيجة هي أنه فقد خصيتيه الغاليتين.

جدي: «هذا هو العقاب الإلهي. لقد دُفن والده للتو، ولم يحل اليوم السابع على موته بعد، لكنه لم يكن باراً بوالديه، وانغمس في شهوته وارتكب الفاحشة، فكيف يَغفر له الرب؟».

جدي: «الرجولة تعني أن تفعل الصواب في الوقت المناسب، لكنه اختار الوقت الخطأ لينام مع المرأة الخطأ، وكانت النتيجة هي أنه لن يتمكن أبداً من النوم مع امرأة في حياته مرة أخرى. هذا هو القصاص العادل».

جدي: «على الرغم من اتساع هذا العالم، لكن الرب يراقب كل أفعال البشر. وليس بمقدورنا -بوصفنا بشراً- الإفلات من عقابه. نُثاب على فعل الخير، ونُعاقب على فعل الشر، والكل في هذا سواء».

كلما حلَّ الصيف، خاصةً في تلك الليالي التي تُحلُّ فيها اليراعات في السماء، كان جدي يجلس دوماً إما في الفناء وإما في الزقاق وسط الرائحة العفنة، يدخل غليونه، ويهوي على نفسه بمروحة من الخيزران، ويتحدث معي ومع ابن عمي عن هذا الأمر وذاك. وعندما يشرع في أحاديثه تلك، يبدو جدي وكأنه عليم بشؤون الكون، يحدثنا عن ملائكة السماء، وشياطين الأرض، ومبادئ العالم البشري، ما من شيء لا يتحدث عنه. يتحدث ويتأمل حوله، إلى أن يرتفع القمر في كبد السماء، ويسود الصمت القرية، ثم نسمع طنين صراصير الليل الكامنة في شقوق الصخور، ونفخ الجواميس في الحظائر، وزحف الأبراص على الجدران، وصرير الفئران في مخازن الحبوب، وبكاء البوم في غابة الخيزران خلف الجبل. قال جدي إن هذه الكائنات كانت جميعاً بشراً في حياتها السابقة، لكنهم لم يتورعوا عن ارتكاب الشرور، فكان عقابهم أن يتناسخوا على هيئة حيوانات وزواحف وحشرات، فأمثالهم لا يمكن أن يعودوا إلى الحياة ثانية على هيئة البشر.

في الشتاء، كان جدي يحب الجلوس أمام بوابة قاعة الأسلاف للاستمتاع بأشعة الشمس، والدردشة مع الآخرين. كبار السن جميعهم يحبون الجلوس هناك للاستمتاع بالشمس والدردشة، بمن فيهم الشرطي العجوز. الشرطي العجوز وجدي عدوان لدودان. كلاهما يعشقان الثرثرة، لكنهما لا يتفقان، وكثيراً ما يتشاجران. معظم حديث الشرطي العجوز لا يخلو من الكلمات البذيئة، والقصص القذرة، والعلاقات بين الرجال والنساء، والاعتصاب والجنس، والعهر والإباحية.

وبخصوص قاعة الأسلاف، فهي تقع في مواجهة الجنوب، تحيطها هالة من الهيبة، وتطل على الطرق المحيطة من جميع الاتجاهات، وعلى بُعد خمسين متراً منها، يقع طريق سريع مرصوف بالحصى. وفي أيام السوق، يعج الطريق بالناس والعربات، ويتطاير الغبار في كل مكان، فيفرق المكان في الصخب والضجيج، وكأن العالم بأكمله يمر من هنا، في مشهد يُغري الناس بالجلوس والفرجة. كان الشرطي العجوز ينظر دائماً نحو النساء، ولا ينفك يقيّمهن؛ هذه طويلة، وتلك قصيرة، ثم يتطرق إلى الحديث عن خيالاته حول مضاجعتهن. كان يقول إنه نام في أحلامه مع كل امرأة رآها، ودائماً ما يصف المرأة المفضّلة لديه بأنها «قطعة لحم سمين محمّرة»، وإنه على استعداد للموت في سبيل التهامها.

اللحم السمين المحمّر لونه أحمر داكن، دسم، شهّي، رائحته فاتنة. الكل في القرية مهووس به. الطعام ضروري لبقاء الإنسان على قيد الحياة، وتناول اللحم بمنزلة الحلم، واللحم السمين المحمّر هو أجمل أحلامي، لكن اللحم السمين المحمّر الذي أتحدث عنه ليس الذي يتحدث عنه الشرطي العجوز، فأنا أتحدث عن اللحم السمين المحمر الحقيقي، أما هو فكان يستخدمه استعاراً يقصد بها تحديداً النساء البيضاوات

الممتلئات؛ بيضاوات كحبات كستناء الماء المقشرة، وممتلئات كالخوخ السكري الناضج. ذات مرة رأى امرأة من هذا النوع تسير في الطريق، فسال لعابه، واتسعت حدقتاه.

مازحه جدي حينها، ففتح راحة يده، ووضعها أمام عينيه ليحجب عنه الرؤية، وقال ساخراً: «إلامَ تنظر؟ ما الفائدة لو كان بطنك جائعاً وعيناك ممتلئتين؟ هذا النظر لن يفيدك بشيء».

أزاح الشرطي العجوز يد جدي، واستمر في المشاهدة مهاجماً جدي بسخرية: «أنت مَنْ سيموت جوعاً. فأنا كثيراً ما أتناول اللحم السمين المحمّر، وأنت ليس بمقدورك حتى تناول العظام. يا لها من قطعة لحم سميكة محمرة شهية! مؤكد أن النوم معها مريح كالنوم على متن قارب يتمايل وسط المياه».

وبّخه جدي قائلاً: «أيها الوغد العجوز، لا شك أنك ستكون سلحفاة في حياتك القادمة».

ضحك الشرطي العجوز قائلاً: «أيها العرّاف العجوز، لا شك أنك ستكون غراباً في حياتك القادمة».

العرّاف والعرّافة هما الشيء نفسه. الفارق هو أن الذكر يُسمّى عرّافاً، والأنثى عرّافة، والاسمان يُشيران تحديداً إلى من يستخدمون الماضي للحديث عن المستقبل، ويستخدمون المنطق لتفسير الأمور، وجدي من هذا النوع من الأشخاص؛ يُحبُّ الحديث عن المبادئ القديمة، والاقتباس من الكلاسيكيات، والاستشهاد بالماضي، وهو دائم التحذير والتنبؤ والتكهن بالمستقبل. ويحب أيضاً الاستمتاع بأشعة الشمس، ومراقبة المارة ذهاباً وإياباً، والاستماع إلى القيل والقال، وكان دائماً ما يحب الحديث عن بعض الأمور الغامضة تماماً كما يحب الشرطي العجوز الحديث عن الأمور المنحطة.

رأيت جدي ذات مرة وقد بدا كالمجنون، وهو يتحدث إلى قطعة مرقطة ويقول: «هكذا هي حال دنيا البشر. كلما اتسعت البركة ازداد عمق

مياهاها، وكلما ازداد عمق مياهاها ازدادت الأسماك، كبيرها وصغيرها، سمك القرموط، ثعابين البحر، السلاحف، الكابوريا والاستاكوزا، وهناك السمك الطازج، والسمك الكريه الرائحة، جميع أنواع الأسماك». تدخلت وطاردت تلك القطعة مثل الكلب، ثم سألت جدي: «يا جدي، ما هذا الذي تقوله؟».

تحسّس جدي لحيته وقال: «أقول إن القرية مثل البركة، وكلما كبرت البركة تنوعت فيها أصناف الأسماك، وكلما كبرت القرية تنوعت فيها أصناف البشر على اختلاف أشكالهم». سألته: «وما رأيك في ذلك العقيد؟». قال جدي: «أي عقيد؟ اسمه المخصي». قلت: «وما رأيك في ذلك المخصي؟». قال جدي: «إنه غريب الأطوار، مثل الجبل الأمامي والغابة القديمة، مجهول وغامض».

(7)

قريتنا تُسمّى قرية شوانغجيا، أي قرية العائلتين. العائلة الكبرى اسمها عائلة «جيانغ»، والعائلة الصغرى اسمها عائلة «لُو». عدد سكانها كبارًا وصغارًا يزيد على 5000 نسمة، ما يجعلها من أكبر قرى المحافظة. ولأن عدد سكانها كبير، فمن البدهي أن يكون فيها عدد لا بأس فيه من غربيي الأطوار. الشرطي العجوز واحد منهم، واليسوعي واحد منهم، والعنقاء الزغبية واحدة منهم أيضًا. تكمن غرابة أطوار الشرطي العجوز في أنه يتمتع بعينين ثاقبتين تُمكنانه من رصد العاهرات أينما كنّ، ولديه القدرة على تمييز المرأة اللعوب عن غيرها. ولهذا السبب، فبالرغم من أنه قد بلغ السبعين، ويعاني فقرًا مدقعًا أيضًا، فإنه لا تزال هناك عشيقة تقبل مرافقته، والسبب هو أنه يعرف أنها فاجرة، وتكمن غرابة أطوار اليسوعي في أنه يعبد تمثالًا

إله أجنبي عاري الجسد، فقد نصب ذلك التمثال في بيته، يتضرّع إليه في الليل والنهار، يشكو إليه حاله، بل ويبكي بالدموع أمامه أحياناً. أما غرابة أطوار العنقاء الزغبية فتكمن في كونها لا تستطيع الإنجاب، حتى إن نامت مع مئة رجل، فهي كالبغلة العقيم، بل أشدّ عقماً.

أغريهم أطواراً بالطبع هو المخصي. وهذا أمرٌ بدهيٌّ، والجميع يعرف هذا جيداً، ويراه بأم عينيه. أعتقد أن جميع غربيي الأطوار في القرية مجتمعين لا يمكن مقارنتهم بهذا المخصي وحده، فهو بلا شك أكثر الناس غرابةً في القرية، حتى أن عليك أن تفرد أصابع يديك لتُحصي أبرز مواطن غرابة أطواره واحداً تلو الآخر.

أولاً: كان عضواً في حزب الكومينتانغ، لذا فهو بطبيعة الحال مناهض للثورة، ومن المطلوبين للحكومة الحالية، ومن المستهدفين للتكيد بهم من الجماهير الثورية. لكن بينما كانت الجماهير تتكل به، كانت تسعى أيضاً لكسب ودّه، فكلما ألّمّ خطب ما بإحدى العائلات أو وقعت مشكلة ما في القرية، كانوا يلجؤون إليه للتشاور معه، وعلى الرغم من أن جدي كان يكرهه عادة بسبب صداقته مع أبي، فإنه عندما كان يواجه مشكلة ما، يلجأ إليه لطلب النصيحة، كما لو كان حكيماً يعرف كل شيء في هذا العالم.

ثانياً: سبق له أن ضاجع عشيقة الشرطي العجوز من قبل، والمنطقي أن يكون المخصي عدواً لدوداً للشرطي العجوز، لكن الأمر كان على خلاف ذلك تماماً، فقد كان الشرطي العجوز يعامله أفضل معاملة. قال جدي إنه سبق أن اعتقل جيش التحرير الشعبي هذا المخصي، ورُحِّل إلى القرية في النهاية. وبعد عودته إلى القرية، لاحقته لعنات أهل القرية الذين وصفوه بأنه شيطان شرير، كانوا يخشونه ويتحاشونه كما لو كان مصاباً بالجذام. حتى والدي نفسه لم يكن يجروء على الاقتراب منه، فقط كان الشرطي العجوز هو الوحيد الذي كان يناديه «ابن أخي» طوال الوقت، كان يسانده، ويدحض عنه الشائعات، إلى أن أعاد له مكانته السابقة

تدريجياً. فكم غريب أن يتحول الشخص الذي من المفترض أن يكون ألد أعدائه إلى أكبر داعم له!

ثالثاً: هو مخصي، وبغض النظر عن سبب تحوُّله إلى مخصي، فإنه كان مخصياً على أي حال، وهناك شيء مفقود بين فخذه. لكن بحلول الصيف، وعندما يرتدي الجميع في القرية سراويل قصيرة خفيفة، كنا -نحن الأطفال- نسترق النظر إلى تلك المنطقة من جسده، فكانت تبدو طبيعية، وليس هناك شيء مفقود كما هو مفترض، وكنت قد رأيته واقفاً يتبول في الخارج مرات عدة، تماماً مثل بقية الرجال الآخرين، واقفاً على قدميه وممسكاً بشيء بيده، لا يشبه شخصاً مخصياً على الإطلاق، فقد سمعت أن الخصيان قديماً كانوا يتبولون جالسين القرفصاء مثل النساء. رابعاً: لم يكن يخرج للعمل قط، لم يكن يعمل في الزراعة، أو يمارس حرفة يدوية (بما في ذلك النجارة التي هي حرفته القديمة)، لم يفتح دكاناً، ولم يكن يذبح الماشية. باختصار، لم يكن يمارس عملاً يكسب منه عيشه، لكنه كان يعيش حياة أكثر رفاهية من أي شخص آخر في القرية. يقضي يومه في المنزل يطالع الصحف، ويقشر اللب، ويدخن سجائر ماركة داتشيانمن، ويرتدي حذاءً جلدياً فخماً وبدلة صينية من قماش الجبردين. والأمر الأكثر إثارة للغيظ هو أن مطبخ بيته كان أشبه بمقصف البلدية، وغالباً ما تتبعث منه رائحة الأسماك واللحوم الشهية.

خامساً: كان يعتني بالقطط التي يربّيها بشكل يفوق اعتناء الآخرين بأطفالهم. لم يكن يدّخر جهداً في رعايتها والإنفاق عليها مهما كلفه الأمر. أقل ما يقال عنه إنه كان مجنوناً!

(8)

أهل القرية جميعهم يعلمون أن لدى المخصي قطتين؛ واحدة سوداء تماماً والأخرى بيضاء تماماً. كانتا كالفهدين الصغيرين، خصرهما طويلان

ورأساهما مستديران، تمشيان خطوة بخطوة، ببطء ورشاقة. كنت أراه في كثير من الأحيان يحمم القطط بالصابون، ويمشط وبرهما من الرأس إلى أخمص القدمين بمشط خشبي طويل المقبض، ويقلم أظفارهما بمقص ذهبي صغير، ثم يصقلها بورق الصنفرة. والأمر الأكثر إثارة للحنق هو أنه كان يشتري لهما أفضل أنواع الأسماك المجففة خصوصًا لتأكلها! حتى والداي لم يدللاني هكذا من قبل، بل إن هاتين القطتين قد أكلتا سمكًا مجففًا أكثر من السمك المجفف الذي تناولته في حياتي.

كنت أتمنى أن أكون إحدى قططه التي يريها، بل أكاد أجزم أن هذا هو تفكير الأطفال جميعهم من حولي أيضًا. قال ابن عمي إنه كان يترك القطط تنام برفقته، لكنه قال أيضًا إنه سمع عن هذا الأمر فقط، ولم يشاهده بنفسه قط. لكنني سبق أن رأيته يتحدث إلى قطته بأمر عيني، وبدا كأن القططة فهمت ما قاله. كنت في الخامسة من عمري حينها، أعطاني والدي ثلاثة قروش وطلب مني الذهاب لشراء سجائر من الدكان الصغير الذي يديره آتاي الأعرج. أخبرني والدي أن ثلاثة قروش تكفي لشراء ثماني سجائر ونصف ماركة تشيانجين، وأوصاني أن أنحني له شكرًا وأناديه بالعم آتاي لو أعطاني تسعة سجائر، وأن أتجاهله أو أنعته بالأعرج لو أعطاني ثماني سجائر فقط، فهو أعرج على أي حال، ولن يستطيع اللحاق بي.

بينما يقع دكان آتاي الأعرج أمام قاعة الأسلاف، يقع منزل المخصي خلفها، وكان عليّ المرور بمنزل المخصي للوصول إلى الدكان. وعلى خلاف معظم المنازل، كان منزل المخصي محاطًا بسور خلفه فناء صغير، قال جدي إن هذا الفناء هو في الأصل حظيرة المواشي التي كان والد المخصي يضع فيها فارغة قذيفة المدفعية السامة. في العادة كان يغلق باب الفناء خوفًا من أن تضايق الكلاب قطتيه، لكنه كان مفتوحًا ذلك اليوم. اكتشفت أن الفناء مزروع بالبصل والكرفس، وكانت والد المخصي العجوز ذات الشعر الأبيض ممسكة بدلو من الصفيح تسقي الخضراوات،

والمخصي يجلس على الدرج أمام المنزل كشخص أرسقراقطى؁ ىستمع بأشعة الشمس؁ ىدخن سىجارة؁ وىطالع الجرىدة؁ وهناك ققطان إحداهما بىضاء والأخرى سوداء مستلقىتان عند قدمىه.

كانت القطة البىضاء أول من لاحظنى. رفعت رأسها تموء نحوى؁ وكأنها تُخبر صاحبها بوىوء شىء عند الباب. وضع المخصى الصعىفة جانباً؁ ورفع رأسه؁ فرأنى واقفاً هناك. نظر إالىّ بضع ثوانٍ؁ ثم ابتسم؁ وسألنى: هل أنت حفىد العرف العجوز؟ هززت رأسى نافياً؁ فلم أكن أعرف أن هذا لقب جدى حىنها.

ضحكت والدته وقالت: «وكىف لا؟ فهو ىشبه والده تماماً».

ضحك بصوت عالٍ؁ ونادانى بأسلوب جدى ونبرته نفسهما: «تعال ىا عزىزى؁ تقضّل بالدخول».

نظرت إلى القطتىن اللتىن تحدقان إالىّ بشراسة؁ ولم أجرؤ على الدخول.

فأشار إالىهما بىده وأمرهما: «هىا ادخلا».

بدا أن القطتىن فهمتا ما قاله. حرّكتا ذىلىهما؁ ثم نهضتا وكشّرتا عن أنىابهما فى وجهى.

استدارتا وسارتا نحو الغرفة المظلمة؁ واحدة تسىر فى الأمام والأخرى فى الخلف. لا أعرف لماذا كان ضوء الشمس ساطعاً جداً. كان ساطعاً على الفناء حتى أننى استطعت رؤية دخان السىجارة ىتصاعد من ىد المخصى؁ لكن الغرفة التى تبعد خطوات قلىلة كانت مظلمة للغاية؁ بل حالكة السواد؁ كما لو أن ضوء الشمس هو الذى ىغلّفها بالسواد. كنت فى الخامسة؁ ولم أكن أعلم أن هذه ظاهرة طبعىة. ظننت أن السبب هو كون هذا البىت مسكوناً بالأشباح؁ ثم تذّكرت أن القطتىن كشّرتا عن أنىابهما فى وجهى للتو وكأنهما ترىدان افتراسى؁ فانتابنى الرعب وفررت هارباً. أخبرتُ جدى بهذا الأمر لاحقاً؁ فعانقنى وقال مواسياً: «ىا عزىزى؁

لقد فعلت الصواب بعدم دخولك! لا تُعد إلى هناك مرة أخرى، فهذا المنزل مسكون، وهذا الرجل ليس سوى عفريت».

قلت بخوف: «إنه يتحدث إلى القطط، بل يتركها تنام في فراشه».

قال جدي: «لذلك فهو ليس بشرياً، بل عفريت، عفريت في هيئة بشر».

لسنوات عدة تلت، لم أكن أمرُّ أمام منزله قطّ عندما أذهب إلى الدكان لشراء الاحتياجات أو إلى قاعة الأسلاف للعب. كنت أفضل أن أسير في طريق ملتفٍّ مسافة أطول على أن أمر من أمام بابه خوفاً من هذا العفريت. قال ابن عمي إن قطتيه هما أيضاً عفريتان في الأصل، أما أنا فقلت إن والدته العجوز ذات الشعر الأبيض هي أيضاً عفريت في الأصل؛ قال ابن عمي إن عفريتاً التهم والده، أما أنا فقلت إنه ربما كانت تلك المرأة العجوز ذات الشعر الأبيض هي التي التهمته. كثيراً ما كنا نتحكم على المخصي وأمه العجوز بهذه الطريقة، وكان هذا سبباً في أن تتوطد صداقتي مع ابن عمي بشكل أعمق وأقوى، وكأنّ لدينا عدواً مشتركاً، وعلينا أن نتحد ولا يفترق بعضنا عن بعض أبداً.

في أحد الأيام، وبينما كنت أنا وابن عمي نتحدث بكلام من هذا عن المخصي، سمعنا والدي الذي كان يتبول في المرحاض المجاور. خرج والدي من المرحاض، ثم هرع يطاردنا ويوبّخنا وهو يربط حبل سرواله. بدا غاضباً منفِعلاً للغاية، كما لو كان هذا المخصي والده، ونحن لقطاء. سألني ابن عمي: «لَمْ يتعامل عمي مع المخصي بهذا اللطف؟».

قلت سريعاً دون تفكير: «لأن هناك عفريتاً يتلبس جسده».

بدوت وكأنني أعددتُ الإجابة مُسبقاً، لكن في الحقيقة، كانت هذه كلمات جدي.

كان جدي يوبّخ والدي كثيراً قائلاً إن هناك عفريتاً يتلبس جسده. أخبرني جدي أن البركة أصلها طاقة اليانغ، أما العفاريت فأصلهم طاقة الين، والين

واليانغ متنافران، والحلاوة والمرارة متضادان. وما إن يقوى الين ويضعف اليانغ، حتى تسيطر المرارة على حياة الإنسان، يشقيه الحظ، وتحل عليه النوائب، وقد يختنق حتى من شربة ماء. يُقال إن والدي كان مطيعاً لجدي في الماضي، وكانت علاقتهما تشبه علاقة الإخوة. وكانت عائلتنا محط غبطة الآخرين، يسودها الوئام بين الكبير والصغير، ويعمها الخير والرخاء. ولكن منذ أن عاد المخصي إلى القرية، صار والدي يثير غضب جدي، وكثيراً ما تعالت أصوات شجارهما في المنزل، وهو ما جعل جدي يعيش في قلق دائم، خوفاً من أن يصيب النحس عائلتي في أي وقت.

(9)

لا أعلم إن كان شرب الماء قد يؤدي إلى اختناق الإنسان أم لا، لكن تجرُّع المبيدات الحشرية سيؤدي إلى قتل الإنسان بالتأكيد. أتذكر أنني عندما كنت في الخامسة، رأيت شخصاً مات بسبب تجرُّع مبيد حشري، وعندما كنت في السابعة، رأيت حالة أخرى: الحالتان كانتا لامرأتين؛ سيدة عجوز وفتاة صغيرة. في كل عام تقريباً يحاول البعض في القرية الانتحار، إما بشنق أنفسهم، وإما بالقفز في الآبار أو خزانات المياه، وإما بابتلاع المقصات، وإما بقطع معاصمهم ورقابهم، كانوا يستخدمون أنواع الأساليب كلها. لكن أكثرها شيوعاً هو تناول المبيدات الحشرية، لأنها سهلة وفي المتناول؛ ما عليك سوى فتح غطاء الزجاجاة، وإغماض عينيك، وسكبها في حلقك، ومن ثم ينتهي الأمر، فلا داعي للخروج من البيت، أو عمل أي استعدادات. كنت أنا وجدي مستغربين في سبات عميق في ليلة صافية مغمرة، فأيقظنا أحدهم فجأة قائلاً إنَّ اليسوعي حاول الانتحار بتناول مبيد حشري، ويُعدّ هذا نحساً أصاب عائلتي، فهذا اليسوعي هو ابن عم جدي. وبالرغم من أنه ليس أحد أفراد أسرتنا، فإنه يُعد أحد أفراد العائلة على أي حال، حتى أنني كنت أناديه جدي الصغير.

في شبابه، سبق أن عمل الجد الصغير هذا في جرّ عربة ريكشا في شنفهاي مدة ثلاث سنوات، وكثيراً ما كان هناك شخص أجنبي يستقل العربة التي يجرها، ودائماً ما كان يرفض أخذ الباقي بعد الدفع. كان الجد الصغير يعتقد أن هذا الأجنبي أفضل من الكهنة البوذيين والطاويين، لذلك كان يطيع أوامره جميعها، وفي النهاية، اعتنق ديانة هذا الأجنبي وآمن بيسوع. وكان يردد «آمين آمين» طوال الوقت، لذلك لُقّب بـ«اليسوعي». ولأن أتباع يسوع يؤمنون بفعل الخير، حدث أن ذهب عصر ذلك اليوم إلى المدينة لفعل الخير كما تقتضي التعاليم. أنفق يومها يوانين، وهو ما أثار حنق زوجته. زوجته من جيانغبي، وتلقّب في القرية بلقب الفلّفة الحمراء. وعندما تغضب، حتى الجواميس والأشباح تخافها، حتى أنها قد تجرّو على تمزيق صدرها أمام الناس واتهامك بالتحرش. وبسبب شدة غضبها في ذلك اليوم، حطمت تمثال يسوع الذي كان الجد الصغير يعلقه على الحائط ليصلي له، ثم ألقت بحطامه في الموقد، فاحترق حتى صار رماداً. هذا التمثال بمنزلة الروح بالنسبة إلى الجد الصغير، فكيف يمكنه العيش من دونه؟ لذلك قرر إنهاء حياته.

كان المبيد الحشري يحترق في بطن الجد الصغير كنيّران موقد مستعرة. ولولا مجيء المخصي -لا، لا بد من مناداته بالعقيد هنا احتراماً- في الوقت المناسب، لأحرقت تلك النيّران حتى الموت. رأيتُ بعيني كيف أطفأ العقيد تلك النار المشتعلة في بطن جدي الصغير. دسّ أولاً قطعة صابون في فمه، وأجبره على ابتلاعها، ثم نزع عنه سرواله وعلّقه مقلوباً، بعدها استخدم رشاش المبيدات لحقن الماء في مؤخرة جدي الصغير. رشاش المبيدات مزود برأس بخاخ، وبالتحكم في مقبض الضغط، يُمكن رش المبيد فوق الأشجار، لمسافة أعلى من حافة السقف. أدخل العقيد رأس البخاخ في مؤخرة الجد الصغير، وضغط عليه، ثم سحب مقبض الضغط ليدفع أكبر قدر ممكن من الماء داخل أمعائه. مؤكد أن هذا كان

مؤلماً للغاية، فقد صرخ الجد الصغير صرخةً عارمة، ثم تسلل الماء من فمه. رائحة المياه كانت أبشع من رائحة البراز، وهو ما جعل العقيد غير قادر على فتح عينيه من فرط بشاعة الرائحة.

فتح العقيد عينيه بالكاد وقال لابن الجد الصغير: «أبوك لن يموت، هيا اذهب واطبخ لي طبق معكرونة».

كان هذا عرفاً متبعاً، فكل من ينقذه العقيد من مرضه، لا بد أن تطبخ له عائلته طبق معكرونة بشرائح اللحم. ووجود مثل هذا العرف المتبع يعني أن هذه لم تكن المرة الأولى التي ينقذ فيها شخصاً من الموت، لكنها كانت المرة الأولى التي أرى فيها ذلك بنفسى. كنت فى الحادية عشرة من عمري فى ذلك العام، وكنت أستطيع الركض أسرع من جدى، لذلك أرسلنى لاستدعاء العقيد، وإلا لما كنت رأيت هذا الموقف.

قبل أن ينتهى العقيد من أكل المعكرونة، صار الجد الصغير قادراً على الكلام، لكنه أخذ يسب ويلعن. وبدلاً من أن يشكر العقيد، أخذ يشتمه بأقذع الألفاظ، ويقول بكل جحود: «لقد اقترفت خطيئة لا تُغتفر!»، ثم شرع يتأوه وهو يلوم العقيد: «لَمْ أنقذتني وأنا كنت أريد الموت؟ أنا أستحق الموت، وعدم الموت بالنسبة إلى خطيئة أعظم من الانتحار نفسه».

قال العقيد: «أرسلنى يسوع لإنقاذك، ومجيئى لإنقاذك دليل على أنه لا ينبغى لك أن تموت».

بكى الجد الصغير وقال بصوت متقطع من شدة البكاء: «لقد احترق تمثال يسوع، فكيف أعيش من دونه».

قال العقيد: «يمكنك شراء تمثال آخر، كثيرون يبيعونه».

يا لها من مزحة! لقد حدث كل هذا بسبب يونانين، فمن أين له بالمال لشراء تمثال جديد ليسوع؟ مؤكد أن هذا سيكلفه أكثر من يونانين. وعندما علم العقيد بالوضع أخرج عشرة يوانات من جيبه وأعطاهما للجد الصغير وكأنه يعطيه سيجارة، وقال بكل تهذيب وعفوية:

«تفضل، هذه لك. الأمر لا يتعدى بضعة يوانات، ولا يستحق أن تفقد حياتك من أجله. الحياة أضمن ما في الدنيا، أرايت؟ الناس ينعنونني بالمخصي، وبالرغم من ذلك ما زلت أعيش حياتي كما هي! فما عذرك أنت لكي تتحرر؟ دعك من هذا».

نظر الجد الصغير إلى العشرة يوانات كما لو كان يحلم، لم يجرؤ على أخذها، بدا كأنه لا يستطيع أخذها من شدة ارتعاش يديه. وضعها العقيد بسخاء في راحة يد الجد الصغير المرتعشة، وواساه وهو يقول:

«لا بأس، خذها. فقط لا تخبر أُمي، فهي تؤمن بالخرافات البوذية، وهو ما يتعارض مع معتقد يسوع الذي تؤمن به، ولو علمت أنني أعطيتك ما لأشراء تمثال ليسوع، فلربما يُجنّ جنونها». قالها ثم انفجر ضاحكاً بشدة.

في تلك الليلة، رأيتُ عينيّ العقيد أول مرة. كانتا لامعتين بالفعل، أكثر لمعاً من ضوء القمر الأبيض. لم يبدُ عفريتاً على الإطلاق، بل بدا كبطل ساطع براق. كانت هذه تجربة مهمة بالنسبة إليّ، فقد بدأتُ أكون انطباعاً جيداً عن هذا العقيد؛ لقد أنقذ حياة الجد الصغير، وأنقذ أيضاً صورته التي كانت تعشش في ذهني. تبعته إلى الخارج وكأني منجذب إليه، ثم راقبته وهو يغادر، وضوء القمر اللامع ينعكس على جسده، فأحاطه بهالة من التوهج. لم تكن مشيته تُشبه مشية مخصي إطلاقاً، بل كان يتمتع بهيبة ضابط عسكري كبير، يسير بخطوات واسعة، ظهره منتصب، رأسه مرفوع و صدره منتفخ، مظهره يشع بالبطولة والفخر، لا يبدو عليه أن شيئاً ناقصاً بين فخذه. كنت أفكر؛ لما كان قادراً على إنقاذ شخص من الموت، فحتى إن كان هناك شيء مفقود بين فخذه، فهو بالتأكيد يستطيع تعويضه. وخمّنت؛ من المؤكد أنه قد عوّضه بالفعل، لذلك يبدو ذلك الجزء «طبيعياً».

منذ ذلك الحين، تغيرت نظرتي وموقفني تجاه العقيد جذرياً. في الماضي، كان جدي مصدر قناعاتي دائماً، وكنت عبداً لأفكاره، لذلك كنت أقبّل آراءه في هذا العقيد أياً كانت، ففي مواجهة آراء جدي، كنت كالكلب الذي يأكل اللحم، يأكله عن آخره، حتى العظام المتبقية، يقضمها ويبتلعها. ونتيجة ذلك، كانت الصورة العامة للعقيد في ذهني قدرة وسيئة وغريبة وشريرة. كنتُ أخافه، وأتجنبه، وأسئ إليه، وأحتقره. كل ما تبقى لديّ كان فضولاً طفيفاً تجاهه، ورغبةً في فهمه، فهو غريب على أي حال. كان كبيت قديم مهجور، كساه الغبار، ونُسجت حوله عديد من قصص الأشباح. تخافه، لكنك لا تملك سوى الرغبة في الدخول إليه لمعرفة ما في داخله. في الماضي، كان جدي يمنعني من الاقتراب من هذا البيت، وبالطبع كنت أطيعه مثل العبد، لكني لا أريد أن أكون عبداً لجدي بعد الآن، لأنني صرت أشعر أن هذا العقيد «لا يشبه العفاريث، بل يشبه الأبطال».

حلّ الخريف، وبدأت ألوان أوراق أشجار الكاكي تتغير، كانت تتحول إلى اللون الأصفر، ثم البني، ثم تتساقط، كما بدأت ألوان ثمار الكاكي وأشكاله التي كانت خضراء منبعجة تتغير، فتنحدر إلى اللون الأصفر، فالأحمر، فالقرمزي، لتصبح دائرية كالقوانيس الحمراء الصغيرة. تلك القوانيس كانت معلقة بكثافة على أغصان الأشجار، فتبدو الأشجار بأكملها من بعيد كأنها مُشتعلة بالنيران. في ذلك الوقت، يبدأ الحصاد. يشرع الناس يقطفون ثمار الكاكي والكستناء والكيوي والتفاح من على الأشجار، ويستخرجون البطاطا والذول السوداني من الحقول، ويصطادون المحار من تحت الماء. هذا هو أفضل مواسم العام، ليس فقط بسبب الحصاد، ولكن أيضاً بسبب الأيام المشمسة، والسماء الصافية، وهي أجواء ممتازة للخروج والتنزه.

في تلك المدة تقريباً، حصل الجد الصغير على تمثال يسوع أحضره له شخص من مدينة هانغتشو. كان جديداً، ولامعاً، وأكبر من التمثال القديم. في تلك الليلة، علّق الجد الصغير التمثال في المكان القديم بحذر وفخر، ثم جلس أمامه حتى الفجر. ظل يتضرّع ويبكي طوال الليل، كأنه يريد التكفير عما حدث. وفي صباح اليوم التالي، وبعد استراحة قصيرة، استيقظ الجد الصغير وركض مباشرةً إلى منزلنا ليخبر جدي بخبر وصول التمثال. جلس عندنا ساعات يثرثر بلا انقطاع، وكان حديثه كله مُنصباً على مديح شخص واحد، وهو العقيد.

تحامل جدي على نفسه واستمع إلى حديثه، لكنه في النهاية فقد صبره، وقال: «أنت مضحك للغاية، تمدحه بكل هذا الكلام، كما لو كان أفضل من يسوع».

استمر الجد الصغير ينصح جدي بصبر وهو يقول بصوت خفيض: «لا شك أنه شخص طيب، ويسوع يعرف ذلك، وأرى أن عليك أن تُغيّر نظرتك له، وأن تتوقف عن انتقاده باستمرار، فهذا ليس في مصلحتك».

ضحك جدي ضحكة ساخرة، وقال: «من فضلك اسأل يسوع نيابة عني، كيف لرأيي هذا ألا يكون في مصلحتي؟ هل سيتسبب في موتي أم يجعلني أعيش حياة أسوأ من الموت؟».

خفض الجد الصغير رأسه وقال: «توقف عن الحديث عن الموت، فأنا شخص سبق له أن رأى الموت بعيني، لقد كان ألماً لا يتحمّله بشر»، ثم نظر إلى السماء وقال: «الرب يرى ما نفع، ويسوع يراقبنا. وستُعاقب على افتراءك الدائم على شخص صالح مثله».

رمقه جدي بنظرةٍ مستهجنة، وقال غاضباً: «أتظن أن كلامك هذا قد يخيفني؟ أتظنني أعمى جاهلاً قد ينطلي عليّ هذا الكلام؟». بدا الجد متنفخاً مغروراً كديك مُصارعة، مدّ رقبتة، ثم شرع يُحدّق فيه بعينين مفتوحتين على اتساعهما، وهو يتحدث بحزم وحدة: «لقد عشت عمراً

أطول منك، وأعرفُ كثيرًا عن هذا العالم، أكثر مما تعرفه، وأنت لست بالشخص المؤهل كي تُلقي عليّ دروسًا في الحياة». بدا واضحًا أنه لم يكن هناك أي مجال لأن يأخذ تحذير الجد الأصفر على محمل الجد إطلاقًا.

كان جدي مثل شجرة ضخمة عتيقة، جذورها عميقة وأغصانها متشابكة وأوراقها غزيرة، تحجب السماء وتغطي الأرض، حتى الصواعق الرعدية لن تؤثر فيها، فكيف يخشى تحذيرًا مبهمًا يطلقه هذا الجد الصغير؟ باختصار؛ كان جدي عجوزًا عنيذًا من الصعب تغييره مهما حدث، وهذا على النقيض مني تمامًا. كنت كشجرة خوخ في أثناء الربيع، يعتريها التغيير بسرعة هائلة لدرجة قد تجعلني لا أعرف من أنا. وهذا ما دفعني إلى معارضة جدي والوقوف إلى جانب الجد الصغير في أثناء هذا الجدل.

أمسكت بيد جدي وقلت: «جدي، أنت مخطئ. العقيد رجل صالح. عليك أن تغير رأيك فيه».

دفعني جدي بعيدًا، ثم نهض وقال ضاحكًا: «هذا هراء».

كان موقفه هذا مثيرًا للاستغراب، فمن يسمعه يشعر أنه لن يغير رأيه مهما حدث، لكن حركاته تُظهر خلاف ذلك، لأنه يضحك.

لكن هل تغير شيء؟ عبر ملاحظتي، كانت هناك بعض الأمور التي لم تتغير، كرفضه مجيء العقيد إلى منزلنا، ولكن هناك أمورًا تغيرت، على سبيل المثال: عندما كان العقيد يأتي أحيانًا لزيارة والدي، لم يعد جدي ينهر الكلب أو يطارد الدجاج، أو يفتعل المشكلات كما كان يفعل في السابق، لكنه كان يبتعد بهدوء، متظاهرًا بأنه لم ينتبه لوجوده. هذا هو التغيير، وهذا يعني التراجع ولو خطوة. لكن ما لم أتوقعه قطّ هو أن يتراجع جدي خطوة أكبر في النهاية، ألا وهي السماح لي بالذهاب برفقة والدي إلى منزل العقيد لتناول الطعام!

لا يخفى على أي شخص يتمتع بحاسة شم جيدة أن منزل العقيد عادة ما تفوح منه رائحة طعام شهية، فرغم أن مطبخ منزله يقع بعيداً داخل الفناء، ولا توجد نوافذ قريبة من الشارع، فإن الرائحة العبقة كانت تتطاير بعيداً، تتطلق من القدر الحديدية، ثم تتغلغل عبر النوافذ، وتتجرف مع الرياح كطيور السنونو التي تطير صعوداً وهبوطاً وسط الأزقة الضيقة في أثناء الربيع. كانت تلك الرائحة تطفئ على الروائح الأخرى الموجودة في الهواء، تستقطب أنوف الناس. في إحدى المرات رأيت بأم عيني الشرطي العجوز يمر بمنزل العقيد وهو يداعب أنفه ويغمغم في مواجهة جدار المنزل: «يا إلهي، إنهم يطهون الكوارع مجدداً، رائحتها توحي أن طعامها أشهى من صدور النساء».

في إحدى الليالي كنت نائماً، فاستيقظت فجأة دون مقدمات، ورأيت في ضوء القمر قطعة كوارع كبيرة على خزانة السرير؛ كانت تفوح برائحة قوية كاللهب المتطاير، تُشعرك أنها أكثر سطوعاً من ضوء القمر. كان والدي قد أحضرها لي. قطعة الكوارع كان بها قطعتان من اللحم معلقتان بالعظام. التهمت واحدة، لكن عرّ عليّ التهام الثانية، ومع ذلك لم أتمالك نفسي من التفكير في التهامها، فشعرت كأن الكوايس تراودني طوال الليل، خوف أن أفقدها. حدث هذا عندما كنت في التاسعة، وبسبب قطعة الكوارع هذه، أصبحت تلك الليلة الممتلئة بالهواجس واحدة من ذكرياتي التي لا تُنسى، وكأنّ قطعتي اللحم العالقتين بالكوارع هما جزء من جسدي، لا يمكنني استئصالهما.

قال الشرطي العجوز إن العقيد يتناول الكوارع مرة كل شهر، وفي كل مرة يتناولها، يفرس فيها زوجين من عيدان تناول الطعام. لطالما كنت

أعتقد أن الزوجين الآخرين من عيدان تناول الطعام يخصان والدته، لكني كنت مخطئاً، فتلك العجوز اسمها إلهة الرحمة الحية، وهي نباتية. كانت عيدان الطعام تخص والدي. فمرة أو مرتين شهرياً، كان والدي يعود إلى المنزل تفوح من فمه رائحة اللحم الشهية، وأحياناً كانت تفوح منه رائحة الكحول.

كنت طفلاً، ومن الطبيعي أن أرافق الكبار الذاهبين إلى بيوت المضيفين تلبية لدعوات تناول الطعام. لذلك، ففي كثير من الأحيان كان والدي يصحبني معه، ولكن في كل مرة كان جدي يوقف والدي ويوبّخه قائلاً: «الطفل لن يموت إذا لم يأكل اللحم هذه المرة. إن كنت تريد الموت فلتُمت وحدك هناك، ولا تأخذه معك».

وعلى الجانب الآخر، ظلّ جدي يحذرني كثيراً أن هذا المنزل مسكون، وينصحني بعدم الذهاب إلى هناك. في الماضي، كان خوفي من هذا المنزل المسكون يُفقدني الرغبة في تناول الكوارع، ولكن بعد أن ترسّخت صورة العقيد البطولية في ذهني، عادت تلك الرغبة تساورني بشدة، كالعشب الأخضر الذي يتسارع نموه وسط الأرض المغطاة بالندى. وفي إحدى الليالي، خاطرت رغم علمي أن جدي سيعاقبني، وذهبت سرّاً إلى منزل العقيد برفقة والدي لتناول اللحم، لكن على غير توقع، وبعد أن علم جدي بالأمر، لم يوبّخني. كان هذا تغييراً مذهلاً، وكأنّ جدي صار هو والدي.

قال جدي: «ليس الخبر كالعيان، وليس من رأى كمن سمع»، في إشارة إلى التماس العذر لنا لعلمه أن الكوارع هناك شهية بالفعل.

في المرات العديدة التي ذهبت فيها إلى هناك لاحقاً، لم تُنح لي فرص كثيرة لتناول الكوارع. ففي أغلب الأحيان، كنت أتناول طبقاً من اللحم السمين المحمّر، أو اللحم المسلوق مع الخضراوات. أما بالنسبة إلى كلام جدي عن المنزل المسكون، فأتضح أنه هراء محض! يا جدي، ما

دمت لم تذهب إلى هناك فأنت لا تعرف شيئاً عن هذا المنزل! لا يمكنك أن تتخيل مدى نظافة منزل العقيد؛ الأرضية الإسمنتية المصقولة أكثر لمعاناً من طاولة طعام منزلنا التي ننظفها ثلاث مرات يومياً. كدت أنزلق عندما مشيت عليها حافي القدمين في الصيف، وعندما تعود القطط من الخارج، كانت المرأة العجوز تمسك بقطعة قماش وتمسح أي مكان تطؤه أقدام القطط. من يرد البصق يبصق في المبصرة، ومن يرد التدخين ينفذ رماد السجائر في المنفضة. المنزل نظيف للغاية ولا مع لدرجة أنه لا سبيل للنمل والبعوض للبقاء فيه، لأنها لو بقيت هنا ستموت جوعاً، ناهيك بالأشباح. لن يأتي إلى هنا إلا شبح طائش، ولو جاء فهو يبحث عن حتفه بنفسه، لأن والدته إلهة الرحمة الحية موجودة هنا لحماية المنزل. أخبرني جدي أن العقيد كان غريب الأطوار حتى قبل ولادته، كانت وضعيته الجنينية غير طبيعية، وكان الطفل الأول لوالدته. ظلت والدته تصرخ ألماً يومين، ونزفت الدماء بغزارة، دون أن تتمكن من ولادته. في النهاية، أعطاها راهب معبد قواندا قطعة من الجينسنج، كانت هي التي منحتها القوة لتتمكن من ولاته. بعدها ذهبت إلى المعبد لتشكر الراهب. قال الراهب إن إلهة الرحمة هي التي تجلّت لإنقاذها هي وطفلها، فجعلتها هذه الجملة تؤمن بإلهة الرحمة إيماناً أعمى لبقية حياتها. أحضرت تمثالاً لإلهة الرحمة إلى منزلها، ووضعتها في الواجهة، وكانت تشعل البخور وتصلي لها كل يوم، وتتضرّع لها أن تمن عليها بطفل آخر، لكن الأمر لم يُجدِ نفعاً، ولم تتل مُرادها، فذهبت إلى المعبد تبث شكواها إلى الراهب. أخبرها الراهب أن على الإنسان التحلي بالقناعة وعدم الانجراف وراء رغبة امتلاك كل شيء. اقتنعت بكلام الراهب، لكن لاحقاً، مات زوجها ميتة شنيعة، فذهبت إلى المعبد تبث شكواها إلى الراهب. أخبرها الراهب أنه لولا عناية إلهة الرحمة، لكان ابنها هو الذي مات، ولمات الأب حزناً على الابن، وأن الخير يكمن في الشر، فافتنعت بكلامه. لكن لاحقاً، سمعت أن

ابنها فقد أغلى ما لديه -في ذلك الوقت، كان الشرطي العجوز يكره ابنها كثيراً، ويروج الشائعات عنه في كل مكان حتى أن الكلاب في القرية علمت بالأمر- فذهبت إلى المعبد لتبث شكواها إلى الراهب مرة أخرى، أخبرها الراهب أن صبر ابنها على الكارثة سيكون سبباً في سعادته مستقبلاً، فاقتنعت بكلامه. باختصار، كانت تصدق كل ما يقوله الراهب، تصدقه تماماً، ولآخر نفس في حياتها.

قال جدي: «يا لها من عجوز! لقد أنقذ الراهب حياتها، فكرست حياتها كلها لعبادة إله الرحمة. كانت مخلصة للغاية في إيمانها، لا بوصفها بشراً، بل بوصفها ملاكاً هبط إلى عالم البشر، ولهذا السبب كانت تدعى إلهة الرحمة الحية».

كانت إلهة الرحمة الحية تُشعل البخور وتصلي بإخلاص لإلهة الرحمة كل يوم، وتذهب إلى معبد قواندا أعلى الجبل الخلفي، ثم تقطع مسافة طويلة إلى معبد جبل بوتو لتصلي لبوذا البعيد -لأن بوذا البعيد سره باتع- ليبارك ابنها أيضاً، كي يتشاركا البركة الدنيوية والنعيم الآخر.

قال جدي: «من البدهي أن جسده طاهر، لأنه منزوع الشهوة، لذلك فهو الشخص الأكثر ملائمة لاعتناق البوذية».

لكن العقيد لم يستطع التوقف عن التدخين وشرب الخمر وتناول اللحوم واستخدام السكاكين (المشارط)، لذلك لم تشمله بركة بوذا، الأمر الذي جعل المرأة العجوز تتوسل إلى بوذا طلباً لهداية ابنها كل يوم. كنت أرى ما تفعله تلك العجوز بنفسي، ففي كل مرة أذهب إلى منزلهم برفقة والدي لتناول الطعام، كانت العجوز تُضيف اللحم إلى طبقها باستمرار، كان هدفها جعل العقيد يأكل أقل قدر ممكن من اللحوم، فكلما قلت كمية اللحوم التي يتناولها، قلت ذنوبهما. وحتى لا يجعلها تشعر بالذنب، لم يكن العقيد يشرب الكحول مطلقاً، وكان يدخن بأقل قدر ممكن طوال مدة وجودها في المنزل. أما أنا فكانت أتمنى أن يشرب العقيد بلا انقطاع،

لأنه ما إن يشرب حتى يشرع في حكي القصص. وفي وقت لاحق، شعرت أن الاستماع إلى قصصه أفضل من تناول اللحم في منزله، لكن للأسف كانت مثل تلك الأوقات نادرة للغاية، تمامًا كتلك الأوقات التي قد يحالفني فيها الحظ لتناول الكوارع في منزله.

(12)

لا بد هنا من توفير شرطين، الأول هو أن تكون المرأة العجوز قد ذهبت إلى جبل بوتو للصلاة، والثاني هو أن يكون العقيد قد شرب ما يكفي من الخمر، بحيث يصبح في مزاج جيد، حينها فقط كانت القصص تتدفق من فمه، تمامًا مثل رائحة الكحول التي تفوح منه. في ذلك الوقت، يتورّد وجهه من تأثير الشراب، وتشع عينيّاه بوميض لامع كمصباح كشّاف يدوي، يُمسك بسيجارة في يده، وترقد قطّاه بجوار قدميه. حينها يصبح الهواء ممتلئًا برائحة الدخان والكحول، فتموء القطط امتعاضًا من الرائحة، لكنه لا يهتم لأمرها، فقط ينغمس في التدخين، وشرب الشاي، والتجشؤ، وحكي القصص. أحب الاستماع إلى قصصه أكثر من أي شيء آخر. لقد سافر حول العالم، وتجوّل عبر الموانئ. عندما يتحدث عن السماء، تشعر بمدى ارتفاعها، وعندما يتحدث عن الأرض، تشعر بمدى اتساعها. يحكي عن بكين وشنغهاي، عن شمال العالم وجنوبه، عن القطارات والدبابات والطائرات والمدافع، حكايات تفيض بالطرافة والغرابة. في أي عام وقعت القصة، وأين كان حينها، وما الذي حدث في ذلك اليوم... كان دائمًا يروي القصص بهذه الطريقة، دائمًا هناك الوقت والمكان والشخصيات والأحداث والحبكة والمنعطفات والتقلبات، كانت حكاياته ممتعة ومشوقة لدرجة قد تجعل الجداجد تغلق أفواهها وتتوقف عن الصرير، فقط تستمع ويسيل لعابها في صمت. في تلك الأوقات كنت أنتاب صب الشاي له ولوالدي، وأحيانًا أشعل لهما السجائر، وكأنني جندي يقوم على خدمة قاداته.

القصة الأولى التي سمعتها من العقيد حدثت في شمال جيانفسو وجنوب آنهوي في العام التاسع والعشرين لقيام جمهورية الصين، أي عام 1940. في ذلك الوقت، كان يعمل طبيباً عسكرياً، وكانت القوات التي يخدم فيها متمركزة في وادٍ عميق في الجبال شمال غرب جبل ماآنشان بمقاطعة آنهوي. وفي إحدى الليالي، استدعي عاجلاً في سيارة جيب؛ سارت به السيارة ساعات عدة إلى وجهة غير معروفة، وفي الأخير وصلت به السيارة إلى معبد مهجور، وهناك عمل على إسعاف امرأة جريحة نُقلت من مدينة نانجينغ إلى ذلك المكان مسبقاً. المرأة الجريحة كانت مساعدة للقائد داي لي، رئيس الاستخبارات، ومسؤولة كبيرة في مكتب الاستخبارات العسكرية؛ جميلة، لكنها قاتلة متمرسة. حينها كانت تؤدي عملاً استخباراتياً في مدينة نانجينغ، مهمتها، بوصفها عميلة سرية، هي أعمال التجسس للقضاء على الخونة هناك. لكن لو كنت دائم المشي بجانب النهر، فكيف يمكن ألا تتبلل قدماك؟ وهذا ما حدث لها، فقد تعرّضت للإصابة بطلقات نارية في الفخذ والكتف وأسفل البطن. كانت محظوظة لأن الجروح لم تكن قاتلة، لكن كانت هناك رصاصة قد استقرت في بطنها ولا بد من إجراء جراحة عاجلة. الغريب في الأمر هو أنه في أثناء استخراج الرصاصة، استُخرج جنين كان لا يزال في شهره السابع من بطنها أيضاً. وبسبب سوء التغذية، كان حجم الطفل بحجم قبضة اليد فقط، يبدو مثل قطعة صغيرة. كان محظوظاً لأنه نجا من الموت.

ضحك العقيد وهو يقول: «لم تكن تلك المرأة تعلم حتى أنها حامل. وجدت نفسي حينها أعمل عمل القابلة. ألا تعتقدان أن هذا أمر غريب؟ كان هذا أول شيء غريب أصادفه بعد أن عملت طبيباً عسكرياً. بالطبع، كانت هناك أمور غريبة كثيرة لاحقاً، ولكنها لم تكن أكثر مما صادفته في الخطوط الأمامية».

قبل أن يعمل طبيباً عسكرياً، كان العقيد يقاتل على الخطوط الأمامية، قاتل أولاً ضد الجيش الأحمر، ثم ضد الغزاة اليابانيين. تقول إحدى القصص إنه كان قائد سرية عندما هاجم الغزاة اليابانيون مدينة ووهان، وكان مسؤولاً عن إخلاء القوات، وصد الهجوم عند أحد الطرق الجبلية. كانت لدى الجيش الياباني دبابتان، ونحو سبعين أو ثمانين جندياً، وأكثر من عشرة مدافع هاون، وكان هجومهم عنيفاً. بعد المعركة الأولى لقي نصف أفراد السرية الذين تجاوز عددهم 180 فرداً حتفهم، وفي المعركة الثانية لقي نصف العدد المتبقي حتفه، وفي المعركة الثالثة لقي نصف العدد المتبقي من الثانية حتفه، كانوا يتساقطون كعبدان الأرز في أثناء الحصاد. وفي أثناء المعركة الأخيرة، اخترق اليابانيون طريقاً جديداً من أحد جوانب موقع المعركة وتقدموا في الهجوم. في ذلك الوقت، لم تكن لدى اليابانيين سوى دبابة واحدة تسير في المقدمة، وخلفها يزحف عدد كبير من الجنود. أما هو فلم يتبقّ لديه سوى 19 جندياً جريحاً بلا ذخيرة أو طعام. بدا واضحاً أن لا سبيل أمامهم للنجاة. وعندما رأوا اليابانيين يقتربون بشدة، استعدوا لمواجهةهم بالأيدي والاستشهاد بشجاعة. وبشكل غير متوقع، بدأ اليابانيون بالفرار فجأة في حالة من الذعر، كانوا يصرخون ويطلقون النار عشوائياً، ويركضون كقطيع هارب في كل اتجاه، وكأنهم أصابهم مس من الجنون.

اتضح أن الدبابة اليابانية دهست غابة من الأشواك ودمرت أعشاش مئات الآلاف من الدبابير. تلك الدبابير كانت ضخمة في حجم الجراد، مهولة العدد كسرب جراد أيضاً. انتشرت في الهواء، فغطت السماء وحجبت الشمس، تصدر منها أصوات طنين متواصلة، كصوت رعد مكتوم يتدحرج من أعلى التل، ثم تتكتل على شكل عاصفة، مثيرة غباراً يتطاير في كل مكان. بدا كأن لتلك الدبابير عقلاً واعياً، جعلها تعرف أن هؤلاء الغزاة اليابانيين الأشرار هم من هدموا أعشاشها، فانقضت

عليهم للانتقام منهم، وانهاالت عليهم بلسعاتها دون توقف. ورغم امتلاك اليابانيين مدافع ودبابات، لم يكن لديهم سبيل للهرب أو الاختباء تحت وطأة الهجوم الضاري الذي شنته عليهم الأعداد التي لا تُحصى من أسراب الدبابير. كانوا يتدحرجون على الأرض، يبكون ويصرخون من شدة الألم. وفي النهاية، لم ينجُ منهم أحد. تناثرت جثثهم في كل مكان، كلها كانت جثثاً متورمة ومنتفخة، وكأنهم خنازير ميتة منتفخة سقطت وبرها. بعد تلك المعركة، رُقِّي العميد إلى قائد كتيبة، ومُنح مسدسًا وساعة. كان هذا قبيل موت والده مباشرة. كان الأمر أشبه بترتيب القدر، فوالده مات مسمومًا جراء فارغة قذيفة يابانية سامة، أما هؤلاء الجنود اليابانيون فماتوا مسمومين جراء لسعات الدبابير.

قال جدي: «هذا هو القدر، لا مفر منه».

تركت هذه القصة انطباعًا عميقًا في نفسي، حتى أنني كنت أهرب كلما رأيت دبورًا في الجبال.

هناك قصة أخرى جعلتني أعاهد نفسي على الذهاب إلى شنغهاي بعدما أكبر لأرى المباني الشاهقة، والترام، والسفن، وأضواء النيون، والحدائق والمنتزهات، والأماكن التي يرتادها الأجانب، والعالم الملون الذي يبدو كمكان في الجنة، وكأنَّ كل شيء مطلي بالذهب من الرأس إلى أخمص القدمين. نعم، بما في ذلك أصابع القدمين.

(13)

في هذه القصة، ذهب العقيد إلى شنغهاي ليعمل تحت إمرة تلك العملية السرية التي أنقذها من الموت، فبعد تلقِّي الإسعافات الأولية، نُقلت العملية السرية في السيارة الجيب التي أقلت العميد إلى المستشفى للتعافي. في أثناء مدَّة التعافي، لاحظت أن العقيد ذكي وكفاء، وهادئ ورصين، وحسن المظهر، فشجَّعته على الانضمام إلى مكتب الاستخبارات

العسكرية. كان العقيد مترددًا، فهو لم يعد يرغب في القتل، ويريد فقط إنقاذ الناس. لكن لاحقًا صدر أمر عسكري، وكان عليه قبوله رغمًا عنه، فالأمر العسكري غير قابل للعصيان. ومنذ ذلك الحين، انتقل إلى شنغهاي، وفتح عيادة بوصفها غطاء لعمله السري، غير اسمه وأخفى هويته، وشرع يجمع المعلومات الاستخباراتية، وقتل الخونة والجواسيس، ليعيش بذلك حياة مريحة مزدوجة الهوية؛ عاش حياة من الترف والبذخ، لكنه في الوقت نفسه كان عُرضة لفقدان حياته في أي لحظة. تلك العملية السرية كانت رئيسته المباشرة، شكَّلت له مجموعة خاصَّة مستقلة، وجَهَّزته بمسدسين، وجهاز إرسال، وصندوق من سبائك الذهب، وخمسة مرؤوسين، لكل واحد منهم مهارته الخاصة، منهم من يجيد السرقة، ومنهم المتمرس في القتل، ومنهم البارِع في صنع المتفجرات، ومنهم من يجيد التحدث باللغة اليابانية. وكان من بينهم امرأة مسؤولة عن جهاز الإرسال. كانت من مقاطعة سيتشوان، طويلة القامة، ذات وجه مستطيل، وأنف دقيق، وثديين مكتئبين يكادان يقفزان من ملابسها. عندما كانت تخرج إلى الشارع، كانت كثيرًا ما تتعرَّض لمضايقات الشباب الصعاليك، لكنها نادرًا ما تخرج إلى الشوارع نهارًا، لا تظهر إلا في الليل فقط، فهذا هو عملها، ولا غرابة في ذلك. الغريب هو أنها لم تكن تفتح فمها قط، وتتكلم فقط بلغة الإشارة أو بالكتابة، اتضح أنها خرساء! تكتب بسرعة ومهارة، فقد كانت تتمتع بقوة هائلة في يدها. ما مدى قوة يدها؟ لو نازلها أحدهم في رياضة مصارعة الأذرع، فحتى الرجل البالغ لا يستطيع ثني يدها اليسرى بكلتا يديه. بإمكانها كسر قالب طوب بضربة واحدة من يدها اليمنى، ورفعك في الهواء كالدجاجة بيدها اليسرى. من الواضح أنها متمرسة في الفنون القتالية والطاقة الروحية. هي بنفسها اعترفت أنها كانت راهبة في جبل آهمي مدة ست سنوات، وتدربت على الفنون القتالية هناك.

هناك طقوس روتينية تتخلل القصص التي يرويها العقيد، منها مثلاً التوقف للتدخين، وشرب الشاي، والتجشؤ، ورائحة الكحول النفاذة التي تفوح من فمه، والتحدث أحياناً بلهجة مسقط رأس بطل القصة، والتوافق بين صوته وتعابير وجهه، وطرح أسئلة والإجابة عنها. فهنا مثلاً، ها هو ذا يعتمد إلى استخدام بعض منها مرة أخرى، شرع يتحدث بلهجة سيتشوان مسقط رأس تلك الفتاة، وبدأ بطرح مجموعة من الأسئلة:

لا يتوقف أهل سيتشوان عن قول «كيف» و«أليس كذلك». «كيف» يُمكن لفتاة جميلة مثلها أن تصبح راهبة؟ فتاة جميلة مثلها تصلح للعمل عاهرة «أليس كذلك»؟ «كيف» تعلمت خرساء مثلها القراءة؟ قدرتها على القراءة تعني أنها لم تولد خرساء «أليس كذلك»؟ «كيف» أصبحت خرساء؟ هل كان مرضاً أم حادثاً؟ هل كانت كارثة أم مصيبة؟ «كيف» حدث كل هذا؟ في الواقع، كانت هذه المرأة «الجميلة» محاطة بـ«علامات استفهام» عدة.

وبعد أن أخذ رشفة من الشاي، وسحب نفساً من السجارة، استعاد العقيد لكنته الأصلية، وأكمل:

«ليس هناك جدار يظل منيعاً على الدوام. وبمرور الوقت، ستبلى العوارض الخشبية المكشوفة في النهاية. ففي إحدى المرات، كانت هناك حالة طوارئ، فذهبتُ إلى منزلها المستأجر في منتصف الليل. كانت مسؤولة عن جهاز الإرسال، لذا كان لا بد من إبقاء مكان سكنها سرياً. وأفضل أنواع التخفي ليس الاختباء في زاوية، أو في مكان هادئ لا يذهب إليه أحد، بل الاندساس وسط الزحام. لذا، كانت تسكن في زقاق فيه سوق، كل بيوت الزقاق فيها دكاكين تباع الزيت والملح والصلصة والخل والبقالة اليومية، لذا كان الزقاق يعج بالصخب وحركة المارة ليل نهار. كانت تتظاهر بأنها تدير متجر أقمشة، لذا كانت الغرفة الخلفية تُستخدم مخزناً ممتلئاً بالأقمشة. عادةً ما كان جهاز الإرسال يُلفّ بالقماش

ويوضع وسط كومة القماش، وكأنه ورقة شجر وسط أوراق الشجر، ومن المستحيل عادةً العثور عليه إلا إذا بذلت جهداً كبيراً في البحث. أما هي فكانت تعيش في غرفة أعلى المخزن، يحتوي سطحها على نافذة سقفية، لتهرب عبرها حال وقع خطب ما».

في الأوقات المتأخرة من الليل، يختفي المارة حتى من الشوارع الأكثر ازدحاماً، ويسود الصمت الأرجاء. كان العقيد يسير نحو متجرها، وكل ما كان يسمعه على طول الطريق هو وقع خطواته وصوت دقات قلبه. المتجريقع في نهاية الزقاق، وهذا أيضاً أمر مقصود، فمن غير الممكن أن يكون عالقاً في المنتصف، ولا بد أن يكون على أحد الجوانب، حيث الهدوء وسط الضجيج، وسهولة العثور على مخرج. وفي النهاية، وصل العقيد إلى باب متجرها، وبينما كان على وشك أن يطرق الباب، سمع أنيناً خافتاً قادماً من داخل الغرفة. كان الباب مصنوعاً من الألواح الخشبية، غير عازل للصوت. سمع العقيد الواقف خارج الباب الصوت بوضوح. كان صوتاً أشبه بالبكاء، لكنه ليس بكاء، بل كمواء قطرة صغيرة تستجدي الطعام.

كان الأمر طارئاً، لذلك لم يفكر كثيراً. لا، بل فُكر لحظة. قال العقيد: «ظننتُ أنها تحلم حلمًا حزيناً، فلم أبالٍ وطرقتُ الباب. عندما دخلتُ، شعرتُ أنها غريبة بعض الشيء، كانت مرتبكة، كما لو أنها تعرف الأمر العاجل الذي جئتُ أبلغ عنه. شعرتُ بالحيرة، وكنتُ على وشك سؤالها عندما سمعتُ صوت حفيف في الغرفة العلوية، وكأنَّ هناك شخصاً في الأعلى. كيف يُمكن أن يكون هناك شخص غريب في غرفة جهاز الإرسال؟ هذه مخالفة جسيمة للتعليمات. سألتُها عما يجري، وقبل أن تُجيب، نزل شخص أجنبي أشقر من الغرفة العلوية، وعلى وجهه علامات الغضب كما لو أنه تعرَّض للخداع والإهانة. نزل الدرج يسير نحونا بجرأة، ثم صفعها بشدة، وانصرف. لبرهة لم أفهم ماذا يحدث،

لكنني أدركتُ لاحقاً أن هذا الأجنبي ظنَّ أنني عشيقها، فشعر بالغيرة الشديدة. رجل يأتي إلى منزل فتاة في منتصف الليل فهو إما عشيق وإما عفريت». ضحك العقيد بشدة بعدما أنهى تلك الجملة، ففاحت رائحة الخمر من فمه.

لم أفهم هذه القصة بشكل كامل، خاصةً الجزء الأخير منها، فكلما تقدّم في الحكى ازداد الأمر غرابةً: «لقد علمتُ سرّها بهذا الشكل غير المقصود، ثم استرجعتُ ماضيها، فاستتجبتُ تقريباً أنها بطبيعتها مولعة بالجنس، وأصبحت راهبةً في محاولة لكبح جماح نفسها. ربما أخطأت، وعادت إلى عاداتها القديمة ثانية، فقطع أحدهم لسانها. لمَ قُطع لسانها؟ لا تستطيع النساء الاستغناء عن ألسنتهن من أجل الإيقاع بالرجال، وقطع ألسنتهن بمنزلة الإخفاء للرجال. لكنها لم تقلع عن عاداتها، لذا جاءت إلى عالم شنغهاي الساحر. هذا العالم كالغابة الشاسعة، وفيها مختلف أنواع الطيور، وهنا وجدت الطائر الذي تشده».

لم أفهم ما يقصده، وعندما أخبرت ابن عمي، لم يفهم أيضاً. فهذه القصة عميقة جداً بالنسبة إلينا. نكاد لا نعرف شيئاً عن هذا الأمر، شعرنا كأننا غارقان في جهل تام، لا نستطيع فهم المشكلة، ولا نعرف حتى كيف نبدأ بطرح الأسئلة، فتلك مشكلة عميقة، باللغة العمق، بعمق قاع المحيط. فكيف يمكننا الوصول إليها؟ ونحن لم نرَ في حياتنا سوى خزان المياه.

(14)

هناك قصة أخرى تركت لديّ انطباعاً عميقاً، دارت أحداثها في العام الثاني والثلاثين من قيام جمهورية الصين، أي في عام 1943، حينها أقدم جواسيس رئيس الحكومة الخائن وانغ جينغوي على تقديم رشوة لأحد مرؤوسى العقيد الخمسة في شنغهاي بمبلغ كبير من المال، تحديداً ذلك

الشخص الذي يجيد التحدث باللغة اليابانية، فوشى بمرؤوسي العقيد جميعاً. طاردهم الجواسيس في جميع أنحاء المدينة؛ مات اثنان، وهرب اثنان، واعتُقل واحد. هذا الشخص الذي اعتُقل كان العقيد، اعتقله العدو وهو يستقل الترام، واحتُجز لاحقاً في معسكر لأسرى الحرب مخصّص للعمل القسري في جبل تشانغشينغ بمدينة هوتشو. كان هناك أربعمئة أو خمسمئة شخص في المعسكر، يعملون يومياً في حفر مناجم الفحم. ذات مرة وقع انهيار أرضي أدى إلى احتجاز أكثر من مئة شخص داخل نفق. بذل البقية أقصى جهدهم لإنقاذهم، وظل مئات يعملون ليلاً ونهاراً لإخراج الضحايا من تحت الأنقاض. لكن منطقة الانهيار الأرضي كانت كبيرة للغاية، ولم يتمكنوا من الوصول إلى النفق بعد أكثر من عشرة أيام، لذا فقدوا الأمل، وتوقفوا عن عمليات الإنقاذ بعدما تيقنوا أنه لم تعد هناك فرصة للعثور على أحياء، ولا جدوى من الاستمرار.

قال العقيد: «شخص واحد فقط لم يستسلم. كان رجلاً من مدينة تشانغشو بمقاطعة جيانغسو. في الأربعينيات من عمره. قبل احتجازه، عمل حمالاً في ميناء شيليبو بشانغهاي، لذا كان قوياً كالثور. كان لديه ولدان، أكبرهما في الحادية والعشرين، يعمل برفقته في الميناء. وأصغرهما في السابعة عشرة، ويساعد والدته في إدارة دكان بقالة في المدينة يبيع الزيت والملح والصلصة والخل. مدينة تشانغشو هي مقر معسكر شاجيابانغ الذي يربط فيه الجيش الرابع الجديد عادة. ولأن جنود الجيش الرابع الجديد بحاجة إلى الطعام والمؤن، كان جنوده وقادته يترددون على ذلك الدكان لشراء حاجياتهم. وبمرور الوقت نجحوا في تجنيد الابن الأصغر عميلاً سرياً. كان كثيراً ما يذهب إلى شنغهاي لنقل المعلومات، وشراء الأدوية والأسلحة والذخيرة وما إلى ذلك. لاحقاً، نجح الأخ الأصغر في تجنيد الأخ الأكبر أيضاً، وأصبح الشقيقان بمنزلة خط اتصال حيوي للجيش الرابع الجديد».

ولأن مشاهدة الأفلام كانت موضة رائجة في شنگهاي آنذاك، اصطحب الأخ الأكبر أخاه الأصغر لمشاهدة فيلم ذات مرة، وفي أثناء انصراف الجمهور بعد انتهاء الفيلم، داس الأخ الأكبر بالخطأ على كعب امرأة. استدارت المرأة ووبّخته، لم ينبس الأخ الأكبر ببنت شفة، لكن الأخ الأصغر لم يتحمّل ما جرى، وهاجمها بالكلام. تقدّم شخص ما وصفعه على وجهه، لم يتحمّل التوبيخ، فكيف له أن يتحمّل صفعه على وجهه؟ فهو في النهاية لا يزال شاباً في السابعة عشرة من عمره، طائشاً ومتهوراً، فانخرط في شجار مع ذلك الشخص. لم يكن الأخوان يعلمان أن هذا الشخص شرطي. أخرج الشرطي مسدسه يهددهما، وطلب منهما الانحناء والاعتذار. علم الأخ الأكبر أن الأمور لن تسير على ما يرام، فأبدى استعداداً للاعتذار حتى يمر الأمر بسلام، لكن الأخ الصغير رفض الاعتذار، واستغل الفوضى التي عمّت المكان حينها، واندفع محاولاً الاستيلاء على مسدس الشرطي، في أثناء محاولته الاستيلاء على المسدس، خرجت طلقة نارية، ورغم أنه لم يصب أحد بأذى، فإن الصوت جذب عدداً من رجال الشرطة الذين ألقوا القبض على الأخوين واقتادوهما إلى مركز الشرطة. حينها تحوّل الوضع إلى الأسوأ، فالأخ الأصغر كان يحمل في جيبه قائمة مشتريات. في أثناء تفتيشهما عثرت الشرطة على تلك القائمة، وهو ما زاد الطين بلة. اشتبهت الشرطة في هويتهما، وبدؤوا تعذيبهما واستجوابهما. وبعد ذلك فتشوا منزلهما، فعثروا على مسدس وبعض الذخيرة، الأمر الذي أدى إلى تورط والدهما الذي كان في المنزل حينها، وهكذا اقتيد الأب وابناه وسُجنوا في معسكر لأسرى الحرب للعمل في الحفر في منجم للفحم. وفي أثناء وقوع ذلك الانهيار الأرضي، كان الأب والعقيد في مكان مختلف، فنجوا من الحادث، لكن الأخوين حوصرا داخل النفق.

قال العقيد: «كان هذا بمنزلة الحكم على الوالد بالموت! فمنذ وقوع ذلك الانهيار الأرضي، لم يغادر الوالد النفق أكثر من عشرة أيام. لم يكن

يتناوب العمل في الإنقاذ كما يفعل الآخرون، وعندما يتملكه التعب ينام في النفق، وعندما تخور قواه من شدة الجوع يأخذ قسمة من الخبز، وعندما يرى شخصاً يستريح كان يركع ويتوسل إليه ألا يتوقف. كان دائماً يردد عبارة واحدة في أثناء الحفر: بعد أن تتقنوا ولديّ سآدين لكم بحياتي. ردّد تلك العبارة آلاف المرات، بل ظل يرددّها حتى بُعّ صوته، حتى أنّ كل من لديه ذرة من الإنسانية كان يساعده في العمل بكل ما أوتي من قوة عند سماعه ورؤية مظهره المثير للشفقة.

لكن الانهيار الأرضي كان بمنزلة حفرة بلا قاع. تناوب مئات الأشخاص الحفر مدة تزيد على عشرة أيام، معرضين حياتهم للخطر، دون أن يتمكنوا من إنقاذ حياة العالقين في الداخل، وبعد أن شعر الجميع أن لا أمل في العثور على ناجين بعد مرور أكثر من عشرة أيام، تخلى مدير السجن عن عملية الإنقاذ، وطلب من الجميع العودة إلى عملهم السابق. لكن الوالد رفض الاستسلام، كان يذهب إلى العمل في أثناء النهار، ويعود إلى الحفر في موقع الانهيار بمفرده في أثناء الليل. نصحه الجميع بالاستسلام، قائلين إنه حتى إن نجح في العثور على أحد وسط الانقراض، فسيكون قد مات لا محالة، لذلك لا فائدة من التضحية بحياته بهذه الطريقة. كان يرد بصوت مبجوح مختلط بالبكاء، ولا أحد يعرف ما الذي يقوله. لكن عندما يرون سريره الفارغ في الليل، كانوا يعلمون أنه لم يستمع لنصيحتهم، حتى أن لحافه أصبح مرتعاً للفئران. كان في الأصل حمالاً، قوي البنية، عريض الصدر، مفتول العضلات، تكاد تشعر أن الرصاص لا يستطيع اختراق جسده، ولكنه صار أنحف يوماً تلو الآخر، وكأنّ الأيام سكين تنحت من جسده باستمرار، وتركه ينزف بلا انقطاع، حتى وهن، وصار ذابلاً مثل الشبح.

في إحدى الليالي، أصيب شخص ما في أثناء عراك، ذهب العقيد لتضميد جراح ذلك الرجل، فرأى من بعيد رجلاً يسير متعثراً نحو النفق وسط برد ديسمبر القارس. كان الظلام قد حلّ بالفعل، ولم يتمكن العقيد

إلا من رؤية ظل الرجل الأسود، ولم يتمكن من تمييز ملامحه، لكنه كان يعلم من هو- إنه ذلك الوالد المسكين! كانت هذه حاله الدائمة في تلك الأيام، يسير وحيداً نحو النفق الأسود وسط رياح الليل الباردة، ولكنه الآن لم يكن يمشي، بل كان يتعثر، يتأرجح مع كل خطوة، ويسقط كل بضعة خطوات، وكأنه كان في حالة سكر، كان مشوشاً لدرجة أنه لا يستطيع التمييز بين يديه وقدميه، فكان يمشي تارة ويزحف تارة أخرى. في أثناء نومه ليلاً، كانت ظلال ذلك الشخص تتراءى أمام عيني العقيد باستمرار، انتابته حالة من الحزن الشديد أسفاً على حال الرجل، وفكّر أنه ربما قد أصيب في ساقيه. جهّز له بعض الأدوية وبعض الخبز البارد وذهب لزيارته، ينوي إقناعه بالعودة والراحة ولو ليلة واحدة. وعندما وصل إلى هناك، وجده قد مات داخل النفق، في منتصفه تقريباً، على بُعد عشرات الأمتار من موقع الانهيار الأرضي. كان قد زحف أكثر من مئة متر، وبالإمكان رؤية بصمات يديه وبقايا الطعام الذي تقيأه على امتداد تلك المسافة. لقد مات وهو يزحف، حتى أن جثته ظلت محتفظة بوضعية الزحف نحو الأمام.

قال العقيد: «أعتقد أنه كان يرغب في الموت بالقرب من ولديه، حاولت حمله إلى موقع الانهيار الأرضي لدفنه. كان ضخّم الجسد في الأصل، حتى عندما يرتدي سترة قطنية وبنطالاً ثقيلاً في عز الشتاء، يمكن رؤية مدى ضخامة جسده، مثلك (يقصد أبي)، لذلك ظننتُ أن حمله سيتطلب قوة كبيرة، لكن عندما حملته، وجدته خفيفاً كطفل صغير، مثلك (يقصدني أنا). كنتُ أعلم أنه صار نحيلاً للغاية، لكنني لم أتوقع أن يكون نحيلاً إلى هذا الحد، فلم تبقَ منه سوى كومة من العظام الجافة النخرة. في البداية، استجمعتُ كل قوتي لحمله، لكن انتهى بي الأمر إلى أن بكيت عندما شعرت بخفة وزنه. لطالما كنتُ أتعامل مع الموتى طوال النصف الأول من حياتي، ورأيتُ موتى عديدين على طاولة العمليات وفي

ساحات المعارك، لكنني لم أحزن لموت أحد إلى هذه الدرجة. لم ينقطع بكائي في أثناء حملته على طول الطريق، ولا عندما دفنته. بكيت بشدة حتى أنني صرت عاجزاً عن التنفس، بل حتى أنني ما زلت أشعر بالحزن عند التفكير في هذا الأمر الآن».

كنت قد استمعت إليه وهو يروي قصصاً عديدة على مدار السنوات الثلاث الماضية؛ بعضها كان مخيفاً، وبعضها كان غريباً، وبعضها كان عجيبيّاً. لكن هذه كانت محزنة، لدرجة جعلته يكاد يبكي. هذه القصص كانت تأسرني دائماً، لدرجة أنني في كثير من الأحيان كنت أستمع إليها دون أن يرمش لي جفن من فرط الانتباه. ولكنه لم يكن يتحدث قط عن الأمور التي أرغب في سماعها بشدة، مثل إذا ما كان قد نام مع عشيقته الشرطي العجوز أم لا، وإذا ما كانت قد جمعت علاقة غرامية مع زوجة قائد فرقته أم لا، وكيف أصبح طبيباً عسكرياً، وكيف طُرد لاحقاً من جيش التحرير الشعبي، وغيرها من الأحداث. عندما أطلب منه الحديث عنها، كان يغضب دوماً، يتجاهلني أحياناً، وأحياناً أخرى يوبّخني.

ذات مرة وبّخني قائلاً: «أيها الأحمق الصغير، من أين سمعت كل هذا الهراء؟»، وفي مرة أخرى وبّخني قائلاً: «لا تسأل هذه الأسئلة مرة أخرى، وإلا سأقطع لسانك». في الواقع، أكثر ما كنت أرغب في سؤاله عنه هو إذا ما كان مخصياً أم لا! بالطبع، أعلم أن هذا شيء لا أستطيع أن أسأل عنه على الإطلاق، وإذا فعلت، فمؤكد أنني سألتقى صفة مؤلمة على وجهي، وهذه حقيقة أعرفها جيداً، فما بدر منه تجاه الأعمى الصغير هو مثال حي بالنسبة إليّ.

(15)

لا بد أنك تعلم أن معظم تلك الأشياء التي كانت تثير اهتمامي كان جدي هو من أخبرني إياها، وتعلم أيضاً أنني استمعت إلى قصص عديدة رواها العقيد. بعد أن كنت أستمع إلى تلك القصص، أعود وأرويها لجدي،

ومن ثم أحضره على أن يروي لي بدوره قصصاً عن العقيد . في كثير من الأحيان، يبدو جدي وكأنه شعر بالإلهام بعد الاستماع إلى القصص التي أحكيها، فتخطر على باله قصة جديدة . على سبيل المثال: تلك القصة التي تحكي عن بداية عمل العقيد طبيباً عسكرياً، كان جدي قد حكاها لي بعدما حكيت له قصة تلك العملية السرية الحبلية .

كثيراً ما أخبرني جدي أن العقيد كان ذكياً للغاية منذ صغره، وازداد ذكاءً بعدما كبر . كان بارعاً في تعلم أي شيء، بل ويتعلم أسرع من غيره . بدا كأن لديه بعض المهارات الفطرية التي تعلّمها تلقائياً دون أن يُعلّمه أحد إياها؛ عمله طبيباً عسكرياً كان واحدة من تلك المهارات . لم يتعلم الطب في الجامعة، ولم يتعلمه على يد طبيب آخر . كل ما في الأمر أنه تعرّض لإصابة في «عضوه الذكري»، واضطر إلى المكوث في المستشفى أشهراً عدة للتعافي، فظل يراقب الأطباء وهم يعالجون الجرحى، وبمرور الوقت تعلّم مهنة الطب .

في أثناء سنوات الحرب، كان معظم الجرحى يعانون جروحاً ناجمة عن طلقات نارية أو طعنات بأدوات حادة، وكان معظم الأطباء العسكريين من الجراحين يقومون بالعمليات الجراحية، وخياطة الجروح، واستخراج الرصاصات، وتقويم العظام وتضميد الجروح . وفي زمن السلم، حيث لا حرب، كان الهدوء يسود المستشفيات، وتصبح لدى الجميع فسحة من الوقت . ولكن ما إن تندلع المعارك على خطوط المواجهة، لا يتوقف نقل الجرحى والمرضى بالسيارات التي يتوالى وصولها واحدة تلو الأخرى، فيُشغل الأطباء العسكريون لدرجة لا يمكن تصورها . أحياناً يكون هناك بعض الجرحى الذين يعانون إصابات بالغة تهدد حياتهم، حينها قد يتكاسل الأطباء العسكريون عن علاجهم، خوفاً أن تذهب جهودهم سُدىً، ويضيع وقتهم هباء . كانوا يتركون المرضى في الممرات، أو فوق النقالات، يصرخون ويعوون كالأشباح، بعضهم لم يكن يتحمل حدة الألم،

فيخبط رأسه في الجدار رغبة في الانتحار. كان الأطباء معتادون ذلك، فقد صارت قلوبهم قاسية كالحجارة، كانوا يعاملونهم كما لو كانوا أمواتاً، يمرون بجوارهم مسرعين دون حتى أن يتوقفوا ليواسوهم ولو بكلمة. ظل العقيد يتعافى أشهراً عدّة، ورأى كثيراً من تلك المشاهد، الأمر الذي جعله يزداد جرأة. كان يعمل سرّاً على علاج الجرحى المحتضرين الذين تركهم الأطباء العسكريون في الممرات، كما لو كانوا جرحى عاديين، يريد بذلك أن يدرب نفسه على مهارات التطبيب، فهم يحتضرون على أي حال، ولن يحاسبه أحد إذا لم يتمكن من إنقاذهم، وإذا أنقذهم فسيكون الأمر أشبه بمعجزة حدثت على يديه. وهكذا، أمسك بالمشرط الجراحي، ونصب طاولة للعمليات الجراحية من تلقاء نفسه، وعمل طبيباً عسكرياً بشكل سري. وبعد محاولات عديدة، نجح في إنقاذ أرواح عديدة، وذاعت شهرته في المستشفى. وفي النهاية عُيّن طبيباً عسكرياً في المستشفى رسمياً. بعدما أصبح الأمر رسمياً، زادت أعداد الناس الذين تمكّن من إنقاذهم، وبمرور الوقت، صارت تلك الأعداد على شكل طوابير لا تُرى نهايتها. هؤلاء الناس كانوا قادمين من ساحات معارك مختلفة، بعضهم من جبهات مقاومة اليابان، وبعضهم من جبهات الحرب الأهلية بين الكومينتانغ والشيوعيين، وبعضهم من المعارك بين الشرطة وقُطاع الطرق، وبعضهم من قتال بين العصابات. فطلقات الرصاص وطعنات السكاكين لا تفرق بين هذا وذاك، ولا يوجد أحد بمنأى عن التعرّض للحوادث طوال الوقت. لذلك، كان العقيد يعالج أناساً من مختلف الطبقات، بمن في ذلك الجنود والجنرالات، والناس العاديون والمسؤولون الكبار، والمُلاك والأثرياء. لو أنقذ جندياً، يجثو الجندي على قدميه أمامه شاكراً، أما كبار المسؤولين والأثرياء، فكان بعضهم يقدّم عليه بالعطايا، وبعضهم يرقيه إلى مناصب أعلى، وبعضهم يُهديه الذهب والفضة والمجوهرات. في إحدى السنوات، حدث أن عاد إلى مسقط رأسه لزيارة أقاربه، حاملاً معه صندوقاً ممتلئاً

بالسبائك والعملات والأساور الذهبية. خافت والدته بشدة، ورفضت الإبقاء على هذا الصندوق في بيتها، وأصرت على أن يعود به. بالطبع كان عليّ أن أسأل جدي: «ولم رفضت؟ فالذهب أثمن الأشياء».

كان بإمكان الجد الرد على أسئلتني دائماً، لكن في بعض الأحيان كان يتحدث بطريقة غير مباشرة، فتشعر أنك لا تعرف ما الذي يتحدث عنه، تماماً كما هي الحال في هذه المرة، إذ ردّ بقوله: «رفضته لأنه ثمين، والأشياء الثمينة كالنساء الجميلات، دائماً ما تسبّب المشكلات، وتجعلك عُرضة للقتل والسرقة، فمن هذا الذي يستطيع النوم بسلام إذا كان في منزله صندوق من الذهب وهناك جماعات من الأشرار يترصدونه؟! ناهيك بكون والدته أرملة عجوزاً تعيش وحيدة».

لذلك لم يكن أمام العقيد خيار سوى إعادة الصندوق كما هو، ووضعته جانباً كأنه صندوق مهملات. لم يكن لديه أحد يعتني به سوى والدته العجوز، وليست هناك زوجة ولا أبناء ليعطيهم إياه، فهو شخص مقطوع النسل. لذلك لم تكن هناك حاجة إلى هذه الأشياء. في النهاية، لم يعرف كيف يستغلها، فطلب من صائغ أن يصنع له منها مجموعة من الأدوات الجراحية: مقصاً، ملقطاً، سكيناً، مشرطاً، إبراً طويلة وقصيرة، وغيرها. صار لديه طقم كامل، موضوع بشكل مرتب على الطاولة. كان الصائغ قد خلط معادن أخرى بسبائك الذهب في أثناء تشكيلها، ثم صقلها، فصارت أكثر دقة ولمعاناً، تشع بضوء ذهبي أمام عيون الناس، فتجعلهم غير قادرين على فتح عيونهم. كان مشهوراً بالفعل، لكن بفضل هذه المعدات الفريدة، ذاعت شهرته في كل مكان، فتوافد عليه الجرحى والمرضى المشرفون على الموت من كل حذب وصوب، وكانوا يُخرجون من المستشفى دفعة تلو الأخرى، وكأنهم مثل نبات الكراث، يتكاثرون بلا انقطاع. عمل هؤلاء الناس على نشر إنجازاته ومهاراته الطبية وقدراته الخارقة في كل مكان، قائلين إن أدواته الجراحية مصنوعة من الذهب، ولديه القدرة على إنقاذ

الناس من براثن الموت، وليس للمال عنده أي قيمة، وما إلى ذلك من الصفات السامية التي تصوره وكأنه ملاك سماوي. لم يكن هناك من يلقيه بالعقيد في ذلك الوقت، فالجيش كان ممتلئاً بالعقلاء حينها، ومن ثم قد يختلط الأمر على الآخرين. لذلك كانوا ينادونه احتراماً باسم «المشرط الذهبي»، وهو ما يعني الذهب، ويعني أيضاً الأفضل في مجاله. كانت سكاكين الآخرين تقتل الناس، لكن سكينه كانت تتقذ الناس؛ كانت سكاكين الآخرين من فضة، وسكاكينه من ذهب. وعلى الرغم من كونه مخصياً حينها، فإنه كان ذا مكانة لا تقل احتراماً عن مكانة الخصيان المحيطين بالإمبراطور.

قال جدي: «لكل شيء سببه، ولكل شخص قدره. لا بد أن هؤلاء الموتى الراقدين في قبورهم يشعرون بالندم لأنهم لم يعرفوه، وإلا لما كانوا في عداد الأموات».

(16)

يعرف جدي كثيرًا عن العقيد، لكنه أيضًا لا يعرف كثيرًا عنه. المؤكد هو أن أكثر من يعرف عن العقيد هو والدي. قال والدي: «كل ما أخبرك به جدك أمور قديمة، أنا الذي سربتها له، وبعضها مجرد هراء من نسج خياله».

اتفق مع ما قاله والدي، فجدي لم يكن بمقدوره سرد كل القصص التي رواها لي والدي عن العقيد، لكن والدي كان بمقدوره سرد كل القصص التي رواها لي جدي عنه، بل وبصورة أكثر شمولاً، بما في ذلك الزمان والمكان، ما يجعل الاستماع إليها أكثر تشويقاً. كانت هناك بعض القصص التي لم يتمكن جدي من سردها حتى النهاية، فيطلب مني أن أسأل والدي عنها. سألتُ أسئلة كثيرة، وأجابني والدي عن بعضها، مثل قصة تربية العقيد قططه، وعلاقاته مع قائد في جيش التحرير الشعبي، كلها قصص رواها لي والدي. لكن والدي شخص صامت في الأساس، وعادةً لا يبادر بالحديث إلا إذا سألته، وقد سبق أن روى قصة القطط وقصة القائد بعد سؤالي إياه عنهما.

كانت زوجة أحد مسؤولي حزب الكومينتانغ هي التي أهدت العقيد قطته الأولى.

حدث هذا في خريف عام 1964. قال والدي إنه بعد استسلام اليابان، عاد العقيد إلى الجيش ليقدم بوصفه طبيباً عسكرياً، لأنه لم يكن يريد الاستمرار في قتل الناس، ويريد فقط إنقاذ حياتهم. في ذلك الوقت، كان مستشفى القوات البرية العسكري الذي يعمل فيه يقع في بلدة تونغوان التابعة لمحافظة فوشون شمال شرق الصين. وفي ظهر أحد الأيام، وصلت امرأة شابة إلى المستشفى في سيارة جيب عسكرية أمريكية برفقة اثنتين

من المجندين. كانت المرأة ترتدي قُبَّعة من الصوف الناعم وعباءة بلون البشرة، يظهر عليها أنها من أسرة أرستقراطية. لكن عندما رأت العقيد، انحنت أمامه شكرًا على إنقاذه زوجها، وعندما سألها العقيد من هو زوجها، راوغت في الإجابة، واكتفت بالقول إنه مسؤول كبير، دون أن تذكر اسمه. لا أعلم إن كان ذلك بسبب رتبته العالية، أم أن هناك سببًا خفيًا آخر. المهم أنها كانت امرأة مسؤول كبير مجهول، ولأن هذا المسؤول كان عاجزًا عن الحركة بسبب الإصابة، طلب منها الذهاب إلى العقيد للتعبير عن امتنانه لإنقاذ حياته، وحملها هدية وهي صندوق كبير من الخوص. لاحظ العقيد أنها هدية باهظة للغاية، فلم يجرؤ على قبولها.

قال العقيد: «أظن أن هذه كلها غنائم استُولي عليها من الغزاة اليابانيين».

قالت المرأة: «كلها أشياء جاءت بطرائق مشروعة، يمكنك قبولها دون قلق».

قال العقيد: «قبولي صندوقًا كهذا سيكون عبئًا عليّ في هذا الوقت الذي تعم فيه الفوضى البلاد».

قالت المرأة: «كلها أشياء ثمينة، يمكنك الاحتفاظ بها على المدى البعيد».

قال العقيد: «الحياة نفسها بلا قيمة في هذه الأيام، فما بالك بالأشياء؟»، واستمر في رفضه القاطع.

تحدثت المرأة بلطف وبلاغة، تتوسل إليه أن يقبل الهدية. لم يتراجع العقيد عن رأيه، واستمر في رفضه القاطع، ثم لجأ إلى حيلته الأخيرة، فحمل الصندوق بنفسه ووضعه في السيارة، ليضع بذلك حدًا لهذا الأمر. الغريب أنه كانت هناك قطعة داخل السيارة. كانت القطعة مستلقية وسط سلة من الخوص، لها فراء مرقط ناعم، وعينان مستديرتان لامعتان، كان مظهرها لطيفًا للغاية. سُرَّ العقيد لرؤية تلك القطعة وقال للمرأة:

«إذا كنت مصممة على إعطائي هدية، فلتكن هذه القطعة». ابتسمت المرأة، ثم مدت يديها وحملت القطعة لتعطيها إياها. ومنذ ذلك الحين، لم تخلُ حياة العقيد من وجود القطط، وكأنها أبنائه وبناته بالتبني.

(17)

كانت تربية العقيد القطط وحبه إياها سبباً في فقدانه فرصاً كثيرة، أكبرها أنه أضعاف فرصة لا تُعوّض للانضمام إلى الشيوعيين. قال والدي إن جيش الكومينتانغ كان قد تعرّض لهزائم متتالية على يد جيش التحرير الشعبي، واستمرت قواته في التراجع من الشمال إلى الجنوب. ونتيجة ذلك، ظل العقيد يتنقل بين عديد من وحدات القوات المختلفة. وفي شتاء عام 1948، انتهى به المطاف إلى الخدمة في وحدة تابعة للقوات البحرية تتمركز على نهر اليانجتسي ببلدة تشنجانغ في مقاطعة جيانغسو، وكانت القاعدة الأساسية للوحدة تقع بالقرب من معبد جينشان، حيث كان بإمكانهم سماع أصوات قرع أجراس الرهبان، وكان بإمكان الرهبان سماع أصوات أبواق القوات أيضاً. كان العقيد يعمل في المستشفى في أثناء النهار ويعود ليلاً إلى مسكنه الذي يبعد بضع دقائق فقط سيراً على الأقدام في الليل. وبينما هو نائم في إحدى الليالي، كُمن فمه وقيد وسُحب إلى داخل سيارة بوساطة رجلين يرتديان ملابس سوداء. أنزلاه من السيارة ثم وضعاه داخل قارب، بعدها أنزلاه من القارب ووضعاه داخل سيارة أخرى، وفي النهاية توجهت السيارة إلى معسكر لجيش التحرير الشعبي في جبال دابي، حيث طُلب منه إجراء عملية جراحية لأحد القادة.

هذا القائد كانا مصاباً برصاصة في صدره، استقرت بين قلبه ورئتيه. مرّ يوم وليلة بعد تعرّضه للإصابة، وحالته حرجة للغاية. طُلب منه جيش

التحرير الشعبي إجراء عملية جراحية لهذا القائد. كان العقيد يعلم أنه إذا رفض فلن ينجو بحياته، وإذا وافق وفشل فلن ينجو بحياته أيضاً، مؤكداً أنهم سيشتبهون في أنه تعمّد الفشل ليتخلص من هذا القائد، لذلك كانت حياته متوقفة على نجاح تلك العملية، تماماً كحياة هذا القائد المصاب. لحسن الحظ، نجحت العملية، وتمكّن من إنقاذ حياة القائد، وإنقاذ حياته أيضاً. كان الجميع سعداء للغاية، وعامله جيش التحرير الشعبي ضيفاً مرموقاً، وطرحوا عليه فكرة الانشقاق والانضمام إليهم. شرحوا له الوضع، وتشاوروا معه، وحثّوه على الانضمام إلى صفوف الشعب والالتحاق بجيش التحرير الشعبي. في ذلك الوقت، كان جيش الكومينتانغ يتراجع تدريجياً، وكان جيش التحرير الشعبي يستعد للخروج من جبال دابي وشن حملة هوايهاي، ومن ثم فالوضع مُواتٍ للغاية لجيش التحرير الشعبي، لذلك شعر برغبة في الانضمام إليهم. لكن عندما فكّر في القِطط التي يربّيها، والمعاناة التي ستعرّض لها حال بقائه هنا، وأنها قد تموت جوعاً أو تتشرد في الشوارع، تراجع عن رغبته، واختار المغادرة في النهاية. كانت مغادرته تلك بمنزلة السير نحو أبواب الجحيم.

أخبرني والدي أن العقيد عندما كان يخدم في الجيش، أُرسِل إلى جبهة جيانغشي للمشاركة في محاصرة الجيش الأحمر المركزي وقمعه. في ذلك الوقت، كان الجيش الأحمر يتراجع، وكانت الفرقة التي يخدم فيها العقيد مسؤولة عن مطاردته، كانت المطاردة تجري بشكل متقطع، حتى وصلوا إلى مدينة لونغيان بمقاطعة فوجيان. ما الحرب؟ هي أن تعيش الحياة يوماً بيوم، فاليوم الواحد يساوي عمراً كاملاً، تمتّع بها عندما تتاح لك الفرصة، حتى لا تضيع حياتك سُدى. لذا، ففي أثناء أوقات الهدنة، كان الجنود الآخرون يخرجون للأكل والشرب والمقامرة واللهو، أما هو فلم يكن كذلك. فبدلاً من ذلك، كان ينكب على صقل مهاراته القتالية والتكتيكية، كالرماية والقنص ونصب الكمائن. كانت لديه

قناعاته الخاصة، يعتقد أن النجارة هي مجرد مهارة لكسب العيش، أما المهارات في ساحة المعركة فهي كطوق النجاة، وإتقانها يعني النجاة بحياتك. كان يطبق أفكاره بشكل عملي، فطوّر مهاراته ونجح في النجاة بحياته في أثناء المعارك التي خاضها على طول الطريق. وبينما كان رفاقه يموتون أو يُصابون، بقي هو معافى سالمًا بفضل امتلاكه مهارات فائقة وقدرات عالية على القتال والمراوغة. أتعلم ما مدى دقة تصويبه؟ يمكنك أن تترك حمامة تطير بعيدًا، ثم يبدأ هو بتعبئة الرصاص وإطلاق النار في الوقت نفسه، ويصيب الهدف تسع مرات من أصل عشر. بامتلاكه مثل هذه المهارات كان لا بد أن يتحول إلى بطل في ساحات المعارك عاجلاً أم آجلاً. بعد وصول القوات إلى مدينة لونغيان، خاضوا معركة ضارية ضد الجيش الأحمر، فذاعت شهرته بسبب هذه المعركة، ولُقّب بالبطل العظيم، وأشادت به الصحف ونشرت صورته.

لاحقًا، وفي النهاية، انشقت وحدة الكومينتانغ التي يقاتل ضمن صفوفها وانضمت إلى جيش التحرير الشعبي. فدبّر أحدهم مؤامرة ضده، ونبش في دفاتره القديمة، واتهمه بأن يديه ملطختان بدماء الجيش الأحمر. كان جيش التحرير الشعبي صارمًا وحازمًا، لا يظلم الأخيار، ولا يُفلت الأشرار. فبعد التحقيق، ثبتت إدانته، فزجوا به في السجن انتظارًا لمحاكمته. لحسن الحظ، كان قائد تلك الوحدة هو نفسه القائد الذي أنقذ حياته من قبل، فأبقى على حياته، واصطحبه معه إلى الجبهة ليقاتل ضمن قواته، ليكون ذلك بمنزلة تكفير عن جرائمه السابقة. هذا هو الحظ، وإلا لمكث في السجن أو حتى أُعدم رميًا بالرصاص.

رويت لجدي هذه القصص التي تخص العقيد. هزّ رأسه كالشخصيخة وتنهّد قائلاً: «النساء هن السبب، النساء هن السبب». ثم اعتدل برأسه، وهدأ قليلاً، ثم قال بحزم: «النساء هن من دمّرن حياته».

لديّ الاعتقاد نفسه أيضًا، فالسبب في تعرّضه للإخضاء امرأة، والسبب في ذهابه إلى شنغهاي للعمل عميلًا سرّيًا للكومينتانغ ما أدى إلى أسر اليابانيين إياه امرأة، والسبب في وقوعه في أسر جيش التحرير الشعبي امرأة. ولو لم تُهدِ امرأة تلك قطعة، لانضم إلى جيش التحرير الشعبي منذ وقت بعيد، ولم يتورط في كل هذه المشكلات لاحقًا، ولم يوشّ به، ولم يسجن ويوشك أن يفقد حياته. شعرت بالأسف الشديد حياله، لقد تخلّى عن فرصة ثمينة للانضمام إلى جيش التحرير الشعبي من أجل القطط.

قال الجد: «أرأيت، ها هو ذا لا يزال يُربي القطط، لم يتعلم الدرس، ولن يتغير. هذه هي شخصيته، عنيد، ومكابِر إلى أقصى حد، يعتمد على ذكائه وكفاءته، ويعيش حياته كما يشاء، دون أن يقتنع بكلام أحد. كل هذا لا يصب في مصلحته، فنحن بشر، وعلى الإنسان أن يتحلّى بشيء من الخوف، وألا يتعنّت أكثر من اللازم، وأن يعرف متى يتراجع، ومتى يعترف بخطئه، فالعالم واسع، وحدوده تفوق مداركنا».

(18)

كان جدي جالسًا أمام غرفة المعيشة يلقي عليّ المواعظ، وكانت والدتي وأختي الكبرى تعملان على تجهيز زلاية الأرز في المطبخ، شمّت دجاجتان عجوزان رائحة الأرز اللزج المنقوع في مياه الينابيع الجبلية، فتقدمتا بحذر نحو القاعة تترقبان الوضع من أجل تحيُّن الفرصة لالتقاط بعض الأرز. لديّ ثلاثة إخوة وأخت واحدة. أختي الكبرى متزوجة، ولا تعود إلى منزلنا في سوى الأعياد، أما أخي الأكبر فيكبرني بسبع سنوات، وقد التحق بالعمل بالفعل، يذهب مع والدي يوميًا للعمل ضمن فريق الإنتاج، يحرث الأرض، ويزرعها، ويرش المبيدات، ويُصلح الخزائن، ويقطع الحطب في الجبال، ويصطاد السمك من النهر. كان ينجز كل ما يُطلب منه. أما

أخي الثاني فيكبرني بخمس سنوات، يتعلم النقاشة في المدينة، ولا يوجد في المنزل عادة، ولا يعود إلا للمساعدة في أثناء موسم الزراعة والحصاد المزدهم، وهو الوقت الذي يُطلق عليه الجميع «الموسم المزدوج».

كان هذا في اليوم السابق لعيد قوارب التين في عام 1967، وهو عيد ميلادي الرابع عشر- نحن هنا نقيس الأعمار بداية من وقت الحمل، لذلك كنت أعدّ أن عمري خمسة عشر عاماً. قبل عشر سنوات، كلما حلّ هذا اليوم، كانت أمي تقول لنا وهي تُجهز زلابية الأرز: «اليوم أنجبتُ قطعتين كبيرتين من زلابية اللحم». وأحياناً كانت تُضيف: «كم سيكون رائعاً لو كانا حقاً قطعتين كبيرتين من زلابية اللحم!»، وكأننا لا نساوي قطعتين من زلابية اللحم.

كانت لديّ أخت توأم، لكن للأسف، توفيت أختي الصغرى بسبب مرض غريب أصابها وهي في الخامسة من عمرها. ومنذ ذلك الحين، توقفت أمي عن قول تلك العبارة مرة أخرى، فالحديث عن هذا الأمر أدعى للحزن. ليس من السهل تربية طفل حتى يبلغ الخامسة، فحينها تكون هناك ذكريات ومشاعر كثيرة مرتبطة به. في الأصل كانت هناك أخت ثانية بيني وبين أخي الثاني، لكنها ماتت فور ولادتها، لذلك لم تكن هناك ذكريات أو مشاعر مرتبطة بها، ويبدو أن والدتي قد نسيتها، ونادراً ما تذكرها، ولا تُظهر أي مشاعر عندما تتذكرها. على عكس أختي الصغرى التي تصغرني بنصف ساعة فقط، كانت تذكرها كثيراً وتشعر بالحزن حينها، وربما كان هذا هو السبب -موت طفلتين، واحدة قبلي والأخرى بعدي- الذي جعلني طفلاً مدلاً لدى أفراد عائلتي، خاصة جدي، كانوا يخشون أن تطاردني أرواح هاتين الطفلتين. لذلك قرّر جدي أنه مهما ساءت ظروف العائلة، فلا بد من عمل زلابية الأرز، وشراء نبيذ الأرز، وحرق البخور، وتقديم القرابين للآلهة والأسلاف يوم عيد قوارب التين، غرضه من ذلك إشباع أرواح الطفلتين الصغيرتين، لكي تنعم أرواحهما

بالسكينة ومن ثم تكف عن مطاردتي. كنت أعتقد أنها خرافة، ولم أكن أقلق بشأن مطاردة الأرواح، فليس هناك ما يدعو إلى الخوف من الموتى، فقط الأحياء هم مصدر الخوف، مثل والدي، والعقيد، وبعض المعلمين والزملاء في الصف - خاصة الأعمى الصغير - كل هؤلاء كنت أخشاهم، حتى إن ظهر مني خلاف ذلك.

في اليوم التالي لعيد قوارب التتين، حدث شيء غريب في القرية؛ اختفى أربعة أطفال في الوقت نفسه! وهم «اللقيط»، ابن العنقاء الزغبية الذي تبنته من قرية أخرى، و«كماشة اللحم»، الابن الثالث لعائلة الحجار، والأعمى الصغير، وابن عمتي الصغرى الأكبر، أي ابن عمي. على ما يبدو أنهم تآمروا معاً لسرقة بعض المال وبعض الطعام من بيوتهم، واختفوا مثل الطيور التي طارت من أعشاشها. بحث عنهم ذووهم في كل مكان، ولكن دون جدوى، فانتابتهم حالة من القلق الشديد. جاءت عمتي الصغرى إلى منزلنا باكياً في المساء، وأصرت على أن يذهب والدي ليساعدها في العثور على ابنها. لم يكن جدي موجوداً في المنزل يومها، بل كان في منزل عمتي الثالثة. كان لدى جدي ولد واحد فقط، وهو والدي، وكانت لديه أربع بنات. وباستثناء عمتي الصغرى، فالثلاث الأخريات متزوجات في قرى أخرى. لذلك، ففي كل شهر كان جدي يختار واحدة منهن ويذهب لزيارتها والإقامة عندها أياماً عدة. في أثناء هذه الأيام، كان والدي يتنفس الصعداء، ويحضر معه العقيد إلى منزلنا في كثير من الأحيان، لذلك تصادف أن كان العقيد في منزلنا عندما جاءت عمتي الصغرى. استفهم العقيد من عمتي عما حدث، ثم أشعل سيجارة، وسحب نفساً، ثم نصح عمتي بهدوء: «لا تبحثي عنهم، سيعودون». ثم سحب نفساً آخر من السيجارة وتوجّه لوالدي بالحديث: «أنا قلق من عودتهم. فلن ينعم الجميع بحياة هانئة بعد عودتهم»، حينها بدا الجميع في حيرة من أمرهم. سأله والدي: «وما شأننا بهذا؟».

ابتسم العقيد وقال: «ليس شأنك، إنه شأني».

قال والدي: «فقط أخبرني أين ذهبوا».

لم يتحدث مباشرة، بل استمر في الكلام بالألغاز: «ستهب رياح عاتية، وتتساقط أمطار غزيرة، وسيعاني البعض». كان كلامه أشبه بكلام العرافين، يدور حول الموضوع، ثم يلتف، ويعود محملاً بمعانٍ خفية. وكلما تعمَّق في الحديث، زاد الغموض، وزادت حيرتنا.

سأله والدي: «أي رياح؟ وأي أمطار هذه التي تتحدث عنها؟».

هذه المرة أجاب العقيد أخيراً، وعلى نحو غير مباشر: «إنها الرياح الحمراء وأمطار التمرد». لا أعرف ما يعنيه بذلك، لكن ربما كان والدي يعلم، فتوقف عن السؤال، وشرع يشتم ويسب دون سبب واضح. لم أكن أعرف المقصود بالشتيمة، لكن يبدو أنه كان يشتم «الرياح الحمراء» و«أمطار التمرد». في ذلك الوقت كنت أعتقد أنه يتحدث عن أشخاص، ولكن بعد ذلك اكتشفت أن الرياح الحمراء تعني الفصيل المسيطر، الذين يرتدون الأحذية الجلدية، وأن أمطار التمرد هم المتمردون، مجموعة من حفاة الأقدام، وهذان هما الفصيلان الثوريان الرئيسان في محافظتنا في ذلك الوقت. في البداية، كان الفصيلان يخوضان حروباً كلامية فقط، إما معارك لفظية وإما كتابية، ينشطون غالباً في البلدات والمدن، يلصقون الشعارات الكبيرة، ويرفعون اللافتات، وينشرون المنشورات، ويعقدون الاجتماعات ويسيرُون المظاهرات، وينخرطون في المناوشات اللفظية والهجمات الكتابية. في أثناء هذه المدة، كان فصيل «الرياح الحمراء» هو صاحب اليد العليا، وحقق انتصاراً حاسماً. لكن لاحقاً، نظّم المتمردون فرقة انتحارية تابعة للحرس الأحمر بمساعدة إحدى الفصائل اليسارية وتوجيهها، وأطلقوا الرصاص الأولى أمام حكومة المحافظة، ممهدين بذلك الطريق للكفاح المسلح. وسرعان ما انقلب الوضع، فخاف عدد كبير من عناصر الفصيل المسيطر الموت، وهربوا إلى الريف، واختبئوا شرقاً

وغيرًا، تاركين السلطة لقمة سائغة في يد الفصيل المعارض. وبالرغم من أن أعضاء الفصيل المعارض هم مجموعة من الحفاة، فإنهم كانوا شبابًا أكفاء، ومسؤولين، وطموحين. فلم يكتفوا بما حققوه، بل أرادوا مواصلة الثورة حتى النهاية، والقضاء على جميع عناصر الرياح الحمراء. وبعد تقييم الوضع، وسَّعوا ساحة المعركة إلى الريف، وجنَّدوا عددًا كبيرًا من طلاب المدارس المتوسطة في المناطق الريفية للانضمام إلى الحرس الأحمر، وقاموا بعمليات بحث واسعة النطاق عبر القرى، بهدف القضاء على الشر المتبقي، واستئصاله من جذوره، حتى لا تقوم له قائمة في المستقبل.

(19)

في ظل هذا الوضع، انضم ابن عمي ورفاقه إلى الفريق الثوري للمتمردين، وشاركوا في حركة الحرس الأحمر المسلحة في المحافظة كاملة؛ تجوَّلوا في البلدة، والمحافظة، وقرى عديدة، وانضمُّوا إلى حشود كبيرة من الشباب، ثم اندفعوا كالجراد، يهتفون بالشعارات العدائية، ويحطِّمون الممتلكات، ويعلِّقون اللافتات الكبيرة، ويعتقلون الناس، وينكلون بهم، ويحتجزونهم للاستجواب. حدث الأمر نفسه عندما وصلوا إلى قريتنا. أول ما فعلوه هو تفتيش المنازل بحثًا عن مثيري الشغب التابعين للفصيل المسيطر. يا إلهي! لم يكونوا ليعرفوا حقيقة الوضع لولا عمليات التفتيش! وبمجرد التفتيش، جاءت المفاجأة. عثروا على رجل ضخم الجثة في كومة القش في حظيرة منزل مدير مدرستا: رئيس قسم الثقافة والتعليم في قسم الدعاية باللجنة الحزبية للمحافظة، الذي كان في السابق من أكفأ الكوادر التابعة للفصيل المسيطر. كان هذا الرجل المسؤول الرئيس عن هزيمة المتمردين في البداية، كان كاتبًا بارعًا، ومقالاته كالرماح والرشاشات والعبوات الناسفة، وبمقالاته وحدها كاد يقضي على مجموعة من الكُتَّاب الشباب في الفصيل المتمرّد، الأمر الذي كاد يتسبب في

هزيمة الفصيل المتمرد كاملاً. وبمجرد العثور على هذا المجرم الخطر مختبئاً في مدرستنا، أصبحت قريتنا فجأة كالشوكة في عيون الفصيل المتمرد، وكأنها منطقة ألغام. استقل القائد «هُو» زعيم الفصيل المتمرد دراجته وجاء إلى مدرستنا، ثم اقتاد بنفسه ذلك المجرم ومدير المدرسة، وأصدر التعليمات الآتية: سيؤسس فرع للفصيل المتمرد داخل مدرستنا، مهمته عمليات تطهير ثورية وتعليمية واسعة النطاق داخل القرية.

في عصر ذلك اليوم، عقدت المدرسة اجتماعاً، وأعلنت تعليق الدراسة. وفي الوقت نفسه، أُقيم حفل استقبال مهيب للحرس الأحمر، وتسلم طلاب الصف الثالث جميعهم المنحدرون من عائلات فلاحية فقيرة ومتوسطة شارة الحرس الأحمر، وأقسموا على الولاء للفصيل المعارض. كان إجمالي عدد الطلاب سبعة وستين طالباً، يقودهم شاب وشابة لا أعرفهما من سكان المدينة. رفعوا أيديهم عاليًا أمام علم أحمر كبير، ثم رددوا الشعارات، وأعلنوا الحرب، وأقسموا اليمين، وكأنَّ هناك حرباً تدور على الجبهة، وهم ذاهبون إلى ساحة المعركة للقتال حتى الموت.

لم تكن تلك الجبهة بعيدة، بل في القرية نفسها. والحرب ليست حرباً ضد العدو، بل ضد العناصر الأربعة (المُلاك، والأثرياء، والمُعادين، والأشرار)، وأيضاً لتحطيم المعابد وقاعة الأسلاف. يوجد في القرية معبدان، أحدهما كبير والآخر صغير؛ معبد قواندا ومعبد قواندي، وكلاهما يقعان فوق الجبل الخلفي. يقع معبد قواندي عند مدخل القرية، عند منحني ذيل النمر، وهو غرفة حجرية صغيرة، فارغ، وغير مأهول، لا يوجد فيه سوى تمثال الجنرال المقدس قوانقونغ ذي الوجه الأحمر واللحية السوداء، قليلاً ما يذهب أحد إلى هناك للصلاة وإشعال البخور، ولا يكون ذلك إلا في الأعياد. أما معبد قواندا فهو ضخمة للغاية، يقع فوق رقبة النمر، أكبر من ملعب كرة السلة؛ أمام بابه يوجد طريق مرصوف بالألواح الحجرية السوداء، والطريق متصل بقدم النمر اليسرى الأمامية، ويؤدي مباشرة إلى أسفل الجبل، وهو

أيضاً الطريق الوحيد الذي يستطيع عبره القرويون، بمن في ذلك الرهبان والأتباع، الصعود إلى الجبل والنزول منه. وبسبب كثرة الأشخاص الذين يمرون عبر هذا الطريق، صار الطريق أوسع بمرور الوقت، حتى بات من الممكن السير بالجرار على الجزء الأمامي منه. أما الجزء الباقي فينتهي بدرج حجري يبلغ عدد درجاته إحدى وثمانين درجة، وهذا الدرج بمنزلة شاهد على مآثر رهبان المعبد والصدقات التي جمعوها عبر الأجيال. يدل حجم الدرج والطريق على مدى حجم المعبد، فهو كبير مهيب يفوق قاعة الأسلاف؛ يحتوي على ثلاث قاعات، ويغطي مساحة تزيد على الألف متر مربع، وهو ما يجعله يبدو كقصر كبير. في القاعة الأمامية تمثال لبوذا، وفي القاعة الوسطى تمثال لإلهة الرحمة، وقيم في القاعة الخلفية سبعة أو ثمانية من الرهبان. لا توجد حقول أرز أعلى الجبل، لذا يربي الرهبان الدجاج والبط ويقايضونها بالخضراوات والحبوب. سبق أن رأيت معظم الرهبان في المعبد، ولكنني لم أرَ الراهب العجوز قط، فهو لا يغادر الجبل أبداً، وليس بالإمكان رؤيته إلا عند الذهاب إلى المعبد. سمعت أنه يمارس طقوس التأمل والفنون القتالية في الغرفة الحمراء الصغيرة يومياً. ما مدى قوة مهاراته؟ كان جدي دائماً يضرب المثل الآتي: عندما جاء الغزاة اليابانيون، دمّروا معظم قريتنا، ثم صعدوا إلى الجبل لتدمير معبد قواندا، ولكن الراهب العجوز تصدّى لهم بعضا المكينة. اتضح أن قائد الفرقة اليابانية كان من محاربي الساموراي، وعندما علم أن الراهب العجوز بارع في الفنون القتالية، قرر مبارزته على سبيل التحدي، فاتفقا على أنه حال انتصر الراهب العجوز، فلن يدخل الغزاة إلى المعبد، ولو هُزم، فسيحرقون المعبد. لم يكن الراهب العجوز عجوزاً حينها. كانت عيناه حادتين، ويداه سريعتين، قوياً كالثور. قاتل الراهب هذا القائد بعضا المكينة، وانتزع سيفه من يده في لمح البصر، وأجبره على الاعتراف بالهزيمة، حينها انحنى له القائد، وغادر معبد قواندا.

ذاعت شهرة الراهب العجوز، واكتسب المعبد شهرةً وشعبية واسعة، وصار الناس يقصدونه من الأنحاء جميعها لإشعال البخور والصلاة على مدار العام، يتضرعون طلباً لإنجاب البنين والبنات، وحلول السلام والبركات، وطول العمر. كانت والددة العقيد شديدة الإيمان بإلهة الرحمة، فكانت تذهب إلى هناك لإشعال البخور كل صباح تقريباً، وتُوصل الضروريات اليومية للمعبد طوال الوقت، كما لو كان هذا عملها.

قال جدي: «تلك العجوز كانت تعامل الرهبان كما تعامل والديها».

لحسن الحظ، كانت قد ذهبت إلى جبل بوتو آنذاك، ولم تكن في القرية، وإلا فلو رأت الحرس الأحمر يُخربون مكان عبادتها، ويؤيخون الرهبان الذين تقدسهم، فلربما ماتت حزناً وحسرة. الشكر لبوذا وإلهة الرحمة، كانا يعلمان أن هناك فوضى على وشك الوقوع، لذلك حرصا على ألا تكون هناك حينها.

(20)

بعد الاجتماع، قاد الحرس الأحمر شباب المدينة، دمّروا أولاً معبد قواندي وحرقوا تماثيل قوانقونغ، ثم ذهبوا إلى الجبل لتدمير معبد قواندا، وأحرقوا تماثيل بوذا والمحاريب والمنحوتات والتساوير والكتب المقدسة جميعها، بعضها لم يكن من الممكن حرقه أو تحطيمه، فألقوا به في الخزان الموجود فوق الجبل. كنا نشاهدهم وكأننا نشاهد حرباً حقيقية، فهناك نهب وحرق وتحطيم، ونيران ترتفع إلى عنان السماء، ودخان يملأ الهواء. كان الرهبان يبكون ويصيحون ويلعنون ويتضرعون، وصار الوضع فوضى عارمة. في البداية، وضع راهب بدين قضيباً حديدياً على البوابة لمنع الحرس الأحمر من الدخول، فاصطف أفراد الحرس الأحمر، ثم رددوا الشعارات مستعدين للهجوم. وبينما كان القتال كان على وشك الاندلاع، شعرنا بتوتر شديد، وفجأة فتحت البوابة مُصدرةً صوت صرير، وخرج الراهب العجوز

ذو الوجه البشوش- لقد رأيته أخيراً!

لم ينبس الراهب العجوز ببنت شفة، لَوَّح بيده فقط، مشيراً إلى الراهب البدين أن يضع القضيب الحديدي جانباً ويسمح للناس بالدخول. شدَّد الراهب السمين قبضته على القضيب الحديدي، وامتنع وجهه غضباً، وشرع يركل الأرض بقدميه رافضاً الاستسلام. ضمَّ الراهب العجوز يديه، وأغمض عينيه، وأخذ يرتل بعض الترانيم بصوت خفيض، ثم سار ببطء نحو الراهب السمين، ومدَّ يده، وضرب على عنق الراهب البدين مرتين، فأسقط الراهب السمين القضيب الحديدي من يده على الفور، وتسمَّر مكانه متوقفاً عن الحركة والكلام كوتد خشبي. كان هذا الراهب السمين هو الذي نزل من الجبل لاحقاً وجاء إلى القرية يبكي بمرارة ويصرخ بحدة عندما رأى المعبد يُهدم، حتى أن والدي سمع صراخه وهو في المنزل.

في تلك الليلة لم أستطع النوم في البداية، ثم راودتني الأحلام طوال الليل. رأيت في حلمي أنني قد انضمت إلى الحرس الأحمر، وذهبت برفقة بقية الحرس الأحمر لمحاصرة الراهب البدين. كان يلوِّح بالقضيب الحديدي أمام عيني، لكنني لم أشعر بالخوف إطلاقاً. ارتطم القضيب الحديدي بجبهتي، فسالت منها الدماء، لكنني لم أشعر بأي ألم على الإطلاق. كنت لا أزال رافعاً رأسي، مندفعاً برفقة البقية كثور صغير هائج. أخيراً، وفي النهاية تحولت إلى ثور بالفعل، نبت لي قرنان حادَّان، نطحت بهما الراهب البدين في عنقه، فتعالت صرخاته من الألم كأسد يزار، وكانت صرخاته تلك هي التي أيقظني من نومي. كانا يوماً وليلة لا يمكن نسيانهما من فرط الصدمة والإثارة، ما شاهدته نهاراً كان مثيراً ومريعاً، وما رأيته في أحلامي ليلاً كان أكثر إثارة ورعباً. كانت هناك هجمات، وقتال، ودماء تسيل، واشتباك بالأيدي، ومعارك دامية، ونيران مشتعلة، ودخان أسود يتصاعد، وثيران هائجة تركض في جنون، وأشباح تبكي، وذئاب تعوي، وبشر يقتتلون.

لكن الآن لم تراودني الأحلام، بل حتى أنني لم أنم بعد، لا أزال أتناول عشايتي، أحكي لعائلتي بأكملها على طاولة العشاء قصة تحطيم الحرس الأحمر المعابد التي رأيتها في أثناء النهار. وبينما كنت في منتصف حديثي وصل العقيد، وبمجرد دخوله الغرفة قال لأبي:

«أرأيت، لقد أصبحت نذير شؤم، أي شيء أتحدث عنه بالسوء يتحقق». قال والدي: «نعم، يا له من أمر مريع! لا أحد يعرف ما الذي ينوي هؤلاء الأوغاد الصغار فعله».

قال العقيد: «أريد أن أغادر وأختبئ». سأل والدي: «تختبئ مم؟».

قال العقيد: «أعتقد أنهم سيقبضون علينا كوننا من العناصر الأربعة، وسينكلون بنا في الشوارع غداً».

قال والدي: «لو تمكنت من الهروب غداً فلن تتمكن من الهروب بعد غد».

قال العقيد: «الرجل الحكيم هو من يعرف متى يتراجع، سأختبئ أولاً ثم ننتظر ونرى».

قال والدي، «هؤلاء الأوغاد الصغار لم ينبت شعر عانتهم بالكامل بعد، فلم تخافهم؟»

قال العقيد: «كما يقول المثل، لا تخش الكبار، واخش الصغار. الصغار يفسدون والكبار يعانون. أنت لا تعلم ما أعلمه، المدينة انقلبت رأساً على عقب بسبب هؤلاء الملائعين الصغار. وهناك جثث مجهولة الهوية تطفو فوق مياه النهر كل يوم. هؤلاء الأوغاد لم ينضجوا بعد، ولا يدركون خطورة أفعالهم، لذلك فمن الأفضل تجنبهم».

اعتاد والدي أن يكون قليل الكلام أمام الآخرين، لكنه لم يكن قليل الكلام قطّ أمام العقيد. أخذ ينصح العقيد بعدم المغادرة ويقول: «لم الاختباء؟ لو كانت كارثة قُدر لها أن تحل فلن تستطيع تجنبها. لا أعتقد أن

هؤلاء الملاعين الصغار يمكنهم أن يلحقوا بك أي أذى».

ثم توقف فجأة وكأنه تذكر شيئاً ما، وقال: «مهلاً، أليست والدتك في المعبد تصلي لإلهة الرحمة الآن؟ مؤكداً أنها ستحميك».

قال العقيد: «أريد من إلهة الرحمة أن تحمي قططي الاثنتين فقط».

ثم أخرج من جيب سرواله مفتاحين مربوطين بصوف أحمر، وعشرة يوانات، وسلمهما إلى والدي وقال: «عدّ قططي بمنزلة بقرتك العجوز. والدتي في جبل بوتو، وليس هناك سواك يمكنني الاعتماد عليه لرعايتهما». شعر والدي بالخجل من أخذ المال والمفاتيح، فوضع العقيد المال والمفاتيح على الطاولة وقال: «قطتاي من الصعب إرضاءهما، تريدان أكل السمك المجفّف كل يوم، وإذا لم يكن لديك مال، فكيف ستطعمهما؟».

قال والدي: «سأمسك بالفئران وأطعمهما إياها».

ضحك العقيد وقال: «قطتاي تصطادان الفئران فقط، ولا تأكلانها أبداً. فهما تعرفان أن الفئران قذرة للغاية، ولا تريدان أن تأكلا أي شيء من المجاري».

لم يكن يرغب في المكوث عندنا طويلاً لأنه كان يخطط للمغادرة ليلاً وعليه أن يستعد، فاستدار مغادراً قبل أن ينتهي من حديثه. كان يسير مرفوع الرأس ممدود الصدر، يخطو بخطواته الواثقة، فبدا وسط ظلمة الليل كأنه زومبي.

(21)

بمجرد أن غادر العقيد، جاء ابن عمي لمقابلة جدي. سبب مجيئه هو أنه من المقرّر عقد مؤتمر نقد وإدانة في قاعة الأسلاف صباح الغد، وسيُقتاد المدرجون ضمن العناصر الأربعة جميعهم إلى ساحة المؤتمر لنقدهم وإدانتهم، لذلك جاء يطلب من جدي أن يلقي كلمة نيابة عن الفلاحين الفقراء والطبقة الدنيا. جدي فصيح، ويحظى بتقدير كبير،

لذا فهو الشخص الأنسب لهذه المهمة. لكن جدي قد ذهب إلى منزل عمتي الثانية، ولن يعود قريبًا. عندما سمع ابن عمي بالأمر، شعر بخيبة أمل شديدة، لكنه صمَّم على طلبه، فطلب من والدي السفر ليلاً إلى بيت عمتي لاستدعاء جدي.

تظاهر والدي بأنه لم يسمعه، اكتفى بالانهماك في تناول الطعام متجاهلاً ابن عمي، تدخلت حينها وقلت لأبي: «لقد كان العقيد محقاً في توقعه».

ردَّ ابن عمي: «وما الفائدة من صحة توقعه؟ هو أيضًا واحد ممن سيُنتقدون ويُدانون».

نطق الأب أخيراً موبِّخاً ابن عمي: «هراء، من تظنون أنفسكم؟ أنتم حتى لستم أهلاً لأن تغسلوا قدميه».

ردَّ عليه ابن عمي بحقنق: «انتبه لما تقول، فكل من يعارضون كلامنا هم من المعادين للثورة».

وضع الأب عيدان طعامه وأشار إليه مهدداً: «عمَّ تتحدث بحق الجحيم؟ انتبه لكلامك وإلا ضربتك!».

لو حدث ذلك في الماضي، لكان ابن عمي سيخشى والدي، لكنه الآن لم يعد يتأثر بتهديد والدي. مدَّ رقبته، ونفخ الهواء من أنفه غاضباً، ثم أشار إلى الشارة الحمراء على ذراعه وقال محذراً والدي: «لو ضربتني، فستكون كمن يعتدي على الحرس الأحمر! ليس هناك من يجروء على ضرب الحرس الأحمر الآن، الحرس الأحمر وحدهم من يضربون الآخرين».

غضب والدي بشدة لدرجة أنه نهض من مكانه ليضربه، لكن لحسن الحظ أوقفته والدتي وشقيقي الأكبر.

لم يستطع والدي أن يضربه، فاكتفى بشتمه وطرده.

لم تكن طريقة مشي ابن عمي وهو يغادر توحى بأنه مطرود. كان يمد رقبته باستقامة ويسير بخطوات ثابتة، فبالرغم من غيابه أكثر من

أسبوعين فقط، بدا ابن عمي كأنه قد كبر بضع سنوات، وأصبح أكثر نضجاً. كان يرتدي زياً عسكرياً أنيقاً بأكمام حمراء زاهية تحمل شعار الحرس الأحمر، وشارة على صدره بحجم البيضة تحمل صورة الرئيس ماو، يمشي يهز كتفيه، ويلوِّح بيده اليمنى عندما يتحدث، تماماً مثل معلم موسيقا وهو يُعلِّمنا الغناء. وجدت نفسي منجذباً إليه، فتبعته، متجاهلاً نداءات والدي بالعودة.

لم أعد إلى المنزل تلك الليلة. نمتُ عند ابن عمي، فجدي لم يكن في المنزل على أي حال، وكنت سأنام وحدي لو عدت. طلبتُ من ابن عمي أن يروي لي تجاربه في أثناء تلك المدة. بدأ يروي لي تجربته منذ اليوم الأول لخروجه من المنزل، وما مرَّ به كل يوم، وصولاً إلى عصر ذلك اليوم. ووسط ظلام الليل، كنت أشعر أن من يتحدث ليس ابن عمي، وما يتحدث عنه ليست أحداثاً تخص ابن عمي، بل عن أشياء كنتك التي أطلعها في الكتب. هبَّت نسمة خفيفة على الناموسية، فشمت رائحة عرق ابن عمي المألوفة، لكنني كنت أشعر دائماً أنه شخص غريب.

قلت له: «يا ابن عمي، كلامك الآن مختلف عن ذي قبل».

قال: «الثورة هي التي غيّرتني».

قلت: الثورة شيء رائع».

قال: «الثورة شيء رائع بالفعل».

قلت: «أنا أيضاً أريد الانضمام إلى الحرس الأحمر».

قال: «أنت لا تزال في الصف الأول الإعدادي، ولم تبلغ السن المطلوبة». ثم صمت برهة، وقال: «يمكنك محاولة الانضمام إلى فرقة الاحتياط أولاً، فتحن نخطط لتشكيل فرقة احتياط للحرس الأحمر من طلاب الصفين الأول والثاني الإعدادي، وسأناقش الأمر مع الأعمى الصغير وأحاول ضمك إلى الدفعة الأولى من فرقة الاحتياط».

عندها فقط أدركت أن الأعمى الصغير أعلى منه رتبة. كان هذا الأعمى

الصغير قائد فرقة الحرس الأحمر في قريتنا، وكان ابن عمي وكماشة اللحم واللقيط من مرؤوسيه، وليسوا سوى قادة صغار فقط. كان الصبي الأعمى الصغير مشاغباً معروفاً في المدرسة، يسرق المصابيح الكهربائية والطباشير، ويتلصص على زميلاته في دورة المياه، ويتفوه بألفاظ بذيئة عن المعلمات. باختصار، لا يمر يوم دون أن يفتعل المشكلات. قبل أن ينضموا إلى المتمردين، أقامت المدرسة نشاطاً رياضياً. دفن الكرة في حفرة الرمل، كي يسرقها ويعود بها إلى بيته، وعندما علم معلم التربية الرياضية بالأمر، وبَّخه بشدة، لذلك ذهب في اليوم التالي إلى منزل معلم التربية الرياضية، وأمسك بدجاجة من دجاجاته ودفنها في حفرة الصرف. عندما علمت جدة المعلم بالأمر، جلست بجوار حفرة السماد تبكي دجاجتيها الميتين. أما هو فاختبأ في الزاوية يضحك على ما يجري. كانت تلك واقعة رأيتهأ بأَم عيني.

سألت مستغرباً: «كيف يمكن أن يكون صبي فاسد مثله قائداً؟».

أوضح ابن عمي: «قائد الفرقة هو من نصبه قائداً».

سبق أن التقيتُ شاباً وفتاة من قادة التمرد جاءا من المدينة، فسألته: «ومن قائد الفرقة؟ ذلك الشاب أم تلك الفتاة؟».

«لا هذا ولا تلك. قائد الفرقة لم يأت بعد، من المقرر أن يأتي صباح الغد».

في تلك الليلة، عانيتُ الأرق أول مرة وأنا في الرابعة عشرة من عمري. شعرتُ كأن الليل وزناً وشكلاً ورائحة، وشعرت كما لو أنني لست نائماً على السرير، بل فوق هواء أسود، غارقاً في دوامة من الأفكار المُشوَّشة والفوضوية والمُضطربة. تلك الأفكار كان يرمق بعضها بعضاً بغضب، ترتدي ملابس سوداء، وتحاصر جسدي، فجعلتني أشعر بالتعب الشديد بالرغم من أنني مُستلقٍ بلا حراك، وكأنَّ تدفق الدم في جسدي يحتاج إلى تروس دافعة ليسري كالمعتاد. كنت أحاول عبثاً أن أغمض عيني، لكنني

كنت أرى الظلام بوضوح كأنه مرآة موجودة في كل مكان، تراقبني بفتور ولا تسمح لي بالهروب. وغالبًا ما يظهر في تلك المرآة ظل شخص غامض، طويل القامة، عريض المنكبين، مربع الوجه، واسع العينين. ملابسه تشبه ملابس ابن عمي؛ بزة عسكرية زيتية، وحزام جلدي بني حول خصره، وشارة حمراء على ذراعه. كان هذا قائد الفرقة الذي رسمته في مخيلتي.

قائد الفرقة الحقيقي كان مختلفاً تماماً عما تخيلته. كان قصيراً ونحيفاً وضعيفاً، ذراعاه أقل سمكاً من ذراعيّ، وعندما رفعهما، كانتا مستقيمتين مثل عصا المنجل، نحيفتين من الأعلى والأسفل، خاليتين تماماً من العضلات، بل حتى أن الحذاء الرياضي الذي يرتديه كان مقاسه 36 فقط، أي أصغر بمقاس واحد من حذاء والدتي.

قال جدي: «أقدام صغيرة كهذه من المستحيل أن تكبر لاحقاً، ولو كبرت، فسوف يتعثر في أثناء المشي، مثل عشب فوق جدار تميل مع الريح».

الشيء الكبير الوحيد في جسده هو رأسه. جبهته عريضة ومرتفعة، يقال إنها ممتلئة بقصائد الشعر والأحلام. قبل انضمامه إلى الحرس الأحمر، كان رئيساً لنادي السماء الزرقاء الشعري في المدرسة الإعدادية في المحافظة، وبالطبع كان شاعراً. ولأنه يعدّ نفسه شاعراً يتوق إلى السماء الزرقاء، كان يرفع رأسه دائماً يتطلع إلى السماء في أثناء المشي، وربما كان السبب قصر قامته. أكثر ما أثار انتباهي هو أنه كان لديه شارب على شفته العليا، كان شاربه أسود لامعاً، وهو ما جعله يبدو شاعراً بالفعل. كان فمه جميلاً جداً عندما يبتسم، يكشف عن صف من الأسنان البيضاء الكبيرة. لكنه نادراً ما يبتسم، يقال إنه لم يكن يبتسم إلا عندما ينظر في المرأة. أخبرني ابن عمي أنه كان يشذب شاربه أمام المرأة كل صباح عندما يغسل وجهه وقبل الذهاب إلى الفراش ليلاً، يستمر في تشذيب شاربه وقتاً طويلاً، وابتسم بصمت في أثناء تشذيبه.

لم تكن هناك دار ضيافة في القرية، لذا كان على قائد الفرقة ومرافقيه أن يقيموا في فصول المدرسة ويناموا على المكاتب. مرافقوه كانوا فتاة وثلاثة فتيان، جميعهم من زملائه في الفصل في المحافظة.

لم نكن نعرف أسماءهم، لذلك أطلقنا عليهم اسم «الحراس الأربعة الكبار»- الحراس الأربعة الكبار لقائد الفرقة. ولأن هناك فتاة ضمن الحراس، لم يكونوا يغلقون الباب أو يطفئون الأضواء وقت النوم تجنباً لسوء الفهم. ونتيجة ذلك، هاجمهم البعوض بضراوة، لذا في اليوم التالي، كانت هناك بقع حمراء تغطي أجسادهم، وكأنهم مصابون بطفح جلدي. وفي وقت لاحق، غيّرُوا جدول أعمالهم، كانوا ينامون في الصباح ويعملون عصرًا ومساءً. كان عملهم الرئيس محو أي أثر مُتبقٍ من عناصر الفصيل المسيطر، والتوعية بحقيقة فصيلهم المتمرد، والقضاء على الخرافات الإقطاعية، والتتكيل بالعناصر الأربعة. علقوا لافتة خشبية عند بوابة المدرسة مكتوبًا عليها «الفرع السابع للمقر الرئيس للمتمردين الثوريين في محافظة فوشون». أصبح مكتب مدير المدرسة مكتبًا لقائد الفرقة. ووضعوا على باب المكتب علمًا أحمر مطرّزًا عليه بخيوط من الحرير الأصفر كلمتا «فصيل التمرد»، وفرضوا على كل من يدخل ويخرج أن يُحيي العلم الأحمر وقائد الفرقة. علمنا لاحقًا أن قائد الفرقة هذا هو ابن عم القائد «هُو» زعيم فصيل التمرد، وبطبيعة الحال كان لقب عائلته «هُو» أيضًا. كان البعض يطلقون عليه هو الآخر لقب «القائد هُو» لإرضائه، ولم يكن يعترض قطّ. وفي وقت لاحق، أصبح الجميع يناديه القائد «هُو»، وأصبح القائد «هُو» زعيم التمرد هو القائد الأعلى.

كانت هناك مهمات لا تنتهي في انتظار القائد «هُو» بعد مجيئه إلى قريتنا، ففي أثناء النهار، كان أحيانًا يُشرف على كتابة الشعارات وتعليقها، وأحيانًا أخرى يقود مرؤوسيه في عمليات التفتيش في بيوت القرية كلها؛ بمجرد اكتشاف أي من الأشياء المرتبطة بالإقطاعية والخرافات، تصدر أو تُحرق أو تُحطم، دون أي تساهل، والشكر للرب، لم يكتشفوا تمثال يسوع الخاص بالجد الصغير. لم ينجُ منهم تمثال قوانينونغ المصنوع من خشب الزيلكوبا، ولوحتان لتشونغ كوي طارد الأشباح، ومسبحة بوذية ورثناها عن

جدتي. وبحلول الليل، تزداد مهمات العمل، إذ كان عليه استدعاء أفراد الحرس الأحمر كافة لعقد اجتماع في ساحة المدرسة لانتقاد العناصر الأربعة وتحفيز الجماهير على كشف جرائمهم. وبالنسبة إلى الرجعيين المتخاذلين أو مرتكبي الجرائم الخطرة بشكل خاص، كان القائد «هُو» يقتادهم إلى المكتب للاستجواب الفردي، ويستمر انهماكه في هذا العمل طوال الليل في أغلب الأحيان.

كان القائد «هُو» قد أكد مرات عدة في أثناء اجتماعاته أن قريتنا كبيرة تتمتع بتاريخ عريق، وتضم قوى شريرة مستفحلة. فهناك معابد فوق الجبل وعند مدخل القرية، وقاعات أسلاف، ومستوطنات عسكرية قديمة، وأنصاب تذكارية. وقد سبق أن تمركز هنا جيش الكومينتانغ قبل التحرير، كما أن حالة الصراع الطبقي في القرية خطيرة ومعقدة على نحو خاص، لذا طلب من أفراد الحرس الأحمر جميعهم أن يكونوا مستعدين ذهنيًا للنضال الطويل الأمد، وأن يكونوا على استعداد لتحمل الصعوبات، وأن يتحلوا بالجرأة في أثناء القتال، وأن يحشدوا الحماسة الثورية للجماهير العريضة من فئات الشعب كلها، وأن يستأصلوا الأعداء الطبقيين كافة من زوايا القرية كلها، والاستمرار في الثورة الثقافية البروليتارية حتى النهاية، وألا يستسلموا أبدًا حتى تحقيق الهدف.

(23)

في كل مرة يستجوب القائد «هُو» المطلوبين على انفراد في مكتبه، غالبًا ما يختبئ مجموعة من الأشخاص خارج النافذة للتصُّت والمراقبة، وكنت واحدًا منهم بالتأكيد، فهذا هو الشيء الذي يهمني أكثر من غيره. كان الأمر أشبه بمشاهدة مسرحية، ممتعًا ومُسليًا. وبالرغم من كوننا متفرجين، فإننا كنا أيضًا من الناشطين الحريصين على الانضمام إلى الفريق الاحتياطي للحرس الأحمر، ووقفنا هناك هو في الوقت نفسه

بمنزلة تعبیر عن دعمنا. دائماً ما كانت عمليات الاستجواب بالطريقة نفسها، يدخل القائد هُوَ إلى المكتب، ويخلع حزامه الجلدي، ثم يخطب بيده على الطاولة بقوة، ثم يمسك بكتاب تعاليم الزعيم ماو، ويعلن بصوت واضح وعال:

«علّمنا قائدنا العظيم الزعيم ماو أن نستمر في الثورة الثقافية البروليتارية الكبرى حتى النهاية. أنت عدو للثورة وعدو للشعب، هل تفهم؟».

كنت منبهراً بأسلوب القائد «هُوَ» المهيّب والمنضبط. لقد نجح في إخضاع المدرجين ضمن العناصر الأربعة كافة لسلطوته، كانوا يقفون أمامه خافضين رؤوسهم، يجيبون عن كل أسئلته، ويطيعون كل أوامره. في تلك الليلة، شعرت برعب قاتل عندما رأيت القائد «هُوَ» يقتاد والذي إلى المكتب. كنت أعرف أن والذي كان يتحدث بالسوء عن القائد «هُوَ» خلف ظهره، ووصفه بأنه لقيط صغير. هل يُعقل أن يكون ابن عمي هو من وشى بوالدي؟

لا.

اتضح أن القائد «هُوَ» كان يبحث عن العقيد، فحينها كان قد انتقد وتُفّف الصنفان ضمن العناصر الأربعة في القرية، وكان هو الوحيد الذي أفلت من قبضة القائد هُوَ. أضف إلى ذلك أن القائد هُوَ قد علم أن هذا الشخص قد ارتكب جرائم لا تُغتفر، كان ضابطاً في حزب الكومينتانغ، وطُرد من جيش التحرير الشعبي في وقت لاحق. وهو الآن هارب من الاستجواب، ويرفض المشاركة في العمل، ويعيش حياة البرجوازيين، كما أن والدته لا تزال منخرطة في الأنشطة الإقطاعية والاعتقاد بالخرافات ونشر الأفكار الرجعية، ومن ثم فعائلته بأكملها هي حجر عثرة أمام الثورة. قرر القائد هُوَ أن هذه مشكلة خطيرة، وأمر الأعمى الصغير -قائد الفرقة الصغيرة- بالعثور عليه والتكيل به بشدة، ومن ثم قاد الأعمى الصغير

ثلاثة من الحرس الأحمر للمركز أمام منزل العقيد على مدار 24 ساعة في اليوم. لم يكن والدي على دراية بما يجري، فذهب إلى بيت العقيد لإطعام القطط في الموعد المحدد، لكن الأعمى الصغير قبض عليه. ومن هنا اشتبه القائد «هُو» في أن والدي يعرف مكان العقيد، لذلك استدعاه للاستفسار عن الوضع.

وعلى غير المعتاد، لم يتعامل القائد هُو مع والدي بقسوة، بل حتى أنه كان مهذباً معه. طلب منه الجلوس وأعطاه سيجارة، وعامله بود كأنه أحد أقاربه. كنت أراقب ما يجري من خلف النافذة وكأني أحلم، بل حتى كدت أشك أن هذا وهم. لكنني علمت لاحقاً أنه كون عائلتي عائلة فلاحية فقيرة، ولطالما كانت داعمة بقوة للحرس الأحمر، لذلك وجب على القائد هُو أن يعامل والدي بلطف، وبينما كان هُو يطرح سؤاله أين العقيد، أوضح لوالدي على نحو خاص أن هذا ليس استجواباً، بل استفسار.

سمعت والدي يقول دون تفكير وبقليل من الضجر: «لا أعرف أين هو». لكنني كنت أظن أنه كان يعلم، ثم أردف بشكل حازم: «لو كنت أعلم لذهبت للبحث عنه باكراً. أخبرني أنه سيعود بعد يوم، وأعطاني سمكتين مجففتين لإطعام القطتين. وقد أكلت القطتان السمكتين عن آخرهما، وأنا الآن مضطر إلى اصطياد السمك من البركة لإطعامهما، يا له من أمر مزعج!».

حينها تأكدت أن والدي يكذب. أي سمك هذا الذي سيصطاده؟ وأي سمك مجفف هذا الذي أكلته القطط عن آخره؟ فأنا أعلم أنه لا يزال لدينا عديد من السمك المجفف في المنزل. أصابتنني حالة التماسك والهدوء والكذب المتقن التي أظهرها والدي أمام القائد هُو بالصدمة والخرج. لقد كان القائد هُو لطيفاً للغاية معه، لكن والدي لم يعامله بالمثل، وكذب عليه، وهو ما جعلني أشعر بخيبة أمل وإحراج شديدين، كما جعلني هذا أدرك أيضاً أن مشاعري كانت منحازة إلى القائد الأعلى

هُوَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْحِيازِها إلى العَقيدِ . عالمُ الكبارِ عالمٌ مُحَيَّرٌ ؛ يَعلَموننا دائِماً أن نَكونَ صادِقيْنَ ، وأن نَقولَ الحَقيقةَ ، وألا نَکذبَ ، لَکنهم لا يَتورَّعونَ عَنِ الكَذِبِ .

أنا أيضاً کنتَ شَخصیةً مُحَيَّرَةً بَعضَ الشَیءِ ، فَعلى الرَغمِ مِنْ إعْجابی بالعَقیدِ ، فَإِنِّی لَمْ أَکُنْ أرْغبُ فی رَؤیتِهِ طَليقاً . کنتَ آمَلُ أن یَظْهَرُ أمامَ القائِدِ «هُوَ» لِلاستِجوابِ ، فَبهذهِ الطَریقَةِ رَیما أَسْتَطیعُ سَماعَ مَزيدٍ مِنَ القِصصِ عَنْه ، مِثْلَ سَببِ الصداقةِ بَینَهُ وَبَینَ الشَريطی العَجوزَ رَغمَ عداوتِهما السابِقةِ ؛ وما اللَغزُ الَّذی یَخبِئُهُ بَینَ فَخْذِیهِ ؟ وَمَنْ أینَ حَصَلَ عَلى الأوراقِ النَقدیةِ فَئَةِ العَشرةِ یواناتِ الَتي کَانَ یَخرِجُها دائِماً مِنْ جِیبِهِ ؟ أَعَتَقَدُ أن هَذا کَانَ فَضولُ الأَطفالِ فی القَریةِ جَمیعَهم ، بَمنَ فی ذَلكَ ابْنُ عَمی ، والأَعْمی الصَغیرِ ، وَکَماشَةُ اللَحْمِ ، وَاللَقِیطُ . بَعدَ ذَلكَ اتَّضَحَ أن رَغبَتَهم فی مَعرِفَةِ تَلكَ الأمورِ کانتَ تَفوقُنی بِکَثیرِ .

لَمْ تَذهبْ أَمَنیَّتِی هِباءً ، فَقدَ عادَ العَقیدُ . کَانَ الأَعْمی الصَغیرُ هُوَ الَّذی خَدَعَهُ بِحیلَةٍ ماکِرَةٍ حَتى یَعودُ إلى مَنازلِهِ ، کانتَ حیلَةُ ماکِرَةٍ إلى أَقصى حَدٍّ الجَمیعِ فی القَریةِ ، بَمنَ فیهِمُ الأَعْمی الصَغیرُ ، یَعرِفونَ جَیْداً أن القَطَطَ بِمَنازِلَةِ الرُوحِ بِالنَِسْبَةِ إلى العَقیدِ ، یَنظُرُ إلى القَطَطِ وَکأنَّها أَوْلادُهُ ، وَأَغلى ما لَدِیهِ ، قِطْعَةٌ مِنْ جَسَدِهِ ، أَکْثَرُ أَهمیةٍ بِالنَِسْبَةِ إِلَیهِ مِنْ أی شَیْءٍ آخَرَ . لِذَلكَ عَرَضَ الأَعْمی الصَغیرُ عَلى القائِدِ هُوَ اقْتِراحاً -خُطَّةٌ مُحکَمةٌ- وَهُوَ خَطَفَ قِطَعتِی العَقیدِ ، ثُمَّ الإِعلانَ عَنِ ذَلكَ عَبرَ الرادِیو ، حَینَها سَیقعُ العَقیدُ فی الفِخِّ بِالتَأکیدِ .

وَبِالْفَعْلِ ؛ بِحُلُولِ الصَباحِ اخْتَطَفَ الأَعْمی الصَغیرُ القِطَعتَينِ وَحَبَسَهُما فی المَدرَسةَ . وَبِحُلُولِ الظَهِیرَةِ ، عادَ العَقیدُ خائِفاً إلى القَریةِ ، یَحْمِلُ فی یَدِهِ حَقِیبةَ جَلَدیةٍ سَوداءَ ، وَذهبَ مِباشَرةً إلى المَدرَسةِ بَحْثاً عَنِ قِطَعتِهِ . حَینَها فَتَشَ القائِدُ هُوَ حَقِیبتَهُ فَوَجَدَ فیها حِذاءً ، وَمَنشَفَةً ، وَنَصفَ خَراطُوشَ سَجائِرَ ، وَصَندوقَینِ صَغیرَینِ مِنَ الألومِنیومِ . عَندَما فَتَحوا الصَندوقَینِ ،

وجدوا في أحدهما كومة من الأدوات الجراحية الذهبية اللامعة المختلفة الأحجام، كأنه صندوق مجوهرات، ووجدوا في الصندوق الآخر كومة من عظام السمك، سوداء اللون كريهة الرائحة، كأنه صندوق قاذورات. «اقبضوا عليه!».

ما إن صدر أمر القائد «هُو»، حتى اندفع العشرات من أفراد الحرس الأحمر ذوي الأذرع النحيلة والأرجل النحيفة يقودهم الحراس الأربعة الكبار إلى الأمام لتطويق العقيد والقبض عليه. في البداية، حاول العقيد التصدي لهم وهو يتراجع مثل قطعة كبيرة. كان يتحرك بخفة ورشاقة، ثم انبرى يهاجمهم بقوته، فلم يتمكن الحرس الأحمر من الاقتراب منه. سقط عدد منهم على الأرض، وتراجع بعضهم يصرخ أَلْمًا، وعندما رأى العقيد أنهم ليسوا نَدًا له، اندفع يهاجمهم بلا رهبة. لا أعرف إذا ما كان العقيد قد أقر بالهزيمة أم أنه خاف أن يؤذيهم بشدة، لذلك تخطى فجأة عن المقاومة. انتهز الحرس الأحمر الفرصة ثم انقضوا عليه وأسقطوه أرضًا. حينها أصدر القائد هُوَ أمرًا آخر: «اربطوه!».

لكن لم يكن هناك حبل، فالأشخاص المدرجون ضمن العناصر الأربعة لم يُظهروا أي مقاومة في أثناء القبض عليهم في وقت سابق، ولم تكن هناك حاجة إلى حبال لتقييدهم. لكن الأعمى الصغير كان حاذقًا للغاية. أخذ ينظر حوله ثم ركض مباشرة نحو مقصف المدرسة، وأتى بحبل من القنب يستخدم لربط الماشية. تقدم القائد هُوَ ليقيده بنفسه، فقد سبق أن ربط أشخاصًا عديدين في أثناء الشهور التي قضاها في العمل الثوري، وصارت لديه خبرة في تقييد الآخرين، وبمساعدة الحراس الأربعة الكبار، قيّد العقيد بشكل محكم في وقت قصير، ثم اقتاده إلى ساحة القرية لينكل به.

كانت مسيرة اقتياده إلى ساحة القرية مهيبَةً بشكل استثنائي. في الماضي، كانت المسيرات تقام دون قرع الطبول والأجراس، فقط كانوا يرددون الشعارات. لكن هذه المرة، كان هناك شخص يقرع الجرس في الأمام، وآخر يدق الطبل في الخلف. في بعض الأحيان كان صوت الجرس يعلو على صوت الطبل، وفي أحيان أخرى كان صوت الطبل يعلو على صوت الجرس، وبين هذا وذاك، كانت هناك موجات متلاحقة من أصوات شعارات، كل موجة أعلى من الأخرى، لدرجة أنها أفزعَت الطيور التي لم تجرؤ على التحليق فوق القرية، وطارَت هاربة نحو الجبل والغابة، كأنَّ هناك حريقًا تتصاعد ألسنته في الأفق. كانت مسيرة مهيبَة، الغرض منها الاحتفال بالقبض على المجرم الوحيد الهارب، وإيذانًا بسقوط المطلوبين كافة في قبضتهم. في الماضي، كانت المسيرات تضم مجموعة من المطلوبين، يسيرون صامتين محنيي الرؤوس، كان الأمر مملاً، أشبه بفيلم صامت، وليس هناك ما يستحق المشاهدة، لكن هذه المرة كانت المسيرة مخصَّصة لرجل واحد، ورغم ذلك، لم تخلُ من الإثارة، فقد كان العقيد يسب ويلعن، ويحاول التخلص من قيده، ويتعرَّض أيضًا للسب واللعن في الوقت نفسه، كان عرضًا رائعًا يستحق المشاهدة.

المثير في الأمر أن العقيد عندما كان يمشي في القرية في السابق، كان يسير دومًا مستقيم الظهر، مرفوع الرأس، يمشي مختلاً بخطا وثقة، خاصة في فصل الشتاء، كان يرتدي دائمًا ذلك الحذاء ذا الرقبة المزين بمسامير حديدية على نعله، وعندما يسير به فوق الطريق المرصوف بالحجارة، وحتى فوق الجليد، يصدر منه صوت تكتكة. تلك تلك الكحوافر حصان حربي يسير في مقدمة الجيش. لكنه الآن أصبح مثل الكلب الأجرب، يحتاج إلى من يجره أو يسحبه. لقد فقد هيئته تمامًا، وصار بائسًا إلى أقصى حد.

في ذلك اليوم، عاد جدي من بيت عمتي الثانية، وعندما رأى العقيد يتعرض للتكيل، هز رأسه وقال: «انتهى الأمر، انتهى الأمر. لقد صار هذا المخصي مُداناً الآن. لم أره يتعرض لمثل هذه الإهانة منذ ولادته، هؤلاء الأوغاد الصغار...»، ثم قطع كلامه وانتظر حتى وصل إلى منزله ليُكمل الجزء الثاني من الجملة: «ليسوا سوى مجرد وحوش!».

قال والدي: «إنهم أسوأ من الوحوش، لدرجة أنهم يريدون تدمير المعابد». قال جدي: «أجل، معبد قواندا عمره مئتا عام، وقد رأينا أشراراً كثيرين، لكن لم يكن أحد منهم أكثر شراً من هؤلاء الوحوش الصغار. وحدها الوحوش هي التي تُقدم على تدمير معبد عمره مئتا عام. يا لهم من وحوش صغار! يا لهم من وحوش صغار!». ظل الجد يسب ويلعن عناصر الحرس الأحمر بلا توقف، وكأن لعنهم مراراً وتكراراً يمكنه أن يخفف كراهيتهم في قلبه، ويمكنه أيضاً فضح شرور الحرس الأحمر غير المسبوق، وأن يتسبب في حلول اللعنة عليهم بالفعل.

في الأحوال المعتادة، كان جدي يكره العقيد أكثر من أي شخص آخر، ولكن عند مقارنته بالقائد هو والحرس الأحمر، وقف في صف العقيد، وهو ما كان على العكس مني تماماً. الكبار غريبون جداً، فهم دائماً يعارضون الأصغر سناً، وكأنهم يتعاملون مع خصوم لهم. يا جدي، هل أصابك الخرف؟ لم تشعر بالحزن على تدمير معبد بالٍ كهذا؟ هل يستحق هذا أن يكون سبباً لسب الأبطال الشباب الثوريين والحرس الأحمر ولعنهم؟ يا جدي، ألا تعلم أن شتمهم بهذه الطريقة يعني أنك أيضاً معارض للثورة، وستُقتاد إلى الساحة للتكيل بك؟ يا جدي، من فضلك عد إلى رشدك. لا أريد أن يكون لي جد معارض للثورة، فأنا أريد الانضمام إلى الحرس الأحمر في أقرب وقت ممكن. خلاصة الأمر أنه كان هناك خلاف بيني وبين جدي ووالدي حول موقفنا تجاه الحرس الأحمر، فقد شعرت أنهما أنانيان، وقصيرا النظر.

وبينما كان جدي يسب ويلعن الحرس الأحمر، اقتاد الحرس الأحمر العقيد المتغطرس إلى المدرسة وكأنه مجنون ذليل. في الماضي، كانت مسيرات التتكيل تستغرق ساعة أو نحو ذلك للتجول حول القرية بأكملها، ولكن لأن العقيد رفض الانقياد، وقاوم، وكافح، وقاتل، طالبت مدة المسيرة، ولم تنتهِ إلا مع حلول الظلام. جرت العادة بعد انتهاء المسيرات أن ينصرف الناس إلى أعمالهم ومشاغلهم، وأن يُطلق سراح المذنبين ليعودوا إلى منازلهم لتناول الطعام أو للنوم، لكن القائد هو رأى أن هذا الرجل لم يرتدع بعد، ولم يقر بذنوبه كما ينبغي، لذلك قرر معاملته معاملة خاصة، فحبسه ولم يسمح له بالعودة إلى المنزل.

وبينما كان الأعمى الصغير على وشك أن يفك قيد العقيد ليتركه يعود إلى منزله، صدرت تعليمات القائد هو، حينها توقف الأعمى الصغير وقال بسعادة: «قرار صائب، فأنا لم أكن أريد فك قيده». لكن القائد هو لم يكن قد قرر بعد أين سيحبسه، فرفع رأسه، ومسح على شاربه وهو يفكر في الأمر.

اقترح الأعمى الصغير على الفور خطة جهنمية أخرى: «لنحبسه مع القطط».

هذا الأعمى الصغير كان مدججاً بالأفكار الشريرة، والقائد هو يحبه لهذا السبب، فهما ثعلبان من الجحر نفسه، كنت قد طالعت هذه العبارة للتو في الكتاب المدرسي حينها، لا، هذا مصطلح مهين وليس من المناسب تطبيقه على القائد هو، لا ينطبق إلا على الأعمى الصغير فقط. كنت على قناعة بأن القائد هو سيدرك عاجلاً أم آجلاً أن هذا الأعمى الصغير شرير لعين، وسيُقصيه عن منصبه، وينصب ابن عمي قائداً للفرقة بدلاً منه. في تلك الليلة، ظلت تلك الفكرة تحوم في ذهني عندما استلقيت على فراشي، وفي تلك الأثناء، كان صوت شخير جدي يحوم داخل أذنيّ كالاعتاد، وكأنه صوت منفاخ.

حُبست القطتان في الغرفة التي كانت عشيقة الشرطي العجوز تستخدمها دكاناً في الماضي، والتي تحولت إلى مخزن خاص بمقصف المدرسة حينها، وكانت ممتلئة بالحطب، والفحم، والقش، والمكاتب والمقاعد والسبورات المهملة، والمراوح، والأنوال وغيرها. كان المكان فوضوياً للغاية، ممتلئاً بكل أنواع الخردة، بل حتى أنه كان يحوي نعشاً أيضاً، ولا أحد يعرف من الذي خزنه هناك. كانت رائحة المخزن كريهة للغاية؛ خليطاً بين رائحة العفن ورائحة البول والبراز المخمر. هناك دورات مياه في المدرسة، فمن هذا اللعين الذي كان يتبرز ويتبول هنا؟ اتضح أن الطباخ هو من كان يفعل ذلك، من أجل تجميع بعض السماد لأرضه، لم يكن يذهب إلى الحمام، وبدلاً من ذلك وضع دلوين داخل المخزن، واحد للبراز والآخر للبول. وعندما يمتلئان، يحملهما إلى حقله ليسمد بهما الأرض.

بدأت القطتان في حالة مزرية ومثيرة للشفقة بعد حبسهما يوماً كاملاً في هذا المخزن القذر القاتم الذي يعج بالغبار والرائحة الكريهة. أصبحت القطاة البيضاء سوداء بفعل القذارة، وأصبحت القطاة السوداء بيضاء بفعل الغبار، وعندما كانتا تهزان رأسيهما، تتطاير حولهما سحابة من الغبار. لطالما كانت القطتان تعيشان حياة من الرفاهية في منزل العقيد، ولم تتعرضا قط لمثل هذه المعاناة من قبل؛ حبل من النايلون يطوق عنقيهما، يعانيان الجوع، يرقدان فوق القذارة. عندما رأى العقيد هذا الوضع، شعر كأن السماء قد سقطت على الأرض. انهمرت الدموع على خديه، ولم يتمكن من كبح جماح غضبه، فهاج وماج وهو يسب ويلعن.

أثار هذا الأمر استغراب الأعمى الصغير الذي اقتاده إلى هنا. ففي عصر ذلك اليوم، كان العقيد قد تعرّض للتكيل الشديد كأنه خنزير أو كلب، اقتادوه وجروه وضربوه بعنف، حتى غطت الجروح جسده كاملاً،

لكنه لم يصرخ أَلْمًا أو يتفوّه بكلمة واحدة. أما الآن، فالأمر على العكس تمامًا، كان حزينًا وغاضبًا حتى أنه بدا كأنه سيموت من فرط غضبه. كان مجنونًا بمعنى الكلمة! لو لم يكن العقيد مقيّدًا، لشعر الأعمى الصغير بالقلق خوفًا أن يُقدم على إيذائه. في الأصل، كان يخطط لاستجوابه دون علم القائد هُو، فهو في نظره شخص غريب الأطوار، والكل في القرية يتحدث عنه خلف ظهره، وكلما تحدثوا عنه زاد الفضول تجاهه، لذلك كان لدى الأعمى الصغير فضول كثير يريد إشباعه، وها هي الفرصة سانحة الآن. لكن عندما رأى مدى جنونه وغضبه، خاف أن يصاب بالجنون ويؤذيه، لذلك تخلّى عن الفكرة مؤقتًا، واستدار مفادراً دون أن يسأل عن أي شيء، كأنه يفر من ساحة معركة.

ناداه العقيد: «لا ترحل».

ردّ الأعمى الصغير وهو يتراجع نحو الباب بصوت عالٍ متظاهراً بالشجاعة: «ماذا تريد أن تفعل؟ اصمت!».

حاول العقيد إقناعه: «أطلق سراح القطط، فانتقامكم مني، لا علاقة للقطط بالأمر».

قال الأعمى الصغير ساخراً: «من تظن نفسك لكي تُملي عليّ أوأمرك؟».

استدار العقيد، ثم خبط على مؤخرته بيديه المربوطتين خلف ظهره، وأخبره أن لديه عشرة يوانات في جيبه، وطلب منه إطلاق سراح القطط مقابل تلك العشرة يوانات؛ عشرة يوانات يمكنها شراء كم من اللحم يكفي عائلة بأكملها مدة عام كامل. ولكن ماذا إن كانت هذه مؤامرة، وكان هذا العقيد ينوي ركلي بقدمه لو تقدمت لأخذها؟ فقد سبق أن خدم في الجيش، ويتقن كثيراً من مهارات الفنون القتالية، وقد أظهر بالفعل بعضاً من تلك المهارات عصر اليوم، لا يمكنني أن أقع في تلك المصيدة. لذلك قاوم الأعمى الصغير هذا الإغراء ووبّخه بقوله:

«أيها الكلب المخصي، هل تريد رشوتي؟ حسنًا، سأبلغ القائد الأعلى فور عودتي، فرشوتك الحرس الأحمر الثوري جريمة أخرى تضاف إلى جرائمك!».

بعد الاستماع إلى بلاغ الأعمى الصغير، ربت القائد «هُو» على كتفه، وأثنى عليه، ثم قال بنبرة هادئة: «لقد فكرتُ في الأمر للتو. سننكل به وحده فقط الليلة، فهذا الرجل متغطرس ومغرور للغاية، وما زالت بقايا سموم رجعي الكومينتانغ متغلغلة في أعماقه. يجب أن نُسخّر سلطة البروليتاريا الجبارة للتكيل به وكسر شوكته وتدمير هيئته، وإجباره على عدم رفع رأسه ثانية، واستئصال غطرسته من النخاع، حتى ينقاد لإرادة الشعب ويكون عبدًا له».

على الرغم من أنني شعرت ببعض من خيبة الأمل بسبب مظهر هذا القائد هُو في البداية لأنه لم يكن قوي البنية بما فيه الكفاية، فإنني عندما سمعته يتحدث، صرت معجبًا للغاية بنبرته الحازمة، ولغته الرصينة، وخطابه البليغ. أعتقد أن السبب في ذلك هو كونه شاعرًا. سمعت أنه كان لديه دفتر ملاحظات أكبر حجمًا من الكتاب، وبعد أن يخلد الجميع إلى النوم كل ليلة، ينكب على كتابة القصائد في دفتر الملاحظات؛ بعضها كان طويلًا لدرجة أنه لم يكن من الممكن نسخها على السبورة، وبعضها كان قصيرًا لذلك تُكتب على السبورة حتى يتمكن الجميع من مطالعتها. من بينها كانت القصيدة الآتية التي تركت لديّ انطباعًا عميقًا:

بعض الأعشاب سامة

بعض الناس أعداء

بعض الجبال أقل ارتفاعًا من غيرها

وبعض الناس هم حجر عثرة في طريق الثورة.

سنغني فوق قمم الجبال الشاهقة

وسنسبح وسط البحار الشاسعة

مكتبة

t.me/soramnqraa

فالثورة ليست مأدبة لتناول الطعام

كم هي عظيمة هذه الثورة الثقافية!

في الليلة التي سبقت مغادرة القائد هُو قريتنا، كتب هذه القصيدة بنفسه على جدار المدرسة الأبيض المواجه للطريق السريع. كانت كل كلمة بحجم قبضة والدي، فصار بالإمكان رؤية تلك الكلمات الحمراء الكبيرة على الجدار الأبيض من بعيد. كان لونها الأحمر لامعاً بصورة لافتة، حتى أن البعض كانوا يقولون إن السبب هو أن الحبر الأحمر مخلوط بالدم؛ يقول بعضهم إنه دم دجاجة، ويقول بعضهم إنه دم بقرة، ويقول بعضهم إنه دم القائد «هُو» نفسه. هل كان الحبر مخلوطاً بالدم بالفعل؟ وما نوع هذا الدم؟ لو حدث ذلك في الماضي، لكان الجميع سيذهب ليسأل العقيد، فهو واسع المعرفة، كما أنه رأى دماء كثيرة طوال حياته، لذلك لن يشكل هذا السؤال أي صعوبة بالنسبة إليه. لكن لم يكن بإمكانهم العثور على العقيد حينها، لقد اختفى!

لم يحن الحديث عن اختفاء العقيد بعد؛ لنعد ثانية إلى القائد الأعلى «هُو» قبل مغادرته القرية، والعقيد قبل أن يختفي. كان العقيد محبوساً في مخزن قذر برفقة قطيته، في انتظار اقتياده في مسيرة مسائية للتكيل به على نطاق أوسع، وفي أثناء تناول العشاء، سمعتُ الفتاة التي جاءت برفقة القائد «هُو» تطالب مرة أخرى عبر مكبرات الصوت القرويين جميعهم بالذهاب إلى المدرسة بعد العشاء ليشهدوا مسيرة التكيل المسائية. كانت الأمور تسير على المنوال نفسه في الأيام التي تلت مجيء القائد هُو ومن معه إلى قريتنا، فعندما يحين الوقت، يبدأ البث عبر مكبرات الصوت، تتحدث الفتاة أولاً، يليها القائد «هُو». مضمون الحديث هو نفسه في كل مرة: سن عقد اجتماعاً، ويتعين على كل أسرة إرسال ممثل واحد بالغ على الأقل.

وكما جرت العادة، بدأ الاجتماع بصيحات عارمة من الشعارات، وبمجرد توقف الشعارات، اقتاد اثنان من الحرس الأحمر القادمين من المدينة العقيد نحو المنصة: كان وحده فوق المنصة، وحيداً تماماً، يده مقيدتان خلف ظهره، ويرتدي قبعة مخروطية كبيرة على رأسه مكتوباً عليها «عدو الشعب» و«مجرم عتيد». وهناك لوحة ورقية معلقة على صدره مكتوب عليها أيضاً مختلف التهم الموجهة له، وعلامة X حمراء كبيرة، كما لو كانوا سيعدمونه رمياً بالرصاص في نهاية الاجتماع.

كان القائد «هُو» أول من تحدّث على المنصة. تكلم أولاً عن هروب العقيد من العدالة، ثم تحدّث عن الانتصارات العظيمة التي حققها الحرس الأحمر في سبيل نجاح الثورة، ثم تقدم بعدها إلى مقدمة المنصة، وأشار إلى العقيد وقال ساخطاً: «أيها الرفاق! أيها الرفاق! لم نكل به وحده اليوم؟ لأنه ارتكب جرائم شنيعة، ويرفض الاعتراف بذنبه،

ويرفض تصحيح أخطائه، ويريد مقاومة الجماهير العريضة حتى النهاية. لقد علّمنا القائد العظيم الزعيم ماو أن نكون متساهلين مع من يعترفون بخطئهم، وأن نكون قساة مع من يقاومون، ونحن -الجماهير الثورية- نرفض بشدة التساهل مع العناصر العنيدة التي تريد أن تسلك الطريق المظلم حتى النهاية أمثاله! أيها الرفاق، هل ترفضون التساهل معه؟. نعم نرفض! نعم نرفض!

رفع أفراد الحرس الأحمر الواقفون أعلى المسرح وأسفله أذرعهم وهتفوا، لكن أغلب الجماهير لم يرفعوا أيديهم، ولم يستجب إلا عدد قليل منهم. بدا القائد «هُو» غير سعيد، فتقدّم بضع خطوات إلى الأمام، ونظر إلى الجماهير الواقفة خلف الحرس الأحمر أمام المنصة، وحثهم مرة أخرى على الاستجابة.

ظل المستجيبون قلة كما هم، بل حتى أنهم بدؤوا أقل بكثير وسط الظلام.

لم تُبد الجماهير الاستجابة المطلوبة تلك الليلة. حوّل القائد «هُو» وجهه إلى الجهة الأخرى تعبيراً عن خيبة أمله، وشرع يسير على المنصة ذهاباً وإياباً، يفكر، ويداعب شاربه. وبعد قليل رفع رأسه ثم توجه إلى مقدمة المنصة ومسح العرق عن وجهه وفتح عينيه على مصراعيهما وبدأ يتحدث بحماسة أكبر إلى الجمهور. كان مظهره وصوته الحماسي يفيضان بحالة ثورية عارمة، حتى إن لم يكن يرتدي ذلك الحزام حول خصره وتلك الشارة الحمراء على ذراعه، كان قادراً على جعل كل من يشاهده أو يسمعه ينخرط لا إرادياً في تلك الحالة الثورية.

أيها الرفاق، لوّج بذراعه وقال بصوت رنان يخترق سماء الليل: لقد شملت للتو رائحة التعاطف مع الأعداء الطبقيين، رائحة أنتن من رائحة المراحيض! أين وعيكم الطبقي؟ إنه ليس سوى كلب ذليل لرجعيي الكومينتانغ! ليس سوى حيوان! شيطان! ثعبان! شبح! لقد هبّت رياح

الربيع الثورية بالفعل في أنحاء البلاد جميعها، فأرعبت الأعداء الطبقيين، وأجبرتهم على الاستسلام. أما هو فيرفض التوبة والرجوع. لماذا؟ لأن هناك من يحميه. من الذي يحميه خلف الكواليس؟ الكومينتانغ! تشيانغ كاي شيك! الجواسيس الأمريكيان! التحريفيون السوفييت! يظن أن هؤلاء الرجعيين سيأتون لإنقاذه، لذلك رفض التوبة، ويستمر في المقاومة حتى آخر رفق، يا لها من مزحة! يا لها من مزحة كبيرة! لقد علّمنا قائدنا العظيم الزعيم ماو أن العالم لنا، وأن الغد لنا، وأننا سادة العالم، وأن الرجعيين جميعهم هم نمور من ورق.

يسقط النمر الورقي!

يسقط تشيانغ كاي شيك!

تسقط الإمبريالية الأمريكية!

يسقط رجعيو الكومينتانغ!

يسقط المحرف السوفييتي بريجنيف!

ترددت الشعارات واحداً تلو الآخر، كالموج الهادر، موجة بعد موجة، ما أربع الطيور التي تعيش تحت أفاريز المنازل، فطارت من أعشاشها لتتجو بحياتها، واصطدمت بالخفافيش وسط الظلام. لم تتحمل الخفافيش الصغيرة الضربات، فسقط بعضها على الأرض، وسقط بعضها فوق أجساد الناس، ما تسبّب في فوضى عارمة.

(27)

بالرغم أن مثل هذه الاجتماعات كانت تُعقد كل ليلة، فإن هذه المرة تركت لديّ الانطباع الأعماق والأفضل. السبب الأول هو أن القائد «هو» لم يسبق أن أطل في حديثه كما فعل هذه المرة؛ كان حديثه باهراً للغاية، وكلماته منتقاة، ونطقه فصيحاً، وتفكيره منطقيّاً، وتعبيراته بليغة، تجعلك تشعر أنه ليس قادمًا من المحافظة، بل من المقاطعة نفسها، أو حتى من

العاصمة بكين. والسبب الثاني هو أنه على الرغم من العلاقة الجيدة التي تربط العقيد مع والدي، وبالرغم من حبي الاستماع إلى قصصه، فإنني كنت أفضل ترديد الشعارات برفقة الجميع. سبق أن أخبرتني والدتي أن أسعد لحظاتها هي تلك الأوقات التي تحمل فيها الحبوب في العرية اليدوية في كل مرة يوزع فيها فريق الإنتاج الحبوب. وأعتقد أن أسعد لحظاتي هي تلك الأوقات التي أرفع فيها ذراعي وأردد الشعارات برفقة الجميع:

يسقط-! يسقط-! يسقط-!

بعد الانتهاء من ترديد الشعارات، طلب القائد «هُو» من الجميع الصعود إلى المنصة لفضح جرائم العقيد. كان الأعمى الصغير الأكثر حماسة بين الجميع، فكان أول من صعد على المنصة، تلاه كماشة اللحم، ثم ابن عمي، وأخيراً اللقيط. هؤلاء الأشخاص الأربعة هم أول من غادروا القرية للانضمام إلى الفصيل المعارض، وهم أيضاً من جلبوا القائد «هُو» ورفاقه إلى قريتنا لإشعال هذه العاصفة الثورية، وهم الآن -بلا شك- أعضاء أساسيون في فرقة القائد «هُو»، ومكانتهم وسلطتهم تأتي في المرتبة الثانية بعد الحراس الأربعة الكبار، لذلك كنا نطلق عليهم سرّاً «الحراس الأربعة الصغار» للقائد الأعلى «هُو».

بعد نزول الحراس الأربعة الصغار من على المنصة، دعا القائد «هُو» بقية الجماهير إلى الصعود إلى المنصة.

حفزهم القائد «هُو» قائلاً: «لا تخشوا شيئاً، فقط قولوا ما تريدون، نفّسوا عن غضبكم منه، واقتصوا لأنفسكم، نريد أن نفّض جرائمه القديمة كاملةً، التاريخية أو السياسية أو المادية. هذه هي الثورة، فالثورة ليست حفل عشاء، الثورة لا تعترف بالمشاعر، الثورة نضال، ونزع لأقنعة الأعداء، وكشف لوجوههم القبيحة».

لكن الحشد ظل بلا استجابة، وكأنهم لم يسمعوا أيّاً مما قاله، وبدا المكان غارقاً في صمت مريب مدّة من الوقت. لم يبتس القائد «هُو»،

واستمر في استخدام أساليب الترغيب والترهيب بكل ما أوتي من قوة. وفي النهاية، انبرى أحد الأشخاص من وسط الحشد. هذا الشخص كان الشرطي العجوز. الشرطي العجوز يبلغ من العمر أكثر من سبعين عاماً، لكنه لا يزال يتمتع بصحة جيدة، بإمكانه أن يتناول دجاجة كاملة ويشرب رطلاً من الخمر في الوجبة الواحدة. كان جدي يغبطه كثيراً على صحته الجيدة. في إحدى المرات سمعت المحادثة الآتية بينه وبين جدي داخل قاعة الأسلاف:

كان جدي يناديه دائماً الوغد العجوز، لذا سمعته يقول: «أيها الوغد العجوز، أنت أصغر مني بعام واحد فقط».

ردَّ الشرطي العجوز: «نعم، أيها العرَّاف العجوز، ولهذا السبب لم تتوقف عن التمر عليّ طوال حياتك».

«هذا هراء، من هذا الذي يجرؤ على التمر على شرطي مثلك؟ أنت الذي لم تتوقف عن التمر عليّ».

«أنت من ينطق بالهراء، فأنا لم أعمل شرطياً إلا منذ بضع سنوات فقط، قبلها لم تتوقف عن التمر عليّ».

تتهَّد جدي بحزن وهو يقول: «حتى إن كان كلامك صحيحاً، فقد ولَّت تلك الأيام، يمكنك أن تتمر عليّ كما يحلو لك الآن، لقد وهن جسدي، ولم أعد أستطيع الانحناء لالتقاط الأشياء من الأرض، وأعتقد أنني سأعيش طريح الفراش بحلول العام المقبل، لقد هرمت، لكنك لم تهرم على الإطلاق، تبدو بصحة جيدة وكأنك أصغر مني بعشرين عاماً على الأقل».

ضحك الشرطي العجوز: «هذا صحيح، على الأقل عندما يتعلق الأمر بالنوم مع النساء».

وفي مرة أخرى، اصطحبني جدي إلى البيدر لدرس القمح؛ كنت مسؤولاً عن هز الطاحونة، وكان جدي مسؤولاً عن غربلة الحبوب وتعبئتها؛ كانت مهمتي سهلة للغاية مقارنة بجدي. كل ما عليّ هو أن أمسك بالمقبض

وأحركه باستمرار. لكنني كنت مجرد طفل في الحادية عشرة فقط حينها، ولم تكن لدي أي قدرة على التحمل. كنت أتعرق بغزارة، وشعرت بذراعي تؤلمني بشدة، ثم نفذت طاقتي كاملة. حاولت أن أتوقف، لكن جدي طلب مني أن أتحمل، وألا أتكاسل. تماسكت مدةً من الوقت، لكنني استنفدت كل قوتي، فتوقفت وجلست على الأرض. في ذلك الوقت، مر الشرطي العجوز بجوارنا، وعندما سمعني أقول إنني تعبت، أخذ يغني لي ويقول:

«كلما عمل الصبي بجد زادت قوته، تمامًا كما يكبر ثدي الفتاة كلما داعبته».

أمسك جدي بحفنة من القش وقذفه بها وهو يقول: «عمّ تتحدث أيها الوغد العجوز؟».

ضحك الشرطي العجوز: «أنا أتحدث نيابة عنك».

وبَّخه جدي قائلاً: «إنه لا يزال طفلاً، يجب أن تتنبه لكلامك».

قال الشرطي العجوز: «هو طفل، لكننا شيوخ. ولو حبست كلماتك الآن، فلربما لن يسهفك الوقت لتتفوه بها بعد بضع سنوات، فعندما يهرم الشخص، تصبح قوته مثل المال. كلما أنفقت منه، قلَّ المتبقي لديك. لذلك فأنا لا أبدد قوتي الآن، وأدّخرها بدلاً من ذلك، ولا أستخدمها إلا مع النساء».

كانت هذه حال الشرطي العجوز دومًا، لا يتوقف عن الحديث عن النساء والجنس والأثداء في كل كلامه، وغد بكل معنى الكلمة. كان جدي يوبّخه كثيرًا على عريده مع النساء طوال حياته، ويقول إنه سيتحول إلى بغل في حياته الأخرى، لا يستطيع الإنجاب. لم أفهم تمامًا ما كان يعنيه، لكنني أعرف أنه يوبّخه على أي حال. لطالما كان جدي بارعًا في توبيخ الآخرين، تمامًا ككون الشرطي العجوز بارعًا في التلفظ بالكلمات البذيئة، ومثل القائد «هو» البارع في الحديث عن المبادئ الثورية.

والآن، يتقدم الشرطي العجوز نحو المنصة. في العادة كان يمشي بخطوات متزنة ورنانة، لكنه ربما قد شرب كثيراً اليوم، فكان يسير مترنحاً، جسده يتمايل، وكاد يتعثر ويسقط. وعندما استدار وواجه الجمهور، بدا كأنه في حالة سكر بالفعل، وجهه مضرج بالحمرة وصوته مبجوح.

معلوم أنه بعد أن يثمل الشخص يتحدث كثيراً، وبجراحة كبيرة. توقف برهة، ثم دس إصبعه داخل فتحة أنفه يزيل المخاط المتببس ورائحة الكحول تضح من أنفه. وبالرغم من أنه لم يكن يوجه فمه نحو الميكروفون، وكان صوته مبجوحاً، فإن صوته بدا عالياً، يمكن سماعه من بعيد: «اسمحو لي بأن أقول بضع كلمات، لقد تحدث القائد هو الصغير للتو، وقال كل ما يحلو له، وتحدث بعض أفراد الحرس الأحمر كثيراً أيضاً، لذلك سألقي كلمة موجزة».

بدأ الشرطي العجوز الحديث بطريقة مرتبة، لكن بعد ذلك أصبح كلامه مشوشاً بلا أي ترتيب. كان يتحدث عن أي شيء يخطر بباله، وكأنه كان يتحدث مع مجموعة من كبار السن والنساء عند بوابة قاعة الأسلاف. كان كلامه منطقياً، لكنه لا يمت للموضوع بصلة، بل كان رجعيّاً بعض الشيء، وهو ما أثار استياء القائد «هو» والحرس الأحمر.

«أول ما أود الحديث عنه هو أن كثيراً مما قاله هؤلاء الأوغاد الصفار للتو كان خاطئاً -وصف الحراس الأربعة الصفار بمن في ذلك الأعمى الصغير بالأوغاد الصفار دون أي تحفظ- على سبيل المثال: قال أحدهم إن هذا الرجل نام مع عشيقتي، وهذا لم يحدث، وليس سوى مجرد هراء، فجميع من في القرية، حتى الكلاب الضالة، الكل يعلم أنه مخصي، ولقبه هو المخصي، فكيف يمكن لمخصي أن ينام مع امرأة؟ لو كان الخصيان قادرين على النوم مع النساء، فمن باب أولى أن تشرق الشمس من مغربها. هذا خطأ بالتأكيد، ولا يمكنكم قذفه بتلك التهمة ظلماً.

أما الأمر الثاني، فقد قال أحدهم للتو إنه كان عضواً في حزب الكومينتانغ. هذه حقيقة، فلديه أيضاً لقب يسمى العقيد. لماذا؟ لأنه كان عقيداً في الكومينتانغ. ولكن من الخطأ وصفه بالرجعي والمعادي للثورة، لأنه أنقذ زعيماً كبيراً في جيش التحرير الشعبي عندما كان عضواً في الكومينتانغ، وهو أمر يعرفه الجميع. لو كان رجعيًا ومضاداً للثورة، فلم ينقذ قائداً كبيراً في جيش التحرير الشعبي؟».

توقف الشرطي العجوز لحظات، ثم تجشأ، وتراجع خطوتين إلى الوراء كما لو أن أحدهم لكمه على جبهته. ثم تابع حديثه بصوت أعلى: «حتى إن كان رجعيًا في الماضي، فإنه لم يعد كذلك بعد أن أنقذ ذلك القائد الكبير في جيش التحرير الشعبي، تمامًا كحالي عندما كنت شرطياً عميلاً للاحتلال، وكانت عائلتي من كبار الأثرياء، بل إن نصف أراضي القرية كانت ملكاً لي، ولكن عند تقييم وضعي الطبقي لاحقاً، صنّفت مزارعاً مستأجراً. لا يوجد سوى اثنين من المزارعين المستأجرين في القرية بأكملها، وأنا واحد منهما. لماذا؟ لأنني ارتكبت أخطاء لاحقاً وانخرطت في المقامرة، وتسببت في إفلاس عائلتي، بل حتى أنني اضطررت إلى رهن المنزل الذي كنت أعيش فيه لسداد ديون القمار، كنت فقيراً لدرجة أنه لم يكن لديّ حتى سروال داخلي أرتيده، أسكن في قاعة الأسلاف وأسرق من طعام الصدقات. كنت أفقر من الفلاحين الفقراء أنفسهم، لذلك صنّفت مزارعاً مستأجراً. لو قُيِّمت بناءً على ثروتي السابقة، فمن المؤكد أنني سأصنّف إقطاعياً يستحق الإعدام رمياً بالرصاص، لكن الحزب الشيوعي منصف في أحكامه، فعندما رأى الحزب ما أعانيه من فقر، أعطاني منزلاً لأعيش فيه، وملابس لأرتديها، وفراشاً أتدثر به، وطعاماً لأتناوله بالطبع. ولهذا فأنا لا أزال على قيد الحياة حتى اليوم، بل صارت لديّ سجائر لأدخنها ونيبذ لأشربه. لذلك لا يمكننا التحدث عن ماضيه، بل علينا أن نتحدث عن حياته اللاحقة، ونتحدث عن

كيفية إنقاذه قائد جيش التحرير الشعبي الصيني، وكيف انضم إلى قادة جيش التحرير الشعبي لمحاربة الكومينتانغ والأمريكان، هذه هي طريقة الحزب الشيوعي في الحكم على الأمور».

عندما وصل بالحديث إلى هنا، توقف والتفت ليسأل القائد هُو: «هل تتحدثون عن الماضي أم الحاضر؟ إن كنتم تتحدثون عن الماضي، فعليكم اعتقالي والتتكيل بي برفقته، وإن كنتم تتحدثون عن الحاضر، فعليكم إطلاق سراحه».

صاح القائد هُو وهو يفك حزامه معتقداً أن هذا من شأنه أن يرهب الشرطي العجوز: «من هذا الذي يجرؤ على إطلاق سراحه!».

بدا الشرطي العجوز غير مكترث لتهديده، بل على العكس، أشار إليه بإصبعه الذي دسه في أنفه للتو، وشمته قائلاً: «ماذا؟ هل تريد ضربتي؟ أيها الوغد الصغير، أقولها لك اليوم، لو تجرأت على لمسي، فسأستدعي مسؤولي الحزب الشيوعي كي يسجنوك! فالحزب الشيوعي يحمي أمثالي أكثر من غيري، وهو أيضاً الأكثر إنصافاً، فحديثي هذا هو عين الإنصاف، وأنت الذي لا تريد أن تكون منصفاً، وتريد أن تكون خارجاً عن القانون. حسناً، سأجعلك تدفع الثمن، سأطلب من الحزب الشيوعي أن يحقق في تاريخ أسلافك، فأنا لا أعتقد أن عائلتك كلها مزارعون مستأجرون مثلي. تقول الصحف إن المزارعين المستأجرين هم فقط من لديهم صلاحية التتكيل بأمثالهم من المزارعين المستأجرين، حتى الفلاحون الفقراء ومتوسطو الدخل غير مؤهلين لذلك». وبينما هو يقول هذا الكلام، سار إلى الأمام وصاح بصوت عالٍ للجمهور:

«أيها الرفاق، ما رأيكم؟ هل أنا على حق في ما قلته؟».

كان الاضطراب قد بدأ يعم الحشد حينها، وتعالَت أصوات الضجيج المتزايدة مثل البخار. ومع صيحة الشرطي العجوز الأخيرة تلك، بدأت الأجواء بالغليان. لم يرد عليه شخص واحد، ولا عشرة أشخاص فقط،

بل ردت أغلبية الحشد تقريباً في نفس واحد: «أنت محق!». وتبع ذلك أصوات ضحكات عالية، ثم أصوات همس مستمرة، وحديث، وشجار، بل وحتى شتائم. باختصار، انهار النظام في المكان وخرج عن السيطرة، حتى أن بعض الأشخاص بدؤوا بالمغادرة دون إذن. وبمجرد مغادرة شخص واحد، يتحرك خلفه عشرة أشخاص، ففرق المكان في حالة من الفوضى. عندما رأى القائد «هُو» أن الوضع ليس على ما يرام، أعلن بسرعة عن فضّ الاجتماع.

(29)

لم أكن سعيداً بما يجري. لقد تحوّل اجتماع التكيل المنتظر إلى مهزلة بسبب هذا التصرف المفاجئ من الشرطي العجوز. بعد عودتي إلى المنزل، وبينما كنت أأطعم الأرناب في الحظيرة ومن ثم أعود إلى غرفتي للنوم، جاءني النمر القزم، حفيد آتاي الأعرج صاحب الدكان، ليخبرني: لقد هرب العقيد منذ قليل، لكن قبض عليه مرة أخرى، ومن أجل أن يضرب المربوط ليخاف السائب، فقد أمر القائد «هُو» بتعليقه على الشجرة، وقد ذهب عديدون ليتفرجوا عليه.

النمر القزم زميلي في الصف. وبخلاف ابن عمي، فهو أقرب صديق لي. يساعطني بالأفعال الشريرة كلها التي لا أجرؤ على فعلها وحدي. يمكن القول إننا إخوة وأصدقاء مقربون. عندما سمعت أن كثيرين ذهبوا ليتفرجوا على العقيد، لم أرغب في أن يفوتني ما يحدث بالطبع. لذا أنهيت عملي بسرعة، وتسللت من الباب ثم تبعتة. ركضنا إلى المدرسة في نفس واحد، لكننا وجدنا الساحة فارغة، ولا وجود لشخص واحد. لم تكن هناك سوى شجرة باولونيا واحدة فقط في الساحة، تلك الشجرة كانت قد ماتت في بداية العام، وهي الآن عارية من أوراقها، وحتى دون ضوء القمر، يمكنك أن ترى من مسافة بعيدة أنه لا يوجد أحد معلق على الشجرة، وأنه لا توجد عليها ورقة واحدة.

قال النمر القزم إننا تأخرنا. ولإثبات صحة معلوماته، أصر على الذهاب لرؤية الشجرة من قرب، قائلاً إن الحبل الذي ربطوه به ربما لا يزال موجوداً. وقبل أن نصل، سمعنا صرخات قطط مخيفة متتالية قادمة من المطعم، كما لو أن هناك قطتين تتقاتلان حتى الموت. اعتقدت على الفور أن القائد هو يضرب قطتي العقيد. فالجميع يعرف أن القطتين كالروح بالنسبة إلى العقيد، وضربهما بمنزلة ضرب له. فجأة فهمت ما قاله النمر القزم عن «ضرب المربوط ليخاف السائب»، ربما كان يعني أن القطط هي المربوطة والعقيد هو السائب.

فكرت في عبارة أخرى درستها في المدرسة: «كأن سكيناً تمزق قلبي»، وفكرت أن هذا هو شعور العقيد الآن.

وبالرغم من أن من تعرّض للضرب هو القطط، فإنني فضّلت أن أذهب وألقي نظرة ما دمت قد جئت إلى هنا. تبعنا صوت مواء القطط، وسرنا نحو المطعم، فرأينا مجموعة من الناس يتجمعون أمام المخزن الذي كان العقيد مسجوناً فيه. كانوا يتزاحمون هناك، يصرخون ويصيحون، كما لو كانوا يصطادون ثوراً هائجاً. لم تكن بحاجة إلى التسلل وسطهم، فهم لم يلحظوا مجيئنا بسبب التزاحم الشديد. وعندما اقتربنا، وجدنا أنه لم يكن هناك أي من الكبار، فقط الحرس الأحمر، قرابة عشرين أو ثلاثين منهم، لم يكونوا يصطادون ثوراً برياً، بل يصطادون شخصاً، وهو العقيد. عندما وصلنا، كان العقيد مقيداً بالفعل. كانوا يلفونه بالحبال مثل زلاية الأرز، ليعلقوه في السقف.

قبل أن يعلّق كاملاً، كان هناك شخص ما لا يزال يلفه بالحبال، وكان القائد الأعلى هو قد فك حزامه الجلدي على عجل، ومد يديه يشير للبقية بالابتعاد، ثم لوّح بحزامه في الهواء مرتين بمهارة، فصدر عنه صوت طرقة، ثم هوى به على جسد العقيد.

طاخ! طاخ! طاخ!

كان الصوت خشناً وصلباً، مثل مفاصل عيدان الخيزران التي تتشقق عند الاحتراق.

ضربه القائد هو بشدة وهو يسبه: «كيف تجرؤ على الهروب؟ كيف تجرؤ على الهروب؟ لو هربت إلى أقاصي الأرض، فسينجح الحرس الأحمر في الإيقاع بك، سأكسر قدميك اللعينتين لأرى كيف ستهرب ثانية، ولن تفلت من يدي ثانية، وسأوسعك ضرباً!». طاخ! طاخ! طاخ!

كثيراً ما كنت أتذكر أحداث تلك الليلة لاحقاً، وأصوات الضرب المرعبة تلك.

كنت أتذكر كيف كان القائد «هو» يلهث وهو يضربه، لكن العقيد لم ينبس ببنت شفة. ومع ذلك، لم تتوقف القطتان في الداخل عن الصراخ ألماً، والأغرب من ذلك هو أن التوقيت كان متزامناً بدقة. في كل مرة يُضرب العقيد في الخارج، تصرخ القطتان في الداخل، كان الأمر غريباً بحق، وكأن القطتين هما من تتلقيان الضربات. بالطبع هذا مستحيل، فعلى الرغم من أنهما أكثر ذكاءً وفطنةً من القطط العادية، فإنهما لا يمكنهما أن تتحولا إلى جنيات يحمين أصحابهن أو يتلقين الضرب نيابة عنهم. كان العقيد يتلقى الضربات، يرتعش، ثم يجز على أسنانه، وينزف. مؤكداً أنه كان يعاني من شدة الألم، لكنه لم يصرخ، أو يتأوه، أو يئن، لم يكن ليصدر أي صوت، حتى إن مات ضرباً. لقد تركت هيئته تلك انطباعاً عميقاً جداً في نفسي، بل حتى أنني شعرت كأنه فزاعة، ولكن إذا نظرت من كثب، فستجد أن عينيه مختلفتان تماماً عن عيني الفزاعة، عيناه تتوهجان وتلمعان، تومضان مع كل ضربة، مثل عيون القطط وسط الظلام.

لا أعلم هل كان القائد «هو» ليقتل العقيد ضرباً أم لا لو لم يأتِ والذي في الوقت المناسب مصطحباً معه آتاي الأعرج والشرطي العجوز وجدي

وغيرهم من كبار السن الذين يمكنهم منعه بوصفهم من كبار السن ذوي المكانة. ولا أعلم هل سيكون قتل أحد أعضاء حزب الكومينتانغ العتاة أمرًا قانونيًا أم لا. في تلك الليلة، شعرت بداخلي المرة الأولى بقليل من عدم الاحترام للقائد الأعلى «هو». بدأت أشعر بالخوف منه، وأتجنبه، وأكرهه بعض الشيء، وصرت أتمنى أن يرحل قريبًا.

قال جدي: «سيكون هذا الوغد الصغير حيوانًا زاحفًا في حياته القادمة بلا شك، وسيسلخ الناس جلده ويأكلونه».

أعلم أن جدي كان يقصد الثعابين، فهي أكثر المخلوقات إثارة للبغض والكراهية في هذا العالم، فهي عمياء، وبلا أرجل، وليس بوسعها سوى الزحف، ولا يمكنها سوى أكل الفئران وجثث الأموات.

(30)

وفي اليوم التالي تلقيت خبرين.

الأول سمعته عندما كنت أغسل وجهي. كان والدي في الفناء، جالسًا يتناول فطوره ويتحدث بقلق إلى وعائه: العقيد لم يعد إلى منزله، وهذا يعني أنه ظل محبوسًا طوال الليل، ولا يزال مسجونًا. هذا خبر سيئ بالتأكيد، فهو يعني أن القائد هو سيستمر في تعذيبه. هل سيطلق النار عليه؟ لا أعرف. كل ما أعرفه هو أن والدي يقصد في الواقع بكلامه هذا أن يخبر جدي بالأمر، على أمل أن يستخدم مكانته بوصفه أحد كبار القرية للتدخل مرة أخرى. ولكن جدي لم يُبد أي اهتمام، فجدي كان دائم التظاهر بالجهل، وهذا حق أصيل لكبار السن.

أما الثاني فقد سمعته من الشرطي العجوز في أثناء تناول الغداء. كان والدي قد دعاه إلى منزلنا لتناول الطعام، وأعطاه علبة سجائر، وحاول إقناعه بالذهاب إلى المدرسة لتوصيل بعض الطعام للعقيد، فهو مزارع مستأجر، وهو الأنسب لهذه المهمة. وافق الشرطي العجوز على الفور ثم غادر سريعًا. انتظرنا عودته لتناول الطعام، وبالفعل عاد سريعًا، لكنه كان يحمل بين يديه الطعام الذي ذهب به إلى العقيد.

سأله والدي: ما الأمر؟ أشعل سيجارة ثم شرع يسب قائلًا: «اللعة على هؤلاء الأوغاد، يبدو أنهم يكرهونني بشدة، فقد رفضوا السماح لي بالدخول». أخذ نفسًا من سيجارة وواصل يسبهم: «اللعة عليهم، ما الذي يحدث في هذا العالم اللعين؟ القرد أصبح ملكًا، وأنا صرت صعلوكًا. لقد حاولوا ضربني للتو. لحسن الحظ، ساقاي لا تزالان قويتين، وأستطيع الركض بسرعة».

انتابته نوبة سعال عنيفة، كأنَّ حلقه كان يحترق، ثم قال: «شاي، أحضر لي كوبًا من الشاي بسرعة».

بعد أن شرب الشاي، هدا حلقه، وتابع: «لا أعرف إن كان ما سمعته صحيحًا أم لا. سمعتُ للتو في طريقي العنقاء الزغبية وهي تقول إن ذا الشارب ومن معه سيفادرون بعد ظهر اليوم -تقصد القائد هُو- وربما غادروا بالفعل».

وهذا بالتأكيد خبر جيد لو كان صحيحًا، فالعنقاء الزغبية هي والدة «اللقيط»، أحد الحراس الأربعة الصغار، لذلك يرى الشرطي العجوز أن هذا الخبر ينبغي أن يكون صحيحًا. وبطبيعة الحال كان والدي يأمل أن يكون هذا صحيحًا، لكنه كان قلقًا أيضًا من ألا يكون صحيحًا. هل هو صحيح أم لا؟ لا أحد غيري يمكنه إنجاز هذه المهمة. نظر والدي نحوي نظرة ودودة نادرة، ثم شعر أن هذه النظرة ليست كافية، فذهب إلى المطبخ، وفتح الخزانة، وأخرج قطعة حلوى ملفوفة بالورق وأعطاني إياها، ثم قال: «اذهب إلى المدرسة، وتأكد إذا ما كان القائد هُو ومن معه قد غادروا أم لا».

قبل أن أغادر، قبَّلني والدي على جبهتي في سابقة لم تحدث من قبل، وطلب مني أن أعود سريعًا.

شعرت كأنني لم أكن أركض نحو المدرسة، بل كنت أطيّر، أجنحتي ترفرف من جبهتي، النقطة نفسها التي قبَّلني فيها والدي. لم أكن أتوقع قطّ أن قبله من والدي سيكون لها مثل هذا المفعول السحري. كانت تلك النقطة ساخنة ومتورمة وتمددة، كما لو كان شيء ما ينمو منها، ربما أجنحة. عندما رأيت ابن عمي، شعرت بقلبي يقفز إلى حلقي وكأنه ضفدع يريد القفز للخارج، كنت قلقًا من أن يخبرني أن القائد هُو لم يرحل، حينها سأشعر أنني لم أكن أستحق قبله والدي.

لكنني كنت أستحقها!

فقد أكد لي ابن عمي أن القائد هو والحراس الأربعة الكبار قد غادروا جميعاً للتو. أما عن سبب رحيله، فهناك مقولتان؛ الأولى هي أن القائد هو أراد العودة ليُبلغ قائده الأعلى بما فعله الشرطي العجوز، واستشارته في كيفية التصرف معه. والثانية هي أنهم خرجوا منذ أيام عدة، وصارت ملابسهم كريهة الرائحة بسبب العرق، لذلك كان عليهم العودة وتغييرها، خاصة تلك الفتاة التي كانت برفقتهم، قيل إن «ذلك الحدث» الشهري للنساء قد داهمها، لذا كان عليها العودة سريعاً.

حسناً، لا يهم سبب رحيلهم، فالمهم هو أن القائد هو والحراس الأربعة الكبار قد غادروا على أي حال. وصار الأعمى الصغير هو المسؤول هنا مؤقتاً، هو قائد الفرقة الفرعية ورئيس الحراس الأربعة الصغار. وبحسب الترتيبات التي وضعها القائد «هو» قبل مغادرته، كانت ظهيرة ذلك اليوم وقتاً مخصصاً للدراسة السياسية، وكان جميع أفراد الحرس الأحمر يستمعون إلى الأعمى الصغير وهو يقرأ الصحف في حجرة الدراسة. اختبأت أنا والنمر القزم وبعض الأصدقاء خارج النافذة نتلصص عليهم، فاكشفنا أن عديدين من أفراد الحرس الأحمر كانوا نائمين مثل الدجاج المريض، رؤوسهم مائلة، يتمايلون، ويكافحون لإبقاء أعينهم مفتوحة. راقبناهم بعض الوقت، فوجدنا الأمر مملاً، لذلك غادرنا.

بدأ المطر الخفيف يتساقط، وكانت ساحة المدرسة هادئة على نحو استثنائي، وهناك غرابان أسودان لامعان ينعانان أعلى شجرة البولونيا الميتة، وهو ما زاد وقع الهدوء الذي يسود ساحة المدرسة. في الأيام الأخيرة، هبَّت على هذا المكان رياح شرقية ثورية قوية، تماماً كما كان مكتوباً على أحد الشعارات: البحار الأربعة تغلي غضباً، والقارات الخمس تهتز حماسة. لكن الآن صارت البحار الأربعة والقارات الخمس ساكنة تماماً، مستلقية كشخص مريض. لم نكن نعرف أين نذهب لنقضي هذا الوقت، لكننا أحببنا الحالة التي كان عليها: الهدوء، البرودة، المطر يطرد

الحرارة، الحرس الأحمر قابع في حجرة الدراسة، ساحة المدرسة فارغة، أصبحنا سادة المكان، ويمكننا التجول والتتزه بحرية كما يحلو لنا، دون أن يعترضنا أحد.

فكرت في الذهاب إلى المخزن لرؤية العقيد، فقد تعرّض لضرب مبرح أمس ولا أعلم كيف هو الآن. لكنني كنت خائفاً من الذهاب وحدي، ولو ذهبت برفقة البقية سأشعر بالانزعاج. كنت أريد الذهاب برفقة النمر القزم فقط، لذلك طلبت منه ذلك على انفراد، فوافق مسروراً. افترقنا عن الآخرين بحجة الذهاب إلى المرحاض، وعندما خرجنا من المرحاض، انهمر المطر بغزارة، مثيراً سحابة من الغبار الرمادي والبخار الساخن. ركضنا نحو المخزن تحت المطر، كأننا نركض وسط وابل من الرصاص، نصرخ ونصيح، ما أخاف الغرابيين اللذين طارا مذعورين بعيداً عن الشجرة.

(31)

المخزن هو الغرفة التي كانت عشيقة الشرطي العجوز تدير فيه دكاناً في الماضي، وبعد أن أفلس الشرطي العجوز وهربت عشيقته، صارت الغرفة مهجورة، وضممتها المدرسة إليها وحولتها إلى مخزن. غرفة جميلة كهذه في موقع جيد كهذا من المفترض أن تكون محل تنافس الجميع للحصول عليها، لكن الغرفة كانت تسكنها عاهرة، لذلك كانت سمعتها سيئة، ولا تتماشى مع معتقدات القرويين في الفنع شوي، ما تسبّب في خسارة الشرطي ممتلكاته جميعها، ولم يكن هناك من يرغب في تلك الغرفة، لذلك كان لا بد من استخدامها مخزناً. المسكن يحتاج إلى شخص يهتم به، وإذا تحوّل إلى مخزن فلن يكون هناك من يهتم به، لذلك تدهورت حالة تلك الغرفة بمرور الوقت، وتلفت أبوابها ونوافذها الأصلية. الباب الآن باب من الخيزران، مصنوع من قطع من ألواح الخيزران كاملاً.

هذا النوع من الأبواب يُستخدم عادة في حظائر الماشية، ويبدو بسيطاً ومتهالكا للغاية. لا أتذكر أنه كان عليه قفل من قبل، لكن الآن يوجد عليه قفل حديدي كبير مستعمل، والسبب بطبيعة الحال هو أن العقيد محبوس خلفه.

ولأنه كان دكاناً صغيراً في الماضي، لذا فنوافذه كانت واسعة باتساع باب في وضع أفقي، كنا نسمي هذا النوع من النوافذ النوافذ الأفقية. في الماضي، كانت عشيقة الشرطي العجوز القديم تقف عند النافذة لاستلام المال وتسليم البضائع. هذا النوع من النوافذ الأفقية عريض جداً بحيث لا يمكن تركيب مصراع نافذة عليه، لذلك لم يكن بالإمكان سوى غلقه بالأواح رأسية، أي يُحضر أخدود أعلى إطار النافذة وأسفل، وتُدخل قطع الخشب في الأخدود واحدة تلو الأخرى، مصفوفة معاً. يسمى هذا النوع من الأبواب الباب المصفوف. وبمرور الوقت، تآكلت الأخاديد بسبب التعرُّض لأشعة الشمس والأمطار، وفقدت وظيفتها في تثبيت الألواح الخشبية، لذلك كان لا بد من تثبيت الألواح بالمسامير لغلُقها. لكن الألواح الخشبية لم تعد مصفوفة بطريقة مرتبة، وصارت متناثرة بعشوائية، مثل السياج الخشبي، حتى أنه كان بإمكان الأطفال الصغار المرور من بين تلك الألواح بشكل جانبي. يقال إن العقيد نزع قطعة من الخشب وهرب الليلة الماضية، لكن القطتين لم تتبعاه، فالقطتان محبوستان منذ يومين، وكانتا جائعتين للغاية، وربما كانتا في حالة مزاجية سيئة أيضاً، لذا لم تطيعا أوامر العقيد كما هو معتاد. مقصف المدرسة يقع بجوار الغرفة، وأمام باب المقصف كان هناك دلوان مخصصان للقمامة. في الليل، يصبح هذا المكان بمنزلة مرعى ومأوى للفئران. وعندما خرجت القطتان، صادفتا بعض الفئران وشرعتا في مطاردتها على الفور، ما تسبَّب في إفساد خطة العقيد للهروب، وتسبب في تعرُّضه للضرب المبرح.

طاخ! طاخ! طاخ!

كان هذا الصوت الذي ظل يتردد في ذهني هو الذي أغراني بالذهاب لرؤية العقيد. أردت أن أرى إذا ما كان مصاباً بجروح خطيرة أم لا. ولمنع العقيد من الهروب ثانية، قُوِّيت النافذة الأفقية للمخزن، تُبِتت العشرات من ألواح الخيزران الجديدة عليها بطريقة عشوائية، وفي ظل وجود الألواح الخشبية القديمة الأصلية، تقاطعت الألواح أفقياً ورأسياً، هذا التشابك بين الألواح الجديدة والقديمة جعلها قوية للغاية. كان هناك حبل سميك لا يزال متديلاً من السقف، وكانت أطراف الحبل ملتفة وملطخة بشيء ما، ربما بدماء العقيد. استلقينا على حافة النافذة ونظرنا إلى الداخل، لكننا لم نتمكن من رؤية أي شيء. كانت الغرفة مظلمة تماماً، مثل ثقب أسود لا تُرى نهايته. وكان بإمكاننا شم رائحة كريهة، كما لو كان هناك جُحر ممتلئ بالفئران الميتة المتحللة تفوح منه الرائحة النتنة لتصطدم بأنوفنا. لم نكن نخشى تلك الرائحة، فواصلنا البحث مراراً وتكراراً، لكننا لم نتمكن من رؤية العقيد.

وفجأة، دَوَّى صوت مواء قطرة كأنه شبح يمزق الظلام، شعرنا بالخوف فركضنا بعيداً عن النافذة. وبعد مدة من الوقت، سمعنا صوت تتأوب في الداخل، ثم شعرت كأنَّ هناك شخصاً ما يناديني. أدركت أن هذا هو صوت العقيد. نادى مراراً وتكراراً، وصار الصوت أكثر وضوحاً، كان يناديني بالفعل. استجمعت جرأتي واقتربت متردداً من النافذة، وسألته ماذا يريد. قال: «ادخل، خذ القطتين وأعطهما لأبيك».

قلت: «الباب مغلق».

قال: «حطّمه».

بعثت عن حجر، ثم أعطيت قطعة الحلوى الملفوفة بالورق التي أهداني إياها والذي للنمر القزم، وطلبت منه تحطيم الباب. أمسك بالحجر ونظر إلى السماء يفكر. وبعد أن فكَّر قليلاً، ألقي الحجر وهمس يقول: «القائد هو سوف يعود».

سمعت العقيد يضحك ساخرًا وسط الظلام: «أي قائد تافه هذا؟ إنه لم يلمس سلاحًا قط، لا أقبله حتى ليكون مساعدًا لي».

سأله النمر القزم من خارج النافذة: «هل كان لديك مساعدون من قبل؟».

قال: «في أفضل الأحوال كان لدي بضعة مساعدين، واحد يمسح العرق عن وجهي، وواحد يغسل يدي، وواحد يُلبسني حذائي، وواحد يغسل ملابسي»، ثم ضحك بصوت عالٍ كأنه في حالة معنوية جيدة.

سألته: «هل أنت مصاب؟»، فحالته لم تكن توحي بأنه مصاب.

قال: «لقد خضتُ تسعًا وتسعين معركة، وتلقيت عددًا من الرصاصات يفوق عدد حبات البطاطا الحلوة التي سبق لك أن تناولتها، فكيف لي ألا أكون مصابًا؟ جسدي مُغطى بالجروح، لدرجة أن شظايا القذائف صارت تعشش في جسدي».

قلت: «أنا أسأل عن إذا ما كنت قد تعرّضت للإصابة الليلة الماضية».

قال: «ألم تنظر إلى هيئته التي تشبه الرجل المخنث؟ هل تظن أن يديه قويتان بما يكفي؟».

قلت «ولكنني رأيتك تتزف».

قال: «إنها مجرد جروح سطحية، تمامًا مثل دجاجتكم العجوز التي تعرّضت للهش بالمكنسة فتساقط بعض ريشها. هل يمكن عدّ ذلك إصابة؟ الإصابة هي كسر الأوتار والعظام. أوتاري وعظامي صلبة، وهذا المخنث لا يصلح إلا لدغدغة بشرتي».

قال هذه العبارة ثم ضحك مرة أخرى، وبعدها انتهى من الضحك شرع يغنى مقطعًا من الأوبرا الشعبية محاولاً محاكاة المؤثرات الصوتية للطبول والأجراس، كان مزاجه رائعًا بحق.

ألصقت إحدى عينيّ بشق في باب الخيزران ونظرت إلى الداخل متتبعًا الصوت. بدا أن الظلام قد تبدّد وسط أصوات غنائه، وحينها

رأيت ظلاً في الزاوية، جالساً على الأرض، ويداه مقيدتان خلف ظهره إلى قاعدة طاحونة هواء، وهناك قطتان متكورتان حول ساقيه، تطلق أعينها أربعة من الأشعة الضوئية الزرقاء نحوي. شعرت كأني تكيفت مع الظلام، تمكنت من رؤية الحبل الأبيض الرقيق حول رقبة القطة بوضوح، لكنني لم أتمكن من رؤية القطة البيضاء.

انتابني الفضول، فسألته: «أين القطة البيضاء؟».

ردّ بقوله: «يا للأسف! ففي هذا المكان اللعين، تحولت القطة البيضاء إلى قطة سوداء، أيتها البيضاء، ألقي عليه التحية». ماعت القطة البيضاء نحوي. ثم استمر يقول: «أيتها السوداء، ألقي عليه التحية». ماعت القطة السوداء نحوي أيضاً. استطرد يقول: «هل سمعتهما؟ معنوياتهما ليست بحالة جيدة. آه، كم أشفق عليهما!»، ثم رأيته ينحني، ويخفض رأسه، ويداعب القطتين بذقنه، لأن يديه كانتا مقيدتين خلف ظهره.

سألته: «هل هما مريضتان؟».

قال «إنهما تشتاقان إلى المنزل». ثم أضاف: «يجب أن أعيدهما إلى المنزل، فهذا المكان اللعين قذر للغاية، ولا يمكنهما تحمُّل البقاء فيه». أعتقد أن هذا مستحيل، بالفعل القائد هنا الآن لم يعد ذلك القائد هو، وصار الأعمى الصغير هو المسؤول مؤقتاً. وحبس القطط كان فكرة هذا الأعمى الصغير في البداية، كيف يمكنك أن تطلب إطلاق سراح القطط؟ هذا مستحيل. من هذا الأعمى الصغير؟ إنه شرير لعين، الأكثر شراً في المدرسة.

أخبرت العقيد بهذا الكلام الذي يدور في بالي، لكنه لم يُبدِ أي قلق على الإطلاق. فقط أخبرني بثقة أنه سوف يجعل الأعمى الصغير يوافق. ضحك وقال: «سأجعله يطيعني كما تطيعني قطتاي، إذا لم تكن تصدقني فانتظر وسترى، سأجعل قطتيَّ تعودان إلى المنزل الليلة».

شككت في أنه يعاني حمى شديدة، ويهذي بسببها. وعندما عدت إلى المنزل، لم أخبر جدي عن القطة، فلا طائل من الحديث عن هراء كهذا، فقط أخبرت جدي عن غناء العقيد الأوبرا الشعبية. سألت جدي: «لقد تعرّض للحبس والضرب، لكنه لم يجزع على الإطلاق، لماذا؟». كان جدي يعاني ألم البواسير حينها، لذلك لم يكن في مزاج جيد. لم يشرح لي بصبر كالعادة، بل قال لي جملة واحدة فقط:

«لقد حزن بما فيه الكفاية، ولم يعد هناك ما يدعو إلى الحزن».

ثم شرع يتحدث بطريقة ملتفة، فلم أفهم معظم ما قاله.

(32)

بحلول المساء، وبينما كانت عائلتنا تتناول العشاء، جاء ابن عمي إلى منزلنا صاحباً خلفه قطتي العقيد، كان المشهد أشبه بالحلم، وهو ما فاجأني بشدة. ظننت أنني مصاب بحمى شديدة وأعاني الهلوسة، لكن القطتين مرتا بجانب كاحلي واحدة تلو الأخرى وهما تهزان ذيليهما وتصدران أصوات مواء، كانتا نابضتين بالحياة بحيث لم تتركا لي مجالاً للشك. شعرت بأني على وشك البكاء من فرط الحماسة، وكان ما أطلق سراحه ليس قطتين، بل اثنتان من أقاربي. كانت القطتان تعرفان والدي، وبمجرد دخولهما إلى المنزل، وقفتا عند قدميه، ودارتا حوله تموان بلا انقطاع. شرع والدي يتحدث إليهما كما يفعل العقيد وسألهما: «هل أنتما جائعتان؟». أخرجتا لسانيهما ولعقتا الجزء الخلفي من قدمي والدي. قال والدي: «لا بد أنهما جائعتان»، وطلب من والدتي أن تُحضّر لهما شيئاً تأكلانه.

سألت ابن عمي: «كيف حدث هذا؟»، لكنه لم يخبرني. تحدّث فقط

إلى والدي وجدي يقول:

«سنستجوب المخصي الليلة، لكنه اشترط إرسال قطتيه إلى منزلكما،

وإلا فلن نخبرنا بشيء، حتى إن قتلناه ضرباً».

سأله والدي: «هل ضربتموه مرة أخرى؟».

قال ابن عمي: «من الأفضل أن تقنعه بالاستسلام، وألا يجلب المتاعب لنفسه».

قال جدي: «بإمكانه أن يفعل كل شيء عدا أن يستسلم».

قال والدي: «الآن بعد أن أصبحت القطتان في يدي، فمن المستحيل أن يستسلم».

قال ابن عمي «إذن سيتعرض للضرب».

قال والدي: «لا يمكنك ضربه».

بدا ابن عمي كأنه أوماً برأسه، لكنه بدا أيضاً كأنه لم يفعل ذلك.

تقدّم والدي نحو ابن عمي وحديثه بجدية: «هل تعلم لمّ سلّمني القطتين؟ لأنه يعرف أنني أقرب شخص إليه، وأنا عمك، ولو ضربته، فهذا يعني أنك تضرب عمك، هل فهمت؟ لو ضربته، سأوسعك ضرباً حتى الموت». تدخل جدي ووبّخ ابن عمي قائلاً: «لا تظن أن ارتداءك هذا الحزام يجعل منك شخصاً مهماً، فهذا الحزام يمكن لأي شخص أن يشتري واحداً مثله. لو كنت تظن نفسك مهماً فاطلب من الحكومة أن تُعطيك واحداً، حينها ستتكفل الحكومة بطعامك وشرابك وحزامك وملابسك. وحينها فقط ستكون شخصاً مهماً».

بدا جدي أكثر غضباً بعد الانتهاء من هذه العبارة، فاستمر يقول بطريقة أكثر حدة: «لقد حذرتك ألا تختلط بهذا الأعمى الصغير منذ صفرك، لكنك لم تستمع إليّ، وها قد فات الأوان الآن، فقد صرتما ملتصقين ببعضكما ببعض ككتلة من المخاط، وعاجلاً أم آجلاً ستلقيان جزاءكما».

سبق أن قال الشرطي العجوز ذات مرة إن أمي أشبه بقطة داخل كهف، هي في سن الأربعين لكنها صامتة كما لو كانت لا تزال في سن الرابعة عشرة، بل قد يحمر وجهها خجلاً لو فتحت فمها لتتحدث. وبالنسبة إلى

والدي فهو كالنمر الذي لا يمكن الاقتراب منه، ما إن يفتح فمه لا يتوقف عن السباب، وما إن يمد يده لا يتوقف عن الضرب. أما جدي فهو نصف ببغاء ونصف غراب، لا ينفك عن نقل الأخبار، الجيدة أو السيئة. لم يكن جدي يسب الآخرين عادةً، فهذا في نظره أمر مذموم. لكن اليوم، كانت سخرية جدي وتوبيخه أشبه بالفيضان الذي دمر مزاج ابن عمي تمامًا، لذلك شاهدت ابن عمي يغادر دون أن يتفوه بكلمة واحدة، يسير بخطوات مثقلة مثل فأر غارق، وكأن حذاءه عالق في الطين.

تعقبته ومشيت برفقته محاولاً مواساته. كان بإمكانني سماع أصوات غضبه وألمه من خطواته، لكنني لم أعرف كيف أواسيه، لذا بدا كلامي كأنه هراء. في البداية تجاهلني ومشى بعيداً يحني رأسه، بخطوات سريعة وثقيلة، ثم ثار فجأة، فبدأ يشتم ويلعن في نفس واحد:

«كلهم مجانين، يعاملون عدوهم الطبقي الأول كأحد أقاربهم، لقد فقدوا عقولهم! ولم يعد لديهم أي وعي طبقي ولا موقف ثوري، وفي النهاية، سيؤذون أنفسهم والآخرين حتماً. وهو ما سينعكس سلباً علينا، فبسببهم لن أصبح قائداً للفريق، ولن تصبح أنت عضواً في الحرس الأحمر، وسيصبحون هم أنفسهم معادين للثورة، وعُرضة للنقد والتكيل». فجأة أصبح مزاجي كئيماً، كأني أسير في جنازة. كنا نسير بصمت عبر الزقاق الهادئ، سطع ضوء القمر على الجدار من جانب واحد، ما جعله يبدو رمادياً لامعاً، وجعل الزقاق أكثر ظلمة، وبالكاد يمكننا رؤية الطريق أسفلنا. الصوت الوحيد الذي كان يوسعنا سماعه هو خطوات الأقدام المتشابكة، تارة طق طق وتارة تك تك؛ كانت الطقطقة تصدر عن وقع خطواتنا على الألواح الحجرية السوداء، وتصدر التكتكة عن وقع خطواتنا على الحجارة المرصوفة. لم أشاهد ضوء القمر الساطع الكامل إلا بعدما خرجنا من الزقاق وسرنا على الطريق، واختفى صوت خطواتنا أيضاً، كما لو أن ضوء القمر هو الذي حجبها. حينها تحدث ابن عمي وأخبرني أنه سوف يستجوب المخصي الليلة.

سألته: «القائد هو غير موجود، فمن الذي سيستجوبه؟».

قال: «بالطبع نحن».

(33)

كلمة «نحن» التي قالها ابن عمي يقصد بها الحرس الأحمر، والمكان هو حجرة دراسة الصف الثالث. ولأنه لم يكن هناك إعلان عبر الإذاعة، لم يأت أي من كبار أهل القرية، وكان كل الحاضرين هم من الحرس الأحمر والمراهقين الثوريين مثلي ممن يطمحون إلى أن يصبحوا من الحرس الأحمر، فضلاً عن بعض الأطفال الذين جاؤوا للفرجة. عندما وصلنا، كانت حجرة الدراسة ممتلئة بالكامل بالحرس الأحمر، وكان الأعمى الصغير يقف على المنصة ويتحدث إلى الجميع، وكان المكان خارج حجرة الدراسة وأمام النوافذ والأبواب مكتظاً بالمراهقين أمثالي. ولأنني وصلت متأخراً، لم أتمكن من الوقوف قرب النافذة، ولم أتمكن من سماع ما يقوله الأعمى الصغير بوضوح.

وفجأة، عمت أصوات ضجيج، فتفرق المتجمعون أمام النافذة، وهرعوا نحو باب حجرة الدراسة. اتضح أن كماشة اللحم واللقيط جاءا يقتادان العقيد إلى حجرة الدراسة وخلفهما مجموعة من المراهقين الراغبين في الانضمام إلى الحرس الأحمر. وبمجرد دخولهم إلى حجرة الدراسة، تعالت أصوات الشعارات، كلها من الشعارات القديمة نفسها «يسقط فلان، يسقط كذا». وعلى الرغم من عدم وجود عدد كبير من الأشخاص كما كان في السابق، فإن الضوضاء في حجرة الدراسة كانت تبدو أكثر صخباً من ذي قبل.

وبينما كان أفراد الحرس الأحمر يهتمون بالشعارات، كنا نتدافع من أجل الوقوف في مكان أفضل لمشاهدة ما سيجري.

هذه المرة نجحت في احتلال موقع أفضل، أمام النافذة مباشرة، وصار بإمكانني رؤية كل زاوية من الفصل الدراسي وسماع الجميع يتحدث بوضوح. لاحظت أن العقيد صار أنحف بشكل ملحوظ، بدت جبهته وعيناه أكبر حجمًا، لكن عينيه كانتا قاتمتين بلا حياة. عادة ما تكون جبهته وعيناه لامعة نابضة بالحياة، لكن الآن صارت هناك علامة سوداء على جبهته تشبه زهرة البرقوق، وبدا وجهه مغبرًا. بعدها لاحظت وجود مثل تلك الزهرة السوداء في أماكن أخرى عديدة؛ يديه، وذراعيه، وذقنه، وقميصه الأبيض.

لاحقًا علمت أن هذه العلامات هي آثار أقدام القطط.

في الواقع، حوّل غبار الفحم وآثار أقدام القطط قميص العقيد الأبيض إلى اللون الداكن باستثناء الياقة والأساور التي كانت لا تزال تحتوي على بعض البياض. في هذه اللحظة كانت يداه مقيدتين خلف ظهره، يقف على المنصة أمام السبورة، كأنه خرج للتو من وسط السبورة. وعلى السبورة، كُتب صف من الكلمات الكبيرة بخط مجوّف بالطباشير الأحمر والأبيض: اجتماع فضح جرائم جيانغ جنغنان.

ربما يكون جيانغ جنغنان هو اسم العقيد، لا أعلم، ولكن ينبغي أن يكون هو. لكن لم يناده أحد باسمه من البداية إلى النهاية، ناهيك بمناداته بالعقيد، فالناس كانوا يطلقون عليه لقب المخصي، والكلب، والجاسوس، والنمر الورقي، والنمر الميت، وما إلى ذلك. المهم هو أن النداءات كانت مختلفة ومتنوعة، لكنها في المجمل ذم قبيح. وبسبب وجود عدد كبير من المتفرجين، أضف إلى ذلك أن الأعمى الصغير لم يسبق له أن ترأس مثل هذا الاجتماع بشكل مستقل، والأهم من ذلك، أنه لم يكن يحظى بأي مكانة، لذلك كان الاجتماع فوضويًا للغاية. عمّت الفوضى منذ البداية، وتزاحم الجميع لتوبيخ العقيد. حث الأعمى الصغير الحضور على الالتزام بالدور، لكن لم يستمع إليه أحد. لم يكن الأعمى الصغير يحظى بأي

مكانة، وكان الجميع ينظر إليه بازدراء، كانوا يطيعونه في السابق لأنه كان يحظى بدعم القائد هُو، والآن بعد أن غادر القائد هُو، لم يعد أحد منهم يأخذ كلامه على محمل الجد، حتى أن اللقيط اعترض على كلامه ودار بينهما شجار حاد. شعر الأعمى الصغير بالإهانة، فألقى الاجتماع، واقتاد العقيد مفادراً بمفرده، كأن العقيد أسير لديه.

اقتاد الأعمى الصغير العقيد إلى خارج حجرة الدراسة، فتجمعنا حولهما لمنعه من الخروج. صاح الأعمى الصغير يطالبنا بالابتعاد، ودفع العقيد للتحرك. لكن العقيد لم يتحرك، وتوقف عمداً، ثم استدار وقال للأعمى الصغير:

«أريد العودة إلى منزلي، ملابسني متسخة جداً، عليّ العودة إلى منزلي لتغيير ملابسني».

كان الأعمى الصغير الذي تشاجر للتو مع الحشد في أوج غضبه، وبعدما سمع ما قاله العقيد، حاول التنفيس عن غضبه، فدفع العقيد بيده ووبَّخه: «تريد العودة إلى منزلك؟ سأعيدك إلى قبرك!».

ردَّ العقيد: «العودة إلى القبر تحتاج أيضاً إلى تغيير الملابس. أرجع واسأل والدك إن كان على الشخص أن يستبدل بملابسه ملابس نظيفة قبل الذهاب إلى القبر».

قال الأعمى الصغير: «ما تحتاج إليه هو تغيير قلبك وليس ملابسك!»، ثم بدا أكثر غضباً وهو يستطرد: «قلبك ممتلئ بالأفكار المضادة للثورة!». كان العقيد يريد أن يجادله، ولكن عندما رآني واقفاً هناك، تجاهله، وسار نحوي مباشرة وقال: «ارجع وأخبر والدك أنني أريد أن أستبدل بملابسي ملابس نظيفة، فهو يعرف أين أحفظ بملابسي»، كان يتحدث بلهجة آمرة، كأنَّ والدي أخوه.

احمرَّ وجهي، وزادت ضربات قلبي كما لو أنني مجرم قُبض عليه متلبساً. أردت أن أقول: «لن أفعل ذلك»، ولكنني لم أستطع فتح فمي، كأنَّ

نظرة العقيد لي بمنزلة قفل أغلق فمي. أبقى عينيه مثبتتين عليّ، فرأيت الضوء المألوف يسطع من عينيه مرة أخرى، وهو ما جعلني غير قادر على فتح عيني وفمي. شعرت بنوع من الدوار، وحاولت الهروب، وتمنيت لو أن الأرض تتشق وتبلعني. لحسن الحظ، تحدّث الأعمى الصغير في الوقت المناسب وأنقذني من هذا المأزق.

حدثني الأعمى الصغير بنبرة ساخرة: «حسنًا، أنا أوافق على أن تذهب لتُحضر له ملابس جديدة. فوالدك لا يتحلّى بأي وعي طبقي على أي حال، كما أنه متواطئ معه بالفعل».

سبق للقائد هُو أن قال هذه العبارة في الاجتماع السابق، وإلا فمن أين لراسب في المدرسة مثله أن يأتي بعبارة كهذه! بعدها أردف يقول: «كلاهما من الطينة نفسها، ومن الطبيعي أن يساعد بعضهما بعضًا». وبعد برهة من الصمت، قال رافضًا مجيء والدي إلى المدرسة: «والدك دائمًا ما يُفسد خططنا عندما يأتي، فلو لم يحضر معه هؤلاء الأشخاص لإنقاذ هذا الوغد الليلة الماضية، لاستسلم منذ زمن طويل». كيف يمكن أن يكون هذا إنقاذًا؟ هذا كمن يزيد الطين بلة، أو يرمج شخصًا سقط في البئر. شعرت بالخجل أكثر، وعلى الرغم من أنه كانت لديّ مئات الأفكار وآلاف الكلمات لأقولها، لم يكن لديّ خيار سوى الصمت، فتراجعت، وأخفضت رأسي، وابتعدت مهمومًا. شعرت كأنني أحمل ألف رطل من النظرات التي تلاحقني على ظهري، ولم تتمكن ساقاي النحيفتان من حملها. كانت تلك هي المرة الأولى التي أدرك فيها أن للخجل وزنًا.

(34)

ذهب والدي إلى منزل العقيد ليُحضر له بعض الملابس، وأحضر أيضًا علبة من المرهم المسكن وعلبتين من السجائر، ووضعها تباغًا في حقيبتي المدرسية. أغلق والدي حقيبتي وطلب مني أن أذهب سريعًا وأعود

سريعاً. لم أستمع إليه، وبدلاً من ذلك، سلكت الطريق الطويل وذهبت إلى متجر آتاي الأعرج، وطلبت من النمر القزم أن يرافقني. كنت أشعر أن الخجل يجعلني جباناً، ولم أكن أجروء على الذهاب إلى المدرسة وحدي. عندما وصلنا إلى المدرسة، فوجئنا بعدم وجود حارس على البوابة؛ هل ترك موقعه مؤقتاً، أم أنه طُلب منه المغادرة؟ لم تكن لدي أي فكرة. عندما دخلت من البوابة، رأيت أنه لم يكن هناك أحد في الساحة، ولم تكن هناك أي أنوار مضاءة داخل حجرات الدراسة. كانت المدرسة بأكملها مظلمة وخالية، مهجورة وقاسية، كأنها تعرّضت لحريق للتو.

سألت النمر القزم: «لَمْ لا يوجد أحد هنا؟».

قال: «لا بد أنهم جميعاً عادوا إلى منازلهم، فمن هذا الذي قد يستمع إلى الأعمى الصغير؟».

قلت: «لكن القائد هو يحبه».

قال: «هل تعرف لماذا؟ لأن الأعمى الصغير كان يشتري له السجائر، كل السجائر التي يدخنها كان الأعمى الصغير يشتريها له».

قلت متشككاً: «مستحيل!».

لكنه كان متأكداً للغاية، فاستخدم عبارة «رأيتة بعيني» و«مرتين» ليؤكد صحة كلامه. عائلته هي صاحبة الدكان الوحيد في القرية، وهو مؤهل تماماً ليُدلي بشهادته حيال أمر كهذا. ونتيجة ذلك، زادت مشاعر كرهني تجاه القائد هو، وشعرت بأنني تعرّضت للخداع. هذا الشعور جعلني أشعر بالتعاطف مع العقيد على نحو مفاجئ، حتى أنني ندمت على عدم التعاطف معه في أثناء اليومين الماضيين، بما في ذلك تردّدي في إحضار الملابس له، فمنذ قليل كنت أعتقد أن هذا شيء مخجل، لكن الآن شعرت بأنني كنت على حق في مساعدتي إياه. قبضت على حقيبتني المدرسية بقوة، خوفاً أن تسقط الملابس وتضيع، ثم ركضت مسرعاً، على أمل أن أتمكن من إيصالها إلى العقيد في أقرب وقت ممكن، ليتمكن من ارتدائها،

بحيث لا يبدو متسخًا كالمتسول. كان المكان غارقًا في الظلام، ولم أجد من أسأله، لم نكن نعرف مكان العقيد، لذلك كان علينا أن نذهب إلى المخزن أولاً.

كان باب المخزن مفتوحًا، وهناك كلب أسود ضال يأكل بقايا طعام العقيد، تسبَّب وصولنا في إخافة الكلب الذي فرَّ هاربًا من الغرفة المظلمة، الأمر الذي أخافنا أيضًا. لم يركض الكلب بعيدًا، وبقي غير بعيد يفكر في بقايا الطعام كما لو كان يعلم أننا سنغادر، لكن النمر القزم التقط عصا خشبية وطارد الكلب انتقامًا منه على جعلنا نشعر بالخوف. السبب وراء تسمية النمر القزم بهذا الاسم هو أنه شجاع للغاية ولا يعرف الخوف، فهو يجرؤ حتى على اصطلياد الأفعى الجرسية، ناهيك بالكلاب. طارد الكلب عشرات الأمتار إلى أن يؤس الكلب فقفز فوق الجدار وهرب. وعندما عاد أخبرني أنه يعرف بالفعل مكان العقيد. اتضح أنه رأى للتوضوء خلف إحدى نوافذ حجرات الدراسة. كانت تلك الحجرة هي مكتب المدير، التي أصبحت لاحقًا مكتب القائد هُو.

قال: «لا بد أن الأعمى الصغير ومن معه يستجوبونه هناك».

قلت: «من المحتمل أنهم يضربونه، فقد طلب منهم القائد هُو قبل أن يغادر أن يضربوه حال استمر في عناده».

ثم كررت كلام جدي وقلت: «العقيد يستطيع أن يفعل كل شيء عدا الاستسلام».

لقد كنت قلقًا حقًا من أن يستمر العقيد في عناده، ومن ثم يتعرَّض للضرب على يد الأعمى الصغير ذي القلب الأسود، حينها زادت مشاعر تعاطفي مع العقيد.

ربما كان باب المكتب مفتوحًا، أو على الأقل لم يكن مغلقًا بإحكام، فقد سمعنا حديثهم من مسافة بعيدة، تمكنا من سماع كل الأسئلة والإجابات بكل وضوح. يبدو أن العقيد كان متجاوبًا معهم اليوم، أجاب عن كل ما

سأله الأعمى الصغير ولم يقاوم. كان الحديث مثيراً للاهتمام، ولم يكن بوسعنا إلا أن نبطئ خطواتنا، ونخفض أصواتنا، ونقترب منهم شيئاً فشيئاً. مبنى الحجرات الدراسية صفان طويلان بينهما ممر طويل في المنتصف، يحتوي الممر على صف من الأعمدة المبنية بالطوب الأسود، منقوش عليها كل أنواع الشتائم والكلمات البذيئة. كل عام، يستدعي المدير العمال لطلاع تلك الكلمات البذيئة بالجير، وبهذا فقد صارت الأعمدة نصف سوداء ونصف بيضاء، وفي ضوء القمر، يكون اللون الأبيض ساطعاً والأسود مطفأً، ما يُبرز التباين بين البياض والسواد بطريقة أوضح. يقع مكتب المدير في نهاية الممر، صعدنا إلى الممر من عند العمود الأخير ووجدنا أنهم لم يغلّقوا الباب. كان هناك شريط طويل من الضوء الساطع في الممر أمام الباب، لم نجرؤ على التحرك إلى الأمام خوفاً أن نُكتشف، لذلك تراجعنا ووقفنا خلف العمود، وجلسنا على الأرض نتتصّت باهتمام. كنا نستمع باهتمام بالغ، فقد كنا نشعر كأنّ الأعمى الصغير يطرح بعض الأسئلة نيابة عنا.

سمعنا من خلف الباب صوت الأعمى الصغير يسأل: «وفقًا للمعلومات التي تلقيناها، كنت تتلقى سنويًا مبالغ كبيرة مقابل أعمال الجاسوسية، وكثيرًا ما كنت تسافر لمقابلة زملائك الجواسيس».

ردَّ العقيد بصوت أعلى بكثير من صوت الأعمى الصغير: «ما هذه الرائحة الكريهة؟ ما هذه الرائحة الكريهة؟ مثل هذا الضراط الكريه الرائحة لا يصدر إلا عن شخص يحتضر. أكرر لك أنني لست جاسوسًا، ولم أقابل في حياتي جواسيس قط، ناهيك بأي أموال تجسس قذرة». وفقًا لمصادر الأصوات، خَمَّنا أن من المفترض أن العقيد يجلس في مواجهة الباب، والأعمى الصغير يدير ظهره للباب، ولنا أيضًا.

«إذن كيف تعيش حياة رغيدة وأنت لا تعمل أبدًا؟ من أين تأتي أموالك؟». «ومن قال إنني لا أعمل؟ أنا أعمل كثيرًا».

«لم أرَك تعمل في الحقول قط، أنت حتى لا تملك أدوات زراعية في المنزل».

«هل العمل في الحقول هو السبيل الوحيد للعمل؟ هل عمل والدك في الحقول من قبل؟ وبالرغم من ذلك ما زال يكسب المال».

كان والده أعمى يسير معتمدًا على عصاه. لم يكن بوسعه ممارسة أي عمل، وكان يكسب المال بوساطة أعمال العرافة.

«عائلتي لا تمتلك أي أموال».

«وكيف رباك والداك بلا مال؟ هل كبرت هكذا دون أن تأكل أي طعام؟».

«أنا لا أكل جيدًا مثل قططك».

سخر العقيد: «أنا أيضًا لا أكل جيدًا مثل قطتي، فكما يترك والدك كل الطعام والشراب اللذيذ لك، أنا أيضًا أترك كل الطعام والشراب اللذيذ للقطط».

«لَمْ تعامل القطط جيداً إلى هذا الحد».

«القطط هي أبنائي، تماماً ككونك ابن أبيك».

«والدي يكسب المال عن طريق عمله عراًفأ، وأنت علام تعتمد في كسب المال».

انظر إلى تلك الحقيبة على الطاولة، إنها ملكي، عليكم إعادتها إليّ، فأنا أعتمد عليها لكسب المال».

«ماذا في داخلها».

«يمكنك فتحها وإلقاء نظرة».

«ما هذا».

«هذه أدوات العمل الخاصة بي، أعتمد عليها لكسب المال، أشقّ بطون الناس، وأعالج الأمراض، وأنقذ الأرواح، لو كنت جاسوساً كما تقول، لكانت الحقيبة تحتوي على مسدس ورمصاص أو ربما خنجر!».

«من المحتمل أن تكون تلك الأشياء مخفية في منزلك».

«يمكنك أن تطلب من أحدهم التحقق من هذا الأمر، ولو وجدت تلك الأشياء، يمكنك أن تطلق النار عليّ».

«سنتحقق من ذلك عندما يعود القائد هُوَ غداً».

«من الأفضل أن تتحققوا الآن، وإذا لم تكن هناك أي مشكلة، فدعوني أعد إلى المنزل».

«أنت تحلم، ستبقى هنا للخضوع للاستجواب».

«يمكنني الإجابة عن جميع أسئلتك، ولكن عليك أن تفك قيدي».

«هل تحاول خداعي مرة أخرى؟ لا ترفض التكريم فتقع في التغيريم».

بدا كأن الأعمى الصغير يعدل من وضعية جلوسه، سمعنا صوت صرير الكرسي كأنه يئن ألماً، ثم سمعناه يستطرد: «نحن نتسامح مع من يقر بجرائمه، ونتشدد مع من يرفض! لأكون صريحاً معك، لقد أصدر القائد هُوَ تعليماتٍ صريحة بأن نعاقبك إذا لم تعترف، وهذا ليس مخالفاً للقانون».

«أولاً، أنا لست مُخادعاً، فقط أريد الإجابة عن أسئلتك بشكل صحيح، لكن يديّ تؤلماني ولا أستطيع التركيز، لذا لا أستطيع الإجابة عن الأسئلة. ثانياً، يمكنك ضربني إن شئت. فقد سبق أن ضربتوني من قبل. المهم هو أن عليك أن تفك قيدي لو كنت تريدني أن أجيب عن الأسئلة. هذا شرط، وقد سبق لك أن وافقت عليه من قبل».

«هراء! متى وافقت على هذا؟».

«ألم يسبق أن طلبت من أحدهم أن يُحضر لي ملابس؟ موافقتك هذه تعني موافقتك على تغيير ملابسني، وموافقتك على تغيير ملابسني تعني موافقتك على فك قيدي، فمن غير الممكن تغيير ملابسني وأنا مقيّد هكذا، أليس كذلك؟ ناهيك بأنه لا بد لي من الذهاب إلى المرحاض، وهذا أمر لا يمكنك منعي منه، فقائدك نفسه سمح لي بالذهاب إلى المرحاض أمس».

(36)

وبعد سجال طويل، وافق الأعمى الصغير أخيراً على فك قيده ومرافقته شخصياً إلى المرحاض بعد أن وعده العقيد بعدم الهروب. وفي أثناء المدة الفاصلة بين فك قيده وخروجهما من المكتب، كان لدينا الوقت الكافي للهرب والاختباء في إحدى الحجرات الدراسية القريبة. كانت الحجرة مظلمة تماماً، فشعرت بالظلام يغلف قلبي وأنا أفكر في شيئين:

الأول: أين ذهب ابن عمي ومن معه؟ كنت أتفهم غياب بقية أفراد الحرس الأحمر العاديين، لكن مغادرة ابن عمي وكماشة اللحم واللقيط كانت محيرة بالنسبة إلي، فهم قادة فرق فرعية، كيف يمكنهم المغادرة هكذا؟ ماذا إن عاد القائد هو غداً؟ بالتأكيد سوف يوبّخهم. علمت لاحقاً أنهم لم يغادروا، بل كانوا في مطبخ المدرسة، منهمكين في طهو اللحوم لتناول وجبة خفيفة

شهية في منتصف الليل، فالقائد هو ورجاله كانوا يبقون مستيقظين حتى وقت متأخر يوميًا، لذا بالطبع كانوا يتناولون وجبة خفيفة في منتصف الليل. والآن بعد أن غادر القائد هو، حاول هؤلاء اغتنام الفرصة لتقليده؛ عقد الاجتماعات، واستجواب الأشخاص، وتناول وجبة خفيفة في منتصف الليل. ولتحقيق هذه الغاية، أجبر الأعمى الصغير زوجة أحد أغنياء القرية على أن تُحضر لهم قطعة من اللحم المملح وكيسًا من براعم الخيزران المجفف، وسرق كماشة اللحم جرة كبيرة من الخمر من بيتهم، استعدادًا للاحتفال بعد الانتهاء من استجواب العقيد.

أما الأمر الثاني؛ هل سيستغل العقيد الفرصة للهروب؟ إذا أراد الهروب فبالأكيد لن يتمكن الأعمى الصغير من منعه بمفرده. هذا الأعمى الصغير أسود القلب، منافق، مراوغ، ويحب التباهي. لكن عندما يتعلق الأمر بالجري والقفز والقتال، فهو ضعيف للغاية، فكيف يمكنه التعامل مع العقيد القوي البنية؟ لو ترك وحده في مواجهة العقيد، فبإمكان العقيد هزيمته بيد واحدة. كنت أتمنى أن يتمكن العقيد من الهروب، ولكن في الوقت نفسه كنت أشعر بالقلق من هروبه. شعرت بصراع داخلي حاد. سألت النمر القزم عن رأيه، فقال إنه يفضل الاستماع إليهم وهم يستجوبونه، لذلك لم يكن يتمنى له أن يهرب.

أوفى العقيد بكلمته ولم يهرب؛ تبع الأعمى الصغير عائداً إلى المكتب مرة أخرى. وفي الطريق سأل العقيد الأعمى الصغير عن سبب عدم عودتي إليه بملابسه بعد. وبعد أن عادوا وجلسوا ثانية، عدنا إلى مكاننا القديم للتصت، ولأننا كنا مختبئين في حجرة الدراسة ولم نتمكن من سماع ما يقولانه، كما أننا لم نجرؤ على الخروج والاقتراب من المكتب، لذلك لم نسمع الحديث الذي دار في البداية. الجملة الأولى التي سمعناها كانت من العقيد وهو يقول إنه متعب ويريد التدخين، فردَّ الأعمى الصغير بأنه ليست لديه سجائر، حينها قال العقيد إن لديه بعضاً منها في حقيبته.

بدا صوت العقيد متعباً بعض الشيء، كأنه تشاجر للتو مع الأعمى الصغير في المرحاض وهو يقول: «هناك سجائر وثقاب في الحقيبة، يمكنك إلقاء نظرة داخلها، إن لم تكن في الحقيبة أي سجائر، فهذا يعني أن قائدك لص يسرق السجائر، فهذه الحقيبة كانت في حوزته طوال الوقت».

«اخرس! أليست هذه سجائرك».

«أعطني إياها، ليس من حقل الاستيلاء على سجائري».

«خذها، من هذا الذي يريد سجائرك النتن؟».

سمعت ضحكة العقيد المألوفة وهو يقول: «إنها سجائر، لكنها ليست نتن، كما يُقال، السجائر والكحول من الأشياء التي ينبغي مشاركتها، خذ واحدة. ألا تدخن؟ الرجال الحقيقيون يدخنون، وكما يقولون، سيجارة في فم الرجل كزهرة في شعر الفتاة».

«وهل أنت رجل؟ هناك شيء مفقود بين فخذك».

«هل أنت أعمى بالفعل كوالدك، افتح عينيك وانظر جيداً، هل هناك شيء مفقود بين فخذي؟ ليُخرج كل منا ما بين فخذه ولنرأيهما أكبر».

لم نعلم هل أخرج العقيد ما بين فخذه أم لا، لكن بناء على ما قاله لاحقاً، فمن المحتمل أنه لم يفعل ذلك. لكن الاستجواب أصبح أكثر إثارة للاهتمام منذ ذلك الحين. انخرطنا في شجار وساد التوتر. وبعد ذلك، بدأ يتحدثان عن بعض الأمور الفظة والمحرجة، ما جعل الأعمى الصغير في موقف لا يُحسد عليه.

دافع الأعمى الصغير عن نفسه: «وماذا إذن إن كان ما لديك أكبر مما لدي؟ الجميع يعلم أنه بلا فائدة، ليس سوى مجرد مقبض مطاطي».

«هل تريد أن أريك؟ هاها».

«اخرس أيها المخصي اللعين!».

«المخصيَّ اللعين هو أنت! فأنت حتى لم تلمس يد امرأةٍ قط في حياتك. عندما كنتُ في سنك، كانت حولي نساء كثيرات، وكنت أضاجع منهن من أشياء».

«ونتيجة ذلك، قُطع قضيبك، وأصبحت مخصياً لعيناً، وصار عليك أن تخلع سروالك كي تتبول جالساً كالنساء».

كان العقيد يدخل سيارته ويبدو مفعماً بالطاقة، فصار صوته أعلى وهو يرد عليه بجمل متتالية تتناثر من فمه كحبات الخرز المنفرطة: «الشخص اللعين هو أنت. لقد ولدتك أمك ولم ترضعك، فرضعت من حليب الماعز، لا تظن أنك أصبحت ذا شأن بمجرد ارتداء شارة حمراء، فأنت أكثر شخص ملعون في القرية، رباك أبوك بعد أن هجرتك أمك، وبالكاد كنت تتحصل على ما يسد رمقك، يمكنك أن تسأل والدك بعدما تعود، لقد ساعدته بالمال كثيراً، الإنسان السوي يجب أن يتذكر المعروف، لقد أحسنت إلى عائلتك، ولا ينبغي لك أن تقابل الإحسان بالإساءة، أو أن تكذبني وتلفق لي التهم جزافاً. كيف يمكن أن أكون جاسوساً؟ ألم يقل الشرطي العجوز إنني أنقذت قائداً كبيراً في الحزب الشيوعي، وإن هذا القائد الكبير أنقذني أيضاً؟ وإلا، لربما كنت لا أزال في السجن الآن».

«ولمَ سجنوك؟»

«لأنني كنت عضواً في الكومينتانغ».

«هذا ما أتحدث عنه، كنت عضواً في حزب الكومينتانغ، لذا يتعين عليك الخضوع لاستجوابنا».

بدا صوت العقيد مكتوماً، كما لو كان هناك شيء في فمه، ربما كان ذلك بسبب السيجارة التي تتدلى من فمه وهو يقول: «حسناً، استجوب كما يحلو لك، فأنا لا أريد العودة إلى هذا المخزن اللعين على أي حال، إنه مثل المرحاض تماماً».

سمعنا صوت طقطقة، ربما كان يشعل سيجارة أخرى، واستمر يقول: «الرائحة هناك كريهة للغاية! أفضل البقاء هنا ما دامت هناك سجائر لأدخنها».

تأكدنا أنه كان يُشعل سيجارة، ثم سمعناه يستطرد: «أستطيع التحدث إليك حتى طلوع النهار، يمكنك أن تسأل عن أي شيء، ويمكنني أن أخبرك بكل شيء، بما في ذلك ما يخص والدك ووالدتك».

(37)

هذا أمر لا يحتاج العقيد إلى شرحه، فنحن جميعاً نعلم أن الأعمى الصغير ابن وحيد، ليس لديه إخوة أو أخوات، أي إنه الطفل الوحيد في العائلة، وهذا ما يسمى الولد الوحيد؛ لو كانت ابنة، فإنها تسمى ابنة وحيدة. وعلى الرغم من عدد سكان قريتنا الكبير، فإن هناك عدداً قليلاً للغاية من أمثاله ممن يطلق عليهم الطفل الوحيد، بل أكاد أجزم أنه الوحيد في القرية بأكملها. بالطبع، زميلنا المسمّى باللقيط لا يُعد طفلاً وحيداً، فأمه قد تبنته من مكان آخر، لأنها كانت عاقراً لا تتجب.

في الواقع، لم تكن لدى هذا الأعمى الصغير أم، فقد هربت أمه قبل أن تلده، فمن هذه التي تقبل الزواج بأعمى؟ سمعت أن والدته كانت جميلة، ذات وجه مستدير، وحواجب دقيقة، وشفتين حمراوين ممثلتين. لم يسبق لي أن رأيتها -زوجها الأعمى نفسه لم يرها، فكيف لي أن أراها؟- فقط سمعت الناس يتحدثون عنها، وسمعت أيضاً أنها تعرّضت للخداع وقت زواجها. كان الشخص الذي ذهب لخطبتها هو عم ذلك الأعمى الصغير، أي الأخ الأصغر لوالده الأعمى، وفي يوم الزفاف كان هذا الأخ الأصغر هو من رافقها إلى غرفة الزوجية. كان الشبه كبيراً بين الأخوين في الشكل والصوت، وعندما أطفئت الأنوار، خرج الأخ الأصغر ودخل مكانه الأخ الأكبر. كان المكان مظلماً ولم تستطع العروس التفريق بينهما.

قال جدي: «كانت تلك مؤامرة محكمة. حتى بوذا نفسه كان ليقع في هذا الفخ، فما بالك بعروس جديدة؟».

وعلى حد تعبير الشرطي العجوز: «هل هناك عروس جديدة لا تشعر بالتوتر عند دخول غرفة الزوجية؟ ودون أي ضوء، فكيف يمكنها التفريق بينهما ما داما بشرًا عاديين وليسا وحوشًا جلدها مغطى بالشعر؟».

وفي صباح اليوم التالي، استيقظ والد الأعمى الصغير وبدأ يبكي بصوت عالٍ، وقال لزوجته إنه فقد بصره بعدما قضى ليلة الزفاف معها في غرفة الزوجية. في البداية صدّقت الزوجة كلامه وبكت أيضًا. وبعد ذلك، ذهبت للبحث عن طبيب يداويه. بالطبع لم ينجح الأطباء، فهذا الوالد وُلد أعمى، والآن أصبح محتالًا كبيرًا، ونجح باحتياله في الإيقاع بهذه الزوجة ذات الشفاه الممتلئة المتوردة. لو لم يعد الأخ الأصغر، لبقيت المرأة زوجة هذا الأعمى إلى الأبد، ولكن كان من المستحيل على الأخ الأصغر ألا يعود إلى المنزل. هذا الأخ الأصغر كان قد ذهب في وقت سابق إلى منطقة جيانغبى للعمل في حفر القناة الشمالية، ولما علم أن زوجة أخيه حامل بطفل، وأن الفأس قد وقعت في الرأس، استجمع شجاعته وعاد. بعد عودته كان يناديها دومًا ويقول «يا زوجة أخي العزيزة، يا زوجة أخي الغالية»، ظنًا منه أن مناداتها بهذه الطريقة يمكن أن تبدد شكوكها.

لكن كيف لحيلة كهذه أن تنطلي عليها؟ بالألاعيب والحيل التي كان ابنهما الأعمى الصغير يمارسها، يمكنك ملاحظة أن أمه لم تكن امرأة حمقاء، ولا ساذجة. قال أهالي القرية إن والدته كانت ذئبًا في ثوب حمل، وذكية للغاية أيضًا. لم تبين لزوجها علمها بالحقيقة، لكنها كانت تتلاعب به في الخفاء. تعرفت إلى بائع متجول غالبًا ما يأتي إلى القرية لبيع سكر الشعير، وكانت تمارس الجنس معه خلسة فوق أكوام القش في الحقول، وفي الوقت نفسه كانت تحتال على الرجل الأعمى وتسرق الأموال التي يحصل عليها من أعمال الدجل. وبعد أن سرقت أموالاً كثيرة، ذهبت إلى

مستشفى البلدة واشترت بعض أقراص الدواء. وفي إحدى الليالي، وضعت تلك الأقراص في وعاء من العصيدة، وأعطتها للرجل الأعمى ليتناولها. في تلك الليلة، غط الرجل الأعمى وعائلته في نوم عميق، وكأنهم حيوانات ميتة، حتى إن دوى الرعد في السماء لم يكن ليقظهم، لأن تلك الأقراص كانت أقراصاً منومة.

قال جدي: «النساء هنّ أصل الشرور، وعندما تصبح المرأة شريرة، تتحول إلى بئر لا قرار لها».

في تلك الليلة ذاتها، وفي أثناء هبوب عاصفة رعديّة، اختفت المرأة مثل وميض البرق، ولم تترك أي أثر. وفي إحدى الليالي بعدها بمدة طويلة، تسللت إلى القرية في الظلام مثل الخفاش. لم يكن أحد يعرف لماذا عادت إلى هنا، فهي لم تأت لمقابلة أي شخص، ولا لسرقة أي شيء، كانت مثل شبح تائه، تجوّلت في القرية بعض الوقت، ثم غادرت دون أن يلاحظها أحد.

وفي منتصف الليل، استيقظ الرجل الأعمى على صوت بكاء طفل رضيع. هذا الرضيع هو الأعمى الصغير، كان ملفوفاً في قماط، موضوعاً أمام باب بيت الرجل الأعمى، وهناك قطعة من الورق محشوة داخل القماط، مكتوب عليها تاريخ ميلاد الأعمى الصغير، وعبارة أخرى تقول: أيها الأعمى، هذا طفلك، عليك تربيته ليكون سنداً لك حتى الممات، فوالدته قد ماتت.

ومنذ ذلك الحين لم يشاهد أحد تلك المرأة مرة أخرى، كأنها ماتت بالفعل.

رضع الأعمى الصغير من حليب الماعز، لكنه أصبح ذئباً في ثوب حمل.

سمعنا صوت تحرُّك الكرسي، كما لو كان يبكي بعد تعرُّضه للضرب. لم نكن نعرف لماذا يحرك الأعمى الصغير كرسيه. يبدو أنه وقف ثم جلس مرة أخرى، كأن مؤخرته تؤلمه، ويحاول تعديل وضعية جلوسه باستمرار. أخيرًا، توقف صوت الكرسي، وسمعنا الأعمى الصغير يسأل العقيد بنبرة تحذيرية صارمة:

«أخبرني ما علاقتك بالشرطي العجوز؟ يجب أن تقول الحقيقة! لا تراوغ، وإلا فلا تُلمني على ما سأفعله بك».

«لا داعي للمراوغة، الجميع في القرية يعلم أنني مارست الجنس مع عشيقته عندما كنت شابًا طائشًا، لذا أصبحنا عدوين».

«لكنه دافع عنك بوضوح أمس، وقال إنك لم تتم مع عشيقته».

«من الذي قد يعترف أن عشيقته نامت مع شخص آخر؟ الكل يريد حفظ ماء وجهه، ظاهر كلامه أنه كان يدافع عني، لكنه في الحقيقة كان يدافع عن كرامته، ولكي يغطي على أكاذيبه قال أنني مخصي. هذه إهانة كبيرة لي، ولا يُهينني بهذه الطريقة إلا مَنْ يُكِنُّ كراهية عميقة تجاهي».

«الجميع في القرية يقول إنك مخصي».

«هذا مضحك، تمامًا كما تقول أنت الآن إنني جاسوس».

«ألست جاسوسًا؟».

«بالطبع لا، يقول الناس إن اسمك هو الأعمى الصغير، فهل أنت أعمى حقًا؟ القيل والقال أمر مخيف، ولا أحد يعلم ما تُضمّره القلوب! بعض الناس قلوبهم غارقة في الشر، يحاولون عمدًا إيذاء الآخرين، وبعض الناس لديهم ألسنة لا تنفك عن نشر الشائعات وتشويه سمعة الآخرين. أنا شخص يحب التباهي، وهذا ما جعل كثيرين يكرهونني، لذلك كانوا ينسجون كثيرًا من الشائعات عني، لكنني لست جاسوسًا ولا مخصيًا، تمامًا كما أنك لست أعمى. أنا رجل بحق. كنت مولعًا بالتدخين، والشرب،

ومضاجعة العاهرات، والمقامرة والقتال في شبابي. لكني الآن كبرت في السن، تغيرت الأمور، وتوقفت عن مضاجعة العاهرات والمقامرة، ولم أعد قادراً على القتال بعد، ولكنني لا أزال رجلاً بحق».

كُفَّ عن التظاهر أيها المخصي. ماذا تقصد بقولك «رجلاً بحق؟»، أظن أنني لم أرك وأنت تتبول للتو؟ رأيتك جالساً القرفصاء كامرأة عجوز. كيف تقول عن نفسك أنك «رجل بحق؟».

«كنت أ تبرز، هل يمكنك أن تبرز واقفاً؟».

«ولم لم تمسح مؤخرتك بعدما تبرزت؟».

«كيف أمسحها وليس معي ورق؟ أستخدم أصابعي؟ أفضل عدم مسحها على أن أفعل ذلك. ألم تشم رائحة كريهة؟ هذا لأنني لم أمسح مؤخرتي. لكن أخبرني كيف تجرؤ على قول ذلك؟ ألسنت بذلك ثبتت أنك تتلصص على الناس وهم يتبرزون ويتبولون. هل تفعل ذلك عادة؟ وهل تشاهد النساء يفعلن ذلك أيضاً؟ يا لك من منحرف مثير للاشمئزاز! سأسديك نصيحة: الرجال يحبون النساء دوماً، لكن النساء يُحببن الرجل الرومانسي، وليس الوضع. ما المقصود بالرومانسي؟ أمثالي هم الرومانسيون، لذلك، عندما كنت صغيراً، كانت هناك نساء كثيرات حولي، وحتى الآن، أستطيع الحصول على أي امرأة تعجبني لو رغبت في ذلك».

«دعك من هذا الهراء! أنت حتى ليست لديك زوجة، فكيف تكون لديك نساء أخريات عديدات».

«الزواج سيجعلني مقيداً، فالزوجة مثل الشرطة التي تُراقبك طوال الوقت! بصراحة، سبب كوني عازباً هو رغبتني في أن أكون حراً، وألا يتحكم فيّ أحد. أنا رجل رومانسي بطبعي ولا أستطيع تغيير ذلك، لقد خلقت لأكون عازباً. إن وصفي بالمخصي لمجرد أنني لم أتزوج هو مُزحة كبيرة، مزحة عالمية. حسناً، لنفترض أنني مخصي، هل يُعد هذا سبباً لاستجابي؟ هل هذه أيضاً مسألة سياسية؟».

«لا، لكنني سأحقق في قضاياك السياسية الآن».

«ليست لديّ أي قضايا سياسية، وأنا على يقين أنك ستبرئ ساحتني في النهاية. أنا لست جاسوسًا، صحيح أنني كنت عضوًا في الكومينتانغ، ولكنني الآن بالتأكيد لست جاسوسًا للكومينتانغ، أو رجعيًا. أنا مؤيد للحزب الشيوعي، والزعيم ماو، والصين الجديدة. فمن أجل الدفاع عن الصين الجديدة، ذهبت إلى كوريا للقتال في حرب مقاومة العدوان الأمريكي ومساعدة كوريا، وحصلت على وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى، كنت جنديًا نموذجيًا، وألقيت خطابات في جميع أنحاء البلاد».

«أنت تهذي، فكيف انتهى الأمر بك هنا إذن؟».

«لأنني كنت أسيرًا لشهواتي، وارتكبت مشكلةً تتعلق بأسلوب حياتي. باختصار، ليست لديّ أي مشكلات سياسية. ولو كانت لديّ أي مشكلات، فهي مشكلات تتعلق بأسلوب حياتي. لو كان سجنكم وانتقادكم إياي بسبب مشكلات تتعلق بأسلوب حياتي، فأنا أقبّل ذلك. ولو كان بسبب مشكلات أخرى، فلن أقبل».

«أخبرني عن تلك المشكلات التي تتعلق بأسلوب حياتك».

«الحديث عنها يطول. ما الذي تريد أن تسمعه، عن الماضي أم الحاضر؟ أخشى أنك لا تجرؤ على الاستماع، ولو سمعت فلن تفهم. ربما سبق لك أن رأيت مؤخرة امرأة، لكن هل سبق أن رأيت ثديين؟ ثديين كبيرين كثمرة القرع، أم ثديين صغيرين كحبة الكمثرى، أم ثديين مترهلين كأكياس القماش؟ هل رأيتهما؟ هل لمستهما؟ هل قبّلتهما؟ هل تعرف شعور التقبيل؟ وماذا يحدث بعد التقبيل».

«أخرس أيها الوغد القذر!».

«أرأيت، لم تتحمّل كلامي بمجرد أن بدأت الحديث».

نحن أيضًا لم نتحمّل ذلك. كنت أنا والنمر القزم أشبه بالجالسين على أرض إسمنتية ساخنة، أجسادنا تغلي من الداخل، وقلوبنا تكاد تقفز من

صدورنا إلى حناجرنا، كأن حناجرنا محشوة بحديد ساخن للغاية. كدنا نسل بمجرد ابتلاع لعابنا. لذا، نهضت أنا والنمر القزم واقفين في الوقت نفسه تقريباً، محاولين كتم سعالنا.

تمالكت نفسي، لكن النمر القزم لم يستطع، فركض بعيداً وهو يسعل. أما أنا فلم أغادر، فأنا هنا لتسليم الملابس، ولا يمكنني المغادرة. خرج الأعمى الصغير من المكتب مسرعاً وصاح باتجاه الممر: «من هناك؟ من بالخارج؟». كان ينبع مثل كلب الحراسة. عندما رأي عاملني كاللص، وانقضَّ نحوي بشراسة، كأنه يريد أن يعضني. ولكن عندما رأى الملابس في يدي، انتزعها مني كما يخطف الكلب قطعة لحم، ووبَّخني: «لَمْ أنت هنا الآن؟!». أردت أن أشرح له، لكنه لم يرغب في الاستماع، واستمر يسألني: «هل كنت تتنصَّت في الخارج للتو؟». بالطبع قلت لا، فالكذب أمر سهل.

ناداني العقيد من داخل الغرفة، ربما شعر الأعمى الصغير بالقلق من أن يطلب العقيد مني فعل شيء آخر، لذلك توقف عن الكلام وطرَدني، وكأنه خَمَّن أنني أريد البقاء والتنصت. لم أكن أعلم أن هناك أمراً كبيراً سيحدث لاحقاً، لذا رحلت بلا اكتراث. وحتى إن لم يطردني، فقد كنت أشعر أن وقت المغادرة حان، فهناك كثير من البعوض الذي لدغني وجعلني أشعر بالحكة في جسدي كله. لم أجرؤ على الهرش عندما كنت في الداخل، لكنني شرعت أهرش بقوة في طريق العودة إلى المنزل. كلما هرشت، زادت الحكة، حتى صارت ذراعاي وقدماي مغطاة بالبثور الحمراء. عندما ذهبنا للنوم، اكتشف جدي البثور الحمراء على جسدي، فأتى ببعض نبيذ التوت البري ليمسح جسدي لتخفيف الحكة. أحصى جدي البثور فوجدها سبعمائة وعشرين واحدة، منتشرة في أماكن متفرقة من جسدي، كنت مثقناً بالجراح كما يقول المثل.

قال جدي إن معظم البعوض يموت في أثناء فصل الشتاء البارد . هناك مقولة شعبية تقول: في الشتاء البارد يموت البعوض الشارد . ومع ذلك، فالبعوض الذي لدغ البشر وتغذى على دمائهم يكون مفعماً بالطاقة، بل ويصبح ذكيًا، فعندما يأتي موسم الشتاء البارد، يبحث هذا البعوض عن مكان دافئ لبناء عش، ثم ينام بعمق، ويحافظ على طاقته . وبهذه الطريقة، يمكنه النجاة من البرد القارس دون أن يموت، ويصبح بعوضاً خارقاً، ثم يستمر في سلوكه العدائي في العام المقبل . أعتقد أنني والنمر القزم حوّلنا ما لا يقل عن عشرات من البعوض إلى بعوض خارق اليوم، وربما يعود ليمتص دماءنا العام المقبل .

على حد ما أتذكر، لم يسبق لي أن ذهبت قط إلى الطابق العلوي للنوم مع والديّ. كنت أنام مع جدي في غرفة جانبية في الطابق الأول، الغرفة الجانبية الشرقية، وظل الأمر دوماً على هذا النحو. مقابل الغرفة الجانبية الشرقية توجد بالطبع الغرفة الجانبية الغربية، وهي المكان الذي نتناول فيه الطعام، وهناك فناء صغير في المنتصف. يؤدي الجانب الجنوبي من الفناء مباشرة إلى البوابة الرئيسة، ويرتبط الجانب الشمالي منه بالقاعة الأمامية، وداخل القاعة الأمامية توجد قاعة فرعية، القاعة الفرعية هي المكان الذي نطبخ فيه، ونصعد منه إلى الطابق العلوي ونذهب منه إلى الفناء الخلفي، وتحتوي على باب خلفي ونافذة خلفية. خارج الباب الخلفي توجد حظيرة الماشية ومخزن الحطب، وهو المكان الذي أربي فيه الأرانب. تحت النافذة الخلفية يوجد موقد فخاري كبير، أمامه درج خشبي. الدرج متصل بجدار القاعة الأمامية، ويصدر صوت صرير مثل طاحونة الهواء عند الصعود عليه أو النزول منه. القاعة الأمامية هي مكان لتقديس الأسلاف، وفي الماضي كنا نعلق صور والد جدي ووالدته في منتصف جدار تلك القاعة، ولكن الآن علقنا مكانهما صورة للزعيم ماو، أسفلها طاولة طويلة موضوعة بشكل أفقي، كنا نضع عليها الأدوات المستخدمة في طقوس تقديس الأسلاف، ولكن والدتي أخفت بعضها الآن، وصادر الحرس الأحمر البعض الآخر، ولم نعد نعرف مكانها، وربما أحرقت.

نادرًا ما أصعد إلى الطابق العلوي، لكني سبق أن صعدت إليه على أي حال. كنت أعلم أن لا أحد يعيش في الطابق العلوي للقاعة الفرعية، إلا الفئران فقط، لأن مخزن الحبوب مكانه هناك. وبطبيعة الحال، لم تكن الفئران لتنهأ بالعيش هنا، فقد دفن والدي مصيدة فئران هناك، وضع

داخلها حبوب فول الصويا التي تحبها الفئران، كأَنَّ حبوب فول الصويا تتادي الفئران قائلة: أيها الفأر، تعال إلى هنا، سأوقعك في الفخ لتلقى حتفك بمجرد مجيئك. في السابق كانت أختي الكبرى تسكن في الطابق العلوي للغرفة الجانبية الشرقية -أي الطابق العلوي للغرفة التي أعيش فيها أنا وجدي- ويسكنها أخي الأكبر الآن، أما والداي فيعيشان في الطابق العلوي للغرفة الجانبية الغربية. الطابق العلوي للقاعة الأمامية نصفه ممر ونصفه غرفة، كان أخي الأكبر وأخي الثاني يسكنان فيها من قبل. والآن صارت فارغة تقريباً بعدما انتقل منها أخي الأكبر وصار من النادر أن يعود أخي الثاني إلى المنزل. إذا كنت تريد مشاهدة الجبل الخلفي، فكل ما عليك هو الصعود إلى القاعة الفرعية، وفتح النافذة، ستشعر كأنه يمكنك لمس الجبل الخلفي بيدك تقريباً. أخبرني جدي أنه كان يعيش في الغرفة الجانبية الغربية في طفولته. حينها كان بإمكانه الصعود إلى حافة النافذة والعثور على زاوية جيدة لرؤية الجبل القريب والأنهار البعيدة. لكن الآن لم يعد بالإمكان رؤية أي منها، فجدران البيوت وأفاريزها صارت تحجب الرؤية، بل حتى الرياح القادمة من الجبل الأمامي لم تعد تصلنا. نادراً ما أذهب إلى الجبل الأمامي لأنه بعيد جداً. لكنني أرى النهر كل يوم، إذ كان لا بد من المرور به إن كنت ذاهباً إلى المدرسة أو ذاهباً إلى الحقول لجمع الحشائش للأرانب بعد انتهاء الدراسة. في الصيف، كنت أحياناً أقضي اليوم بأكمله في النهر، أسبح، وأصطاد السمك، وأجمع النباتات المائية. يُطلق على النهر اسم النبع الكبير. وكما يوحي اسمه، فمياهه وفيرة لأنها قادمة من الجبل الأمامي، والجبل الأمامي كبير مثل البحر، فالجبال والمياه مترابطان. والنهر المرتبط بالجبل الأمامي الكبير، تماماً كالبحر، لا بد أن يكون «نبعاً كبيراً»، وليس «نبعاً صغيراً». في فصل الشتاء، يبدو النهر ضعيفاً ومريضاً، ولكن ما إن يحل الربيع، حتى يرتفع منسوب المياه ليلة تلو الأخرى، أما في الصيف، فتكون الفيضانات أمراً

شائعاً، يحمل التيار الجارف الأشجار المقتلعة، والخيزران، والمحاصيل المتنوعة، ويتدفق إلى الأمام بجنون، ثم يصب في نهر فوتشون الذي يبعد بضعة كيلومترات. لو فاض نهر فوتشون، تتدفق المياه بشكل ارتدادي في نهر النبع الكبير، ثم تفيض على ضفتيه، وتغمر الأراضي المحيطة وصولاً إلى الأزقة والبيوت.

قال جدي إن نهر فوتشون كان غنياً بالأسماك الكبيرة، وفي العام الثاني عشر لجمهورية الصين، أي عام 1923، شهد نهر فوتشون فيضاً لم يحدث مثله منذ قرن. كان عمق المياه في القرية يزيد على المتر، وهو ما يكفي للتجديف بالقوارب. وعندما انحسر الفيضان، اصطاد سمكة بيضاء كبيرة تزن تسعة وثلاثين كيلوجراماً من تحت درج المنزل. كانت السمكة أطول من جدتي عند وضعها بشكل رأسي، وعند وضعها على الأرض، كان جسمها الأبيض ساطعاً يضيء المطبخ بأكمله. ولكن هذه السمكة كانت نذير شؤم، فقبل أن تنتهي الأسرة من أكلها، توفيت جدتي. قال الجد إن هذه السمكة أرسلت من العالم السفلي خصوصاً لاختباره! لكنه فشل في الاختبار، فأكل السمكة، وفقد الجدة. ومنذ ذلك الحين، وضع جدي المباخر، والشمعدانات، وتماثيل قوان قونغ في القاعة الأمامية من أجل التقرب للآلهة والأسلاف، ودرء الكوارث وطرد الأرواح الشريرة، وظل الأمر هكذا إلى أن صدر الحرس الأحمر هذه الأشياء. وفي وقت لاحق، أصبحت حياة عائلتي أكثر سوءاً، وحدثت مشكلات كثيرة، ربما تكون لهذا علاقة بما فعله الحرس الأحمر. كانت القاعة الأمامية مخصصة لتقديس الأسلاف، لذلك كانت تحتوي على طاولة كبيرة ومقاعد. الطاولة مئمة الشكل، والمقاعد ثلاثة مقاعد طويلة، وكريسيان بذراعيين. في العادة كنت أجلس إلى الطاولة لعمل واجباتي المنزلية وجدي يأخذ قيلولة في الغرفة الجانبية، كنت أستطيع سماع شخيرته بوضوح، وكنت أزعجه أيضاً عندما أقرأ النصوص. لذلك، في كل مرة يراني جدي أؤدي واجباتي المنزلية قبل

أن يأخذ قيلولته، كان يطلب مني دائماً أن أكتب الواجب فقط، وألا أقرأ النصوص. وكان الأمر نفسه في الليل، فقبل الذهاب إلى النوم، كان جدي يذهب دائماً إلى القاعة الأمامية للتحقق، ولو وجد أي شخص هناك، كان يطرده، إلا إذا كان شخصاً بمفرده، وبشرط أن يتعهد له هذا الشخص بالبقاء هادئاً وعدم إحداث أي ضوضاء.

قال جدي إنني أنام كالخنزير الميت، حتى الرعد لا يستطيع إيقاظي، لكنه ينام كالسنباب، ويستيقظ حتى لو سقطت ورقة. ولكن في تلك الليلة، عاد «الخنزير الميت» إلى الحياة. أعني أنني استيقظت في منتصف الليل في تلك الليلة.

(40)

لا أعلم إن كان ذلك بسبب شعوري بالحكة، أو لأن ضوء القمر كان ساطعاً بشدة ومسلطاً على عيني، المهم هو أنني استيقظت فجأة. في البداية سمعت شخصاً يتمتم، ثم سمعت شخصاً يبكي وينتحب، كان الصوت متقطعاً، يأتي ويذهب. عندما سمعت النحيب، نهضت جالساً على الفور كما لو أن هناك ناراً اشتعلت في جسدي. حينها فقط أدركت أنني وحدي على السرير، وأن جدي غير موجود. كان الباب مفتوحاً قليلاً، ما سمح بدخول شعاع من ضوء القمر، كأن جدي دخل وسط ضوء القمر ولم يخرج؛ في الوقت نفسه، كان صوت الأنين مضاءً أيضاً بضوء القمر، فغمرت قلبي مشاعر مختلطة: الخوف، والفضول، والإثارة، والتوتر، والارتباك. كانت تلك المشاعر تتأرجح بين الظلام وصوت الأنين، تارة يميناً ويساراً، وتارة صعوداً وهبوطاً.

من الذي يبكي؟ هذا صوت رجل. شخص بالغ. ولكنه ليس والدي، ولا جدي، وبالتأكيد ليس أخي الأكبر.

من هو؟ تغلب فضولي الشديد على خوفي، نزلت من السرير بهدوء، خطوة بخطوة، بخفة كالقطط. كانت فجوة الباب واسعة بما يكفي لأتمكن من المرور عبرها بسهولة، ثم حاولت الاقتراب من الصوت كما لو كنت أقترب من حافة الهاوية. كان الصوت قادمًا من مطبخ منزلنا، وهو المكان الأكثر توارياً عن الأنظار والأسماع. لم يذهب أي شخص إلى هذا المكان اللعين ويبيكي في منتصف الليل؟ لم تكن هناك أضواء في أي مكان، فمشيت إلى داخل القاعة الأمامية المظلمة، لكنني لم أستطع رؤية أي شيء، رأيت فقط سوادًا حالكًا، حتى أن صوت البكاء بدا كأنه صار أسود أيضًا، مثل صوت بكاء الأشباح. بدا صوته مألوفًا بالنسبة إلي، لكنه كان مغلفًا بالظلام، ما جعل من المستحيل بالنسبة إلي التعرف إليه. كان هناك شيء واحد واضح وغريب في الوقت نفسه، وهو أنه بدا كأنه غير قادر على البكاء، وخائفًا منه، وغير راغب فيه. أحيانًا يبكي مختنقًا بلا صوت، وأحيانًا أخرى يبكي بحرارة وغضب.

من هو؟ شعرت كأنني على وشك الانهيار من فرط الترقب والمعاناة. كان الباب مغلقًا بإحكام، لذلك بالطبع لم أجروء على اقتحامه لأرى ما في داخله، ولكنني كنت أعلم أن هناك ثقبًا عند أحد طرفي الرف العلوي (في الواقع، كانت هناك شقوق وثقوب عديدة في الحائط) يمكنني عبره رؤية القاعة الفرعية. تسللت على أطراف أصابعي واقتربت من الرف وعثرت على الثقب. وبالمصادفة، بينما اقتربت بعيني من الثقب، سمعت صوت احتكاك خفيف في الداخل، ثم رأيت عود ثقاب يشتعل وسط الظلام مثل البرق، لكنه استمر مدة أطول من البرق. قبل أن ينطفئ عود الثقاب، كنت قد رأيت كل شيء بوضوح؛ الشخص الذي أشعل السيجارة كان جدي، كان جالسًا في مواجهة على كرسي صغير أمام الموقد يضم يديه وقدميه، يظهر على وجهه الوجوم، وكأنه يفعل شيئًا مهمًا، وكان هناك رجل طويل يدير لي ظهره، ظهره مُنحِن وجسمه يميل إلى الأمام، يجلس

بنصف مؤخرته على كرسي مربع (كانت والدتي تجلس عليه غالباً في أثناء الطهو وخياطة نعال الأحذية)، ويستند بمرفقيه إلى الموقد، ويداه تحتضنان رأسه المتدلي، وكتفاه مرتفعتان. كان هذا الشخص هو الذي يئن، كان حزيناً للغاية، منهزماً، جسده العلوي مشلول تقريباً. رأيت والدي أيضاً، كان يقف مشدوهاً بجانب ذلك الشخص، ويبدو متعباً ومحبطاً للغاية أيضاً.

من هذا الشخص؟

في اللحظة التي سبقت انطفاء عود الثقاب، تعرّفت إليه من ملابسه: كان العقيد! يرتدي القميص الأبيض الذي أوصلته له تلك الليلة، كان مطبوعاً على ظهره رقم أحمر كبير: 12.

أتذكر بوضوح أنه عندما أعطاني والدي هذا القميص، وبّخه جدي قائلاً إن البعوض يكثر في الليل، وينبغي أن يرسل له قميصاً بأكمام طويلة. أوضح له والدي أن هذه الملابس أحضرتها والدّة العقيد من معبد في جبل بوتو، وأنها قد تكون مباركة وتحمي العقيد. كنت متأكداً أن هذا هو القميص الذي أعطيته للعقيد، وإذا لم يكن قد حدث شيء غير متوقع، فالشخص الذي يرتديه بالطبع هو العقيد.

ولكن... ولكن... كيف أصبح العقيد هكذا؟ كان مختلفاً تماماً عن العقيد الذي أعرفه! العقيد الذي أعرفه مستقيم الظهر، عالي الصوت، فكاهي ومرح، وشجاع وجريء، لا يخشى شيئاً، حتى إن انطبقت السماء على الأرض. لا أستطيع أن أتخيل العقيد بهذا الشكل؛ منهكاً مهزوماً عاجزاً وبائساً للغاية!

هل هذا هو العقيد حقاً؟ نعم لا شك في ذلك، هذه ملابسه، وهذا صوته، وهذا ظهره أيضاً.

ماذا حدث بالضبط؟

أول ما خطر ببالي هو الققطط. لقد حدث شيء للققطط، هربت. لا، بل ماتت. لو كانت قد هربت حينها كان الجميع سيذهب للبحث عنها. لا، حتى إن ماتت الققطط فالأمر لا يستدعي أن يكون على تلك الحال. الأمر أشبه بانطباق السماء على الأرض! أضف إلى ذلك أنه حتى إن ماتت الققطط، فلن يسمح له الأعمى الصغير بالخروج. لذلك فكّرت في أمه العجوز ذات الشعر الأبيض. هل يمكن أن تكون هي التي ماتت؟ فالمرأة العجوز مريضة بشدة ولا تعود إلى المنزل إلا قليلاً، تتجول في المعابد لتُشعل البخور وتصلي لبوذا، وتتمتع طوال الوقت بطريقة غريبة، وكأنها موشكة على الموت.

شعرت بالارتياح عندما وصلت بالتفكير إلى هنا، والسبب هو أن الأمر لا علاقة له بعائلتي. تسمّرت مكاني أفكر، أشاهد السيجارة تحترق في يده، وكأنها شبح مشتعل، وأستمع إلى أنينه الخافت، وكأنه شبح يبكي. لو كانت تلك المرأة العجوز المزعجة قد ماتت حقاً، ستكون القرية قد تخلصت من شخص مزعج، كانت فضولية بعض الشيء، وكلما رأتنا نلهو ونشاغب، تنهرنا أو تردد تعاويذ دينية لتخويفنا. لقد صرت مشوشاً، لا أعرف ماذا حدث أو ماذا سيحدث بعد ذلك. كنت أتمنى فقط أن يتحدث أحدهم بسرعة ليقدّم لي إجابة بخصوص ما يحدث.

يبدو أن جدي فهم ما كنت أفكر فيه. سعل وتحدّث دون أن يبدو في نبرة صوته أي حزن أو تردد: «إذا لم تغادر، فسوف تموت بالتأكيد». كان جدي يتكلم بلهجة رجل كبير في السن، وبقرار شخص خبير، استمر يقول: «يجب عليك المغادرة في أقرب وقت ممكن، قبل طلوع النهار، وإلا فلن تتمكن من المغادرة».

ثم جاء صوت والدي، منخفضًا، بطيئًا، كئيبيًا، وكأنه مختلط بدموع العقيد: «نعم، غادر. الأمر لا يستحق الموت على يد هذه الوحوش الصغيرة». نهض والدي محاولاً سحب العقيد، لكن العقيد رفض. لم يتحرك وبقي مكانه، كأنه ملتصق بالموقد.

وقف الجد وحثه بقوله: «أسرع، لا يزال يتعين عليك حزم أمتعتك، لا يوجد وقت»، ثم تقدّم يسحب العقيد وقال: «انهض سريعًا، عليك أن تغادر».

بدا العقيد كأنه قد استيقظ للتو من حلم، لم يكن قادرًا على الوقوف بثبات، يترنح كما لو أن روحه فارقت جسده، وظل يتمتم: «أذهب؟ إلى أين؟». كان صوته مبجوحًا، خائفًا، مرتبكًا، وحيدًا. لم يكن يبدو كأنه العقيد على الإطلاق، فهو عادةً ما كان يساعد الآخرين في حل المشكلات، ويخفف مخاوفهم، ويُعلم الناس هذا وذاك. أحيانًا يكون هادئًا ومتماسكًا، وأحيانًا يكون مفعمًا بالطاقة. ولكنه الآن جبان ومذعور، مثل ذبابة بلا رأس.

قال جدي: «العالم كبير للغاية، وهناك أماكن كثيرة يمكنك الذهاب إليها، فلمَ تصر أن تسلك طريقًا مسدودًا؟».

قال والدي: «لديك أصدقاء كثيرون في الخارج. يمكنك الذهاب إلى أي مكان. فأى مكان أفضل من انتظار الموت هنا». قال جدي للعقيد: «أسرع، ليس هناك وقت نضيعه».

قال جدي لوالدي: «اسحبه بالقوة، لو طلع النهار فلن يتمكن من المغادرة».

رأيت بوضوح خلف دخان سيجارة جدي والدي وهو يسحب العقيد. كنت أعلم أنهم على وشك الخروج، لذا عدت بسرعة إلى الغرفة واختبأت خلف الباب حتى أتمكن من رؤيتهم وهم يخرجون. وبعد مدّة من الوقت، فتحو الباب وخرجوا وسط الظلام، وساروا عبر القاعة الأمامية بأكملها،

ودخلوا إلى الفناء، وساروا في ضوء القمر. كان ضوء القمر بارداً ومشرقاً. رأيت والدي يسحب ذراع العقيد ويقوده، وكان جدي خلفه يرافقه، وأحياناً يدفعه، ولا يسمح له بالتوقف. بهذه الطريقة، كان العقيد يتبع والدي خطوة بخطوة، رأسه منخفض، ظهره منحني، يدها وقدماه متيبستان، خطوة ثقيلة وخطوة خفيفة، يسير متثاقلاً، متجهاً نحو البوابة. عندما خرجوا من البوابة، بدا العقيد عاجزاً عن رفع قدميه لتجاوز العتبة، وكاد يتعثربها. بدا كأنه تحوّل فجأة إلى رجل عجوز أكبر سناً من جدي، كأنّ ما حدث قد دمّره بسرعة.

كانت تلك آخر مرة أراه في القرية، كان وجهه شاحباً وبارداً في ضوء القمر، ملامحه مذعورة مرتبكة، خطواته ثقيلة وبطيئة، ظهره منحنيّاً، رأسه يتدلى كما لو كان على وشك السقوط، كانت هيئته كاملةً أشبه بجذوة نار تكاد تتمدّد، مختلفاً تماماً عن الشخص الذي أعرفه، الفرق بينهما كالفرق بين الليل والنهار، كالفرق بين شخص حي وشبح ميت، أو الفرق بين الينابيع الصافية والمياه القذرة.

عندما وصلوا إلى الباب، لم أعد أستطيع رؤيتهم، لكنني سمعتهم يتوقفون ويتحدثون.

قال جدي: «هيا اذهب سريعاً».

قال العقيد: «أين قططي؟».

قال والدي: «القطط بخير، لا تقلق، سأعتني بها جيداً من أجلك».

قال العقيد: «أريد أن آخذهما معي».

قال جدي: «لا، هذا غير ممكن».

قال والدي: «لو أخذت القطّة معك فهذا يعني أنك جئت إلى منزلنا».

قال جدي: «نعم، لا تتركنا نذهب إلى السجن بسبب قططك».

قال والدي: «لا تقلق، سأعتني بقطتيك جيداً، وسأرسلهما إليك عندما

تتاح لي الفرصة».

حثة جدي: «لا تتلكأ، هيا أسرع!».

سمعت العقيد يبكي مرة أخرى، بدا كأنه يريد الجلوس عند الباب، لكن جدي صاح: «هيا اذهب!».

كان موقف والدي وجدي حازماً وقوياً. كانا يوبّخان كطفل، ولم يسمحا له بإصدار أي صوت، أو بالتكاسل، فقط سحباه ودفعاه بقوة وحثاه على المغادرة، ثم سمعت صوت وقع خطوات والدي وخطواته وهما يبتعدان تدريجياً.

لم يعد جدي على الفور، بل وقف عند الباب يدخلن سيجارة، ربما كان يراقب الوضع ليطمئن نفسه. وعندما عاد ورأى وعلم أنني كنت أتصّت، بدأ قلبه الذي كان قد هدأ للتو يغلي ثانية فجأة. لم أر جدي غاضباً مني هكذا في حياتي كلها. كان يدلّني دوماً على عكس والدي الذي كان يضربني أو يوبّخني. كل الضرب والتوبيخ الذي تلقيته في حياتي لم يكن جدي طرفاً فيه، كان الفاعل دائماً هو والدي، وكانت والدتي أحياناً تشاركه، أما جدي فكان يحميني دائماً ويواسيني.

ولكن هذه المرة لم يتردد جدي، وصفعني بقوة، وصاح في وجهي بصوت مكتوم:

«اسمع! تذكر كلامي جيداً، أنت لم ترَ شيئاً، كنت تحلم!».

لم أفهم ما يعنيه جدي، فأكدت بغياء أنني رأيتهم. أثار غبائي غضب جدي، فأمسك بأذني وحذرني بشدة:

«انسَ كل شيء! انسَ الأمر تماماً! كما لو أنك لم ترَ شيئاً، هل عرفت؟».

أمسك جدي بأذني بقوة وظل يسحبها بقوة أكبر، كما لو كان على وشك تمزيقها. صرخت من الألم، لكنه لم يتركني ووبّخني: «هذا الألم ليس شيئاً. لو لم تتسَ سيموت شخص ما، بل ستموت عائلتنا بأكملها!». علمت أن شيئاً كبيراً قد حدث، لكنني لا أعرف شيئاً عنه. كان عليّ أن أنسى ما عرفته ورأيته وسمعته. إذا لم أنسَ فسيموت شخص ما، ستموت

عائلتي بأكملها! كنت مذعوراً، لا أعرف ماذا حدث، أو كيف أنسى. وعندما فكرت في تهوُّري وجهلي، شعرت بالضيق الشديد، لدرجة أنني تمنيت الموت.

(42)

عند بزوغ الفجر، استيقظت على كابوس، واكتشفت أن جدي ليس موجوداً في المنزل. كان يجلس في الفناء، يدخن سيجارة تلو الأخرى، وبجواره عدد لا يُحصى من أعقاب السجائر المنتشرة على الأرض. كنت أعلم أنه ينتظر عودة والدي، لكن والدي تأخر كثيراً حينها. وأخيراً عاد والدي عندما كانت العائلة تتناول وجبة الفطور؛ كان مبللاً، يمسك بيده أرنبين رماديين. بدا والدي سعيداً للغاية، ترسم على وجهه ابتسامة نادرة، وقف أمام الباب وصاح ينادينا:

«انظروا، لقد نصبت فخين عند الجبل الخلفي في أثناء الليل، كل فخ منهما أوقع بفريسة».

كان يتعمّد الوقوف أمام الباب ومناداتنا بهذا الصوت العالي، هدفه من ذلك هو أن يسمعه الجيران.

لاحظت أنه لم يكن هناك أي جرح في جسد الأرنيين. ربما اشتراهما والدي من أحد الصيادين في أثناء عودته من توصيل العقيد إلى مكان غير معروف. هذا الإخفاء المتعمّد للحقائق الذي يفعله والدي جعلني أكثر اقتناعاً بأن تحذير جدي لي لم يكن نوعاً من التهويل أو المبالغة. نعم، يجب أن أنسى كل ما رأيته وسمعته في الليل. لو سألني أحدهم أين ذهب والدي الليلة الماضية، فلا بد أن أقول إنه ذهب إلى الجبل للصيد. لم أرَ أو أسمع أي شيء يتعلق بالعقيد، أو مرافقة والدي إياه، أو تحذير جدي إياي، فكل هذه الأحداث لم تكن سوى مجرد كابوس رأيته في منامي. ما زلت أتذكر أن مدّة طويلة تلت تلك الليلة، ظل جدي يحذرني مراراً وتكراراً

من هذا الأمر، كما لو أنه يريد أن ينقشه داخل قلبي بمكواة حديدية. ولكن هل يستطيع أحد أن يخبرني ماذا حدث؟ كنت أشعر أن هذه الليلة بمنزلة حاجز أسود يفصلني عن الماضي. كان عقلي حينها ممتلئاً بالأسئلة والخوف والوحدة والعجز والظلم، والشعور بأنني محاط بغلاف من الأسرار المظلمة، وبأن السماء قد انطبقت على الأرض. شعرت كأني مثل الأرناب التي أرببها، سُلخ جلدي، وهناك كارثة وشيكة تحدد بي، وأنني قد أمزق إرباً في أي لحظة.

حُلّ اللغز بعد ساعتين. حينها توافد سكان القرية جميعهم تقريباً إلى المدرسة لرؤية الأعمى الصغير. لماذا؟ لقد تعرّض لإصابات بالغة، وكان جسده مغطى بالدماء والجروح. ما حجم الإصابة؟ لقد قُطِعَ لسانه، ولم يعد قادراً على الكلام، صار أخرس. لقد قُطعت أوتار يده، فأصبحت يدها متيبستين لا يستطيع فردهما، وصارت أصابعه العشرة مثل مخالب الدجاج، غير قادر على ضمها؛ لقد انتهى أمره، وصار عاجزاً تماماً.

كان الشرطي العجوز هو أول من اكتشف ما حدث للأعمى الصغير. الشرطي العجوز رجل عازب، لم يعتد أن يجهز لنفسه طعام الفطور قطّ، لذلك كان غالباً ما يذهب إلى كشك الوجبات الخفيفة الذي نصبته العنقاء الزغبية عند مدخل قاعة الأسلاف لشراء العجين المقلي. وعندما مرّ ببوابة المدرسة، وجد أنه لا يوجد حرس أحمر يحرسون الباب كما كانت الحال في الأيام القليلة الماضية، فتسلل إلى الداخل كي يزور العقيد. لكنه بدلاً من ذلك رأى الأعمى الصغير غارقاً في دمائه كأنه نصف ميت، وهو ما أصابه بالذعر الشديد فركض وهو يهذي ويصيح.

بعدها كثيراً ما سمعتُ الشرطي العجوز يقول: «يا إلهي! كان ذلك مخيفاً حد الموت! بمجرد أن دخلتُ المخزن، داهمتني رائحة دم وبراز قوية، وكأن خنزيراً قد ذُبَح للتو. علمت أن كارثة قد وقعت. هذه الرائحة الدموية والكريهة توحى أنه لا بد أن المخصي قد ضُرب حتى الموت، أو

حتى أوشك على الموت على أفضل تقدير. لا بد أنه ينزف من فتحاته السبع جميعها، ويعاني سلس البول والبراز. كانت الغرفة مظلمة تمامًا، خفت الدخول خشية أن أدوس على الجثة. لحسن الحظ، لمستُ مفتاح الكهرباء وأشعلتُ الضوء، فرأيتُ شخصًا مكومًا بجانب طاحونة الهواء، وظهره لي، راقداً بلا حراك ولا رد فعل، ناديته بصوتٍ عالٍ، لكن لم يستجب. في ذلك الوقت، ظننتُ أنه على الأرجح قد مات. ما هذا الحظ العاثر الذي جعلني أصطدم بشخص ميت في هذا الصباح الباكر؟ أنتم تعلمون أن هذا المخصي كان يكرهني، لكن في موقف كهذا لن أستطيع أن أبادله مشاعر الكره، وكان لزاماً عليّ ألا أترك جثته ملقاة هكذا. لكن عندما اقتربتُ، صُدمت مرة أخرى، لم يكن المخصي، بل كان ابن الرجل الأعمى، الأعمى الصغير! بدا كأنه ميت، كنت مذعورًا، ولم أجروُ على لمسه على الإطلاق، وهرعت لأبلغ عن الخبر. هلا فكرتم؟ لو كنت قد لمستّه، وكان قد مات الفعل، فكيف سأتصرف لو اتهمني الحرس الأحمر بقتله؟ حينها سيكون من الصعب أن أدافع عن نفسي. لقد رأيت كل أنواع الجنود في حياتي، لكن أكثر ما أخافهم هم الحرس الأحمر، فهم غير منصفين، وغير متفهّمين».

بالطبع، لم يكن ميتاً، كان فاقدًا للوعي فقط. ففي وقت لاحق، جاء الحرس الأحمر وحملوه إلى الخارج. استفاق عندما داعب النسيم البارد وأشعة الشمس وجهه. وعندما استيقظ بدأ بالصراخ والبكاء. لم يستطع أحد أن يفهم ما يقول، كان الدم يتدفق من فمه بلا انقطاع. وفي الوقت نفسه، كان يلوّح بيديه مثل مخالف الدجاج بشكل عشوائي، فبدت هيئته أشبه بمصاص دماء، كان منظره مرعباً بحق!

يجب حمله إلى المستشفى، وبأسرع ما يمكن.

الطريقة الوحيدة لحمله إلى المستشفى بسرعة هي استدعاء الجرار الزراعي، لكن سائق الجرار كان قد خرج للعمل، واضطروا إلى الذهاب

إلى الحقل لاستدعائه. وكان هذا هو السبب في انتشار الخبر كالنار في الهشيم، وبحلول الوقت الذي وصل فيه الجرار، كانت المدرسة مكتظة بالناس، أعداد تفوق من حضروا اجتماع التتكيل، وبالطبع كنت واحدًا منهم. لأكون صادقًا، عندما رأيت ما أصاب الأعمى الصغير، فطنت على الفور أن العقيد هو من فعل ذلك. أي شخص لديه قليل من الحس السليم يمكنه أن يعرف ذلك، فهناك عديد من الحقائق والعلاقات الواضحة للعيان. وكما قال القائد «هُو» في وقت لاحق: هناك كثير من الأدلة على أن العقيد هو من ارتكب هذه الجريمة.

أولاً، اختفى العقيد، وهرب- قال القائد «هُو» إنه هرب خوفًا من العقاب. ثانيًا، العقيد لديه الدافع لارتكاب الجريمة- قال القائد «هُو» إنه كان يكره الأعمى الصغير كرهًا أعمى، لأن الأعمى الصغير هو الذي استخدم «حيلة القطط» للإيقاع به وإعادته. ثالثًا، عندما عثر الشرطي العجوز على الأعمى الصغير، كان مربوطًا بجوار طاحونة الهواء، والحبل الذي كان مربوطًا به هو نفسه الحبل الذي استُخدم لربط العقيد. (سبق أن أخبرني ابن عمي أنه من أجل منع العقيد من الهروب، كانوا يقيّدونه دائمًا بهذا الحبل ثم يربطونه أسفل طاحونة الهواء كلما حبسوه في المخزن). قال القائد هُو إن الأعمى الصغير مربوط بالحبل نفسه الآن، ماذا يعني هذا؟ من الواضح أن العقيد هو من ارتكب الجريمة ثم هرب، وهذا دليل قاطع.

ها هي ذي الأدلة تتراكم.

قراءة الظهر، وصلت أخبار من المستشفى مفادها أن الطبيب أكد أن لسان الأعمى الصغير قُطع بتعمّد، وأن جزءًا منه قُطع بدقة، وخيط بالغرز، وبدقة أيضًا. لم يدهأ متيستان؟ لأن الأوتار مقطوعة، وموضع القطع دقيق للغاية، ليس بالمرتفع ولا بالمنخفض، ليس بالكبير ولا بالصغير، دقيق تمامًا. قال الطبيب إن لسان الإنسان هو المكان الذي

يحتوي على أكبر عدد من الأوعية الدموية، إذا تُرك الجرح مفتوحًا دون خياطة، فقد يموت الشخص بسبب فقدان الدم المفرد. باختصار، هذا ليس شيئاً يستطيع شخص عادي فعله، فهو يتطلب أدوات ومعرفة وتقنيات متخصصة، ولا شك أن هذا دليل قاطع آخر! لا توجد في القرية إلا سكاكين ذبح الأبقار والأغنام والدجاج، فمن لديه هذه الأدوات والمعرفة والتقنيات المتخصصة؟ العقيد وحده. فهو صاحب المشروط الذهبي، وهو جرّاح من الدرجة الأولى، وسبق أن عمل في هذا المجال احترافيًا طوال النصف الأول من حياته.

وبالوصول إلى هذه النقطة، كان القائد هو متأكدًا تمامًا أن العقيد هو الجاني، لذلك أبلغ القضية إلى مكتب الأمن العام، وكلف الحرس الأحمر بالقبض على العقيد.

أرسل مكتب الأمن العام اثنين من رجال الشرطة، رافقهما أكثر من اثني عشر من عناصر الميليشيات الأساسية من القرية، وفتشوا داخل القرية وخارجها، فتشوا المنازل جميعها، وحتى أعلى الجبل وأسفله. جاؤوا إلى منزلنا أولاً، جلس شرطي واثنان من رجال الميليشيا على الطاولة، ثماني أرجل في القاعة الأمامية وتحدثوا مع والدي وجدي. كان والدي هادئًا وأجاب عن كل الأسئلة، إجاباته كلها كانت أكاذيب مختلفة، لكنها مدعومة بالأدلة: فخ الصيد، والأرنب البري (الملطخ بالدماء)، والحذاء الموحل (من المشي على الطريق الجبلي)، وشهادات الجيران والمارة، كانت هناك أدلة بشرية ومادية، بل وأدلة حيوانية أيضًا، ألا وهي القطتان اللتان تركهما العقيد.

أخرج والدي القطتين وقال للشرطي بثقة: «الجميع في القرية يعلم أن هاتين القطتين بمنزلة الروح للعقيد. لو كان قد جاء إلى منزلي لأخذ القطتين معه».

أكد جدي كلام والدي وقال: «إنه يفضل أن يتخلي عن حياته بدلاً من التخلي عنهما»، ثم سرد سلسلة طويلة من العبارات، كلها تبدأ بكلمة «لذلك»: «لذلك، في رأيي، أنه لم يهرب، بل مات، أو على الأقل ينوي الانتحار، لذلك ترك القوط. لذلك، في رأيي، لن تجدوا سوى جثته. لذلك، لا يهم إذا ما كان بإمكانكم العثور عليه أم لا، فهو قد مات على أي حال».

كنت مختبئاً في الغرفة الجانبية أستمع إلى جدي ووالدي يتحدثان. كنت خائفاً أن تكتشف الشرطة ثغرة في حديثهما، أو أن يطلبوا استجوابي. لحسن الحظ، كان رجال الشرطة والميليشيات أغبياء وكسالى. جلسوا يشربون الشاي ويدخنون السجائر، بل حتى لم يتفقدوا الطابق العلوي، والحظيرة، والقاعة الخلفية، والأماكن الأخرى التي قد يختبئ فيها الناس. كانوا كسالى للغاية، سألوا واستمعوا ثم غادروا كأنهم يثقون بجدي ووالدي كثيراً.

لا يمكنك أن تتخيل، لقد بكيت من فرط الإثارة عندما سمعتهم يغادرون، بل حتى أنني بكيت مرات عدة في ذلك اليوم، كان يوماً لا يُنسى بحق!

مكتبة

t.me/soramnqraa

كان صيفاً ممتلئاً بالأحداث الدموية، ومحملاً بتساؤلات كثيرة. لمدة طويلة تلت، كنت أسأل نفسي دائماً السؤال نفسه: لم فعل العقيد ذلك، قصّ لسان الأعمى الصغير وقطع أوتاره؟ ما دمت قد فعلت ذلك، فلم تخيط جراحه مرة أخرى؟ ما هذا التناقض؟! عندما سألت ابن عمي، كان يطلب مني دائماً ألا أتدخل في ما لا يعني، ثم يتجاهلني. صار ابن عمي غريباً جداً، فمنذ هذه الحادثة التي وقعت للأعمى الصغير، بدا كأنه قد تحوّل إلى شخص مختلف، لم يعد يحب المجيء إلى منزلنا، ولا الظهور في الأماكن العامة، وصار منعزلاً منطوياً على نفسه. الحال نفسها أيضاً مع «كماشة اللحم»، فلم يعد نشطاً حيوياً كما كان من قبل، خاصة عند الحديث عما حدث للأعمى الصغير، لم يكن يظهر عليهما أي ردة فعل، فقط يفرقان في الصمت، ويتجنبان الحديث عن الأمر. بدا كأن قلوبهما محطمان بشدة بسبب ما وقع للأعمى الصغير، مثل أوراق الشجر الصغيرة المتساقطة، فقدت رونقها وذبلت. لكن الأمر كان على النقيض تماماً بالنسبة إلى اللقيط، ربما لأنه كثيراً ما تعرّض لتهميش الأعمى الصغير، وكثيراً ما تشاجرا من قبل، أليس هذا نوعاً من الشماتة؟ على أي حال، ذاع صيته فجأة، وبدا كأنه لا يوجد من يناافسه، وعادة ما كان الأطفال يستفسرون منه عما يدور في أذهانهم، لم يكن يتردد في الإجابة عن أي أسئلة توجه له، بل وباستفاضة وجرأة. أخبرنا أن العقيد خاط جرح الأعمى الصغير لأنه خشي عليه من الموت بسبب فقدان الدم المفرط. ولو مات، فستكون هذه جريمة قتل عقوبتها الإعدام. بمعنى آخر، فعل العقيد هذا ليمنح نفسه طوقاً للنجاة. لو قبض عليه فلن يعاقب

بالإعدام، وسيُحكم عليه بالسجن فقط، لقد حسب الأمر بدقة، وخطط له بعناية.

اقتنعنا بهذا التفسير المستفيض الذي يتوافق مع حكمة العقيد وذكائه. ولكن عندما سألناه لماذا قرر العقيد قص لسان الأعمى الصغير وقطع أوتار يده، لم يكن قادراً على الإقناع وظل يتحدث بطريقة سطحية، فكان حديثه مشوشاً وممتلئاً بالثغرات، لذا شعرنا أن هذه ليست حقيقة الأمر. لو حدث هذا في الماضي، بالتأكيد كنت سأسأل جدي، وكلي ثقة أنه سيعطيني إجابة محددة. جدي يختلف عن كبار السن الآخرين، فهو حكيم وفصيح ومفكر شعبي وفيلسوف وناقد. لطالما كان جدي بمنزلة زميلي ومعلمي خارج المدرسة. كنا ننام في السرير نفسه، يساند بعضنا بعضاً، كنت أدفئ قدميه وكان يدفئ قلبي. لطالما سألته أسئلة لا حصر لها في أثناء ليالي الشتاء الطويلة وليالي الصيف الباردة. كان بإمكانني أن أسأله أي سؤال، ولم يكن هناك سؤال يمكن أن يُعجزه. ولكن الآن، لم يعد بإمكانني أن أطرح أسئلة بخصوص العقيد، بل حتى لم يعد بإمكانني أن أفكر في السؤال عنه، فهذه قاعدة صارمة وضعها لي جدي هذا الصيف! في الواقع، نادراً ما صار اسم العقيد يتردد داخل منزلنا منذ ذلك الحين. كل من يذكره سوف يلقي نجاهلاً أو حتى صفعة على الوجه، كأنه عدو لعائلتنا منذ أجيالٍ خلت؛ أما عائلتنا فهي ممثلة بأصحاب المصالح، الأنانيين الجاحدين، كأنهم مثال يُحتذى به في الخسة وإنكار الجميل. فما هو العقيد الذي كان في يوم من الأيام أفضل صديق لوالدي، أصبح الآن من المحرمات، صار أفعى سامة، وحقل ألغام لعائلتنا بأكملها؛ صرنا نتجنبه ونتحاشاه. أيها العقيد اللعين، لقد جعلتني أعاني ألم كتمان السر وأنا في هذه السن الصغيرة. أيها العقيد اللعين، ماذا فعلت؟ وأين ذهبت؟ ولمَ عاقبت الأعمى الصغير بهذه القسوة وهذا العنف؟

لم يكن أحد يعلم مكان وجود العقيد. أرسل القائد «هو» أفراد الحرس الأحمر كافة للبحث عنه في كل مكان، لكنهم لم يتمكنوا من العثور عليه. نشر مكتب الأمن العام تعميمًا لإلقاء القبض عليه في الشوارع جميعها، لكن دون جدوى. لقد اختفى، تمامًا كما سبق أن اختفت أم الأعمى الصغير، كأنه تبخر من القرية بين عشية وضحاها. لقد شاهده يغادر بأم عيني، في تلك الليلة المرعبة التي هاج فيها الموج، كنا أنا وهو مثل سفينتين مكسورتين تتقاذفهما أمواج الطوفان الهائجة، ليس بإمكانهما الاقتراب، وكل ما بوسعهما هو مشاهدة الآخر ينجرِف بعيدًا.

وبالتزامن مع اختفاء العقيد، اختفت والدته العجوز أيضًا. وفقًا لما قاله اللقيط، فبعدما علم القائد «هو» أن المرأة العجوز معتكفة في معبد على جبل بوتو، اصطحب الحراس الأربعة الكبار وذهب إلى جبل بوتو في اليوم التالي، ولكنه وصل متأخرًا، وعاد خالي الوفاض. لم يجد سوى نظارة للقراءة ومبخرة تركتها المرأة العجوز في مسكنها بالمعبد عندما هربت على عجل. كان الرماد في مبخرة البخور لا يزال ساخنًا، ما يعني أنها غادرت للتو وأن بوذا قد وقاها شرورهم. سبق أن رأيت تلك المبخرة مرات عدة من قبل في منزل العقيد. كانت مصنوعة من النحاس، ذات فوهة دائرية، عميقة للغاية. الجزء السفلي من المبخرة ثلاث أقدام لنتين ذي أربعة مخالب، وهناك أذنان على شكل رأس طائر الفينيق معلقتان على طول الفوهة، مظهرها يوحي بأنها ثقيلة للغاية.

هذا الصيف كان أشبه بتلك المبخرة، ممتلئًا بالغموض والأجواء المثيرة للفضول والحيرة. فعلى الرغم من وجود قصص مختلفة متداولة في القرية حول سبب إيذاء العقيد الأعمى الصغير بهذه الطريقة الغريبة، فإن الجميع كان يعلم أن هذه القصص غير موثوقة. وكلما زادت القصص قلَّت موثوقيتها. لا يوجد سوى قصة واحدة موثوقة، ويتعين علينا الانتظار حتى يتعافى الأعمى الصغير ويحكىها بنفسه. حتى إن لم يتعافَ لسانه،

لو تعافت يده فستكون كافية، بحيث يمكنه كتابة ما يريد قوله. ولكن في وقت لاحق، انتقل الأعمى الصغير من مستشفى البلدة إلى مستشفى المقاطعة، ثم المستشفى الإقليمي، ومن مستشفى الطب الصيني إلى مستشفى الطب الغربي، ومن الأطباء الشعبيين إلى الأساتذة والخبراء، وأنفق كل الأموال التي كسبها والده الأعمى العجوز من أعمال الدجل، لكن دون أن يُشفى لسانه أو تُشفى يده. وبحسب كلمات الشرطي العجوز، فقد أنفقت كل الأموال هدرًا، دون أدنى فائدة.

في هذا الصيف، بدا كأن الشرطي العجوز قد ربط لسان الأعمى الصغير المقطوع في لسانه، وأصبح شخصًا ثرثارًا فضوليًا طويل اللسان، يريد أن يتدخل في كل شيء، ويحشر نفسه في ما لا يعنيه.

(44)

سمعت الشرطي العجوز يقول في مناسبات عديدة: «هل تعرفون هذا المخصي؟ إنه ذكيٌّ وحاذقٌ قلَّ نظيره. هذه الدنيا عادلة، فبالرغم من أن هناك شيئًا مفقودًا بين فخذه، فإن دماغه مكتمل بشكل مثالي. لا يستطيع أحد أن يجاري دماغه. لو أراد إنقاذ شخص ما فبإمكانه إنقاذه من براثن الموت، ولو أراد إيذاء شخص ما، فلن يفلت منه مهما فعل. لذا فما من أحد بوسعه علاج مرض الأعمى الصغير».

مثل هذه الكلمات كان من الممكن أن يقولها جدي، لكنه الآن لا يتفوه بكلمة واحدة عن هذا الأمر، حتى إن أعطيته كيسًا من المال. ما فائدة المال لو فقدت حياتك؟ أعتقد أن جدي كان لي طرح هذا السؤال بالتأكيد. لقد حاول جدي جاهدًا أن يجعلني أنسى تلك الليلة، أما هو فظل يعيش في ظل الرعب الذي خلقته. لم يكن يفهم القانون، لكنه يعرف أنه وابنه ارتكبا جريمة في تلك الليلة، كانت تلك أمور بدهية في ذلك الوقت، فكل اجتماعات الحرس الأحمر كانت تتحدث عن مثل هذه الأمور، وتطالب

الجميع بكشف جرائم بعضهم بعضاً، وتحذر من أن التستر على الجرائم، وعدم الإبلاغ عنها هو جريمة أيضاً، لذا فالجميع تقريباً يعرف ذلك. ولأنه لا يفهم القانون، كانت سلطة القانون مهيبة للغاية في نظر جدي، الأمر الذي جعله منطوياً، مختتفاً، يكاد يموت رعباً. لذلك فمن المستحيل الآن فتح أي حديث مع الجد بشأن العقيد، بل حتى لن تجدي التهديدات أو الإغراءات نفعاً. لقد أصبح جدي أخرس مثل الأعمى الصغير، أما الشرطي العجوز فأصبح ثرثاراً لا يكف عن الحديث، خاصة الجلوس أمام قاعة الأسلاف للحديث عما يخص العقيد والأعمى الصغير.

كان كثيراً ما يجيب عن أسئلة الآخرين بصوت عالٍ: «اللغة، هل هذا يحتاج أصلاً إلى سؤال؟ الأمر واضح؛ المخصي هو من فعل هذا بالأعمى الصغير ليُسكته نهائياً، ويجعله غير قادر على النطق أو الإشارة، لا بد أن الأعمى الصغير لديه دليل لإدانة المخصي. ولو كشف الأعمى الصغير عن هذا الدليل، فستكون هذه نهاية المخصي. وهذا هو السبب في إيذاء المخصي الأعمى الصغير بهذه الطريقة الشنيعة، وقص لسانه وقطع أوتار يده في آنٍ واحد! الأمر أشبه بمن يقتل شخصاً لإسكاته إلى الأبد. لكن المخصي لم يقتله، بل أسكته إلى الأبد فقط، وهنا يكمن ذكاء المخصي، فهو لديه كثير من مثل هذه الأفكار الذكية داخل عقله».

ذات مرة، كان جدي موجوداً هناك عندما كان الشرطي العجوز يتحدث بهذه الطريقة، وبعد أن انتهى الشرطي العجوز من حديثه، بدا جدي متأثراً بشدة، وتابع مؤكداً كلام الشرطي العجوز: «نعم، أيها الوغد العجوز، لقد وقعت كثير من جرائم القتل عبر التاريخ، وكان الشهود على تلك الجرائم عرضة لفقدان حياتهم، لذلك فالجهل بالشيء أفضل من العلم به. وكما يقول المثل القديم، كلما زاد المال الذي تحتفظ به في خزانتك كان أفضل، وكلما قلَّت الأشياء التي تحتفظ بها في عقلك كان أفضل». سأل الشرطي العجوز جدي: «كم من المال لديك في خزانتك؟».

ضحك جدي وقال وهو يعد على أصابعه الخشنة: «أولاً، لم أدخر أي أموال، ثانياً، لم أحتفظ بأي أشياء، ثالثاً، لم يتبق من حياتي سوى قليل وصرت أنتظر الموت».

ضحك الشرطي العجوز وهو يقول: «لو تحدثنا عن الموت، فالأول في الترتيب ليس أنت، وبالتأكيد ليس أنا، فأنا بعدك في الترتيب مهما حدث. لماذا؟ لأنك ضحية الهموم والأفكار، فكلما زادت همومك قصرت حياتك. هذه هي القاعدة التي وضعها ملك الموت، ولا يمكن تغييرها». ثم تابع ضاحكاً: «من الأول في الترتيب حالياً؟ هلا خمنت؟ بالطبع إنه المخصي. لقد ارتكب جريمة وهرب، والهروب جريمة أعظم. ولو وقع في قبضة الشرطة، فبالأكيد سيأكل حبات الفول السوداني الصفراء اللامعة (يقصد طلقات الرصاص). وهذه قاعدة وضعتها الدولة، ألا توافقني الرأي؟».

كان جدي حساساً للغاية بشأن الحديث عما يخص العقيد، ولم يكن يريد أن يشاركه الحديث. لذا ابتسم فقط دون أن يتحدث. ضحك الشرطي العجوز من ابتسامة الجد، وكأنه سمع نكتة، وقال: «أنت تبتسم كأنك عريس يتأهب للنوم بجوار عروسه، أعلم أنك تكره المخصي وتتمنى موته قريباً، لكن ابنك حزين لما أصابه، والجميع في القرية يعلم أن علاقتهما جيدة لدرجة أن كلاهما على استعداد للموت من أجل الآخر».

ثار جدي غضباً ولعنه قائلاً: «عمّ تتحدث؟ أنت في السبعينيات والثمانينيات من عمرك، ولم تتعلم كيف تتحدث بعد! إن كان لا بد من موت أحد فهو أنت، وليس ابني. فأنت من دافع عنه في اجتماع التكيل، ولا أحد يعلم ما هي علاقتهما»، وبعد أن انتهى من شتمه، غادر غاضباً. أعلم أن جدي كان خائفاً من الدخول في شجار، فالغضب يولد الغضب، والكلام يجز الكلام، ويجعلك تقول أشياء لا ينبغي قولها، ويمنح الناس

الفرصة للحديث عنك، ويوفر للشرطة الأدلة. عندما رأي جدي هناك، سحبني بعيداً. كان خائفاً من أنني لو بقيت، فقد يستغلني أحدهم لأخبره ما رأيته في تلك الليلة. وتلك أشياء لو قيلت ستكون دليل إدانة والدي وجدي، لذا يجب أن تبقى سرية. ظل جدي يقظاً للغاية بشأن مسألة هروب العقيد، وكان شديد الحذر والحيطه، ولم يسمح لأحد بمعرفة الأمر، لم يكن يشعر بالاطمئنان، خاصة من ناحيتي، فكان يذكرني دوماً، وينبهني، بل حتى يهددني أن عليّ كتمان السر حتى الموت.

لمدة طويلة تلت، كان جدي يقول لي الشيء نفسه كل ليلة قبل الذهاب إلى النوم: «إذا لم تكتم هذا السر، فسوف أتجرع مبيداً حشرياً وأموت أمامك». في كثير من الأحيان كانت تراودني كوابيس أشاهد فيها جدي يشرب المبيدات الحشرية، ويسقط محتضراً. كل هذا هو خطأ العقيد في نهاية المطاف. اللعنة عليك أيها العقيد، ماذا فعلت؟ وأين ذهبت؟ ولم عاقبت الأعمى الصغير بهذه القسوة وهذا العنف؟

(45)

بالمقارنة مع جدي، كان والدي أقل يقظة. والمثال الأوضح لذلك هو موقفه تجاه القطتين. عندما أحضرهما ابن عمي من المدرسة وسلّمهما لوالدي، لم يعترض جدي، معتقداً أن الأمر سيكون مؤقتاً، لكن لاحقاً، عندما أراد العقيد أن يأخذهما معه وقت هروبه، اعترض جدي قائلاً إن ذلك سيصبح دليلاً على أن العقيد جاء إلى منزلنا، وهكذا انتهى الأمر بالقطتين بالبقاء في منزلنا بمحض المصادفة، الأمر الذي جعل جدي في قلق دائم، كما لو كانتا نمرتين ستؤذيانا في أي وقت.

اكتشفت أن هناك تغيراً طرأ على القطتين بعد مجيئهما إلى منزلنا، صارتا شرستين قليلاً، وكثيرتي الركض. لا يوجد فناء في منزلنا، ووالدي كان يغادر لكسب عيشه، لذلك لا يكون موجوداً في المنزل في معظم

الأحيان، ومن المستحيل عليه أن يراقبهما ويعتني بهما كما يفعل العقيد، وهو ما جعلهما تشعران بالملل، لذا فبعدما تشبعان كانتا تخرجان للتره، وعندما تشعران بالجوع تخرجان للبحث عن الطعام. تسرقان الأسماك المجففة التي يعلقها الناس على نوافذ بيوتهم، وتسببان المشكلات لعائلتا. والنقطة الأهم هي أنهما بمنزلة أثر تركه العقيد في القرية، وعندما يراها الناس سوف يفكرون في العقيد والعلاقة غير العادية بين العقيد ووالدي.

وبمرور الأيام، لم يعد جدي قادرًا على تحمُّل الأمر، وكان يتمنى في كثير من الأحيان أن يتخلص منهما بأي وسيلة. ولولا أن والدي كان سيمنعه، أعتقد أن جدي كان سيقتل القطتين ويطعمهما للكلاب. وبسبب هذا، كان والدي وجدي يقعان في صراعات ومشاجرات في كثير من الأحيان. في إحدى المرات، حدث بينهما نقاش حاد فغضب جدي وهدد بتقطيعهما بالسكين، حمى والدي القططة البيضاء بيد والقططة السوداء باليد الأخرى، وقال لجدي: «إذا كنت تريد قتلها، فعليك أن تقتلني أولاً». وفي مرة أخرى، كان الشجار أكثر حدة، فبدا والدي وجدي كأنهما عدوان، حذَّر والدي جدي وقال:

«إذا تجرأت على قتلها، فسوف أجرؤ على قتلك».

هذه الكلمات القاسية هي التي مكَّنت القطتين من النجاة والبقاء على قيد الحياة.

ما دامت القطتان على قيد الحياة، وتتجولان هنا وهناك، فلن يختفي شبح العقيد، ولن تتبدد مخاوف جدي. الشيء الغريب هو أن القطتين اختفتا بعد ذلك تمامًا، وهو ما زاد مخاوف جدي. كان ذلك في شتاء العام نفسه، حيث كان الانتهاء من تخزين الحبوب في المستودع، وتوقف العمل في المزارع. وكما جرت العادة، يكون ذلك هو موسم العمل في صيانة مشروعات الري في المحافظة. أرسل والدي إلى جبل جيمينغ

في جيانجبي لبناء خزان. كان الجبل بعيداً والطريق وعراً، والظروف بالغة السوء، لذا كان عليه أن يأخذ معه الأواني والأغطية والحبوب. فكّر والدي أيضاً أن يأخذ معه القطتين خوفاً من أن يقتلها جدي. كانت فكرة ساذجة جداً، وكأنه ذاهب للعمل مديراً! لذا يريد أن يصطحب معه اثني من حراسه. اعترضت الأم بشدة ووصفت الأب بأنه مختل عقلياً. كان الجد يقف متفرباً، دون أن يبدي أي رد فعل، تاركاً الأب يستمر في جنونه دون أن يكلف نفسه عناء التدخل. كان جدي يؤيد فكرة أن يأخذهما والدي معه، فهو لا يطيق رؤيتهما، ويُمَني نفسه أن تموتا في الخارج.

قبل نهاية العام، عاد والدي من العمل، حاملاً كيسين كبيرين؛ أحدهما ممتلئ بالأواني والأغطية والملابس وما إلى ذلك، والآخر ممتلئ ببعض سلع العيد، بعضها حصل عليه من موقع العمل، وبعضها اشتراه بنفسه، كلها أشياء للأكل والارتداء في أثناء عيد رأس السنة. أخرج والدي من جيبه وشاحاً حريراً أحمر وأعطاه لأمي، وطلب منها أن تحفظه ولا تستخدمه، لأنه ينوي إهداءه لزوجته أختي الأكبر عندما يحين موعد زواجه. الهدية التي أحضرها لي كانت زوجين من الجوارب القطنية الجديدة، أبيض اللون، مثل جوارب الحماية التي تُعطى للعمال في شركة الكهرباء. عندما حملت الجوارب بين يدي، شعرت على الفور بتيار دافئ يسري في جسدي، وشعرت بخدر في جسدي كله، فتلك هي هدية العام الجديد التي لطالما حلمت بها. كانت الأجواء في المنزل حينها أجواء احتفالية بامتياز، بدا الأمر كأنه يوم رأس السنة الجديدة بالفعل، وكنا منغمسين في البهجة لدرجة أننا لم نلاحظ أن والدي قد عاد دون أن يحضر معه شيئاً ما: القطتين!

كان جدي أول من اكتشف ذلك، فسأل والدي: «أين الوحشان؟». والدي: «ألم تكن تكرههما؟ لقد طيختهما وأكلتهما!»؛ من الواضح أنه كان في ثورة غضبه.

جدي: «دعك من هذا الكلام، أخبرني الحقيقة».

والدي: «لقد ماتتا».

لم يصدق جدي وسأل: «وكيف ماتتا؟».

أجاب والدي بحزم، وكأنه تحدّث بمثل هذا الكلام من قبل: «كان الجو بارداً جداً في الجبال، ولم يكن هناك ما تأكلانه، فمرضتا وماتتا».

اعتقدت أن جدي سيقول بسرور: «موتهما أفضل». أو «كان ينبغي أن تموتا منذ زمن طويل»، أو كلاماً من هذا القبيل، المهم هو أن جدي سيفرح لموتهما. لكن جدي بدا في حيرة، ولم يعرف ماذا يقول. وبعد تردد طويل، نطق بالكاد وقال: «هذا هو القدر، عليك أن تتساهما».

كان صوته ضعيفاً ممتلئاً بالتعاطف والمواساة، وهو ما جعلني أشعر أن جدي كان غريباً جداً حينها.

بعد عيد الربيع، كنت أأطعم الأرانب داخل الحظيرة في إحدى الليالي، فهذا عمل يومي يجب أن أفعله قبل الذهاب إلى النوم، وهو أيضاً عمل متعلق بدراستي؛ كنت أربي أربعة أرانب طويلة الفراء، ونجحت في الحصول على جميع رسوم دراستي من بيع فرائها الأبيض الناعم الطويل. قال جدي إن الأرانب صاحبة فضل عليّ، ويجب أن أخدمها جيداً. لذلك، فبعد انتهاء الدراسة كل يوم، كنت أذهب لقطع سلة من العشب وأطعمها مرة في الصباح ومرة في المساء، حتى في ليلة رأس السنة. لم يكن هناك ضوء في حظيرة الماشية وكان الظلام دامساً، حينها خرج جدي ووالدي من المنزل وبدأوا بالجدال على مسمع مني دون أن يلحظا وجودي.

كان جدي غاضباً بشدة، وصاح في وجه أبي: «أخبرني، أين الوحشان!». بدا والدي كأنه استيقظ فجأة من الحلم، فأجاب بانزعاج: «لم أنت غاضب هكذا؟ ألم أخبرك من قبل أنهما ماتتا؟».

بصق جدي وقال بغيظ: «لا تحاول خداعي! فأنا أعرف كل ما يدور

هنا».

والدي: «وما الذي تعرفه؟».

جدي: «أنهما لم تموتا من الأساس».

والدي: «ومن قال لك ذلك؟».

جدي: «لا يهم من قال ذلك، فقط أخبرني بصدق أين ذهبتا؟ وأين ذهبت أنت في ذلك اليوم؟».

قال والدي مدافعاً عن نفسه: «أي يوم تقصد؟ كنت أعمل في الجبال، فأين يمكنني أن أذهب؟».

وبّخه جدي: «كم أود لو أصفعك على وجهك! أنت في هذه السن وما زلت تكذب. أخبرني، لا تريد أن تخبرني أليس كذلك؟ حسناً، سأخبرك أنا».

اقترب جدي خطوة بخطوة وسط الظلام، ما أجبر والدي على التراجع: «في اليوم الخامس عشر من الشهر القمري الثاني عشر، تساقطت الثلوج بغزارة فوق الجبل، فاضطررتم إلى الراحة مدة يومين. في عصر ذلك اليوم، أخذتهما معك ونزلت من الجبل، ثم عدت ظهر اليوم التالي دونهما، أخبرني الحقيقة، أين ذهبت ذلك اليوم وأين ذهبت القطتان؟».

ضحك والدي فجأة، كأن حفنة من الثلج دُسَّت في حلقه، فأيقظته من نومه، وقال مازحاً: «نعم صحيح. قلتُ لك من قبل إنّ الجوّ أعلى الجبل بارد جداً، وليس هناك ما يؤكل. مرضت القطتان، فنزلت من الجبل لأجد لهما طعاماً وعلاجاً، لكنهما ماتتا في تلك الليلة. بحثت عن مكان ودفنتهما وانتهى الأمر، كنت أخشى أن يأكلهما الناس هناك، فأنا لا أتحمّل مشاهدة أمر كهذا».

بدا أن جدي اقتنع بكلامه، فسأل بصوت منخفض: «هل ما قلته صحيح؟».

ازداد والدي ثقةً بنفسه، وتحدّث بنبرة حازمة وجامحة: «وماذا تظن إذن؟ هذا كل شيء، هؤلاء الناس الذين أعمل معهم ظنوا أنني أكلتهما

وحيدي، وصاروا يرددون الشائعات حولي، هلا فكرت قليلاً؟ كيف لي أن أفعل شيئاً كهذا؟ إنهما مثل أبناء العقيد، وفلذات كبده، أفضل الموت جوعاً على أكلهما. أعتقد أنه يمكنك تفهّم هذا، لكنهم لن يتفهموا، لذا ألقوا بالتهم جزافاً».

اقتنع جدي أكثر، فسأل والدي بشيء من القلق والتوتر: «هل تعرف ماذا قالوا؟».

قال والدي دون تردد: «نعم أعرف، قالوا إنني أعرف مكان العقيد وذهبت إليه وأعطيته القطتين».

جدي: «إذا انتشرت هذه الشائعة فستأتي الشرطة بالتأكد، وستتورط في المشكلات».

والدي: «وماذا عساي أفعل؟ إذا أرادوا أن يتكلموا عني بسوء فما باليد حيلة!».

جدي: «مسؤوليتك الآن هي إبناء فمك مغلقاً، وسأكون أنا مسؤولاً عن إبقاء أفواههم مغلقة».

ثم توقف لحظة، وتهدّد، ونصح والدي بجدية: «من الآن فصاعداً، عليك أن تتعلم كيف تتعامل مع الآخرين وألا تغضب بسهولة، فالعالم غارق في الفوضى، والإساءة إلى الناس تعني أن تضع نفسك في طريق مسدود».

لم يقل والدي شيئاً، بل أخرج سيجاريتين، وأعطى واحدة لجدي. أخرج جدي عود ثقاب، وأشعل لوالدي سيجارته، ثم أشعل لنفسه سيجارته، وعادا إلى المنزل وهما يدخان. بدت علاقتهما أقرب من أي وقت مضى وسط الظلام مثل شقيقين في محنة. لم أتوقع أن تنتهي معركة شرسة كهذه على هذا النحو الودي. نظرت إلى ظهريهما وهما يغوصان مبتعدين وسط الظلمة، فشعرت بفرحة تفر قلبني. كانت السماء مظلمة كعادتها، لكن قلبي كان مشرقاً، وكأن عود الثقاب الذي أشعله جدي يضيئني من الداخل.

لا أعرف هل ذهب جدي لاحقاً وطلب من أحدهم مساعدته في إخماد الشائعات أم لا، كل ما أعرفه هو أنه كانت هناك بعض الشائعات حول العقيد ووالدي تنتشر سرّاً في القرية. بعضها يقول إن العقيد لم يمت، ولا يزال على قيد الحياة؛ وإن والدي يعرف مكان اختبائه، بل وزاره، وما إلى ذلك. كان من المفترض أن تنتشر هذه الشائعات وتسبب حدوث مشكلات لأن العقيد هارب مطلوب من الشرطة، ولكن هذه المرة كان الأمر مختلفاً بعض الشيء، فلم تكن الشائعات تُداول إلا في دائرة ضيقة، ولم تخرج إلى دائرة الضوء أو تثر ضجة كبيرة. وفي النهاية لم يحدث أن جاءت الشرطة للبحث عن والدي للتحقيق معه.

(46)

قال جدي إن الفصول الأربعة في القرية تشبه حياة الإنسان؛ الربيع يشبه طفلاً صغيراً يبدو حيويًا وقويًا، جميلًا لكن عديم الفائدة، يُزهر ولا يُثمر، يتسبب في موت الناس جوعاً (غالبًا ما يموت الناس جوعاً في الربيع)، والصيف مثل الشاب، حرارته متقدمة، مفعم بالطاقة، قوته في تزايد (الحرارة) يومًا بعد يوم، تولد الثعابين والحشرات كل ليلة، ويحل موسم الحصاد والزرع (الزواج والإنجاب)، فيفرق الناس في أشغالهم، ويتملكهم التعب، والخريف يشبه الرجل القوي الذي وصل إلى منتصف العمر، نضج واستقر، حيث المحاصيل وفيرة، والماشية تترعرع، والسماء صافية والسحب خفيفة، والجو معتدل لا هو بالبارد ولا بالحر، منعش فاتن، أما الشتاء فهو مثل رجل عجوز، يهب فيه الهواء البارد بلا انقطاع، ما يتطلب ارتداء مزيد من الملابس، وتغطية الرقبة وقت الخروج، والبقاء في السرير بعد العودة إلى المنزل، وهو أمر خائق.

هذه المعاني بعضها يحمل نوعاً من التورية ذات معنى واضح، ودلالة خفية؛ بعض المعاني سهلة الفهم. على سبيل المثال: يشير مصطلح

«الصيف حرارته متقدمة» إلى حرارة الطقس، وكذلك حماسة الناس، والحياة المزدحمة التي لا تنعم فيها حتى الكلاب بالراحة. وبعض المعاني ليست سهلة الفهم، مثل «تولد الثعابين والحشرات كل ليلة في الصيف»، فهي تشير إلى الثعابين السامة والآفات الطبيعية، وتشير أيضاً إلى الشائعات التي تُتناقل على ألسنة الناس. في الصيف، يكون النهار طويلاً والليل قصيراً، والحرارة لا تُطاق، لذا لا يرغب الناس في البقاء في المنازل، ولا يخرجون إلا اضطراراً. يخرجون في مجموعات من ثلاثة أفراد أو أربعة أو خمسة أو ستة، ينتشرون في الأزقة، أو يتجمعون أمام قاعات الأسلاف، يتناولون الطعام، ويستمتعون بالهواء البارد، ويلعبون الورق والشطرنج ويشاهدون المسرحيات، وتشغلهم الدردشة، والتحدث عن الأمور المعتادة، وهو وقت مناسب لنشر الشائعات والقيـل والقال. بعد اختفاء العقيد في الصيف الماضي، لم تتقطع الأحاديث المتعلقة به، الصحيحة منها والزائفة في أركان القرية كلها، كانت الأحاديث تنتشر بسرعة كالنار في الهشيم. اختفى العقيد في الصيف حيث «تولد الثعابين والحشرات كل ليلة»، لذلك كان من البدهي أن يصبح مادة للنميمة والقيـل والقال على نطاق واسع. ومع حلول الخريف، خفت وطأة تلك الأحاديث تدريجياً، إلى أن وصلت إلى أدنى مستوياتها في الشتاء. وبعد حلول العام الجديد، لم يعد يذكره إلا عدد قليل من الناس، ولم يكن لذكره أي أثر، مثل الفقاعات التي تنفجر عندما تهب الرياح، لأنها قصة قديمة على أي حال، تافهة ومبتذلة، ومن المستحيل أن تحظى بالرواج نفسه الذي كانت عليه في السابق. ولكي تحظى ببعض الرواج مرة أخرى، يجب أن تطفو على السطح أشياء جديدة، مثل اعتقال العقيد، وكشف حقيقة القضية، أو أن يستطيع الأعمى الصغير الكلام ليكشف بنفسه عن الحقائق الخفية، وما إلى ذلك. ولما كانت الأشياء الجديدة تظهر ببطء، فمن الطبيعي أن تختفي سيرة العقيد، وكان هذا هو الوضع حينها.

لكن مع حلول الصيف، ودون أن يعرف أحد من الذي بدأ ذلك أو متى، ظهرت فجأة شائعة جديدة حول العقيد، ثم اجتاحت القرية بأكملها بسرعة هائلة. كانت هذه الشائعة الجديدة صادمة حقًا، مفادها أن العقيد كان مخادعًا كبيرًا، وأنه لم يكن مخصصًا على الإطلاق، بل كان شاذًا بغيضًا! كان الأمر مفاجئًا كالصاعقة، فتغير الوضع فجأة، ودبّت حماسة الحديث عنه بين أفراد القرية كافة، فكان الخبر ينتشر من شخص إلى عشرة، ومن عشرة إلى مئة. كان الأمر أشبه بخشب جاف في مواجهة نار مستعرة، أو مثل إعصار يثير عاصفة من الغبار. وفي غمضة عين، علم الجميع بهذا الأمر.

كانت العلاقة بيني وبين النمر القزم كعلاقة الأخوة، وكثيرًا ما كنا نلهو معًا في دكان جده آتاي الأعرج، لذلك كنت من أوائل الأشخاص الذين سمعوا هذا الخبر تقريبًا. فالدكان مثله مثل قاعة الأسلاف، يُعد أيضًا مكانًا عامًا، يأتي إليه الناس يوميًا، وفيه تتجمع شائعات عديدة في البداية، ثم تنتشر في كل مكان، تمامًا مثل السوق. ذات يوم، بينما كنت أصلح النبله برفقة النمر القزم أمام الدكان، جاء الشرطي العجوز لشراء السجائر. وبمجرد دخوله الدكان، أخبره آتاي الأعرج عن آخر الأخبار المتعلقة بالعقيد، كأنه يبلغه بأخبار سارة. ضحك الشرطي العجوز وقال بصوت عالٍ: «ألا تعتقد أن هذا هراء؟ الجميع يعلم أنه مخصي، حتى كلاب القرية تعلم ذلك».

وافقه آتاي الأعرج وقال: «نعم، أنا أيضًا أجد الأمر غريبًا، لكن يبدو أنه صحيح».

استمر الشرطي العجوز يضحك ويقول: «هراء، يبدو أنك كبرت وخرفت». غضب آتاي الأعرج وردَّ بصوت عالٍ: «من يعاني الخرف هو أنت، فأنت في حالة سُكر طوال اليوم، أنا واثق بصحة هذا الأمر، فالأعمى الصغير هو من قال ذلك بنفسه».

توقف الشرطي العجوز عن الضحك وسأل بجدية: «هل قال الأعمى الصغير ذلك؟ هل تكلم؟».

قال الجد آتاي: «لم يتكلم، لكنه قال ذلك بقدميه».

ضحك الشرطي العجوز بشدة كأن أحدهم يدغدغ إبطيه، حتى أنه لم يتمكن من الوقوف فجلس على المقعد، ثم سعل وقال ساخرًا: «أيها الأعرج، يبدو أنك كبرت وخرفت حقًا. كيف يمكن للقدمين أن تتحدثا؟».

صحيح، كيف يمكن للأقدام أن تتحدث؟

نعم، الأقدام قادرة على التحدث. لقد شاهدنا ذلك أنا وجدي بأعيننا لاحقًا، كان الأعمى الصغير قد استخدم قدميه ليسبَّ شخصًا ما، فكتب بقدميه على الطين: اللعنة على أمك! ولكن ذلك اليوم لم يكن قد حل حينها، فذلك اليوم كان في الخامس عشر من الشهر السابع في التقويم القمري، أما الآن فنحن لا نزال في نهاية شهر يونيو، أي إنه بقي أكثر من أسبوعين. الآن استخدم آتاي الأعرج إصبع قدمه العرجاء الكبير وكتب أمام الشرطي العجوز على الأرض الطينية أمام دكانه كلمة «كبير»، ثم وبَّخ الشرطي العجوز وقال: «أرأيت أيها السكير، ها هي أصابع القدمين قادرة على التحدث».

ضحك الشرطي العجوز كعادته، وردَّ على سخرية آتاي الأعرج: «أنت أعرج منذ ولادتك، ولم تغادر هذا الدكان أو تخرج من بوابة القرية قط، ولا تعرف شيئًا عن هذا العالم. لو قلت إن المخصي مغتصب، سأصدقك. ولكن إذا قلت إنه شاذ، فلن أصدقك، حتى إن قتلتي».

الشرطي العجوز وآتاي الأعرج، أحدهما زائر دائم لقاعة الأسلاف، والآخر صاحب دكان. وبهذا فإن كليهما بارعان في نشر الشائعات. كانا يتعاونان بعضهما مع بعض في الغالب، ويتناقشان بينهما بخصوص الأمور التافهة التي تخص القرية. في بعض الأحيان يختلفان في الرأي، ويحاول كل منهما تكذيب الآخر، لكن الشرطي العجوز غالبًا ما يفوز. الشرطي

العجوز جريء للغاية، خاصة بعدما يثمل، عندها يجروء على قول أي شيء، وإقحام نفسه في أمور لا تخصه بلا خوف أو تحفظ، كان جريئاً ولا يخشى المخاطرة. أما بالنسبة إلى آتاي الأعرج، فلم يكن قادراً على الحركة بسهولة، لذلك لم يكن أمامه سوى الجلوس والترقب. أضف إلى ذلك أنه من كبار السن، لذلك كان لا بد أن يكون متحفظاً في حديثه، وبهذا فهناك بعض الأمور التي كان عليه الاحتفاظ بها لنفسه، وأن يتحرى الدقة في حديثه، وألا يُعرض نفسه لأمر قد تُفقده كرامته. لذلك، عندما يندلع شجار بينه وبين الشرطي العجوز-قتال لفظي- كان الشرطي العجوز يفوز عادة. الشيء الغريب هذه المرة، هو أن الأمر كان معكوساً تماماً في قضية كون العقيد مغتصباً أم شاذاً، إذ فشل الشرطي العجوز تماماً، وكان كل شيء يصب في مصلحة آتاي الأعرج، كأن الجميع تواطأ ضد الشرطي العجوز، أو كأن الشرطي العجوز كان ثملاً ومشوّش الذهن بالفعل، أو ارتكب خطأ فادحاً، وفقد دعم الناس إياه.

على حد ما أتذكر، كان الشخص الوحيد الذي دعم الشرطي العجوز علانية وبقوة هو جدي. وهذا غريب أيضاً، ففي العادة لم يكن جدي يحترم الشرطي العجوز كثيراً، لكن هذه المرة أظهر له احتراماً كبيراً، وكان مستعداً لأن يضحى بسمعته أو يخاطر بحياته في سبيل التمسك بموقفه الداعم للشرطي العجوز. نتيجة ذلك، جُن جنون الأعمى الصغير، وبدا كالكلب المسعور الذي يهاجم الناس، وعلى رأسهم جدي. وقع شجار كبير بين جدي والأعمى الصغير.

(47)

حدث ذلك في الخامس عشر من الشهر القمري السابع، ويُعرف ذلك اليوم عادةً باسم عيد الأشباح. قال جدي: «في منتصف الشهر القمري السابع، يحتل الأشباح نصف العالم؛ يكون النصف للأحياء، والنصف الآخر للأموات».

ووفقاً للتقاليد، ففي هذا اليوم يجب على الأحياء تقديم القرابين للأموات، يُصنع الكعك المطهو على البخار، ويذهب الناس إلى غرفة بين داخل قاعة الأسلاف لتقديم القرابين للأسلاف. غرفة بين هي المحطة والرابط والممر بين العالم السفلي والعالم البشري، وعادة لا يزورها كثيرون بسبب الأجواء المرعبة داخلها. ولكن لا بد من الذهاب إليها في هذا اليوم، فعدم الذهاب هو عدم احترام للأسلاف، وربما تطاردك الأرواح الشريرة، وهو أمر أكثر رعباً. لذا كانت معظم العائلات ترسل أحد أفرادها ممثلاً عنها، معظمهم يكونون من كبار السن والأطفال والنساء. يذهب معظم الناس إلى هناك في وقت الظهيرة، وهو الأكثر ازدحاماً. وفي أثناء تلك الأوقات المزدحمة، تكون غرفة بين مكتظة بالناس، مثل حامل عيدان الطعام المكتظ بالعيدان، حينها تكون الغرفة مزدحمة وصاخبة، تُشعرك بنوع من الخطر، كأن الأسلاف على وشك اختراق جدار القاعة والعودة إلى عالم البشر لمكافأتهم على قربانهم.

ذهب جدي إلى هناك وقت الظهيرة، واصطحبني معه على سبيل اللهو. كان مدخل قاعة الأسلاف يعج بالناس، والهواء ممتلئاً برائحة الكعك ونبذ الأرز النفاذة. وكانت الشمس حينها في كبد السماء، تسطع مباشرة فوق الرؤوس، فتتقلص الظلال، وتملأ المساحات المفتوحة بأشعة الشمس، فينبعث منها ضوء ساطع وباهر وساخن للغاية. قبل الدخول، رأيت الأعمى الصغير جالساً أمام الباب الجانبي لقاعة الأسلاف، أمامه سلة ممتلئة ببضع عشرات من قطع الكعك والخبز بأشكال وأحجام مختلفة. بدا واضحاً أن الزوار هم من أعطوه إياها. كان الأعمى الصغير مكروهاً في السابق، أما الآن فهو مثير للشفقة. صار معاقاً، لديه أب، لكن ليست لديه أم. أبوه أعمى ولا يستطيع صنع الكعك والخبز المطهو على البخار، لذلك فليس بوسعه سوى تسول الكعك من ذوي القلوب الرحيمة، وهذا هو السبب في جلوس الأعمى الصغير هناك في هذا الوقت.

قال جدي: «الظروف قد تجبر الناس على فعل أشياء خارج إرادتهم، وها هي قد أجبرت الأعمى الصغير على وضع معدته فوق كرامته». بعد أن أدى جدي طقوس تقديم القرابين للأسلاف، لم يُعد مباشرة، وبدلاً من ذلك ذهب إلى الأعمى الصغير، ثم أخرج كعكتين من سلتة ووضعهما في سلة الأعمى الصغير، وسأله: «قلت إن العقيد شاذ، فكيف عرفت ذلك؟».

شرع الأعمى الصغير يغمغم، وبالطبع لم يفهم جدي ما يقصده. قال جدي: «سأسألك بعض الأسئلة البسيطة، ما عليك سوى أن تومئ برأسك موافقاً أو تهز رأسك نافياً». أوما الأعمى الصغير برأسه.

سأله جدي: «قلت إنه شاذ، فهل مارس معك الشذوذ؟».

هزَّ الأعمى الصغير رأسه نافياً.

سأله جدي مرة أخرى: «هل رأيتَه يمارس الشذوذ مع أحد؟».

هزَّ الأعمى الصغير رأسه نافياً مرة أخرى.

ضحك جدي بصوت عالٍ، وهو ما جذب انتباه مزيد من الناس الذين التفتوا لمشاهدة ما يجري، وبعدها تجمَّع الناس، بدأ جدي يُحدث الأعمى الصغير بكل جدية:

«هذا غريبٌ حقاً، الشذوذ ليس مرضاً عادياً، فالشاذ يختلف عن الأعمى، والأعرج، والأحجب، والمشلول، والأحمق، والأبرص ومثلهم ممن يمكن تمييزهم بمجرد النظر. الجميع يعلم أن الشاذ كالأصم، أو كالعاهرة، أو العاقر، لا يمكنك تمييزه بمجرد النظر. إنه مرض خفي، مرض غريب لا يُرى، ولا يُلمس، ولا يُشم. هو لم يمارس معك الشذوذ، ولم تره يمارس الشذوذ، فما أساس اتهامك إياه بالشذوذ؟».

حاول الأعمى الصغير النهوض، وشرع يغمغم ثانية.

ساعده جدي على الجلوس ونصحه: «اجلس ساكناً ولا تتكلم بعد الآن. لا جدوى من كلامك، ولن يفهمك أحد. استمع إلى ما أقوله لك فقط، هل كان أهل القرية ينادونه دائماً المخصي أم لا؟ وأنت أيضاً غالباً ما تتاديه بذلك، أليس كذلك؟ إذا كان الأمر كذلك فأومئ برأسك، وإذا لم يكن كذلك، فهز رأسك». مكتبة سُر من قرأ

احمرَّ وجه الأعمى الصغير غيظاً، واستمر يغمغم، لكنه لم يومئ برأسه ولم يهزه، وكأنه يعلم أن هذا فخ ويريد الإفلات منه.

لم يتركه جدي يفلت، بل أشار إليه صراحة: «هذا تصرف خاطئ منك. لمَ لا تُومئ برأسك؟ كل من في القرية يعلم أنه مخصي، بداية من الأطفال إلى الشيوخ، الجميع يعلم ذلك. حتى الشرطي العجوز قال ذلك في اجتماع التنكيل، الكل كباراً وصغاراً سرّاً وجهراً ظلوا يصفونه بهذا الوصف عقوداً، دون أن يعارضهم أحد، حتى هو نفسه لم يستطع تقديم أي دليل يفند ذلك. هذه إذن حقيقة قاطعة، وما من أحد يستطيع إنكارها. لكنك الآن تُصر على إنكارها. لماذا؟ على أي أساس؟ إضافة إلى ذلك، نحن جميعاً نعلم أنه كان محبوباً ومُقيّداً في المخزن، ولو لم يفك له أحدهم الحبل، لما استطاع إيذاءك حتى إن كان هو الملك القرد سون ووكونغ، فمن فك له الحبل إذن؟ لمَ أذاك هكذا، قطع لسانك ومزّق أوتارك؟ لماذا؟».

لم ينتظر جدي أن يجيب -فهو لم يكن يستطيع أن يجيب- واستمر يقول: «لا أستطيع التفكير إلا في سبب واحد، ألا وهو أنك شاذ، فككت قيده لتمارس الشذوذ معه. ولأنك مارست الشذوذ معه، فعل بك هذا، قطع لسانك وشلّ يديك. لم يفعل هذا انتقاماً لنفسه فحسب، بل أيضاً من أجل الآخرين، ليمنعك من إيذاء الآخرين. يعلم الجميع أن هذا المخصي يُحب مساعدة الآخرين، لقد شلّك حتى لا تُهين الآخرين ثانية. لحسن الحظ أنه جعلك مشلولاً، وإلا فلا أحد يعرف كم عدد من كنت ستُهينهم في المستقبل».

بدا جدي مفعماً بالطاقة والحماسة وهو يتحدث، ما جذب الجميع للالتفاف والاستماع لما يجري. لم يعد بإمكان الأعمى الصغير أن يتحمل الأمر أكثر من ذلك، وظل يصرخ ويغمغم. لكن جدي لم يهتم واستمر في الحديث، ودون توقف، ما جعل الأعمى الصغير يجن غضباً، لدرجة أنه شرع يضرب بيده على صدره ويركل الأرض بقدميه، وهو يبكي وينوح. وفي النهاية خرج مسرعاً من بين الحشد، وقفز على الدرج، والنقط قطعة من الطين، وخلع نعليه، ثم كتب على الطين بأصابع قدميه. كان غاضباً يرتجف، وقدماه ترتجفان، حتى أنه لم يستطع الكتابة بوضوح.

واساء جدي وطلب منه ألا يتعجل، وأن يكتب على مهل. كرّر الأعمى الصغير محاولة الكتابة مرة تلو الأخرى، حتى أن الدماء سالت من قدمه من كثرة الاحتكاك، وفي النهاية نجح في كتابة كلمتين: سأضاجع أمك. لم يغضب جدي عندما رأى ما كتبه. وبدلاً من ذلك، ضحك وقال: «لقد ماتت أمي منذ وقت طويل، وتحولت إلى تراب، تريد أن تمارس الجنس حتى مع التراب؟ يبدو أنك شاذ حقيقي».

جُن جنون الأعمى الصغير لدرجة أنه انقضّ نحو جدي بشراسة ليضربه. لكن يديه كانتا متصلبتين كالزومبي، ولم يكن قادراً على توجيههما في الاتجاه الصحيح. فسقط على الأرض والتصق فمه بالتراب بمجرد أن تفاداه جدي. حينها ضحك جدي وقال: «ظننتك تقول إنك تريد مضاجعة التراب لا أن تأكله».

تركه جدي ملقى على الأرض واستمر يسخر منه ويقول: «هل لديك أي وازع من ضمير؟ لقد أعطيتك بعض الكعك للتو، ثم حطت أساس الخلاف بينك وبين المخصي، هل جزائي هو أن تسب أمي وتحاول ضربي؟ أنا عجوز في السبعينيات من عمري، كيف تعامل رجلاً عجوزاً هكذا؟ حتى إن كان تحليلي خاطئاً، لا يمكنك معاملة رجل عجوز بهذه الطريقة المهينة، وأن تسبه وتضربه. إذا كان لديك ما تقوله تفضل وقله، لم تتصرف كبلطجي؟ الجميع يعلم أن الشواذ هم أصلاً بلطجية، ويتصرفاتك اليوم، فقد تأكدت أنك شاذ».

(48)

كنت أعرف أن هناك مفتصبيين، ولكني لم أسمع من قبل عن الشواذ. سألت جدي ذات مرة من هم الشواذ، فرمقني بطرف عينه ووبَّخني بسبب اهتمامي بأمر كهذا. قال: «هذا هو الشيء الأكثر فحشًا وقذارة، لا تذكره على لسانك، فهو أمر مُخزٍ».

علمت من هيئته ونبرة كلامه أن هذا الأمر أكثر خسة من الاغتصاب، وأكثر خزيًا من التعرُّض للإخفاء.

لكن لأنه أمر فاحش ومُخزٍ، فلم يأخذ جدي مسألة كون العقيد شاذًا بهذه الجدية؟ شعرت أن الأمر غريب. ليقُلّ الأعمى الصغير ما يريد أن يقوله في حق العقيد، ما علاقة عائلتنا بأمر كهذا؟ أضف إلى ذلك أن العقيد قد هرب بالفعل على أي حال، ولن يتمكن من سماع ما يقال، لذا فلا فائدة منه. الأمر الذي لم أستطع فهمه بوضوح أكبر هو أن جدي ظل يطلب منا ألا نتحدث عن العقيد مستقبلاً، لكنه الآن هو من يتحدث عنه علناً، بل يتحدث عنه بطريقة جيدة. أليس هذا تناقضاً؟ هل يبحث لنفسه عن المتاعب؟ لذا كانت لديّ شكوك كثيرة حول تصرفات جدي.

في الواقع، لم أتمكن من فهم سلسلة الأحداث التي حدثت بعد ذلك، وأصبحت الأمور أغرب على نحو متزايد.

أولاً، ابتداءً من يوم عيد الأشباح، ظل جدي يتردد على الأماكن المزدحمة مثل الدكان، وقاعة الأسلاف، وصالون الحلاقة، ومحل الخياطة ليُخبر الناس في كل مكان أن الأعمى الصغير مارس الشذوذ مع العقيد. وبالنظر إلى اختيار جدي التوقيت والأماكن والكلمات، بدا واضحاً أنه لم يفعل ذلك عرضاً، بل كانت لديه خطة واستعداد وهدف؛ هذا الهدف هو إلصاق التهمة الآتية بالأعمى الصغير: ممارسة الشذوذ مع العقيد.

لطالما كان جدي فصيحًا حاذقًا. يمكنه دومًا شرح كل شيء بالأسباب والأدلة. على سبيل المثال: لمَ طلب الأعمى الصغير من بقية الحرس الأحمر المغادرة تلك الليلة ليبقى وحده لاستجواب العقيد؟ حتى القائد «هُو» لم يستجوب الآخرين بمثل هذه الطريقة من قبل، والشرطة نفسها لا تستجوب الناس بهذه الطريقة. لمَ فعل هذا؟ لأن لديه ما يخفيه، يريد أن يفعل شيئًا مخجلًا. على سبيل المثال أيضًا: في الماضي كنا نسمع فقط عن رجال يتلصصون على النساء عند ذهابهن إلى المرحاض، لكن الأعمى الصغير كان يتلصص على العقيد في أثناء التبول، وهذا أمر بإمكانني أنا والنمر القزم أن نشهد عليه، فقد كنا هناك وقتها. وعلى سبيل المثال أيضًا: لمَ أصيب الأعمى الصغير بهذا المرض الغريب -أي إنه يحب الرجال- لا بد أن الأمر مرتبط بحياته التعيسة. لم تكن هناك امرأة تحبه، أو تهتم به، أو تربيته منذ ولادته، حتى يومًا واحدًا، لذلك كان يكره النساء في أعماقه! وعلى سبيل المثال أيضًا: تربي الأعمى الصغير على حليب الماعز، ووفقًا لمبدأ أن ما تأكله يمنحك ما تحتاج إليه، فقد منحه لبن الماعز شهوة حيوانية، وصار دمه دم حيوان وليس دم إنسان. وبعد الانتهاء من الحديث عن الأعمى الصغير، انتقل جدي إلى الحديث عن العقيد، وكيف كان يعبت مع النساء في شبابه، وكيف تحوّل إلى مخصي، وما إلى ذلك.

كل ما قاله جدي كان يصب في اتجاه واحد لإحداث تأثير واحد: مساعدة العقيد على تطهيره من تهمة الشذوذ، وإلصاق تهمة الشذوذ بالأعمى الصغير بقوة وإحكام. في رأيي، ما قاله جدي كان منطقيًا للغاية، مثل الطوق الضيق الذي يرتديه الملك القرد سون ووكونغ على رأسه، هذا الطوق كان يضيق كلما تكلم، وصار أكثر إحكامًا حول رأسه. لاحقًا، صدّقت تمامًا أن الأعمى الصغير كان شاذًا، على الرغم من أنني لم أفهم تمامًا ما تعنيه كلمة شاذ، ولم أفهم أيضًا لماذا يتصرف جدي هكذا. كلما

سمعت جدي يتحدث عن تلك الأشياء، يتساءل في داخلي صوت: جدي، ما شأنك بكون هذا أو ذاك شاذًا؟ ولم تأخذ الأمر على محمل الجد؟ لم تقحم نفسك في هذا الأمر؟

ثانيًا، على الرغم من أن جدي حاول بكل ما في وسعه إثبات صحة ما يقوله، فإن النتيجة لم تكن جيدة. بدا الأمر كأن جدي يواجه عدوًا قويًا، لكنه لا يعرف من هو العدو أو أين هو. العدو خفي لا يمكن طرده أو القضاء عليه؛ مثل الريح، يتجول ذهابًا وإيابًا في الأزقة، يأتي ويذهب. وبحلول أوائل الشهر الثامن، زادت حدة الرياح فجأة، فصارت مثل العاصفة أو الكارثة، ثم تحولت العاصفة إلى إعصار قاسٍ، حتى أن جدي والشرطي العجوز لم يفلتا منها، وصارا مثارًا للسخرية مثل الفئران النارقة.

في ذلك اليوم، جاء الأعمى الصغير برفقة والده الأعمى رعمه، ومعهما بعض الأدوات، ثم جلسوا أمام بوابة قاعة الأسلاف كما لو كانوا يمثلون مسرحية؛ أدى الرجل الأعمى دور المنادي، شرع ينادي ويدق الجرس لجذب الناس لمشاهدته. الأدوات التي أحضروها معهم كانت لوحًا دائريًا، وكيسًا من الرمل الناعم، ولوحًا من الخيزران. تقدّم عم الأعمى الصغير أولًا، ثم سكب الرمل فوق اللوح الدائري، ونشره بالتساوي باستخدام لوح الخيزران، ليكون جاهزًا للكتابة عليه. أما بطل المسرحية فكان الأعمى الصغير، وقف على ساق واحدة حافي القدمين، يسنده والده الأعمى، وانهمك في الكتابة على سطح الرمال الأملس بإصبع قدمه الكبير العاري. الرمال هشة، والكتابة عليها أسهل وأكثر وضوحًا من الكتابة على الطين. بدا كأنهم قد تدربوا على هذه المسرحية في المنزل، كانوا يؤدون أدوارهم بسلاسة. كان الأعمى الصغير يكتب على الرمال بإصبع قدمه، ويكتب عمه الكلمات نفسها بالفرشاة على ورق أبيض. كانت الخط قبيحًا، وغير متساوٍ في الميل والحجم، لكن الكتابة كانت واضحة ويمكن التعرف إليها بسهولة. نادى الوالد الأعمى بصوت عالٍ، أضيف إلى ذلك منظرهم المثير

للاهتمام، لذا سرعان ما تجمّع الناس بأعداد كبيرة. كانت شمس الظهيرة ساطعة بقوة، ما جعل الأعمى الصغير يتصبّب عرقاً في أثناء الكتابة. وقف الجميع يشاهد باهتمام كبير، كان الأمر أشبه بمشاهدة مسرحية بالفعل.

وفي الأخير صارت هناك بضع كلمات ملتوية ومشوّهة مكتوبة بالحبر الأسود على قطعة من الورق الأبيض، تلك الورقة كانت قد علقت بالفعل على جدار قاعة الأسلاف عندما وصلت. تمكنت من التعرف إلى كل كلمة منها -حتى التي كتبت بشكل خاطئ- كان المكتوب:

قلت إن المخصي شاذ لأن هناك سطرًا من الكلمات موشومًا على بطنه: هذا اللعين شاذ. لقد رأيت ذلك بأم عيني، ويمكن للزرافة وكماشة اللحم أن يشهدا على ذلك.

والمقصود بـ«الزرافة» هنا هو ابن عمي.

(49)

لم أرَ ابن عمي منذ مدّة طويلة، فقد التحق بالعمل، ولم يعد يقيم في المنزل بعدما انتقل للإقامة في البلدة. فبسبب مشاركته الفعالة في الثورة، رشحه القائد «هُو» للعمل في اللجنة الثورية للكمونة. كوموننتا صغيرة، ولا توجد فيها وظائف كثيرة، لذلك رُشح للعمل خفيّرًا في المدرسة المتوسطة بالكمونة، وكان راتبه ثلاثة عشر يوانًا شهريًا. في البداية لم يرغب ابن عمي في العمل هناك، ليس بسبب تدني الراتب، بل لأنه يعتقد أن وظيفة خفيّر لا ترقى إلى تطلعاته. ولكنه قبل العمل في النهاية لأنه لم يكن هناك خيار آخر، وإلا فالبديل هو البقاء في القرية للعمل بوصفه فرد ميليشيا. أفراد الميليشيا مسؤولون عن أعمال الزراعة، يجمعون نقاط عمل، لكنهم لا يتلقون أي راتب. وبعد مقارنة الخيارات المطروحة، قرر أن العمل خفيّرًا هو الأفضل، فوافق.

في تلك الليلة، استُدعي ابن عمي على نحو عاجل، وحبسه والدي وجدي في غرفة جانبية واستجوابه. ولأن أحداً لم يمنعني من الاستماع، وقفت خارج الباب أستمع باهتمام دون أن أفوت كلمة واحدة. كان جدي قاسياً جداً مع ابن عمي في البداية، حذيه وطالبه بأن يخبره بكل شيء ولا يُخفي كلمة واحدة. شعر ابن عمي أن الوضع خطر، فأبدى استعداداً للتعاون. ورغم أنه لم يكن صريحاً بما يكفي، وتحدثت بتردد، فإنه أخبرهما في النهاية بكل ما حدث في تلك الليلة.

قال ابن عمي إنه في تلك الليلة كان هو وكماشة اللحم واللقيط يعدون العشاء في مطبخ المدرسة، وكان الأعمى الصغير بمفرده في مكتب القائد «هو» يستجوب العقيد. لذلك لم يكونوا على علم بأي مما يخص مضمون الاستجواب، أستطيع أن أشهد على هذا. وبعد تجهيز الطعام، ذهب ابن عمي لاستدعاء الأعمى الصغير لتناول الطعام، وقتادا معهما العقيد إلى المطعم. ولأنهما وافقا على أن يغير العقيد ملابسه، لم يربطاه، واتفقا على أن يربطاه بعد إعادته إلى المخزن لتغيير ملابسه. قبل إعادته إلى المخزن، قال العقيد إن جسده متسخ للغاية، وطلب منهما أن يسمحا له بالاستحمام. في البداية رفض الأعمى الصغير بشدة، ووبَّخه قائلاً: «أنت تحلم!»، ثم دفعه إلى داخل الغرفة وأمره بتغيير ملابسه على الفور. كان الأعمى الصغير يمسك بحبل في يده لكي يربطه، ومن ثم يمكنه الذهاب لتناول العشاء دون قلق.

ولكن بعد وقت وجيز، عاد ووافق على غلب العقيد.

ووفقاً لما ورد على لسان ابن عمي: «استغربتُ الأمر حينها، لم يعامله بهذه اللطف؟ لكنني فهمت لاحقاً، فقد أخبرني الأعمى الصغير أنه بهذه الطريقة يُمكننا أن نتلصص عليه وهو يستحم ونرى كيف تبدو أعضاؤه الجنسية. أردتُ الاعتراض، لكنني علمت حينها أن ذلك مستحيل، فالظلام دامس، كما أن من غير الممكن أن يشعل الضوء وهو يستحم، لذلك لن نتمكن من رؤية أي شيء، فتراجعت عن اعتراضي».

أعتقد أن النصف الثاني مما قاله ابن عمي كان كلامًا مختلفًا، فلم يكن بإمكانه الاعتراض، ولا بد أنه كان يرغب في المشاهدة أيضًا. فمن الذي لا يرغب؟ أنا أيضًا كنت أرغب. لو لم يكن يرغب في ذلك حقًا، لكان بإمكانه ألا يشارك من الأساس، تمامًا كما كانت الحال بالنسبة إلى اللقيط. اللقيط لم يشارك، ليس لأنه لم يرغب في ذلك، ولكن لأنه تعرّض لتهميش الأعمى الصغير. باختصار، كنا جميعًا فضوليين بشأن مشاهدة الأعضاء الجنسية للعقيد، ومن غير المعقول أن يعترض أحد.

المشكلة هي أن المكان مظلم للغاية، فكيف يمكننا الرؤية دون إنارة الأضواء؟

ولأن الأعمى الصغير كثير الحيل، ويعلم أن العقيد سيحاول منعهم من التلصص عليه، اتخذ ترتيبات عدة مسبقة: أولاً، نقل حوض المياه في المطبخ إلى الجانب المواجه للنافذة، حتى يكون العقيد في مرمى بصرهم عند التلصص عليه من خلف النافذة في أثناء الاستحمام. ثانيًا، ربط سلك مفتاح ضوء المطبخ بسلك آخر وسحبه خارج النافذة، كان يعلم أن العقيد سيفلق الباب بعد دخوله، لكنه لن ينير الضوء أبدًا، لذلك لن يكتشف أمر السلك، والأمر الآخر هو أن العقيد عندما ذهب للاستحمام، تظاهروا بالذهاب إلى القاعة المجاورة للمطعم لتناول الشراب، كانت خطتهم أن يعودوا سريعًا بعدما يكون قد خلع ملابسه وبدأ بالاستحمام، ثم يختبئوا خارج النافذة للتلصص عليه. أما دور اللقيط فكان خداع العقيد، وذلك بالجلوس وحده في القاعة المجاورة للمطعم دون أن يتوقف الصياح بصوت عالٍ كما لو أن الجميع جالسون يشربون:

«هيا اشرب! اشرب الآن! لقد انتهيت».

«لا تخدعني، اشرب أنت! هيا اشرب!».

وفي ظل وجود أصوات تحريك الكراسي وخبيط الكؤوس المصطنعة، بدا الأمر كما لو أنهم لا يزالون في القاعة المجاورة يشربون.

لم تكن هناك ستائر على فتحات النوافذ، لذا يمكن التلصص على من في الداخل بسهولة، لكن إذا لم تُتَرِ الأضواء، فلن تتمكن من رؤية أي شيء. كانت الأجواء مظلمة للغاية يومها، وهناك أيضًا شجرة خروب أمام نافذة المطبخ، وهو ما جعل المكان غارقًا في الظلام. عندما رأى العقيد أن الغرفة غارقة في الظلام، لم يقلق بشأن أن يتلصص عليه أحد، أضاف إلى ذلك أصوات الضجيج في الجوار، لذلك تخلص عن صدره، وخلع ملابسه جميعها وشرع في الاستحمام بكل أريحية.

لكن عندما أضاء الأعمى الصغير الضوء فجأة، أصيب العقيد بالذعر! ربما لأنه أصيب بالذعر، لم يتخذ الاختيار الصائب، ألا وهو أن يجلس القرفصاء ليستر نفسه، وبدلاً من ذلك اندفع دون وعي نحو الباب ليطفئ النور. كان هذا بمنزلة الاندفاع نحوهم، ليجد نفسه عارياً في مواجهة هؤلاء الثلاثة وجهًا لوجه - ابن عمي، والأعمى الصغير، وكماشة اللحم، ومن ثم تمكنوا من رؤية تفاصيل جسده بوضوح؛ أولاً، لم يكن هناك أي نقص في أعضائه الجنسية، فأعضاؤه متدلية هناك كما هي. ثانياً، كانت هناك كلمات موشومة على بطنه، وهناك أيضاً سهم أحمر لافت موشوم أسفل بطنه من الأعلى إلى الأسفل، والكلمات أعلى جانبي السهم.

وفقاً لما قاله ابن عمي: «كانت هناك كلمات كثيرة، أفقية ورأسية. بعضها بحجم سرطان البحر، وبعضها الآخر أصغر قليلاً، تغطي أسفل بطنه كله تقريباً. لكن الوقت كان قصيراً جداً، لذلك لم نتمكن من قراءة تلك الكلمات. أما ما ذكره الأعمى الصغير عن محتوى تلك الكلمات، فهو يثبت أنه قد رآها ثانية لاحقاً، لأن من المؤكد أنه لم يرها في ذلك الوقت، فبعدما خرج العقيد بعد ارتداء ملابسه لاحقاً، سأله الأعمى الصغير عن مضمون تلك الكلمات، ومؤكد أنه لو رآها لما سأل مثل هذا السؤال».

عندما سأله الأعمى الصغير هذا السؤال، علم العقيد أنهم لم يروا تلك الكلمات بوضوح، فضحك بسعادة وسخر منه قائلاً: «كنتم تشربون للتو، أليس كذلك؟ أعطني كأساً وسأخبرك».

وبالفعل نجح في خداع الأعمى الصغير، فأخذه إلى المطعم، ثم طلب منه الجلوس، وصبَّ له كأسًا وقَدَّم له بعض اللحم. وبعدما أكل وشرب، قال للأعمى الصغير، المكتوب هو: «أمك عاهرة كبيرة».

غضب الأعمى الصغير بشدة وهمَّ بضربه.

قال ابن عمي: «كنت أنا من أوقفته حينها، لأنني كنت أعلم أننا لا نستطيع التغلب عليه».

كان بإمكان العقيد أن يهرب حينها، ولو هرب فلن يتمكن أحد من القبض عليه، ولكنه لم يكن يريد الهروب، لأن القطتين أنقذتا، كما أنه قد استحم، وغيرَ ملابسه، وأكل وشرب، ودخن سجائره، لذلك لم يكن قلقًا من احتجازه. فهروبه مخالفة للقانون، وهو لا يريد أن يخالف القانون، لذا بادر بالذهاب إلى المخزن ووافق أن يقيِّدوه. بعدما قيِّدوه، عادوا لتناول الطعام وهم يتحدثون عن صدمتهم بعد رؤية العقيد عاريًا. قبلها كانوا يقولون إن العقيد مقطوع «الأعضاء»، ولكن هذه الفرضية صارت خاطئة بالتأكيد، لأن أعضاءه كانت موجودة بوضوح، ثلاثة أشخاص لديهم ست عيون رؤوا أعضاءه في الوقت نفسه، ولم يكن يبدو عليها أنها أعضاء مزيفة.

وفقًا للتعليمات، كان ابن عمي وكماشة اللحم مسؤولين عن حراسة المخزن في النصف الأول من الليل، وكان الأعمى الصغير واللقيط مسؤولين عن حراسته في النصف الثاني. لكن اللقيط كان قد تناول الطعام بمفرده في البداية، وربما أكل أكثر من اللازم، وهو ما جعله يعاني آلامًا في المعدة بعد عودته إلى المنزل، ولم يذهب لتولي نوبة حراسته. لذلك، كان الأعمى الصغير وحده هو من يحرس العقيد في النصف الثاني من الليل. وبهذا لم يعلم أحد ما حدث في تلك المدة، فقط العقيد والأعمى الصغير وحدهما كانا يعلمان.

في نهاية حديثه قال ابن عمي: «إذا كان ما قاله (الأعمى الصغير) صحيحًا بخصوص الوشم المكتوب على بطن العقيد، فلا بد أنه رآه في النصف الثاني من الليل».

وقبل أن يتمكن من إنهاء جملته تلك، غضب والدي ووبَّخ ابن عمي وهو يقول: «هراء! كيف يمكن أن يكون هذا صحيحًا؟ هذا كله هراء!».
سأل جدي والدي: «وهل تعلم ما الحقيقة؟».
عندما سأله جدي هذا السؤال، بدا من نبرة صوت والدي أنه يعرف الحقيقة.

أجاب والدي بغضب: «وكيف لي أن أعرف؟ لا أحد يعلم».
ثم طلب من جدي ألا يُقحم نفسه في هذه الأمور التافهة، وفتح الباب بغضب، وهو يسب ابن عمي قائلاً: «أخبرتكَ ألا تختلط بهذا الوحش، لكنك لم تستمع، وما زلت مصراً على ملازمته، والتسكع معه طوال اليوم، تتسببان معاً في افتعال المشكلات. انتظر وسترى، يوماً ما سأمزق فمه!». بالطبع كان المقصود بكلامه هذا هو الأعمى الصغير.

خرج والدي من الباب وهو يسب ويلعن، كأنه ينوي حقاً تمزيق ضم الأعمى الصغير. أعتقد أنه ليست هناك حاجة إلى تمزيق فمه؛ لقد أصبح بالفعل أبكم مقطوع اللسان، والحل الوحيد لإسكاته نهائياً هو قطع قدميه. لكنني لم أفهم لمَ يستمرون في الجدل المحتدم بشأن أمر كهذا؟ هل يستحق هذا كل هذه العداوة وكل هذا الغضب؟ المهم هو أنني بعد كل ما حدث لم أكن أعرف حينها ما هو الشذوذ، لذا لم أتمكن من إصدار حكمي على الأمر، وفقدت قدرتي على التخيل والتحليل، فشعرت بالوحدة والعجز، كأنني مثل اليتيم الذي لا يجد من يلجأ إليه.

(50)

يقيم ابن عمي عادةً في سكن داخلي في المدرسة، ذلك النوع من السكن الجماعي الذي يسكن فيه كل أربعة في غرفة، ولا يعود إلى المنزل إلا في عطلات نهاية الأسبوع.

نحن الآن في فصل الصيف، وهو مدة الإجازة الصيفية للمدرسة. عاد ابن عمي إلى منزله لقضاء بضعة أيام، لكن والده كان يكلفه دائماً بأعمال الزراعة، ولأنه كان يكره العمل في الزراعة، عاد للإقامة في المدرسة. ولأن الوقت وقت الإجازة، كانت غرفة سكنه في المدرسة فارغة، وهو ما جعله يشعر براحة كبيرة، لذلك لم يعد يرغب في العودة إلى المنزل. ذات يوم ذهبت لزيارته في المدرسة، ونمت في غرفته ليلاً، فهناك ثلاثة أسرة فارغة على أي حال.

في تلك الليلة فهمت بالفعل ماذا يعني الشذوذ، كان ابن عمي هو الذي أخبرني بذلك.

أخبرني ابن عمي بماهية الشذوذ بعد أن استلقى كل منا في فراشه وأطفأنا الأضواء. ربما لأنه شعر أن هذا موضوع قذر للغاية، وليس من المناسب الحديث عنه والأضواء مشتتة. كانت الغرفة مظلمة تماماً، والليل خارج النافذة أكثر ظلاماً، يلمع من شدة الظلمة، ظلمة توحى بالقوة مثل الطوفان الهادر يندفع نحوي، يبتلعني ويقذفني، يقذفني ويسقطني، يسقطني ويحملني، يحملني ويسقطني ويبتلعني... ماذا يعني أن تكون غارقاً في الرعب؟ لقد استشعرت يوماً ماهية الفرق في الرعب.

كنت أستمع إلى ما يقوله ابن عمي وأشعر بقشعريرة تسري في أنحاء جسدي، يرافقها شعور بالبرد والغثيان، والرغبة في التقيؤ، حاولت أن أغطي أذني، وفكرت في الهروب حتى لا أسمع ما يقوله... كان الأمر كأنني أرى أكثر الأشياء ابتداءً وقذارة في هذا العالم؛ أكثر ابتداءً من المنحطين، وأكثر وقاحة من المغتصبين، وأكثر قذارة وقبحاً من الخصيان والسفلة. كان ما سمعته قذراً ومثيراً للاشمئزاز، قبيحاً، وشنيعاً للغاية، أصابني بذعر قاتل! لم أتحمل، وبطريقة ما، أضأت النور.

نهض ابن عمي جالساً ونظر إليّ وسألني: «لم تضيء النور؟».

قلت وأنا لا أزال أضع يدي على مفتاح النور: «أنا خائف».

حدّق إلي ابن عمي مدّة طويلة، ثم سألني: «هل سمعت بالأمر؟». رفعت يدي عن مفتاح النور ونظرت إليه أسأله: «ما هذا الأمر الذي سمعت به؟».

أدار ابن عمي رأسه وقال: «والدك».

تساءلت مستغرباً عن علاقة والدي بهذا الأمر: «ماذا حدث لوالدي؟». استلقى ابن عمي ثانية، ثم استدار على جانبه، وقال مولياً ظهره لي: «ألم تسمع؟ حسناً، انس الأمر، فأنا لا أريد الحديث عن هذا الأمر المقزز».

لم يكن من الممكن أن أتركه دون أن يكس حديثه بعدما وصلت الأمور إلى هذا الحد. ألححت عليه أن يتكلم، وتوسّلت إليه أن يكمل، ومع استمراره في الرفض استمررت أيضاً في الإلحاح. وفي النهاية نهضت وجلست بجانبه، وأمسكت بيده، محاولاً إجباره على الحديث، وهددته بأنني لن أغادر مكاني ما لم يتحدث. تحدّث ابن عمي ووبّخني وهو يقول: «كيف لك أن تكون غيباً إلى هذه الدرجة! الشذوذ هو علاقة بين شخصين، أو بالأحرى رجلين، والعقيد شخص واحد فقط، إذن لا بد أن هناك شخصاً آخر، والناس يقولون إنه عمي».

«كيف يكون ذلك ممكناً؟». عمه هو والدي، كيف يكون ذلك ممكناً؟

هذا مستحيل!

حدّرتني ابن عمي يقول: «الجميع في القرية يتحدث عن ذلك، ولكن إياك أن تتحدّث عن هذا الأمر بعد عودتك إلى المنزل».

لا يعيش ابن عمي عادةً معنا في القرية، ولأن هذه الشائعة قد وصلت إلى مسامعه، فهذا يعني أن هناك كثيرين يتناقلونها، بل إنها صارت منتشرة على نطاق واسع. لكنني لم أسمع بذلك من قبل، ولم يسمع عنه أيضاً أي من أفراد عائلتي. كانت تلك المرة الوحيدة التي أسمع به. أدركت لاحقاً أن عائلتي لم تسمع بمثل هذه الأمور، فالجميع يتحدث عن ذلك من

ورائنا. ولو تجرأ شخص على الحديث عن أمر كهذا أمامنا سيكون مصيره الموت حتمًا، وهذا ما علّمني إياه جدي لاحقًا: من يتحدث عن هذا الأمر سيُضرب حتى الموت. لا تخف. لو قتلنا أحدًا ضريبًا، فسوف نذهب إلى السجن، والذهاب إلى السجن أفضل من أن يتحدث عنا الآخرون بهذا السوء.

لقد تسبّب كلام ابن عمي في إيذائي نفسيًا بشدة تلك الليلة! بالرغم من أنني تمكنت من العثور على مجموعة من الأدلة لتفنيد ما قاله ابن عمي، فإن كلماته كانت مثل ثعبان سامّ يلتف حول قلبي، يقفز من وقت إلى آخر ليعضني، ويخيفني، ويثير اشمئزازي، ويسبب لي الكوابيس. بعدها عادة ما كنت أرى نفسي في أحلامي أشتّم، وأقاتل، وأبكي، وأهرب. وفي إحدى الليالي بكيت بصوت عالٍ، وصرخت، فأيقظت جدي. عندما رأي جدي حزينًا إلى هذا الحد، وجسدي يرتجف كله، كأني أعاني نوبة صرع، أشفق عليّ، وأيقظني ليسألني عما رأيته في منامي. لم أكن في وعيي كاملاً حينها، كنت أعتقد أنني لا أزال أحلم، ولو كنت أدرك أنني استيقظت من الحلم ما كنت لأخبر جدي بأي شيء مهما حدث، فأنا الآن في الخامسة عشرة من عمري، وعلى وشك الالتحاق بالسنة الثالثة من المرحلة الإعدادية، وعلى الرغم من شعوري بالوحدة والعجز والاكْتئاب، فإنني أعرف الشعور بالخجل، وأعرف الصواب والخطأ، كما أنني صرت أتحمّل بقدر معين من التحمل والتسامح. لذلك كان عليّ أن أتحمّل وحدي كل الصعوبات من أجل عائلتي، حتى إن لم أكن قادرًا على ذلك، وحتى إن كلّفني ذلك الموت.

لكنني في ذلك الوقت كنت أعتقد أنني أحلم، وأخبرت جدي الحقيقة. لن أنسى أبدًا رد فعل جدي حينها، كان رد فعل جدي قويًا للغاية. فجأة علت وجهه ملامح الارتباك، والصدمة، والذعر، والغضب، والهرج. باختصار، كان الأمر معقدًا للغاية، فالحقيقة التي أخبرته بها قدّرة للغاية

وخبيثة ومخزية حتى أنه شعر بالخجل من الاستماع إليها. وفي الوقت نفسه، بدا غير راضٍ عن مجرد سماع جزء منها، وكان مصرّاً على سماعها كلها، وسألني عمن أخبرني بهذا الأمر. رفضت أن أخبره، لكنه أجبرني على ذلك، وبعد جولات عدة، لم أستطع التملص منه، ووجدت نفسي مضطراً إلى قول الحقيقة، ووشيت بابن عمي.

شاهدت الشرر يتطاير من عينيّ جدي الواهنتين الغائرتين، ثم ضمّ قبضتيه بقوة. شعرت بالألم الذي يشعر به جدي، وشعرت بالذنب والندم الشديدين. كرهت نفسي لأنني لم أحفظ السر، ووددت لو كان بوسعي أن أتحمّل الألم نيابة عنه. لكن جدي كان قوياً، ومعطاء. كان يفضل أن يعاني هو بدلاً من أن يتركني أعاني. تمالك نفسه بسرعة، وكبح ألمه، ثم ابتسم، وشرع يواسيني.

قال جدي: «كيف يكون العقيد شاذاً؟ فأعداد النساء اللواتي ضاجعهن في شبابه كافية لملء بضع حافلات. لا بد أن الأعمى الصغير قد جن جنونه ليقول كلاماً كهذا. لا يقول مثل هذا الهراء إلا مجنون، فهذا هراء لا يصدقه أحد».

قال جدي: «أوتار اليد متصلة بالدماغ، ولا بد أن قطع أوتار يد الأعمى الصغير قد أثر في دماغه، فتحوّل إلى مجنون».

قال جدي: «لطالما كان والدك رجلاً غليظاً في التعامل، وأساء إلى كثيرين، لذلك يحاول كثيرون تشويه سمعته».

بغض النظر عن إذا ما كنت قد فهمت كلامه أم لا، أو صدقته أم لا، كان جدي يحدثني من صميم قلبه، محاولاً تهدئتي وصرف تلك الأفكار بعيداً عني. تساقط بعض المطر الخفيف تدريجياً، وتساقطت قطرات الماء من أفاريز السقف، فجعلني الظلام أشعر كأنها دماء تقطر من قلب جدي. ولأن قبضتيه المضمومتين كانتا تصدران صوت طقطقة من وقت إلى آخر، كان صوتها أشبه بصوت تكسير العظام. كانت ليلة ثقيلة للغاية،

رجل عجوز منهك وضعيف، وصبي صغير جاهل بالعالم، يتحملان العار الأكبر والحمل الأثقل في هذا العالم.

وفي الأيام القليلة اللاحقة، كان جدي يتعقبني، أحياناً سرّاً، وأحياناً أخرى علانية. كان يخشى أن يجرني الآخرون إلى تلك الشائعات التي تتعلق بالشذوذ. لقد تزوجت أختي الكبرى، والفتاة المتزوجة مثل الماء المسكوب، صارت فرداً من عائلة أخرى، ولم تعد هناك حاجة إلى القلق بشأنها بعد الآن، كما أنه لا داعي أيضاً للقلق بشأن أخي الأكبر وأخي الثاني، فهما قد كبرا، ولديهما القوة والحمية، ولا يحتاجان إلى أحد لمساعدتهما حال وقوع شجار أو عراك. لا يوجد سواي أنا فقط ما زلت صغيراً، لم أنضج بما يكفي، والبدهي هو أن أكتم غضبي في مواجهة الأشرار وكلماتهم الشريرة. كان جدي يتبعني، ليس فقط لاستكشاف أعدائنا، بل أيضاً للدفاع عني. حتى أنه أحضر لي مبرداً حاداً لامعاً، وأعطاني جراباً لأضعه فيه وأحمله معي دوماً، وطلب مني أن أطلعن به أي شخص يتجرأ على ذكر تلك الكلمة القبيحة أمامي، حتى إن أدت الطعنات إلى قتله.

حدثني جدي مرات عدة بقوله: «حتى إن انطبقت السماء على الأرض، فلن أسمح لوصمة الشذوذ تلك بالدخول إلى منزلنا».

في أثناء تلك المدة، كان جدي مثل جندي مستجد في حالة استنفار، يقف متأهباً حذراً كأن العدو يقف على أبواب المدينة، لا يستخف بالعدو مهما قلَّ عدده، عازماً على القتال حتى الموت، المهم هو أنه لن يسمح أبداً لوصمة الشذوذ القذرة أن تغزو منزله. أعلم أن جدي فعل كل ما في وسعه على أكمل وجه، قال كل ما ينبغي أن يقال، وفعل كل ما ينبغي أن يفعل، لقد علّمني بالقول والفعل، ولم يدّخر جهداً في مواساتي، ومحاولة تخليصي من هذا الشعور بالعار. لكن الأمر لم يتم بنسبة مئة في المئة، فعلى ما يبدو ما زالت هناك ثقوب سوداء وبقع عمياء وهاوية وشيء ما يكدرني. وفي اليوم الأول من العام الدراسي، كنت منطوياً، أقدم قدماً

وأوآخر أخرى، حملت حقيبتتي المدرسية مرات عدة ثم وضعتها ثانية، غير قادر على التقدم خطوة واحدة؛ كنت أخشى أن يتحدث زملائي في الفصل عن هذا الهراء، فزملاء الفصل يحبون الحديث عن الهراء أكثر من أي شيء آخر، كما أنهم بارعون في اختلاق الشائعات، ويعرفون كيف يجعلون من الحبة قبة، كما أنهم سليطو الألسنة، ويستشعرون نقاط الضعف ومواطن الألم، ومن ثم يركزون عليها، تمامًا كمن يذرّ الملح على الجرح. كان جدي مصدر قلقٍ أيضًا، فبالرغم من محاولته مواساتي لإقناعي بالذهاب إلى المدرسة، فإنه لم يستطع أن يخفف ألم قلبه. هذا الألم تسبّب في سقوطه صريع المرض، لم يتمكن من مغادرة فراشه حتى بعد تناوله أدوية وصفها له ثلاثة أطباء. كان ذابلاً منهزمًا، تزداد أيامه طولاً، وتزداد لياليه سوادًا، كأنه استسلم للموت في سريره.

(51)

في ذلك اليوم، ذهبت أُمِّي ثانية بحثًا عن طبيب لعلاج جدي، وذهب والدي وأخي الأكبر إلى العمل كالمعتاد، لذا لم يكن في المنزل سواي أنا وجدي. بدأ المطر يتساقط بعد الظهر، حينها دخلت إلى المطبخ لغلي الأدوية العشبية لجدي. كان المطبخ ممتلئًا برائحة عشبة عرق السوس المريرة التي تشبه مزاجي المكتئب. كنت أتمنى ألا يموت جدي، لذلك جلست بجوار قدر غلي الدواء أدعو له بالشفاء، آملًا أن تختلط دعواتي مع الدواء في القدر لتتمكن من انتشاله من براثن الموت. سرعان ما استجيبَت دعواتي، فقد جاء شخص لإنقاذ جدي: ليس الطبيب الذي ذهبت والدتي للبحث عنه، بل كان الشرطي العجوز الذي جاء من تلقاء نفسه.

كان الشرطي العجوز ثملًا من فرط الشرب حينها، يمشي مترنحًا. دفع باب منزلنا ودخل دون استئذان، ثم سار نحو القاعة الجانبية بحثًا عن ماء

يشربه، وكاد يصطدم بي وأنا خارج من المطبخ. كنت أحمل الدواء المغلي في يدي، وشممت رائحة الكحول تفوح من فمه، بدت رائحة الكحول المختلطة برائحة الدواء غريبة ومثيرة للغثيان حتى أنها جعلتني أشعر بالتقيؤ. لم يكن الشرطي العجوز الثمل في وعيه كاملاً، نظر إلى الدواء الذي أحمله، فسكبه وطلب مني أن أصب له كوباً من الماء. كنت غاضباً جداً حتى أنني كدت أبكي، فترقرقت الدموع في عيني. لم يهتم لغضبي، بل استدار، وهرع إلى الغرفة الجانبية، وصاح في وجه جدي الراقد في فراشه:

«أيها العرَّاف العجوز، سمعت أنك ستموت، لذلك أتيت لرؤيتك». ثم تقدم نحو السرير، فرأى جدي ملفوفاً في البطانية مثل قطعة مريضة، هزياً بشدة، فقال بسعادة: «يا إلهي! لم أرك منذ عشرة أيام فصرت نحيلاً كحشرة فرس النبي، كيف تلف نفسك ببطانية كهذه في هذا الجو الحار؟ يبدو على وجهك كأنك تحتضر».

حاول جدي النهوض من السرير، وقال بصوت مكتوم: «سيكون من الأفضل لو مت، لقد استدعاني ملك الموت، وأنا في طريقي لمقابلته. كم هو مؤلم أن تكون في حالة تقبع فيها بين الحياة والموت!». قال الشرطي العجوز: «إذن هل تريد العيش أم تريد الموت؟». أجاب جدي: «الموت».

ضحك الشرطي العجوز وقال: «لا تمت، هيا انهض من فراشك لندخن معاً».

انخرط جدي في البكاء وهو يقول: «لا أستطيع مغادرة الفراش، الموت فقط هو الذي سيجبرني على مغادرته».

ضحك الشرطي العجوز بصوت أعلى وقال: «لكنني لا أوافق على موتك. لطالما كنا أعداء طوال حياتنا، وإذا متت، فسأبقى وحيداً، لا أجد حتى من أتشاجر معه، فما المغزى من الحياة إذن؟ لن تموت الآن، فأنا هنا

لإنقاذك، وبالطبع لإنقاذ نفسي. ألسنتُ شخصًا شريرًا فاسقًا في نظرك؟ إذن يجب أن أموت قبلك، لن أستطيع العيش لو متَّ أنت، لذا يجب أن أنقذك».

رمقه جدي بنظرة شاحبة فبدا كأنه شخص ميت بالفعل، وقال بصوت غاضب: «أنت هنا لتشتت بي؟!».

ردَّ الشرطي العجوز: «كلماتك تُشعرنِي بالحزن أيها العرَّاف العجوز، أنا هنا اليوم لإنقاذك».

كان عطشًا بشدة، وعندما رأيته رأني أحضر له بعض الماء، شربه دفعة واحدة، ثم جلس على المقعد وهو يلهث، ثم هزَّ رأسه وقال: «أيها العرَّاف العجوز، أحدثك بجد، أنا هنا اليوم لإنقاذك، لقد تشاجرنا طوال حياتنا، وبالرغم من ذلك كانت علاقتنا جيدة طوال حياتنا أيضًا. نحن عدوَّان، لكننا أشبه بفردتي حذاء، يُكمل كل منا الآخر، ولا أريدك أن تموت حقًا».

قال جدي بصوت خافت: «لقد سمعت للتو أنك سكبت دوائي».

ضحك الشرطي العجوز، ثم أشعل سيجارة، وسحب نفسًا وقال: «أنت مصاب بمرض نفسي، وهذا الدواء لن ينقذك، أنا وحدي القادر على إنقاذك. ومن يسبب لك الهواجس ليس ملك الموت، بل الأعمى الصغير. لقد رَوَّج شائعات جعلتك قلقًا مهمومًا، أليس كذلك؟ هذا الوحش ماهر للغاية، يعرف كيف يؤذيك، ويعرف أنه يمكنه النيل منك بهذه الطريقة. لماذا؟ لأنه وجد نقطة ضعفك، أليس كذلك؟ أنت غارق في الشكوك، تشك في أن هناك علاقة مشينة بين المخصي وابنك».

ضرب الجد السرير بكعبيه ووبَّخه قائلاً: «اصمت... اصمت».

لم يكن كلامه على سبيل التوبيخ، بل كان أشبه بالتوسل.

لم يصمت الشرطي العجوز، بل تمادى كأنه لن يتراجع، وقال دون مراعاة لمشاعر جدي وهو ينفث دخان السيجارة من فمه على دفعات: «أليس كلامي صحيحًا؟ أنت نفسك تعرف ما الذي تفكر فيه، تشك في

أن المخصي أصيب بمرض غريب في أثناء سفره، وأنه شاذ، وأنه نقل المرض إلى ابنك بعد عودته. كنت دائماً تروج شائعة أن المخصي مارس الجنس مع عشيقتي، أو تقول إنه مقطوع العضو، وإن أعداد النساء اللواتي ضاجعهن في شبابه كافية لملء بضع حافلات، كنت دائم الحديث عن مثل هذه الأمور طوال الوقت، فقط لمجرد أنك لا تريد أن يعتقد الناس أنه شاذ. لم تخشى أن يفكر الناس على هذا النحو؛ لأنك أنت نفسك تفكر هكذا. أنت تعلم أكثر من أي شخص آخر أنه وابنك صديقان مقربان، لذا تشك أكثر من أي شخص آخر في أن هناك علاقة مشبوهة بينهما، تسعى لتفريقهما، لكن ضربهما وتوبيخهما لم يأت بفائدة، وعلمت أن ليس بإمكانك تفريقهما، لذا صرت أكثر شكاً. تشك في أن الآخرين أيضاً يشكون مثلك، لذلك أطلقوا عليه لقب النَمِرة. لقد فطن الأعمى الصغير إلى شكوكك، وعمد إلى نشر تلك الشائعة لجعلك تتأكد منها، ومن ثم ينتقم من عائلتك».

كان جدي صامتاً طوال الوقت، يستمع فقط، ثم سأل: «لم يريد أن ينتقم من عائلتنا؟».

ردَّ الشرطي العجوز بلا تردد: «اسأل ابنك أولاً، ثم اسأل نفسك، ماذا فعلتما به؟ لقد أذلتما أمام القرية كلها عند مدخل قاعة الأسلاف، فأنت من جلبت ذلك لنفسك».

قال جدي: «كنت ألقنه درساً بسبب نشره الشائعات في القرية من قبل».

قال الشرطي العجوز: «أريدك أن تسأل ابنك أولاً عن الجرم الذي اقترفه».

ثم طلب مني أن أحضر مزيداً من الماء، واستمر يتحدث إلى جدي ويقول بصوت أجش لكنه حاد النبرة، كان يوسعي سماعه بعد خروجي من القاعة: «بالرغم من أنني لم أرَ أو أسمع شيئاً، فإنني أتوقع، بناءً

على شخصية ابنك الذي يصفونه بالنمرة، أنه انتقم من الأعمى الصغير. اللعنة، لقد حوّل هذا الأعمى الصغير صديق ابنه المقرّب إلى مجرم، ولم يعد بوسعه العودة إلى منزله، فهل كان ابنك ليتركه بلا عقاب؟ لا بد أنه انتقم. لا أعرف كيف انتقم، لكن لا بد أن انتقامه كان شديداً، لدرجة أنه جعل الأعمى الصغير يكرهه حتى الموت، ويسعى للانتقام منه. لكنه الآن صار عاجزاً... ولا يستطيع أخذ حقه بذراعه، فكيف له أن ينتقم؟ إذن، وضع هذه الخطة، ولعب على وتر شكوكك، وجعل المخصي شاذاً. وفي حال كان المخصي شاذاً، فمن الشخص الآخر؟ بالطبع إنه ابنك. حتى الأطفال يستطيعون استنتاج ذلك. لو أرد أهل القرية أن يعثروا على شريك المخصي في الشذوذ، فلن يكون هناك شخص آخر سوى ابنك. الأدهى من ذلك أنك ذهبت لاستفزازه، فأجبرته على نشر الشائعات أكثر، وهو ما زاد حدة الشائعات، فصار الوضع على ما هو عليه الآن، بات معلناً تماماً، بالحقائق والأسماء، بحيث يصدقها الجميع، ويجعلك تفضل الموت على ذلك الخزي والعار. يمكنني القول إنه لو لم آت إليك اليوم لكنت قد مت، لأن هناك شكوكاً تعتصر قلبك، وبقوة تفوق أي وقت مضى، تأكلك حياً، أليس كذلك؟ لكنك خُدعت أيها العرّاف العجوز، لست ذكياً بما فيه الكفاية، على الأقل في هذه المسألة، كنت دائماً تحت سيطرة الهواجس، وأنا هنا اليوم لطردها من أجلك».

أراد الشرطي العجوز أن يدخن، فأخرج سيجارة، لكنه سرعان ما أعادها إلى جيبه، ثم قال لجدي بملامح صارمة: «لَمْ أدخن من سجائري وأنا هنا لمساعدتك؟ أعطني علبة سجائر».

كنت أعرف مكان السجائر، في طاولة السرير. وعندما رأيت أمارات الموافقة على وجه جدي، أخرجت علبة وأعطيته إياها.

بينما كان الشرطي العجوز يفتح علبة السجائر ويخرج سيجارة ويضعها في فمه ويُشعلها، سأله جدي بتردد: «هل تقصد.. أن ما قاله الأعمى الصغير.. ليس سوى شائعات؟!».

نفث الشرطي العجوز الدخان وقال: «أنا متأكد!».

وبفضل نبرته الواثقة، جلس جدي بشكل أكثر استقامة، ونظر إلى الشرطي العجوز بلهفة، وقال بتردد: «لكن هناك كلمات موشومة على بطنه بالفعل»، كان يقصد العقيد بالطبع.

ردَّ الشرطي العجوز: «دعك من البطن، فأنا لن أصدق ذلك، حتى إن كانت الكلمات موشومة على جبهته».

سحب نفساً من سيجارته، وتوقف لحظة، ثم تابع: «أنا أصدق أن هناك كلمات موشومة على بطنه، لا بد أنها ليست تلك الكلمات التي ردها الأعمى الصغير. قد أصدقك لو قلت إن أحدهم نهض خارجاً من التابوت بعد موته، وقد أصدقك لو قلت إنني سأذهب إلى العالم السفلي بعد الموت وستلتهمني مجموعة من الأشباح الإناث حياً؛ باختصار، يمكنني تصديق أي شائعات أخرى تختلقها، لكنني لن أصدقك لو قلت إن المخصي شاذ. لا شيء يضاهي صدق تجربتك الشخصية، لذا سأخبرك اليوم قصة عن المخصي شهدتها بنفسي. لو لم أكن على وشك الموت لما حكيتها لك، ولو علم المخصي أنني أخبرتك إياها لقطعني إرباً».

(52)

بالطبع لا يمكنهما تركي أستمع إلى مثل هذا الحديث السري، لذا طلب مني الشرطي العجوز المغادرة. لكن المطر يهطل في الخارج، وليس هناك مكان يمكنني الذهاب إليه، لذا طلب مني الصعود إلى القاعة الفرعية بالطابق العلوي، فهناك لن أتمكن من سماعهما. صعدت إلى الطابق العلوي بهدوء، ووصلت إلى القاعة الفرعية، ثم خلعت حذائي، وتسليت بهدوء مثل القطة، ودخلت إلى الغرفة الجانبية بالطابق العلوي. كانت أرضية الغرفة مصنوعة من ألواح خشبية قديمة، أشبه بوجه امرأة عجوز، تتخللها أماكن غائرة وأماكن متجعدة. عندما وقفت هناك، كان بإمكانني سماع صوت الشرطي

العجوز، وعندما استلقيت على الأرضية، كان بإمكانني سماع تهديدات جدي. باختصار، كان بوسعي سماع كل الأصوات بوضوح. أنت تعلم أنني أحب سماع القصص المرتبطة بالعقيد أكثر من أي شيء آخر. والآن لاحت لي الفرصة لأستمع إلى إحداها، ويبدو أنها قصة محظورة، فصار الأمر أكثر إغراء! وبالطبع لن أفلت فرصة كهذه، فاستلقيت على الأرض أتصّت. كانت مياه الأمطار قد تجمّعت حينها على جوانب السقف، وتدفقت إلى المواسير لتسيل وسط الفناء، مُحدثّة صوت خرير. وحتى إن تقلبت بجسدي على الأرضية، فلن يسمعاني، وما دمت لا أعطس، فلن يعرفا بوجودي.

بالمقارنة مع أسلوب جدي في سرد القصص، كان أسلوب الشرطي العجوز في سرد القصص يتميز بالإسهاب في عنصرين والاقتضاب في عنصر واحد؛ يسهب في الهراء والكلمات البذيئة، ويقتضب في ذكر الأعوام والتواريخ. عندما يتحدث عن الأعوام، لا يذكر في أي عام حدثت الواقعة، فقط كان يقول «في ذلك العام». كان حديثه مشوشاً مثل شخصيته تماماً. لحسن الحظ، كنت قد سمعت ما يكفي من قصص العقيد من قبل، لذلك كنت على دراية بتواريخ بعض الأحداث، فأدركت على الفور أن القصة بدأت في العام الذي جاء فيه العقيد حاملاً صندوقاً ممتلئاً بالذهب والفضة والمجوهرات ثم عاد به ثانية. في ذلك الوقت، كان الشرطي العجوز في أوج سطوته، يعيش في منزل كبير أمام بوابته أسدان حجريان، ولديه كلب أصفر كبير مربوط بسلسلة حديدية عند الباب. كان الكلب الأصفر يهز ذيله عند رؤية أصدقاء الشرطي العجوز، وينبح على الغرباء، تماماً مثل جرس الباب، حينها كان حارس البيت يخرج ليستطلع الأمر. هذا الحارس كان من أبناء القرية، ويعرف العقيد. دار حوار بين الحارس والعقيد، أخبره الحارس أن الشرطي العجوز يُكن له كراهية شديدة، ونصحه بالعودة حتى لا يجلب المشكلات لنفسه. تجاهل العقيد النصيحة واقتحم المكان، فوقع سجال بينه وبين الشرطي العجوز.

سخر منه الشرطي العجوز، وقال: «ماذا تفعل هنا، هل جئت بحثاً عن امرأة؟ لديّ نساء كثيرات، لكني أخشى أنك قد صرت عاجزاً، فقد سمعت أنك تعرضت للإخصاء».

قال العقيد: «لا تلوّث سمعتي. جئتُ إلى هنا بنية حسنة لأسدد ديني. غادرتُ على عجلٍ في المرة السابقة، ولم تُتَح لي الفرصة لسداد الدين، اليوم أنا هنا لأسدده».

قال الشرطي العجوز: «تسدد دينك؟ هل تستطيع سداده؟ أنت مدين لي بحياتك وليس بالمال».

ضحك العقيد وقال: «أنا لا أدين لك بحياتي، أنا فقط مدين لك بامرأة».

قال الشرطي العجوز: «لا تتس من هو صاحب السلطة الآن، أنا رئيس الشرطة هنا، ولو اقتدتك إلى مركز الشرطة في المحافظة، فسوف يُحكم عليك بالإعدام».

في ذلك الوقت، كانت محافظتنا تحت سيطرة اليابانيين الملاحين، وكان الشرطي العجوز جاسوساً لهم، لذلك كانت لديه سلطة تسليم العقيد إلى اليابانيين.

قال العقيد: «لو كنت من هذا النوع من الأشخاص، فأنت من يدين لي بحياته، ويجب أن أقص منك».

في ذلك الوقت، كان العقيد يعمل عميلاً سرياً برفقة العميلة السرية في شنغهاي، ومهمته الرئيسية هي التخلص من الخونة.

أخرج العقيد سبيكة ذهبية من جيبه، ثم ألقى بها على الطاولة وهو يقول: «لقد جئت للاعتذار لأنني اعتقدت أنك لست خائناً. هذا ذهب حقيقي، يكفيك لجلب سفينة محملة بالنساء».

كانت السبيكة بطول ثلاث بوصات وارتفاع بوصتين، تتوهج فوق الطاولة مثل كرة من النار، فانعكس بريقها على سطح الطاولة المعتم.

نظر الشرطي العجوز إلى السبيكة، وبدأ لعبه يسيل كالنافورة. لكن في ذلك الوقت كانت كرامته أهم بالنسبة إليه، بل أكثر قيمة من الذهب. أخذ ينظر حوله، يشعر بالرغبة في أخذ سبيكة الذهب، منتظرًا أن يلح عليه العقيد لأخذها، فلو ألحَّ عليه العقيد بكلمة واحدة سيكون مستعدًا للتخلي عن كبريائه وأخذها. لم يفهم العقيد ما يفكر فيه الشرطي العجوز، لذلك استدار وغادر دون أن يلح عليه بكلمة واحدة. كان القصد الأصلي للعقيد هو أن يحفظ للشرطي العجوز ماء وجهه، لكن الشرطي العجوز أساء فهمه، معتقدًا أن العقيد يحاول التباهي بثروته وقوته أمامه، فشعر بأنه أهان كرامته، وأمسك بسبيكة الذهب وألقاها في ظهره وهو يطلق نحوه وابلًا من السباب واللعنات مثل مدفع رشاش.

ارتدت سبيكة الذهب من كتف العقيد وتدحرجت على الأرض. تحمّل العقيد الألم، ثم التقط سبيكة الذهب، وأعادها إلى جيبه، وأخرج مسدسًا أسود لامعًا، ثم دفع الشرطي العجوز إلى الزاوية، وسبّه وهو يقول: «هل تريد الموت؟ لو قطعت رأسك وسلّمت لرؤسائي فسأحصل على ترقية، فأنا الآن من رجال الجنرال داي، ومهمتي هي القضاء على الخونة أمثالك».

عندما سمع الشرطي العجوز صوت ضغط العقيد على زناد البندقية، شعر أن ساقيه لا تقويان على حمله. فكّر في نفسه أن شخصًا مثل العقيد عانى الإذلال والمهانة لا بد أن يكون محملاً بروح الانتقام، فهذا العقيد أصبح الآن مثل الكلب المقطوع الذيل، أعضاؤه التناسلية مقطوعة، وقلبه ينضج بالحقد، ولا ينبغي أن يستفزه. كان الرعب يغمر قلبه، لكنه تظاهر بالتماسك وصاح فيه:

«أنت مدين لي بامراة، لم تعطيني هذا الشيء؟ هذه إهانة لكرامتي، لو كنت صادقًا في سداد دينك كما تقول، فعليك أن تعوضني عن المرأة التي اختطفها مني».

كان هذا هجوماً وتراجعاً في الوقت نفسه، فالكرامة لا قيمة لها حال واجه الشخص مسألة الحياة والموت.

وضع العقيد مسدسه جانباً وأخرج سبيكة الذهب ولوّح بها أمامه وقال: «إذا كنت تريد النساء، اتبعني، وسأضمن لك أن تحظى بعدد كبير من النساء، جميعهن أصغر وأجمل من عشيقتك السابقة».

«أتبعك إلى أين؟»

«إلى شنغهاي الكبرى».

بدا كأنه كلام على سبيل المزاح، لكن كل كلمة قالها العقيد كانت أكثر واقعية من الأخرى. شعر الشرطي العجوز كأنه قد عاد إلى طفولته، عندما كان في السابعة أو الثامنة من عمره، يستمع إلى القصص ويتفاجأ مما يسمعه. تراءت أمام عينيه من وقت إلى آخر مشاهد العالم الملون الذي يعج بعربات الترام الصاخبة، والمباني ذات الطراز الغربي التي تعانق السماء، والأضواء الملونة الباهرة، وأعداد الناس التي تفوق أعداد النمل، والأموال المتناثرة كالحصى، والحدائق الشاسعة كالحقول، والنساء اللواتي تفوق كل منهن الأخرى جمالاً وسحراً. عالم ساحر كأنه لوحة فنية. في أثناء النهار، يمكن الذهاب إلى السينما أو التنزه في الحدائق، والجلوس على أي مقعد أو أريكة هناك. وفي الليل، يمكن الذهاب للرقص، وأماكن التدليك، والاستحمام. هناك مراوح كهربائية حال كان الجو حاراً، وسخانات كهربائية حال كان الجو بارداً. باختصار، ما دام لديك المال والسلطة والسلاح والجرأة، يمكنك أن تعيش حياتك منعماً كما يحلو لك.

كان المطر يزداد غزارة في الخارج، فتنهّد الشرطي العجوز وقال لجدي: «أغراني بالذهاب معه بالفعل. وفي اليوم الثالث، التقينا عند جسر يانغتشيواو في منتصف الليل. سار في المقدمة، وسرت خلفه أتبعه كظله، عبرنا الجسر وانطلقنا في طريقنا. لم يعلم أحد بأمرنا، وربما كان كلبي الأصفر هو الوحيد الذي خَمَّن أنني مسافر إلى مكان بعيد. فعندما رأيته أعبّر الجسر، أخذ ينبح بلا توقف، كأنه يطلب مني العودة».

وفقاً لحساباتي، كان ذلك في خريف العام الثلاثين لقيام جمهورية الصين، أي عام 1941. وبحلول الشتاء التالي، اندلعت حرب المحيط الهادئ بين الولايات المتحدة واليابان، واحتل اليابانيون الملاعين مدينة شنغهاي. في ذلك الوقت، كانت شنغهاي لا تزال ترزح تحت وطأة الامتيازات المختلفة المتشابكة لدول من مختلف أنحاء العالم، وتضم أناساً من الأعراق جميعها يعيشون معاً، وقوى مختلفة تتناحر بينها. كانت المدينة تعج بكل أصناف البشر؛ لصوص، عاهرات، جنود، قطاع طرق، عصابات، الحكومة العميلة، منظمات سرية، خليط من كل أنواع البشر، يقتتلون، ويعريدون، ويمارسون الزنا والمقامرة. كانت المدينة غارقة في الفوضى، والصخب، والروائح المخلطة، خاصة المنطقة المحيطة بشارع يويوان، حيث لا يوجد قانون أو نظام، وهناك الحانات والمقاهي والمطاعم المنتشرة في كل مكان في الشارع، كانت كالغابة البرية، في الوقت نفسه، تجد فيه الأبطال، والجنباء، والشياطين، والوحوش، والباعة المتجولين، وأشكال الحياة كلها، والموت أيضاً، يستشري فيه الجمال والقبح بطريقة جنونية، لا يمكن كبجها.

سار الشرطي العجوز الذي لم يكن عجوزاً حينها خلف العقيد الشاب وقتها، عبرا الجبال والتلال، وركبا القوارب والسيارات والقطار مدة يومين وليلتين. في الصباح الباكر من اليوم الثالث، استقلا عربة ريكشا أوصلتهما في النهاية إلى شارع يويوان البارد الصامت وسط ضوء الفجر ورذاذ المطر المتساقط. اختفت عربة الريكشا عند زاوية الزقاق بعدما أنزلتهما، وكأنَّ نهاية الزقاق ابتلعتها. أخذ الشرطي العجوز الذي وصل للتو ينظر حوله في ذهول، فاكتشف أن الأزقة هي في الأصل داخل حارات، والحارات الخارجية هي في الأصل داخل حارات داخلية، وكأنها

ممرات سرية ممتلئة بالالتواءات والانعطافات، ونهايات مسدودة وأخرى متصلة. كانت هناك أبواب ومنافذ على أطراف الأزقة، ولكن لا توجد أصوات أو آثار بشر، تمامًا مثل منزل مهجور. كان ضوء الفجر ضعيفاً في البداية، محجوباً من اليمين واليسار، مضغوطاً وسط المساحات الضيقة، ولم يتبق منه سوى بعض خطوط الضوء. وفي نهاية الزقاق، يبرز نصف شجرة برنيق من خلف الجدار، ولأن الوقت كان موسم الإزهار، تسببت تلك الليلة الممطرة في تساقط أسدية الزهور في كل مكان، وصارت تلتصق بالأحذية. توقفت عربة الريكشا أسفل الشجرة. نزل الشرطي العجوز من العربة، فرأى لافتة خشبية معلقة أمام الباب. كانت هناك علامة «+» حمراء في الأعلى وكلمتان باللون الأسود في الأسفل: «عيادة خاصة» فعلم أن هذا مكان مخصص للفحص وعلاج الأمراض.

قال الشرطي العجوز: «لقد جئت من أجل النساء، وليس من أجل العلاج».

أوضح العقيد يقول: «لنسترح أولاً، وسوف آخذك إلى النساء في المساء».

ترك له العقيد حفنة من العملات المعدنية، وأخبره عن مكان متجر المواد الغذائية، ومكان الحمام، ومتى سيأتي لاصطحابه إلى مكان النساء. وبعد أن انتهى من تلك التعليمات، عاد واستقل عربة الريكشا، ثم اختفى في غمضة، ولم يبقَ إلا الزقاق المظلم الفارغ مثل ثقب أسود بلا قاع. كان هناك سرير مرتفع داخل العيادة. أكل الشرطي العجوز ونام، ثم استيقظ وأكل ثانية، وحلم مرات عدة أن العقيد جاء ليأخذه، لكن الوقت المحدد مضى دون أن يأتي العقيد، ما جعله يشعر بالقلق الشديد، لدرجة أنه عانى الكوابيس. عندما استيقظ من الكابوس، جاء العقيد وقد تغيرت هيئته تمامًا، كان يرتدي قبعة من الصوف بلون البشرة البني، وخذاءً جلدًا أسود، وبدلة بيضاء. وبين إصبعي إحدى يديه قطعة تبغ

جاف سميكة، كان ذلك سيجاراً في الواقع، وفي يده الأخرى صندوق من الخيزران المطلي. عندما فتح غطاء الصندوق، رأى طقمين كاملين من الملابس. وبعد أن ارتدى الشرطي العجوز تلك الملابس، تغيرت هيئته تماماً، وصار مثل العقيد، يرتدي أيضاً بدلة وربطة عنق وقبعة. نظر الشرطي العجوز إلى الملابس التي خلعها، وإلى ملابسها التي ارتداها، فبدأ في حالة ذهول، كأنه غير قادر على الحركة، كما لو أن روحه لا تزال قابعة في ملابسها القديمة. علّمه العقيد كيف يمشي، وأن يسير رافعاً رأسه، وصدره منتفخ، وبطنه مشدود، وساقاه مستقيمتان، وكعباه يلمسان الأرض أولاً، وعيناه تنظران إلى الأعلى.

لكن مهما كرّر العقيد تعليماته، لم يتقن الشرطي العجوز تلك المشية، لو التزم بأحد التعليمات كان يخالف الآخر، وهو ما أغضب العقيد وأضحكه في الوقت نفسه. وأخيراً، اضطر العقيد إلى مناداته بلقب «كبير الشرطة» مرتين باللهجة المحلية، وكرّر نصائحه:

«تذكّر أنك كبير الشرطة، عليك أن تعدّ هذا المكان قريتك، والمرأة التي ستقابلها عشيقتك، ولن تجرؤ على عصيان أوامرك».

وبهذه الطريقة، صارت الأمور أسهل قليلاً، وأصبح جسده أكثر استقامة، وخطواته أكثر ثباتاً، وأصبحت نظراته أكثر حدة. وعندما رأى العقيد أن الأمور صارت أفضل، سار به نحو عربة الريكشا التي تنتظر عند الباب. كانت السماء قد صفت حينها، وسطع ضوء القمر على شجرة البرنيق، ليخلف أسفلها ظلاً أسود ضخماً، كأنه ليس ظلاً، بل بركة من الماء.

سلكت عربة الريكشا الطريق نفسه، لكن الطريق لم يعد نفسه كما كان في المرة الأولى، فالأبواب والنوافذ التي كانت تبدو كأنها منازل مهجورة في المرة السابقة، صارت مضاءة من الداخل، وكان شخص يطبخ على الموقد عند الباب، وآخر ينادي ويشتم من خلف النافذة، واختلطت

ظلال الناس وأصواتهم معاً بشكل فوضوي، وامتلاً الهواء برائحة الدخان والطعام. وكلما سارت العربية نحو الخارج، صارت الأضواء أكثر سطوعاً، وظهرت مزيد من المتاجر، وازدادت أعداد الناس والعربات (الريكشا)، وصارت الروائح والأدخنة أكثر كثافة وعبقاً. بعد الخروج من الزقاق، كانت أضواء النيون تتلألأ على طول الطريق، كانت شديدة السطوع، لدرجة تجعل المارة يصابون بالدوار والإثارة. كانت الشوارع مزدحمة بالناس والمركبات، والأصوات المحيطة أشبه بالمد والجزر، تندفع في موجات متتالية، كانت فوضوية وغير فوضوية في الوقت نفسه. منافذ المتاجر على كلا الجانبين مضاءة بشكل ساطع، وتحتوي على أصناف الحياة اليومية وضرورياتها كلها، بدءاً من الطعام والشراب وصولاً إلى الملابس والمستلزمات الأخرى، كلها معروضة بطريقة مغرية، وكأنها تنتظر منك أن تمد يدك لتأخذها، ولكنك لا تستطيع لمسها لأن هناك حاجزاً زجاجياً يفصلك عنها. نعم، كان هناك كثير من الزجاج! وكثير من الأضواء! كما لو أنَّ كل كميات الزجاج والأضواء في هذا العالم قد تجمَّعت هنا. لم يسعف الوقت الشرطي العجوز لمشاهدتها كلها، فعيناه وقلبه كانت غارقة في حالة من الفوضى.

تحركت عربية الريكشا إلى الأمام، يرافقها ذلك الشعور بالفوضى على طوال الطريق. في البداية، كان الشرطي العجوز يشعر بالفضول والإثارة، ولكن بعد ذلك شعر بحزن مبهم، وبالوحدة والهجر، كما لو أنه يُساق إلى ساحة الإعدام. بدا كأنَّ السائق قد فهم مُرادَه، فأبطأ سرعته، ثم استدار ودخل إلى الزقاق، فاختفت الأضواء والفوضى فجأة. كان الزقاق حديث البناء، أكثر اتساعاً من الزقاق الذي خرجا منه للتو، وهناك جدران عالية عديدة على كلا الجانبين، بعضها مغطى باللباب الكثيف، وبعضها محاط بأزهار الدفلي، وبعضها ملفوف بالأسلاك الشائكة. باختصار، كان هادئاً تماماً. معظم أبواب الأفنية المفتوحة على جانبي الزقاق أبواب

حديدية كبيرة ومغلقة بإحكام، وبعضها أمامه مواقع حراسة، ما يعني أنها مغلقة بشكل أكثر إحكامًا، الطريقة الوحيدة لفتحها هي استخدام السلاح. بمعنى آخر، كان الجدار والباب كقطعة واحدة، وهو ما زاد الشعور بالهدوء والهيبة.

لم يكن هناك مارة كثيرون، فزادت عربة الريكشا سرعتها. سمع الشرطي العجوز صوت احتكاك وصوت صفير، صوت الاحتكاك هو صوت احتكاك عجلات عربة الريكشا بالأرض، وصوت الصفير هو صوت الريح وهي تصطدم بسقف العربة. وفي الوقت نفسه، كان الشرطي العجوز يتساءل في قرارة نفسه: هل هذا مكان نبحت فيه عن النساء؟ هذا المكان يشبه إلى حد كبير مكانًا للحبس الانفرادي، الناس في الداخل سجناء المال والسلطة، وهناك من يحرسهم ويحميهم ويرعاهم، تمامًا مثل الحيوانات الأليفة. ولحسن الحظ أن العلاقة بينه وبين العقيد وصلت إلى أفضل حالاتها في اليومين الماضيين، وصارا صديقين وحليفين، كما أن طريقة تعامل العقيد معه كانت كافية لجعله يثق به ويتبعه دون تردد، وإلا لكان قد فرَّ عائدًا. كان الزقاق عميقًا، وواسعًا، ومحكم الحراسة، حتى أنه جعله يشعر بالغربة والغموض، فهو لا يعلم إلى أين هو ذاهب، ولم يعد الأمر يبدو كأنه ذاهب للبحث عن النساء، بل كأنه ذاهب لمقابلة أشباح أو مصاصي دماء سيعضون رقبتَه ثم يمتصون دماءه ويلعقونها عن آخرها بألسنتهم الدافئة الناعمة. يُقال إن هذا شعور ممتع، فقد سمع البعض يقولون هذا من قبل.

قال الشرطي العجوز لجدي: «أنت تعلم أنني كنتُ جاسوسًا لليابانيين آنذاك. وبالرغم من أنني لم أكن أتعامل مع اليابانيين الملاحين مباشرة، فإنني سمعتُ عنهم أكثر من غيري. يُقال إن بعض النساء اليابانيات متخصصات بهذا النوع من الأفعال الشنيعة. يموت رجالهن في ساحات المعارك، ويتركون لهن ثروة طائلة ومكانة مرموقة. لذا لم يَكُنَّ يفعلن أي

شيء سوى الأكل والشرب واللهو، بالطبع كانت رغبتهن الأكبر هي اللهو مع الرجال. وكما يقال، لا شيء ألد من الأرز المنقوع في ماء الشاي، ولا شيء أمتع من المجنون الجنسي. أيها العرَّاف العجوز، أنت لم تجرَّب هذا من قبل، لكنني جرَّيته. ذهبتُ إلى شنغهاي خصوصًا لأجرِّيه، وفي النهاية جرَّيته حتى الإشباع. لكن هذا النوع من عضِّ الرقبة ومص الدماء لم أجرب مثله من قبل، لا أجرؤ على ذلك أصلاً. هل تعلم من الذي يجرؤ على ذلك؟ إنهم اليابانيون الملاعين فقط! لم يُسمون بالملاعين؟ لأنهم ليسوا بشرًا، بل شياطين. منذ العصور القديمة، هل سمعت يومًا عن بشر ينتهكون أعراض النساء كما فعلوا؟ بدءًا من الفتيات الصغيرات في سن السادسة أو السابعة وصولاً إلى السيدات العجائز في الستين أو السبعين، في وضوح النهار، أو في الشوارع، في أي مكان، وفي أي وقت، ومع أي شخص، هم فعلاً أسوأ من الحيوانات. لقد رأيتهم بأم عيني في المدينة، إنهم حقًا عديمو الخجل والكرامة. وماذا عن النساء اليابانيات؟ إنهن أكثر رعبًا! لقد قلت للتو إن بعضهن متخصصات بذلك، يعرضن رقبتك ويمتصصن دمك. إذا سئمن منها يومًا، فسوف يمتصصن دمائك عن آخرها، إنه أمر مرعب حقًا».

وعند التفكير في هذه الأمور، شعرت بأن الشياطين والوحوش تطارد عربة الريكشا. كلما أسرع عربة الريكشا، طاردوها بشكل أسرع، أسرع من الريح السوداء، وكلما كان الزقاق أعمق، اختبؤوا في أماكن أعمق، أعمق من المجاري. كانوا منتشرين في كل مكان، على الجدران، في زوايا المنازل، بين الأغصان، وسط الزهور، في المزاريب، ألسنتهم القرمزية تبرز في كل مكان، مستعدون للانقضاض عليك من الخلف في أي وقت، ليعضوا رقبتك مثل الذئب الشرسة. عند التفكير في هذه الأمور، بدأ الشرطي العجوز يشعر بانعدام الثقة تجاه العقيد، لدرجة أنه ظن أنه مخصي بالفعل، لذلك لا سبيل لديه للحصول على المتعة إلا بتركهن

يعضضن رقبتة. وعند التفكير في هذا الأمر، فقد الشرطي العجوز ثقتة بالعقيد بشكل أكبر، وزادت حدة مخاوفه.

استمر الشرطي العجوز يُحدث جدي قائلاً: «إلى أي درجة كنت خائفاً؟ عندما توقفت السيارة أمام بوابة الفناء، شعرت بساقيّ طريتين لا تقويان على حملي، وكأنني أدوس على قطن. والأكثر رعباً هو أنني شعرت أن ما بين فخذي صار فارغاً، وأن خصيتي قد اختفتا، وذلك الشيء قد انكمش كراس سلحفاة، وصار بحجم نصف إبهام فقط، وبدا كأن من المستحيل تقريباً تحسّسه من خارج سروالي. فكما تعلم، هذا الشيء هو الأكثر جُبناً من بين بقية أعضاء الجسد، عندما يخاف الشخص، يكون هو دوماً أول من يشعر بالخوف».

(54)

كان السور بارتفاع المنطقة المحيطة به نفسه تقريباً، وبوابات الأسوار كانت متشابهة في الحجم تقريباً، باباً مزدوجاً طويلاً وعريضاً وممتيناً. وبالرغم أنها بوابات خشبية وليست حديدية، فإنها سميكة للغاية، ومطلية باللون الأحمر الفاقع. هناك مقبضان سوداوان على شكل رأس أسد مثبتان على البوابة، تتدلى منهما حلقتان، مثل خرزتين سوداوين ضخمتين تستطيع رؤية العالم من خلالهما. ولأن الوقت كان ليلاً لا يتخلله سوى ضوء القمر، لم يلاحظ العقيد الذعر الذي أصاب الشرطي العجوز. بعد أن دفع العقيد الأجرة، استدار وطرق الباب. طرق على رأس الأسد مرتين باستخدام الحلقة، ثم توقف، ثم كرّر ذلك مرة أخرى، وكأنها إشارة سرية. انفتح الباب من الداخل بانفراجة صغيرة تكفي لرأس إنسان، وأطل من خلفه رأس أصلع. عندما رأى ذو الرأس الأصلع أن الطارق هو العقيد، فتح الباب على الفور وسمح لهما بالدخول، ثم انحنى بجسده ترحيباً بالعقيد، تماماً كما كان الشرطي العجوز ينحني أمام اليابانيين عندما يذهب إلى المدينة.

لم يكن الفناء في الداخل كبيراً، فيه طريق في المنتصف مرصوف بالحجر الأسود، وهناك صفان من أشجار الهولي المقلمة بدقة على كلا الجانبين، وفي نهاية الطريق يوجد حوض زهور كبير، وخلفه شجرة ماجنوليا عريضة الأوراق، وعلى جانبي الشجرة يوجد مبنيان على الطراز الغربي، أحدهما كبير والآخر صغير، الكبير يتكون من ثلاثة طوابق والصغير من طابقين. كانت الشجرة أعلى من الطوابق الثلاثة، وفروعها وأوراقها الخضراء تحجب السماء، والفناء بأكمله مغطى بضوء القمر، فبدا صغيراً للغاية. كانت الأضواء مشتتة داخل كلا المبنيين، والنوافذ الكبيرة تجعلهما يبدو أن أكثر إشراقاً. اصطحب العقيد الشرطي العجوز، ودار به حول حوض الزهور وكأنه يعرف المكان جيداً، ثم توجه مباشرة إلى المبنى الكبير ذي الطوابق الثلاثة.

وكان من داخل المبنى تلقوا إشعاراً بوصول العقيد والشرطي العجوز، فما إن وصلا أمام المبنى، وكانا على وشك الصعود إلى الدرج، حتى أضيء صف من الأضواء عند الباب بشكل متتابع مثل الماء المسكوب، فغطى الدرج بأكمله أمامهما. وفي الوقت نفسه، ترامى إلى مسامعهما صوت رنان يقول مازحاً: «يا إلهي، أين كنت؟ لقد مر أكثر من عشرة أيام، ظننت أنك ألقيت بنفسك في نهر هوانغبو».

كان الصوت رناناً لامعاً كضوء القمر الساطع، صاحبة الصوت هي صاحبة المكان، وهي مديرة هذا المبنى الممتلئ بالعاهرات، والمعروفة باسم القوادة. الناس هنا ينادونها الأم الصغيرة، تضع على وجهها مكياجاً وهو مسحوق وردي وأبيض. تقصد بهذا المكياج الثقيل أن تخفي عمرها عن الآخرين، لكنها كانت تكشف جسدها كاملاً أمامهم. ترتدي ملابس خفيفة، شفافة، ينفذ الضوء من خلالها، ويكشف عن لحمها الأبيض ومنحنيات جسدها، ويكشف أيضاً عن جراتها ومجونها. عندما دخل من الباب، كانت هناك قرابة ثمانين أو تسعين امرأة داخل القاعة الرئيسة،

منهن الواقفات، والجالسات، والمستلقيات، يملأن المكان، على الأرائك، أو على الدرج، أو أمام طاولة الشاي. كانت كل واحدة منهن نسخة طبق الأصل من تلك الأم الصغيرة، يرتدين ملابس خفيفة شفافة، ويضعن مكياجاً ثقيلاً، يكشفن عن مفاتهن. عندما رأوا العقيد، نادين بصوت عالٍ كما لو أنهن رأين والدهن، كن يطلقن عليه بالفعل اسم الأب الصغير، فالأب الصغير اسم يناسب الأم الصغيرة.

كان الأب الصغير مثل الأب بالفعل. فعندما دخل الغرفة، أخرج بإحدى يديه من جيبه حزمة من الأوراق النقدية، ثم خبط بها على يده الأخرى، وألقى بها على طاولة الشاي، ثم أدار رأسه وقال للفتيات من حوله: «لكل واحدة منكن نصيبها».

تسبب هذا في صراخ هؤلاء الفتيات الثمانين أو التسعين وصيحاتهن في الوقت نفسه، وتعالّت ضحكاتهن وقهقهاتهن، وركضن لأخذ المال، وكأن حريقاً دبّ في القاعة.

تنهّد الشرطي العجوز وقال: «آه، ذلك الأسلوب، وتلك الهيبة، لا يمكنك تخيلها، ولا يمكنك فهمها. هذا الشخص ليس هو النجار الصغير الذي كنا نعرفه أنا وأنت! وهذه ليست هيبة قائد كتيبة أو قائد فوج، فقيادة الكتائب أو الأفواج بالنسبة إليه ليسوا سوى جنود يعملون لخدمته! آه، في تلك الليلة، عشت حياة لم أر مثلاً من قبل، رأيت ما لا عين رأت، نساءً لم أرهن من قبل، وحياة لم أر مثلاً من قبل، عشتها بكل تفاصيلها، كان كل شيء كحلم في حلم».

بعدما وضع العقيد المال على الطاولة، اصطحب الأم الصغيرة والشرطي العجوز مباشرة إلى غرفة صغيرة مجاورة للقاعة. تلك الغرفة الصغيرة هي غرفة الاستقبال الخاصة بالأم الصغيرة، كانت الغرفة تعج بخليط من روائح النبيذ والعطور والمكياج والسجائر والأدوية، وبدت المرأة التي تعلو طاولة الزينة لامعة بشكل يوحي بالمجون. جلس العقيد

على الأريكة، وسحب الأم الصغيرة ثم ضمَّها بين ذراعيه، ودسَّ سبيكة الذهب التي رفضها الشرطي العجوز داخل صدرها الممتلئ. لفَّت الأم الصغيرة يديها حول رقبة الأب الصغير وسألته بغنج: «ماذا يعني هذا؟»، ثم سحبت كم قميصها الحريري الرقيق إلى الكتف، لتكشف عن زهرة الفاوانيا الموشومة قرب كتفها، فبدت بشرتها البيضاء المحيطة بالزهرة الحمراء مغرية للغاية.

تحدَّث العقيد وهو يبالغ، ووصف الشرطي العجوز بأنه أنقذ حياته قبل سنوات، وقال لها: «هذا مقابل خدمتك إياه!».

ضحكت ضحكة ماجنة وهي تتحني بجسدها، فتدلى ثدياها من قميصها، ثم تحدثت بغنج بلهجة شمال شانغهاي الناعمة: «يبدو أنك تريد أن تقضي عليه. أرى أنه قد تجاوز مرحلة الشباب والفتوة، فكيف سيملكه التعامل مع هؤلاء الفتيات المتمرسات؟».

قال العقيد: «لا تقلقي بهذا الشأن، فقط دعيه يستمتع كما يحلو له، فأنا مدين له بحياتي».

وبعدما أوصاها أن تعتني به كما ينبغي، جاء دور الأم الصغيرة لتمارس صلاحياتها في المكان، أخرجت ألبوم صور من درج طاولة الشاي، وتصفحته، وفتحته أمام عيني الشرطي العجوز وهي تقول: البضائع كلها هنا، مرقمة من 1 إلى 19، لكن لا يوجد فيها الرقم 4، أو 13، أو 14، بإجمالي 16 فتاة، ومع استثناء الرقم تسعة، فهناك خمس عشرة فتاة في المجموع، كلهن تحت تصرفك مدة شهر، وفي حال جاءت إلينا فتيات جديدات في منتصف المدة، فلديك الحق في الاستمتاع بهن أيضاً ما دام لديك الوقت والقوة لذلك. كل ما أخشاه هو أن تستنزف قواك بحيث لا تقوى على ذلك».

سألها العقيد: «لَمْ استبعدت الرقم 9؟».

أجابت الأم الصغيرة: «لقد تأكدت أنها مريضة».

قال العقيد: «لا بد من طردها، فبقاؤها هنا سيؤدي الآخرين».

قالت الأم الصغيرة: «لكني أنوي إبقائها هنا لتؤدي الآخرين».

قال العقيد: «أنت مذنبه لو فعلت ذلك».

قالت الأم الصغيرة: «كل من يأتي إلى هنا يأتي لارتكاب الذنوب».

في تلك الليلة، تناول الشرطي العجوز وجبتين خفيفتين، واستدعى خمسة أرقام. وعندما غادر في الصباح الباكر، استدعته الأم الصغيرة إلى المبنى المجاور ذي الطابقين لتناول الفطور، ثم شرعت تسأله عن أمور كثيرة: كيف تعرّف إلى العقيد، وما مهنته، ودخله، ومسقط رأسه، والفندق الذي يقيم فيه، وما إلى ذلك. أجابها الشرطي العجوز كما أخبره العقيد مسبقاً، بالطبع كلها كانت إجابات مختلفة دون أدنى قدر من الحقيقة. كانا يتحدثان بأصوات منخفضة للغاية، كما لو كانا لصوفاً. خمن الشرطي العجوز أن رجلها ينام في غرفة بالطابق العلوي، وربما يكون هذا الرجل هو العقيد.

عندما افترقا، أخبرت الأم الصغيرة الشرطي العجوز أن شخصاً في مثل سنّه يستدعي خمس فتيات لمضاجعتهن في ليلة واحدة إما جائع جنسياً وإما شره جنسياً، ولو استطاع الصمود على هذا النحو مدة ثلاثة أيام، فهذا يعني أنه مهووس جنسياً، وستتركه مضاجعها، وبلا مقابل أيضاً. ضحك الشرطي العجوز وقال: «كانت عاهرة كبيرة، تختار المهووسين جنسياً فقط. وهؤلاء الفتيات بمنزلة حقل تجارب لها».

غضب جدي وقال: «لم تخبرني بكل هذا؟ لا أريد سماع مثل هذه الأمور، فقط أخبرني الحقيقة».

وبخ الشرطي العجوز جدي قائلاً: «لكل خطأ فاعل، ولكل دين دائن، لا بد من تقشير القشرة طبقةً طبقة، وقول الكلام كلمةً كلمة. إن لم تستمع إلى هذا، فكيف ستفهم الحقائق؟ أنت لا تعلم مدى غرابة الحديث التالي، لو لم أعاينه بنفسي ما كنت لأفهمه أنا أيضاً».

لم أتمكن من فهم كل هذا. استدعى خمسة أرقام، ماذا يعني ذلك؟ ماذا يعني حقل التجارب؟ لم يجر اختيار الرقمين 4 و14 لأن الرقم «أربعة» وكلمة «الموت» متشابهان في النطق، وهو فال سيئ، لكن لم لم يُختَر الرقم 13؟ وأيضاً، ما المرض الذي أصاب الرقم 9؟ لا بد أن يكون مرضاً معدياً، اعتقدت أنه مرض السل. ولكن مرض السل مُعدٍ لكل من حولك، فكيف يمكن استغلاله على وجه التحديد لإيذاء الآخرين؟ لم أفهم كل ذلك. لم أفهمه على الإطلاق. بالطبع أكثر شيء لم أفهمه هو حالة العقيد. أليس المفترض أنه عميل سري في مكتب الاستخبارات العسكرية لديه رؤساء ومرؤوسين، وتنظيم تابع له، ومهمة يقوم بها- القضاء على الأشرار وقتل الخونة؟ كيف يمكن أن يكون ماجناً وغير منضبط إلى هذا الحد، لا فرق بينه وبين الصعاليك؟

(55)

«في أثناء هذا الشهر -استمر الشرطي العجوز يقول- كنت أمكث في عيادته في أثناء النهار، دون أن أفعل أي شيء، وبحلول الليل أذهب إلى هناك من أجل الطعام والشراب والمتعة. كان بإمكانني أن أطلب ما أريد من طعام وشراب، وبإمكانني أيضاً أن أطلب أي فتاة متى شئت. كانت حياتي منعمة لدرجة لا توصف، وكأنني أعيش في الجنة. نادراً ما كنت أراه، (والحديث هنا عن المخصي). يبدو أنه كان يتجنبني، وربما كان مشغولاً حقاً. ففي كل مرة نلتقي فيها، يكون في عجلة من أمره ويفادر حاملاً حقيبة- حقيبة الأدوات الطبية. كانت عيادته غريبة، كانت مغلقة معظم الوقت، ولكنها كانت مشهورة، ولا ينقطع توافد الناس عليها، أو قد يأتي البعض لاصطحابه معهم. هؤلاء الأشخاص، من يأتون إلى عيادته أو من يصطحبونه معهم، هم جميعاً أناس غير عاديين. بعضهم شديداً الشراء، وبعضهم مدججون بالسلاح، جميعهم من ذوي الجاه والمكانة.

بعض هؤلاء لم يكن يسمح لي برؤيتهم، لذلك كان يطلب مني المغادرة مؤقتًا، وبالنسبة إلى البعض الآخر ممن يسمح لي برؤيتهم، كنت أؤدي دور مساعده، مسؤولاً عن تقديم الشاي والماء، والترحيب بالضيوف وتوديعهم. معظم هؤلاء الأشخاص إما أغنياء وإما نبلاء، كانوا أسخياء للغاية، ويغدقون عليّ بكثير من المال.

وكما قلت للتو، كنت أقضي الليل كله هناك أكل وأشرب وأقضي أوقاتًا ممتعة. ماذا أقصد بالمتعة؟ أقصد الدعارة والمقامرة، فالدعارة والمقامرة مرتبطتان، وحيث توجد الدعارة يوجد القمار، وكان هذا سببًا في إدماني المقامرة. سارت الأمور بشكل غريب للغاية، ففي السنوات القليلة الأولى كنت أربح المال، ولكن بعد ذلك تعرّضت لبعض الخسائر الصغيرة، وفي النهاية -كما تعلم- فقدت كل شيء، وتشتت عائلتي. ما زلت أتذكر بوضوح، كان ذلك في شهر مايو من العام الأخير من حرب المقاومة ضد اليابان. رهنـت منزلي القديم في تايمـن، وقررت أن أقامر بكل ما أملك، لو فزت فسأستخدم المال لأحصل لنفسـي على وظيفة كبيرة في المحافظة، ولو خسرت فسأرمي نفسي في نهر هوانغبو. وفي النهاية، خسرت كل شيء، لكنني لم أجروء على أن أرمي نفسي في النهر، لذلك عدت خائبًا خالي الوفاض، وعشت لاحقًا مثل كلب ضال. هذا العالم غريب للغاية. كنت أكره اليابانيين من كل قلبي، ولكن يبدو أن قدرتي مرتبطـة باليابانيين. عندما نجحوا في غزوهم، كانت حياتي أفضل، وعندما هُزموا، ساءت حياتي. كانت حياتي أشبه بالمقامرة».

قاطعه جدي مرة أخرى: «لَمْ تتحدث عن هذه الأمور؟ أنا أعرفها كلها».

«نعم، أنت تعرف كل شيء». عاد الشرطي العجوز إلى النقطة السابقة وقال: «في أثناء النصف الأول من ذلك الشهر، استدعيت كل فتاة منهن مرات عدة، وفي النصف الثاني منه كنت أستدعي واحدة فقط، صاحبة

الرقم سبعة. كنت قد سئمت البقية، فقط كنت أميل إلى صاحبة الرقم سبعة، وكانت تميل إليّ أيضًا. الناس هكذا، لا بد من وجود التوافق، وكنا متوافقين للغاية. كانت الفتاة رقم سبعة هي التي جرّتني إلى طاولة القمار. كنت أقامر كل يوم، لو خسرت أتحمّل الخسارة كلها، وإذا ربحت نتقاسم الربح. ربحت بسببي كثيرًا من المال، لذلك كانت تعاملني بأفضل ما يكون. أعتقد أن القدر هو الذي جمعني بها.

حسنًا، الآن يمكنني أن أخبرك بالحقائق التي تريدها. كانت الفتاة رقم سبعة هي التي كشفت لي لاحقًا كثيرًا من الأمور التي تخص المخصي. في النصف الأول من الشهر، كنت قد استدعيت جميع الفتيات لمضاjectهن، وسألتهن جميعًا محاولاً معرفة بعض الأمور التي تخص المخصي، لكن لم تجرّ أي منهن على إخباري بمعلومة واحدة. من الواضح أن العاهرة الكبيرة (الأم الصغيرة) كانت قد أصدرت تعليمات صارمة لهن بعدم التحدث بأي شيء. وفي وقت لاحق، كانت الفتاة رقم سبعة تعاملني بشكل مختلف، وثقت بي، وبعد بعض الإلحاح والإغراء بالمال، بدأت تكشف لي بعض الأمور شيئًا فشيئًا. وبمرور الوقت صرت أعلم كثيرًا من الأمور، سأحكيها لك واحدًا تلو الآخر، كلها أمور غريبة وعجيبة.

في الأصل كانت العيادة التي يديرها المخصي مجرد غطاء، لكنه في الواقع كان عميلًا سرّيًا للكومينتانغ، يستخدم العيادة لإخفاء هويته. كانت رئيسته المباشرة هي إحدى المقرّبات من رئيس جهاز مخابرات الكومينتانغ الجنرال داي لي، كانت عميلة سرية في غاية الجمال، لكنها في غاية الشراسة أيضًا، وقيل أيضًا إنها كانت عشيقة الجنرال داي لي. ذات مرة أصيبت بجروح في مدينة نانجينغ، وأُرسلت إلى المخصي لعلاجها. لم ينقذ المخصي حياتها فحسب، بل أنقذ بشكل غير متوقع حياة جنينها أيضًا. وقد روى المخصي هذه القصة علنًا من قبل.

بالفعل، سبق أن سمعت العقيد يروي هذه القصة من قبل، جاءت إليه

امرأة مصابة بثلاث إصابات في الكتف والفخذ والبطن لإنقاذ حياتها، وكانت النتيجة أنه أنقذ حياة شخصين وليس شخصاً واحداً. لم تكن المرأة نفسها تعلم أنها حامل بجنين عمره سبعة أشهر. عندما استُخرج الجنين، كان حجمه بحجم قبضة اليد فقط، مثل القطعة الصغيرة.

«لاحظت تلك المرأة -يقول الشرطي العجوز- أن المخصي ذكي، وبارع، ويتحلى بمهارات طبية فائقة، لذلك استعانت بسلطة الجنرال داي لي لإحضاره إلى شنغهاي، وتدريبه ليصبح عميلاً سرياً رفيع المستوى. لمَ شنغهاي؟ لأنها تعرّضت لحادث في مدينة نانجينغ، وافترضت هويتها، فاضطرت إلى الانتقال إلى مكان آخر. لقد ذكرت هذا من قبل عندما عاد المخصي وصوّب مسدسه نحو رأسي وحذرنى قائلاً إن عمله الحالي هو قتل الأشرار والخونة. لكن أنا....».

نصحه جدي يقول: «لا تحدثني عما قيل من قبل، تحدث عما حدث في شنغهاي».

«شنغهاي؟»، انقطع حبل أفكار الشرطي العجوز فجأة، فأشعل سيجارة جديدة وتابع يقول: «حسناً، سأحدث الآن عن تلك العاهرة الكبيرة، أو الأم الصغيرة. كانت أكثر من مجرد عاهرة، كانت خائنة للوطن، الخيانة تجري في دمها، فهي تعمل قوادةً لخدمة اليابانيين. كانت تدير بيت دعارة هناك، وبيت دعارة آخر على بُعد ثلاثمئة متر، مفتوحاً خصوصاً لليابانيين. كان فخماً للغاية لدرجة تثير الحنق! سبق لي أن ذهبت لرؤيته، وبالطبع لم أتمكن من الدخول. فهناك رجلان ضخمان عند الباب، ومعهما كلاب حراسة وكلاب صيد. عندما تمر من هناك، ستتبع عليك الكلاب من على بُعد عشرات الأمتار، ولو لم تبتعد، ستركض كلاب الصيد وتعقرك، أو تركض كلاب الحراسة وتهبشك، لذلك كنت أشاهد من بعيد فقط. كل ما يدخل ويخرج سيارات وحسناوات. الجدران والأبواب والسقوف كلها مطلية بالذهب والفضة، بريقها يؤذي عينيك، ويحرق قلبك، ويصيبك بحقد خانق.

باختصار، كانت تلك العاهرة الكبيرة تدير بيتي دعارة سرّيين في الوقت نفسه، أحدهما يُستخدم لعمليات التجهيز والاختبار لخدمة الآخر. ما معنى هذا؟ يعني جمع الفتيات من كل حذب وصوب، ثم تجهيزهن وتدريبهن وتجربتهن وانتقاهن هنا أولاً، ثم إرسال الأفضل منهن إلى اليابانيين، والاحتفاظ بالبقية على سبيل الاحتياط. والمقصود بالتجهيز أي -على سبيل المثال- إذا جاءت دفعة مؤقتة من القوات اليابانية، وكان العدد الذي جُهّز غير كافٍ، حينها يُدفع بهن لسد العجز، ولا يُسمح للصينيين بالدخول حينها، فقط يقتصر الأمر على اليابانيين. وبطبيعة الحال، في الأوقات المعتادة يكون الزبائن هنا من الصينيين بشكل رئيس، فما دام هناك مال، يمكن لأي شخص أن يذهب إلى هناك لممارسة الدعارة والمقامرة!

وبحسب صاحبة الرقم سبعة، ظهر المخصي فجأة بعد عيد الربيع في ذلك العام. لا بد أنه حصل على معلومات استخباراتية تفيد بأن تلك العاهرة الكبيرة تدير بيت دعارة سرّياً لخدمة الملاعين اليابانيين، وأراد الاقتراب من الملاعين اليابانيين بوساطتها، لذلك جاء إلى هنا. ذاعت شهرته بمجرد مجيئه. ليس لأنه كان سخيّاً فحسب، بل كانت النقطة الأساسية هي أن لديه سلاحاً فريداً من نوعه، ذا قدرة هائلة. أي سلاح؟ أقصد ذلك الموجود بين فخذه، عضوه الذكري، كان فريداً من نوعه لدرجة أن شهرته كانت ذائعة الصيت داخل بيت الدعارة.

لا داعي هنا للقول إن الفتاة رقم سبعة قد نامت معه، فقد أخبرتني بنفسها أن عضوه الذكري كان مختلفاً عن أي شخص آخر. أين الاختلاف؟ لم يكن يبدو طبيعياً! وكأن رأس قضيبه قُطع وأعيدت خياطته وترميمه، فتغير قضيبه تماماً، كان خشناً مثل قشرة الجوز، وكبيراً أيضاً. يمكنك فهم ما أقول، أليس كذلك؟ فالجروح المخيطة تخلف ندوباً دوماً، والندوب ليست سوى لحم جديد هو انتفاخات أو خطوط. باختصار، كان خشناً،

غير مستو، مثل جدار مكسور جرى إصلاحه، لكنه صار أقوى من ذي قبل. قد يبدو قبيحًا للبعض، لكن هذا الشيء ليس مخصصًا للفرجة، بل للاستخدام. أنت أيضًا تعرف أنه كلما كان الأمر أكثر خشونة، صار أكثر جاذبية. وتعرف أيضًا أنه إن كانت الفتاة رقم سبعة، أو كانت الفتاة رقم ثمانية، أو أي فتاة أخرى هناك، كلهن يحترفن هذه المهنة، ورأين كثيرًا وكثيرًا، لذلك تسهل عليهن المقارنة. وكما قالت الفتاة رقم سبعة، لا يمكن مقارنته بأي شخص آخر، فهو قوي، ضخيم، ممتع، قادر على دفع الفتيات إلى الجنون».

توسل إليه الجد قائلاً: «أرجوك، توقف عن الحديث عن هذا الأمر». «حسنًا، لن أتحدث كثيرًا عن هذا الأمر، ولكن على أي حال، كان عضوه قد تعرّض لإصابة ما بالتأكيد. وهذا يتفق مع الشائعات التي سمعناها في البداية، ولكنها ليست سوى شائعات سمعناها من الآخرين فقط، لذا فهي ليست شاملة أو موضوعية، خاصة بالنسبة إلي، كنت أكرهه كثيرًا حينها، حتى أنني اختلقت شائعة أنه خُصي على يد قائده. لكنني كنت أعرف بالفعل أنه أصيب في ساحة المعركة، ولم أكن أعلم من قبل، ولم يكن أحد يعلم، أن إصابته قد عولجت، وتحولت النقرة إلى نعمة، وصار لديه كنز نادر، فذاعت شهرته بمجرد الذهاب إلى بيت الدعارة. فتيات بيت الدعارة بارعات في القيل والقال، وبارعات في نشر الشائعات، كانت الواحدة منهن تخبر زميلتها، وهو ما جعل كل واحدة منهن تتنافس للنوم معه، فهو سخي، كبير العضو، بارع في الجنس. ومن هذا الذي لا يرغب في تجربة شيء جديد مختلف؟ قالت الفتاة رقم سبعة إن كل الفتيات هناك كن يتنافسن عليه، وبعضهن مارسن الجنس معه أكثر من مرة. وأنت تقول عنه إنه شاذ! كيف يكون ذلك ممكنًا؟ هذا من سابع المستحيلات! ما زالت هناك قصص كثيرة حدثت لاحقًا، وكلها تثبت مدى قدرته الجنسية».

كان الشرطي العجوز قد شرب كثيراً من الخمر، لذلك لم يتوقف عن شرب الماء، فشعر بالحاجة إلى التبول. بعدما تبول، واصل حديثه وقال: «لقد قلت من قبل إن كل فتاة في بيت الدعارة كانت بمنزلة حقل تجارب للعاهرة الكبيرة. إذا جرّين النوم مع شخص ما، واتفقن جميعاً على براعته في الجنس، فمن الطبيعي أن تذهب وتجرب بنفسها. بعدما جرّيت النوم مع العقيد، تأكدت أنهن كن على حق. قالت الفتاة رقم سبعة إنه بعدما جرّيت العاهرة الكبيرة النوم معه، دعت الجميع إلى عقد اجتماع، ووضعت قاعدتين صارمتين: الأولى هي أنه لا يُسمح لأي فتاة بلمسه (عضوه)، والثانية هي أنه لا يُسمح لأحد بنشر الشائعات عنه (قدرته). لقد أخفته من أجل متعتها الخاصة وكأنه ملكية خاصة بها، وفي الوقت نفسه كانت تعدّه كنزاً تقدمه للآخرين. تقدمه لمن؟ بالطبع للنساء اليابانيات. سبق أن سمعت أن بعض اليابانيات اللاتي مات أزواجهن في ساحات المعارك يملكن كثيراً من المال، كلها أموال نهبها رجالهن منا نحن -الصينيين- كما أنهن كن يتمتعن بمكانة مرموقة، تلك المكانة دفع رجالهن حياتهم ثمناً لها؛ أضف إلى ذلك أنه لم يكن هناك ما يشغلهن، أرامل بلا أزواج يُشبعن رغبتهن، لذلك كن جائعات جنسياً، فأطلقن العنان لرغباتهن يشبعنها كيفما يشأن».

تلك العاهرة الكبيرة -أو الجاسوسة الكبيرة- كانت تعمل قوادة لمصلحة الرجال اليابانيين في البداية، تدير بيت دعارة علنياً. ولكن لأنها كانت تتعامل بشكل متكرر مع هؤلاء الملاحين اليابانيين، فقد كانت تتعامل أيضاً مع بعض الأرامل اليابانيات، وبدأت بتقديم خدمات جنسية لهن. لكن هذا الأمر كان سرياً، بهدف جني كم أكبر من المال، فهي -على أي حال- تعرف رجالاً كثيرين راغبين في تقديم مثل تلك الخدمات، ولا يهمهم سوى المال بعد أن فقدوا نخوتهم ومروءتهم، لذلك كان بيت الدعارة الذي تديره مثل قطعة اللحم الفاسدة، لا يجتمع حولها سوى الذباب القذر.

بالطبع لم يكن المخصي مثل هؤلاء، فهو شخص ذو نخوة ومروءة ومفعم أيضاً بالروح الوطنية. كان يكره اليابانيين حتى النخاع! هلا فكرت في الأمر، لقد قتل اليابانيون والده، وكادوا يسلبونه رجولته، فكيف لا يكرههم؟ كان يكرههم على الصعيد الشخصي والوطني. لذلك، فبدلاً من العمل طبيباً عسكرياً في مؤخرة الصفوف، فضّل الذهاب بنفسه إلى وكر الشيطان في شنغهاي مخاطراً بحياته، حيث عمل جاسوساً من أجل القضاء على الأشرار وقتل الخونة لينتقم لوطنه ويشفي غليله. ذهب إلى هناك، ثم تواصل مع تلك العاهرة الكبيرة بدافع عمله التجسسي، من أجل جمع المعلومات الاستخبارية عن اليابانيين الملاحين. وها هو ذا الآن وقد أتاحت له الفرصة للتسلل وسط صفوف العدو، فانتهزها دون تردد. وكما يقول المثل، إن لم تفعل كذا... فكيف تحصل على كذا... هل تعرف ما هو؟ فقد نسيته».

كنت أعرف ما يعنيه، فهو يقصد أن يقول: «إن لم تدخل عرين النمر، فكيف تقبض على أشباله».

لأن في القرية جبل النمر (الجبل الخلفي)، علّمني جدي عديداً من العبارات والأمثال المتعلقة بالنمور، مثل: العجل حديث الولادة لا يخشى النمور، مهما بلغت شراسة النمر لا يلتهم جرائه، هذا الشبل من ذاك النمر، اخش ذئباً تراه ونمراً لا تراه، الجبل الواحد لا يتسع لنمرين، إذا كنت شجاعاً فالمس مؤخرة النمر، لا يمكنك الحصول على قطعة لحم من فم النمر، عندما لا يكون هناك نمر في الجبل يخال القرد نفسه ملكاً، الجنود والخيول لا تغادر ساحة المعركة أبداً، والنمور والذئاب لا تغادر الجبال أبداً، لكي تقتل نمراً عليك أن تضرب رأسه، ولكي تذبح دجاجة عليك أن تقطع عنقها، عندما يصل الرجل إلى سن الخامسة والأربعين، فهو مثل النمر الذي يغادر الجبل، عندما يغادر النمر الجبل تتكاثر عليه الكلاب، النمور والفهود تختبئ في أعماق الجبال، وفي أوقات الشدة يظهر

الأبطال، لتصطاد تيناً يجب أن تفوص في البحر، ولتصطاد نمراً يجب أن تصعد الجبل، إن لم تدخل عرين النمر، فكيف تقبض على أشباله، يعلم أن هناك نمراً في الجبل، ومع ذلك يُصر على تسلقه، وغيرها من الأمثال. وبمساعدة جدي، تذكر الشرطي العجوز عبارتي: «إن لم تدخل عرين النمر، فكيف تقبض على أشباله»، و«يعلم أن هناك نمراً في الجبل، ومع ذلك يُصر على تسلقه»، وغيرها من الأمثال.

«نعم، هذا ما أقصده -قال الشرطي العجوز- كان يعلم أن هناك نمراً في الجبل، ومع ذلك أصر على الذهاب إليه بنفسه. كان يعلم أن تلك العاهرة تُضمّر نيات سيئة تجاهه، وتريد استغلاله، فهؤلاء اليابانيات الملعونات لسن لقمة سائغة، وانخراطه في تلك العلاقة معهن يعني أنه يُلقي بنفسه إلى التهلكة، وحتى إن نجا، فقد لا يكون قادراً على تبرير أفعاله لاحقاً، وستلاحقه اتهامات الآخرين ولعناتهم سراً وعلانية، فالإنسان لا يستطيع أن يتناول الطعام بشكل خاطئ، ولا يستطيع أن ينام في السرير الخاطئ. إذا أكلت طعام اليابانيين، فأنت خائن. وإذا نمت في سرير اليابانيين لو كنت امرأة، فأنت خائنة وعاهرة، وتلك جريمة أكبر، ولو كنت رجلاً، فتلك جريمة أكبر بكثير. ألا توافقني الرأي؟ هكذا هي حال مجتمعا، فممارسة المرأة الدعارة خطيئة، لكن ممارسة الرجل الدعارة خطيئة أكبر. ولو مارست المرأة الدعارة مع اليابانيين، فهذه خطيئة مضاعفة، أما لو مارسها الرجل، فهو حينها كالخنزير أو الكلب، بل أسوأ من الخنازير والكلاب، ولا داعي لوصفه بالخطيئة حينها، لأنه لم يعد بشراً، بل صار وحشاً. عندما يكون الغزاة اليابانيون على عتبة دارك، ينبغي للرجل أن يذهب إلى ساحة المعركة. ولو مات في ساحة المعركة، فسيكون ذلك تكفيراً عن كل خطاياہ السابقة. ولكن لو نام في فراش امرأة يابانية، فلا أحد يعلم مدى قسوة العقاب الذي ينتظره، وستلاحقه وأحفاده لعنات الأجيال القادمة بلا انقطاع.

أنت تعلم أن المخصي رجل ذكي، ولا يمكنه أن يجهل هذه الحقائق. كان يفهم أكثر من أي شخص آخر ما قد يواجهه بمجرد انخراطه في هذا الأمر؛ أن يُساء فهمه، ويُسب ويُلعن، وستُتزع عنه صفة الإنسانية، وهو عار لا يمكن غسله، حتى إن قفز في النهر الأصفر. ولكن من أجل أن يكون جاسوسًا كفيًا، ويُكمل المهمة، لم يهتم بكل هذا، وخاطر بسمعته. وهذا يتوافق مع طبيعة هذا المخصي، فهو عنيد وشجاع أكثر من أي شخص آخر، وما دام قد اتخذ قراره، فلن يثنيه عنه أي شيء. وهكذا، جرى العاهرة الكبيرة في خطتها الشريرة، وسار على الطريق المظلم الذي رسمته له، وذهب بنفسه إلى أعماق عرين النمر، فكان دائم التردد على معسكرات اليابانيين، وانخرط في علاقة مع مجموعة من اليابانيات الملاحين. عندما ذهبت إلى هناك المرة الأولى، كانت تلك حياته بشكل أساسي، يُشبع رغبات تلك العاهرة الكبيرة، التي كانت ترسله لإشباع رغبات اليابانيات أيضًا. وفي الوقت نفسه، كان عليه أن يقود فريق العمل الذي يرأسه، ويطبّب المرضى، ويعتني بي، لذلك كان مشغولاً للغاية. وفي الوقت نفسه، كان يتمتع بمكانة عالية جدًا وسط فتيات بيت الدعارة، وكان الرجل المفضل للعاهرة الكبيرة، لذلك كان الجميع يناديه «الأب الصغير»، وهو ما يعني أنه كبير المكان. وعلى الرغم من أنني نادرًا ما كنت أقابله، فإنني كنت أحمّن أنه موجود هناك دائمًا، في المبنى المجاور ذي الطابقين، كان بإمكانني معرفة ذلك من الشائعات التي تتناقلها الفتيات.

بالطبع لم أكن أعرف كل هذه التفاصيل عنه في ذلك الوقت، بما في ذلك ما يخص عمله في الاستخبارات العسكرية. كان يتجنبني دائمًا، لا يتحدث إليّ، أو يسمح لي بالسؤال. في بعض الأحيان عندما كنت أسأله عن ذلك، كان يقول: «من الأفضل ألا تعرف شيئًا عن شؤوني، وألا تخبر أحدًا بها».

أنت تعلم أنه بارع في الكوميديا، فقد حذّرني ذات مرة بوضوح وقال: «يمكنك أن تطلق العنان لضمك السفلي هنا، ولكن يجب أن تُبقي فمك

العلوي مغلقاً، فإطلاق العنان لفمك السفلي سيضر بصحتك، ولكن لو أطلقت العنان لفمك العلوي فستكون حياتك الثمن».

كنت أشعر كأني أعيش في الجنة، لذلك لم أكن أريد أن أضحي بحياتي، فطبقت تعليماته بصرامة، أستخدم فمي السفلي فقط، وأبقيت فمي العلوي مغلقاً بإحكام.

لم أفهم كثيراً مما قاله الشرطي العجوز حينها، ولم أفهم ما يقصد بالفم العلوي والسفلي. في الواقع. ربما كنت أفهم نصف حديثه فقط. الشيء الوحيد الذي فهمته جيداً هو: «يعلم أن هناك نمراً في الجبل، ومع ذلك يُصر على تسلقه»، فهذا مثل يستخدم لوصف شجاعة الشخص البطولية، لذلك فطنت إلى أن ما يرويه الشرطي العجوز هو في الأساس قصة عن أمجاد العقيد، وليست قصة عن أفعال شائنة لتشويه صورته.

(57)

عندما تواجه محتوى لا تفهمه، سينتقل انتباهك من أذنك إلى عينيك. كنت مستلقياً على الأرض، وكان بوسعي رؤية السماء المائلة من خلال النافذة، سحبت الرياح قطرات المطر بشكل مائل وسقطت فوق النافذة، شعرت كأن قطرات المطر على وشك الدخول من فتحة النافذة، لكن لم تتمكن قطرة ماء واحدة من الدخول، كأنّ هناك لوح زجاج يمنعها. في الواقع، كان هذا وهمًا بصرياً، والسبب هو أنني كنت مستلقياً ولم أتمكن من رؤية إفريز السقف، فالإفريز طوله يزيد على المتر، وفي حال لم تكن الرياح قوية بما يكفي، فلن يتمكن المطر من التسرب عبر النافذة. ولأن الرياح لم تكن قوية بما فيه الكفاية الآن، فقد تناثرت قطرات المطر أسفل الإفريز.

وبينما أنا شارد أفكر في أمر المطر، أعادتني موجة من السعال العنيف إلى الانتباه للحديث الدائر.

كان جدي هو الذي يسعل، والسبب هو السجائر التي يدخنها الشرطي العجوز. كان بإمكانني شم رائحة دخان السجائر، فعلمت أن الغرفة التي يتحدثان داخلها بالأسفل قد صارت ممتلئة عن آخرها بالدخان، وهو ما أدى إلى اختناق جدي المريض، لكن صحة جدي لم تكن مصدر قلقي، بل كنت قلقاً أن ينتهي الشرطي من تدخين علبة السجائر، ويطلب علبة ثانية. وبالفعل، بعد مدة سمعت الشرطي العجوز يصيح:

«لقد فرغت سجائري. هيا أكمل جميلك وأعطني علبة أخرى».

لم يعارضه جدي، وتركه يأخذ علبة أخرى. تلك السجائر كانت بمنزلة كنز بالنسبة إلى جدي، وكان يدخنها بحرص شديد، وها هو ذا الآن يتخلى عنها بسهولة، وكأنه يتوقع أنه قد دنا من الموت. عندما فكرت في أمر اقتراب موت جدي، شعرت بالحزن الشديد. كنت حزيناً جداً حتى أنني لم أعد أرغب في الاستماع إلى قصص العقيد، لكن على العكس مني، كان جدي حريصاً للغاية على الاستماع إليها.

وبينما كان الشرطي العجوز يفتح علبة السجائر، حثه جدي على الاستمرار. كان في عجلة من أمره، وكأنه أوشك على الموت بالفعل، ويخشى ألا يُسعف الوقت قبل أن يتمكن من الاستماع إلى القصة كاملة. لكن الشرطي العجوز ظل يماطل، خرج من القاعة والسيجارة تتدلى من فمه ليُحضر بعض الماء، أو ربما ذهب للتبول. المهم هو أنه لم يعد إلا بعد مدة، وبعد عودته كان متحمساً للغاية، لدرجة أنه بدأ بالحديث قبل أن يجلس.

«والآن سأحدثك عما حدث في السنة الثانية. بعد الربيع، ذهبت إلى شنغهاي مرة أخرى، فوجدت أن الوضع قد تغير، لم يكن تغييراً بسيطاً، بل كان تغييراً هائلاً. أولاً، هؤلاء الفتيات صرن نادراً ما يتحدثن عن العقيد، ولم يعد بإمكانهن رؤيته. ذهبت إلى العيادة بحثاً عنه. كانت العيادة كما هي، لكنني ذهبت عشر مرات ولم أجدها مفتوحة ولا حتى مرة واحدة، وكأنها

غرفة مهجورة. ثانيًا، عندما تتحدث الفتيات عنه بين الحين والآخر، كانت لهجتهن ونداءاتهن مختلفة. لم يعدن ينادينه بالأب الصغير، بل أطلقن عليه مجموعة متنوعة من الأسماء الأخرى. كانت بعضهن ينادينه باسم «ذلك الطبيب»، والبعض الآخر باسم «ذلك الشخص»، بل حتى أن بعضهن أطلقن عليه لقب «قشرة الجوز» في إشارة إلى عضوه الذكري الخشن. باختصار، كانت كلها نداءات خالية من الاحترام. في السابق كُنَّ يحترمنه ويتوددن إليه، أما الآن فصرن يحتقرنه. لقد تغيَّر الأمر تمامًا، مثل طائر العنقاء الذي تحوَّل إلى دجاجة. ولهذا السبب تجرأت الفتاة رقم سبعة على أن تخبرني ببعض قصصه، خاصة عن قصة «قشرة الجوز»، فكيف لها أن تجرؤ على قول مثل هذا الكلام من قبل؟ لم تجرؤ على فعل ذلك إلا بعد أن فقد حظوته. أما بالنسبة إلى سبب فقدانه حظوته، فقد أخبرتني الفتاة رقم سبعة أنها لا تعرف، لكن يبدو أنها كانت تعرف، هي فقط لا تريد إخباري.

ذهبت إلى هناك أربع مرات في ذلك العام، وكان أيضًا هو العام الذي حظيت فيه بأفضل حظ على طاولة القمار. كنت أربح في كل مرة أذهب فيها إلى هناك، ما جعلني أكثر شجاعة في المقامرة، لكنني لم أكن أعلم أنني بذلك أحضر لنفسني فخًا أعمق. حدث ذلك في المرة الثالثة على ما أتذكر، ففي أحد الأيام ربحت كثيرًا من المال، وكنت سعيدًا جدًا لدرجة أنني شريت كثيرًا مع الفتاة رقم سبعة في الغرفة، وثلمنا معًا. كانت في حالة سكر شديد، ففقدت وعيها وغطت في نوم عميق، أما أنا فكنت ثملًا مثل الكلب المسعور، فركضت إلى المبنى المجاور ذي الطابقين بحثًا عن تلك العاهرة الكبيرة لأسألها عن مكان المخصي، وحينها صادفت أحد الأوغاد القادمين من الوحدة رقم 76.

هل تعرف ما المقصود بالوحدة رقم 76؟ تقع في المبنى رقم 76 طريق جيسفيلد. كان ذلك مقر منظمة الخدمة السرية التابعة للحكومة

العميلة بقيادة وانغ جينغوي، التي كانت سمعتها السيئة ذائعة الصيت في شنغهاي في ذلك الوقت. تلك المنظمة كانت تضم مجموعة من رجال العصابات والخونة الذين تأمروا مع الملاحين اليابانيين، وكانوا يعيشون في الأرض فساداً، يقتلون الناس دون أن يرمش لهم جفن، ويسلخون جلودهم أحياء. كنت في حالة سكر شديدة حتى أنني لا أتذكر أي شيء. أتذكر فقط أنني استيقظت في المستشفى. نظرت في المرأة ولم أعرف إلى نفسي، كان نصف وجهي أحمر أرجوانياً مثل رأس خروف مطبوخ، يسيل منه القيح والصدید. علمت لاحقاً أن الوغد الذي قابلته كان أحد القتلة التابعين للوحدة رقم 76، هذا الوغد كان يقتل الناس كما يذبح الدجاج، وعلمت أيضاً أنني أفسدت عليه متعته وقتها، وينبغي لي أن أشكر الرب لأنه لم يقتلني.

وكان هذا هو السبب في تحوُّل مشاعر الفتاة رقم سبعة تجاهي، خشيت أن أثمل مرة أخرى وأذهب إلى تلك العاهرة الكبيرة لأسألها عن المخصي، فتجرات في إحدى الليالي وأخبرتني بأسرار المخصي. تبين أن هؤلاء اليابانيات -أكثر من واحدة، ويقال إنهن ثلاث- قد ذقن طعم قشرة جوز المخصي، وأنا هنا أتحدث عن قضيبه الخشن، فطرات على بالهن فكرة شريرة، ألا وهي أن يحتفظن به لأنفسهن فقط، وقررن منعه من النوم مع الصينيات. كُنَّ يعاملن الشعب الصيني معاملة الكلاب، ولا يردن مشاركة ما يخصهن مع الكلاب، بمن في ذلك تلك العاهرة الكبيرة. هذه هي عادة اليابانيين. حتى إن كنت أنتِ أيتها العاهرة الكبيرة تعاملينهن باحترام، فلن يُقدِّرُن ذلك. لكن المخصي حينها كان ملازماً للعاهرة الكبيرة، وكما قلت كانا أباً صغيراً وأمّاً صغيرة، وكان دائم التردد عليها، وبالطبع لم يكن يلتزم بقرار اليابانيات، لذلك كان يتردد على العاهرة الكبيرة سرّاً بدلاً من التردد عليها علانية، ففعل هذا النوع من الأشياء سرّاً أكثر متعة من فعله علانية. لكنهما لم يتوقعا أن ينكشف أمرهما، فلم

يكونا على علم بأن اليابانيات أرسلن إحدى الفتيات للتجسس عليهما، ألا وهي الفتاة رقم تسعة.

كما ذكرت سابقاً، تلك الفتاة كانت تعاني مرضاً جنسياً، ومُنعت من العمل، ولم يكن لديها مال. لقد أعمتها أموال اليابانيات، فكشفت عن علاقتهما السرية مقابل المال. اللعنة، هذا أمر فظيع، لقد جلبت الكارثة لنفسها، كمن يذهب بنفسه إلى حتفه! المهم هو أن العاهرة الكبيرة كانت لديها مجموعة واسعة من العلاقات، بداية من مقر قيادة الجيش الياباني وصولاً إلى المبنى رقم 76، ولم يكن بوسع هؤلاء النسوة اليابانيات أن يضايقنها. لم يكنَّ أقوياء مثلها، والأكثر من ذلك أنهن كن يفعلن أفعالاً قدرة، لذلك لم يكن بوسعهن محاربتها علانية، واضطرورن إلى صب جامَّ غضبهن على المخصي. ولكي يستمر المخصي في الحصول على المعلومات الاستخباراتية، لم يلجأ إلى الهروب أو الاختباء، ولم يكن بوسعه سوى تقبُّل عقوبتهن. كيف عاقبته؟ لقد نقشن على بطنه بضع كلمات على سبيل التحذير والتخويف، وأيضاً لتحذير تلك العاهرة الكبيرة بألا تتواصل معه ثانية».

توقف الشرطي العجوز هنا، وكأنه كان يحاول عمداً إثارة فضول جدي. وبالفعل نجح في ذلك، لم يتمالك جدي نفسه من سؤاله: «وما تلك الكلمات؟».

«أنا حقاً لا أعرف ما هي تلك الكلمات -قال الشرطي العجوز- أخبرتني الفتاة رقم سبعة أنها لم تر المخصي منذ ذلك الحين، لكنها كانت متأكدة من وجود تلك الكلمات الموشومة، لأن العاهرة الكبيرة أخبرتها بذلك بنفسها عندما ثملت في إحدى المرات. قالت الفتاة رقم سبعة إن إحدى هؤلاء اليابانيات كانت متخصصة بوشم الكلمات ورسم الأشكال على أجساد الناس، زهرة الفاوانيا الموجودة على ذراع العاهرة الكبيرة هي التي وشمته، وقد رأيت ذلك بأم عيني، وما يردده الأعمى الصغير وحفيدك

وكماشة اللحم يعني أن حديث العاهرة الكبيرة لم يكن افتراء، وأن هناك بالفعل كلمات موشومة أسفل بطنه. أما بخصوص ماهية تلك الكلمات، فمن هذا الذي يستطيع رؤيتها في مكان حساس كهذا؟ لكنني أعتقد أن تلك الكلمات ربما تعني شيئاً واحداً، ألا وهو مضمون التحذير الذي وجهته له النسوة اليابانيات- منعه من ممارسات الجنس مع الصينيات». أوضح الشرطي العجوز أن وشم الكلمات على الجسم هو عادة يابانية، فعندما كان شرطياً كان عليه أن يذهب إلى المحافظة لحضور الاجتماعات كل عام، كانت الاجتماعات تُعقد في نهاية العام في منتصف الشتاء. وبوصفه نوعاً من الامتياز والترفيه، كان أفراد الشرطة يحظون بفرصة الاستحمام في الحمام الخاص باليابانيين. ولأنهم كانوا يستحمون وهم عراة تماماً، فقد سبق له أن رأى أن لدى معظم اليابانيين كلمات موشومة على أجسادهم، لدى بعضهم كلمة «القتال»، وبعضهم كلمة «الصبر»، وبعضهم كلمة «الولاء». بعضهم كان وشمها على صدره، وبعضهم على ذراعه، وبعضهم على ظهره. بعضها كان لونه أزرق، وبعضها أسود، وبعضها أحمر».

لم يكن الجد يريد سماع هذه التفاصيل، وسارع يطلب منه الاستمرار في الحديث عن العقيد.

نهض الشرطي العجوز، وربت على مؤخرته استعداداً للمفادرة، وهو يقول: «يكفي، يكفي، هذه أشياء لا يسمح المخصي للآخرين بالحديث عنها، خاصة تلك الأحداث اللاحقة، لذلك أرجوك لا تتسبب في إيذائي». وعندما وصل إلى الباب، أضاف: «هيا انهض من نومتك، فمهما كان المكتوب على بطن المخصي، فمن المؤكد أن المكتوب ليس أنه شاذ. عليك أن ترتاح وتهذب، وألا تجعل كلام الأعمى الصغير يؤثر فيك بهذه الطريقة».

انتهى من تلك العبارة، ثم غادر دون أن يتفوه بمزيد.

شعرت بالندم مثل جدي تماماً، لأن الشرطي العجوز لم يلتفت خلفه، لكن المهم هو أن جدي عاد إلى رشده، فبعد أن تناول وعاء من العصيدة الساخنة على العشاء في تلك الليلة، بدا كأنه استعاد قوته. وعندما حلَّ الظلام، تحسَّس طريقه ونزل من السرير، وجلس على الكرسي الذي جلس عليه الشرطي العجوز بعد الظهر، ودخن أول سيجارة منذ مرضه. في ذلك الوقت كان والدي في الفناء، وعندما شَمَّ رائحة دخان قادمة من الغرفة الجانبية، قال لأمي: «يبدو أن الدواء الذي أحضرته هذه المرة دواء فعّال».

تحسّنت حالة جدي الصحية يوماً بعد يوم. وتحسّنت علاقته بوالدي على الفور، بل على نحو كلي، حتى أنه بدأ ينادي والدي بلقبه المحبّب إليه. كان لطيفاً معه للغاية لدرجة أنني شعرت بالحرج نيابة عنه. في الماضي، لم يكن جدي ينادي والدي باسمه، ولو استدعت الحاجة كان دوماً يناديه قائلًا «أنت» أو «يا» حال كان بالجوار. وإذا لم يكن بالجوار، لم يكن جدي ينادي والدي باسمه قطّ، بل كان دائماً يطلب مني أو من الآخرين أن ينادوه. تلك التغييرات التي طرأت على جدي جعلتني أشعر بدفع في قلبي، لكن والدي تجاهل جدي وظل على حاله دون تغيير، فمِنذ أن ظهرت مسألة الشذوذ أصبحت العلاقة بين الأب والابن كالعلاقة بين الأعداء. عندما يتقابلان، إما يتجاهل بعضهما بعضاً وإما يتشاجرن، اندلعت بينهما حرب باردة ومشاحنات كلامية، وصارت الأجواء داخل البيت إما باردة للغاية وإما كاللهيب المستعر.

قال جدي: «كانت الكراهية تملأ قلبي، بالنسبة إلي كنت أكرهه بدافع العار، أما هو فكان يكرهني بدافع الاستياء».

أما الآن، فقد تحوّل شعور جدي بالعار إلى شعور بالذنب. كان ينادي والدي بلقبه المحبّب إليه طوال الوقت، وهذا ليس سوى مظهر من مظاهر الشعور بالذنب، وأيضاً محاولة لإيقاظ مشاعر والدي، يريد أن يتحدث إليه حديث القلب للقلب، كي تتبدد مشاعر الاستياء بينهما. وفي أحد الأيام، دار بينهما حديث، فأخبر جدي والدي بكل ما أخبره به الشرطي العجوز، من البداية إلى النهاية. فاكشفت أنه على الرغم من العلاقة الجيدة للغاية التي تربط بين والدي والعقيد، فإن والدي لم يكن يعرف كثيراً عن قصص العقيد مع «فتيات بيت الدعارة»، فوجئ بشدة عندما سمع ذلك، وتساءل مرات عدة: «كيف لي ألا أعرف بهذا الأمر؟». بدا

والدي غاضبًا، وألقى باللوم على العقيد وقال: «لَمْ يُخْفِي مثل هذه الأمور عني». أخبره جدي أن الشرطي العجوز لا تزال في جعبته قصص قصيرة، فهو لم يحدثه بكلمة واحدة عن «الأحداث اللاحقة».

تتهّد جدي طويلًا وقال: «أعتقد أنها أحداث لا تعرف أنت أيضًا شيئًا عنها».

وهكذا صار جدي ووالدي حليفين، وخططنا معًا من أجل التوصل إلى حيلة لجعل الشرطي العجوز يفتح فمه المفلق بإحكام.

وفي عصر أحد الأيام، أعطاني جدي بعضًا من ماله الخاص، وطلب مني الذهاب إلى دكان آتاي الأعرج لشراء زجاجتين من الخمر وأربع علب من السجائر. عندما عدت من الدكان، رأيت والدي يضع حفنات من الفول السوداني المقلي في كوب شاي كبير. ثم حمل الخمر والسجائر وخرج برفقة جدي. كنت أعرف ماذا ينويان فعله؛ سيذهبان إلى الشرطي العجوز، ويجعلانه يثمل، ويستدرجانه ليحكى لهما عن تلك «الأحداث اللاحقة».

يقيم الشرطي العجوز بالقرب من مدخل القرية عند ذيل النمر في غرفة حجرية منعزلة. في السابق كانت هذه الغرفة ملكًا لأحد الأثرياء، يستخدمها لتخزين التوابيت، لذلك بُنيت على هيئة قبر، تحتوي على باب فقط، ولا توجد فيها نوافذ، هناك فقط فتحتا تهوية ضيقتان مفتوحتان أسفل السقف فوق الجدارين الشرقي والغربي. كانت رحلة الشرطي العجوز إلى شنغهاي من أجل الدعارة والمقامرة قد جعلته يخسر كل شيء، بما في ذلك ماله وعائلته، وتحوّل من كونه أغنى وأقوى شرطي في القرية إلى الشخص الأكثر فقرًا وعزلة، ومدة من الزمن، كان الناس يتعاملون معه كقطعة أو كلب، كان يأكل ويعيش في المعبد، ولم تُخصّص له الحكومة هذه الغرفة إلا بعد حرب التحرير.

قال جدي: «هذا أفضل مكان لمواعدة النساء، حيث لا توجد أعين أو آذان قريبة، إنها آمنة تمامًا كالتابوت».

وبطبيعة الحال، فهي أيضًا مكان جيد للتحدث في المسائل السرية، فحتى إن فتحت الباب وصرخت، فقد لا يسمعك أحد. وهذا هو أيضًا السبب وراء عدم بقاء جدي ووالدي في المنزل، ومجيئهما خصوصًا إلى هنا لدعوة الشرطي العجوز إلى تناول الشراب، فقط لأنهما يعلمان أنه لا توجد «أعين أو آذان حولهم». لم يتخيلا قط أن عيني وأذني حولهما، فقد كانت هناك كومة من الحطب الجاف مكدسة عند الجدار الغربي للغرفة، تسلقت الكومة حيث كانت فتحة التهوية أمامي مباشرة، وصارت كل كلمة تقال داخل الغرفة تصل إلى أذني. أحيانًا أجد الأمر غريبًا، لم أجد نفسي قادرًا على التجسس بهذه المهارة، وكأنني أمتلك موهبة العمل الاستخباراتي، ويمكنني أن أصبح عميلًا سرّيًا كبيرًا في المستقبل؟

(59)

«ما هذا؟».

أجاب والدي على سؤال الشرطي العجوز: «خمر، رطلان من الخمر». «بالطبع أعرف أنه خمر. شممت رائحته قبل دخولكما. أنا أسألك ماذا يعني هذا؟».

لم ينتظر الشرطي العجوز إجابتهما وأجاب بنفسه: «أعرف ماذا يعني هذا، لقد أخبرك والدك عن أمر المخصي، وتريدان أن تعرفا ماذا حدث له لاحقًا، تريدان أن تجعلاني أثمل كي أفقد وعيي وأخبركما ما تريدان، أليس كذلك؟».

سارع جدي يُنكر مرارًا ويقول: «لا، لا». ثم أردف مبتسمًا: «جئتُ لأشكرك. لقد أنقذت حياتي، فبفضلك نهضت من فراشي، ولم أمت. كنت أعاني حقًا مرضًا نفسيًا، وكلماتك كانت خير دواء لي، لذلك جئتُ اليوم لأشكرك».

قال الشرطي العجوز: «من الصواب أن تشكرني، وأن تهديني بعض الخمر، فأنا أحب الخمر أكثر من أي شيء آخر».

أعطاه والدي السجائر وهو يقول: «هناك سجائر أيضاً».

رد الشرطي العجوز: «من الصواب أيضاً أن تهديني بعض السجائر، فأنا أيضاً أحب التدخين، لكن فكرتكما خاطئة، هل تظنان أنني سأخبركما كل شيء حال ثملت؟ هلا فكرتما؟ لقد كنت أشرب طوال حياتي، وكثيراً ما كنت ثملاً وفقدت وعيي، ولكن هل رأيتماني يوماً أتحدث عن هذا المخصصي أمام الآخرين؟ أخبرتك بهذه الحكاية (يقصد جدي) في ذلك اليوم لأنني رأيته تحتضر، وكنت أنوي بذلك أن أنقذ حياتك. هذه بالتأكيد أول مرة أخبر أحداً بتلك الأمور، وأنا متأكد أنك (يقصد والدي) لم تسمع بها من قبل أيضاً. علاقتكما جيدة للغاية، لدرجة أن الناس صاروا يشكون في كونكما تمارسان الشذوذ، ومع ذلك لم يخبرك بتلك الأمور، لماذا؟ لأنه لا يمكنه إخبارك بها، ولا يمكنكما إخبار أحد بها في المستقبل، عليكم أن تعداني بذلك!».

أعطى والدي سيجارة للشرطي العجوز وأشعلها له وهو يقول: «لم لا يمكنه التحدث عن عمله عميلاً سرياً عسكرياً في شنغهاي؟ فأنا أعرف هذا منذ زمن طويل، لقد أخبرني بكل تلك القصص، فقد كان يقدم خدمات جلية للوطن، ويقتل اليابانيين الخونة، فهذا شرف ومجد. لم لا يستطيع التحدث عنه؟ لقد أخبرني أيضاً ببعض الأمور التي تخص بيت الدعارة، لكنني لم أسمعته يتحدث عن قصة تلك العاهرة الكبيرة، وتلك المرأة اليابانية التي وشمته على جسده».

رد الشرطي العجوز بحزم: «الأمور التي لا تعرفها أكثر من ذلك بكثير». كانوا يتحدثون واقفين طوال الوقت، ولأن جدي استفاق من مرضه للتو، وجسده لا يزال واهناً، سحب كرسيًا وجلس عليه وهو يقول: «لذا نريدك أن تخبرنا بتلك الأمور، ونحن نعدك ألا نخبر أحداً».

جلس الشرطي العجوز أيضاً، وقال: «يمكنني أن أخبركما، ولكن يجب على ابنك أن يخبرني أولاً».

ضحك والدي وهو يقول: «أخبرك بم؟ أنت تعرف كل ما يمكنني أن أخبرك به».

«هناك بعض الأمور التي لا أعرفها».

«أي أمور تلك؟».

ردَّ الشرطي العجوز بنبرة أكثر حزمًا من ذي قبل، وبدا لي كأنه كان يحدق إلى والدي ويشير بإصبعه إليه وهو يقول: «أين هو الآن؟ لقد ذهبت لرؤيته، أليس كذلك؟ عليك أن تقول الحقيقة!».

وفي مواجهة صمت والدي، شجَّعه الشرطي العجوز: «أعلم أنك تعرف، هل تخشى أن أفصح أمره؟ أريد أن أذهب للقاءه، فأنا أيضًا قلق بشأنه، فهو الشخص الوحيد الذي أهتم لأمره الآن».

ظل والدي صامتًا.

تابع الشرطي العجوز حديثه بنبرة عاطفية: «لا يهمني إن مات سكان هذه القرية جميعهم، كل ما أتمناه هو ألا يموت ميتة مهينة. نحن نعيش في عالم لعين يعج بالشرور، هذا العالم جعل شخصًا صالحًا يعاني مثل هذه الحياة المأساوية، يرتحل شريدًا برفقة والدته العجوز، يعيش مختبئًا متخفيًا. كل هذا بسبب ذلك الوحش اللعين المسمى الأعمى الصغير. لو حدث ذلك قبل عشرين عامًا عندما كنت الشرطي المسؤول في القرية لقتلت ذلك الوحش، فتدمير إنسان صالح جريمة يستحق مرتكبها الإعدام رميًا بالرصاص. أنتما لا تعلمان كم عدد الإسهامات العظيمة التي قدَّمها للبلاد، وما حجم المعاناة التي تحمَّلها، لقد تحمَّل أصنافًا من المعاناة تفوق الخيال، كان يعيش حياة أسوأ من الموت! إنه بطل، هل تعلمان هذا؟ ولكن... ولكن... لا أعرف ماذا أقول، الحياة أقدار، وقد عاش حياة صعبة، ولم يلقَ التقدير المستحق، بل على العكس، كان دائمًا عُرضة للظلم والإهانة، وها هو ذا لا يزال يعاني حتى اليوم، أنتما لا تعلمان كم أنا حزين لأجله».

كان صوته يرتجف، فظننت أنه كان يبكي، وكانت الغرفة هادئة جداً لدرجة أنني تمكنت من سماع صوت أنفاس جدي.

بعد قليل، استعاد الشرطي العجوز رباطة جأشه، وقال لجدي بصوت أجش: «أيها العرّاف العجوز، أقنع ابنك أن يخبرني بما يعرفه، أريد أن أذهب لرؤيته، حتى إن قتلني الحرس الأحمر».

ودون انتظار أن يقنعه جدي، قال والدي: «لا تقلق، إنه بخير».

لم يكن صوت والدي عالياً أو حاداً، لكنه يصم الآذان، مثل الصاعقة.

لا أعرف كيف بدت ملامح جدي أو مزاجه في ذلك الوقت، كل ما أعرفه هو أنني كنت خائفاً بشدة، لأنني أعلم أن هذا مخالف للقانون، فالشرطة تبحث عن العقيد في كل مكان، لكن والدي يتستّر عليه، وربما زاره سراً. أليس هذا مخالفة متعمدة للقانون؟ لقد أصبح قدوم العقيد إلى منزلنا في الليلة التي هرب فيها بمنزلة قبلية في منزلنا، وأنا من يمسك بفيتل القبلة في يده. فجأة ندمت على مجيئي للتصّت عليهم، فقد صارت هناك قبلة إضافية في المنزل، وفيتل إضافي في يدي.

والأمر الأكثر إثارة للغضب هو أن والدي والشرطي العجوز اتفقا في البداية على أن يتحدث كل منهما عما يعرفه، ولكن في اللحظة الأخيرة تظاهر الشرطي العجوز بأنه شخص صالح، وبدأ يتحدث عن بعض الهراء الذي لا يفيد، فقال: «هناك أشياء من الأفضل ألا تعرفها، فلو عرفتها ستكون مذنباً مثلي، ومن الأفضل أن نتركها طي الكتمان».

غضب جدي بشدة لدرجة أنه وبّخه قائلاً إنه يتصّل من وعوده.

بدا والدي كأنه يحاول استفزاز الشرطي العجوز، فاستمر يقول: «في الواقع، أعرف أيضاً ما حدث له لاحقاً. اعتقلت الوحدة رقم 76 أحد رجاله، ولم يتحمّل التعذيب، فوشى به، ومن ثم أسره اليابانيون واقتادوه إلى معسكر أسرى الحرب تشانغشينغ في مدينة هوتشو للعمل في استخراج الفحم. حدث هذا عام 1943 أليس كذلك؟».

سأله الشرطي العجوز «وماذا بعد ذلك؟ المهم هو كيف خرج من معسكر أسرى الحرب اليابانيين».

قال والدي: «خرج لأنه أنقذ حياة مسؤول ياباني كبير».

ضحك الشرطي العجوز ساخراً وقال: «هل تعتقد أن اليابانيين متأخرين في العلوم الطبية كحال الجيش الرابع الجديد؟ سأخبرك إذن، مستوى اليابانيين في المجال الطبي هو الأفضل على مستوى العالم. ذات مرة، أصبت بحمى شديدة وفقدت الوعي ثلاثة أيام، لدرجة أنني كنت أهذي طوال الوقت، وظننت فتيات بيت الدعارة أنني سأموت. أشفقت عليّ الفتاة رقم سبعة، فذهبت لطلب المساعدة من العاهرة الكبيرة، التي أعطتها حبتين صغيرتين، خضراوين، ومسطحتين، كحبة فاصوليا. تناولت واحدة، وفي أقل من نصف ساعة زالت الحمى، شعرت كأنني مثل وعاء فحم مستعر وُضع تحت المطر. كانت هاتان الحبتان بمنزلة معجزة، وكأنهما إكسير يُعيد الموتى إلى الحياة. هلا تخيلت إلى أين وصل المستوى الطبي لليابانيين؟ فلم يلجؤون إليه لإنقاذ حياة مسؤول كبير منهم؟ هل أنتما بهذا الغباء لتصدقا مثل هذا الهراء؟».

نظر إليه جدي وقال بنبرة غاضبة لكنها محملة بالاستجداء أيضاً: «إذن أخبرنا من فضلك كيف خرج».

قال الشرطي العجوز بثقة: «أنا أجروُ على التحدث، ولكن أخشى أنك لا تجروُ على الاستماع، فالاستماع سيجعلك مذنباً. لقد وصفتي للتو بأنني أتصل من وعودي، لكني أفعل هذا لمصلحتك. لديك عائلة كبيرة، منهم الكبير ومنهم الصغير، ولا يمكنك تحمُّل عاقبة هذا الأمر، لا تقارن نفسك بي، فأنا شخص وحيد، ويمكنني تحمُّل أي عواقب مهما كان حجمها، فالموت لن يُرهبني، بل هو أفضل لي. كل ما أريد فعله الآن هو رؤيته قبل أن أموت. الآن وقد عرفتَ (يقصد والدي) أين هو، وما عنوانه، يمكنك أخذي إليه، فأنا لن أشرب هذا الخمر وحدي، سأعطيهِ للمخصي».

وبينما كنت أستمع، لم أستطع منع نفسي من الشعور بالخوف، وكأنني رأيت والدي يصطحب معه الشرطي العجوز لزيارة العقيد، والشرطة تتعقبهما خلصة. كرهت هذه الغرفة التي تشبه القبر، فقد كنت أمني نفسي بأن أستمع إلى أي قصص، لكن بدلاً من ذلك، شعرت كأنني أحمل معي قبلة إضافية، وبالتأكيد سأعاني الكوابيس هذه الليلة.

(60)

ورغم أن «الأحداث اللاحقة» التي تخص العقيد ظلت معلقة في الهواء، فإن قلب جدي كان قد اطمأن تماماً، فقد أزيلت من داخله عقود من القلق والشك، وحلَّ محلها شعور بالرضا والسعادة والارتياح والفرح، وكلها كلمات ذات نطق متشابه في لهجتنا، باختصار، كانت مشاعر محملة برائحة حلوة، وكأنها خرجت للتو من جرة عسل. ربما كانت تلك الرائحة قوية، لدرجة أن منزلنا الصغير لم يستطع احتواءها، لذلك لم يلتزم جدي بتحذير الشرطي العجوز، فسارع ينشر تلك القصص التي تخص العقيد سرّاً في قاعة الأسلاف، والدكاكين، وصالونات الحلاقة، ومحلات الخياطة، وغيرها، بما في ذلك قصته المشينة مع العاهرة الكبيرة، وما قيل عن أنهما أب صغير وأم صغيرة، بالإضافة إلى القصة المأساوية التي تخص وشم جسده على يد المرأة اليابانية.

فور علمه بالخبر، هرع الشرطي العجوز إلى منزلنا، ووبَّخ جدي لعدم «أمانته». في البداية حاول جدي التَّصُلُّ من الأمر، وأنكر أنه قال ذلك، لكن الشرطي العجوز واجهه بالأدلة، فاضطر إلى الاعتراف، وأوضح أنه قال ذلك بدافع «الأمانة»، والدفاع عن الشرف. وفقاً أمامي يتشاجران ويتجادلان، واحد جهة الشرق، والآخر جهة الغرب، كل منهما في مواجهة الآخر، يتناطحان برأسيهما، مثل ديكين يتقاتلان، يمدان عنقيهما ويصيحان بصوت عالٍ. في البداية شعرت أن ما قاله جدي كان منطقياً، ولكن بعد ذلك شعرت أن كلام الشرطي العجوز هو المنطقي.

قال جدي: «أعلم الآن أنهما ليسا شاذين، لكن أهل القرية لا يعرفون ذلك. وما زالوا ينشرون أكاذيب الأعمى الصغير. هل أنت أصم؟ ألم تسمع كلامهم؟».

قال الشرطي العجوز: «حتى إن كنت أصم، فبإمكاني أن أسمع بشكل أفضل منك. لا بد أنك وعائلتك لم تستمعوا إلى كل ما يقال عنكم».

قال جدي: «إذن عليك أن تسمح لي بالكلام، فمن هذا الذي يتحمل هذه السمعة السيئة؟ لقد جعلني كلامهم أشعر بالخجل حتى في أحلامي».

قال الشرطي العجوز: «ما الفائدة من كلامك؟ ستجعل الناس يسخرون منك. سيقولون من وراء ظهرك إنك تنشر الشائعات».

قال جدي: «أخبرتهم بوضوح إنك من أخبرني بذلك».

قال الشرطي العجوز: «لن أعترف بذلك، فأنا لا أريد أن أسيء إلى المخصي بسببك، لقد تعهدت له بأنني لن أخبر أحداً بهذه الأمور أبداً».

قال جدي: «لكن هذا الأعمى الصغير يخلق الأكاذيب. كل ما عليك أن تقوله إنه يكذب أيها الشرطي العجوز».

كانت تلك من المرات النادرة التي لا يناديه فيها جدي بلقب «الصعلوك العجوز»، لأنه كان يرجوه بصدق، استمر يقول: «لقد كانت علاقتنا جيدة طوال حياتنا، أرجوك ساعدني وأخبر الجميع بالحقيقة، حتى أموت مرتاح البال. كلام الناس مُخيف أيها الشرطي العجوز، ولو صدقوا تلك الشائعات فستتلطخ سمعتي بالطين!».

ردَّ الشرطي العجوز بنبرة صادقة: «أيها العرَّاف العجوز، ليس الأمر أنني لا أريد مساعدتك، لقد حنثت بعهدي مع المخصي من أجل إنقاذ حياتك، فلمَ لا أساعدك؟ لكني لا أستطيع مساعدتك الآن، فالجميع على علم بأن علاقتنا كانت جيدة طوال حياتنا، لذلك لا جدوى من قول أي شيء. فقط سيسخرون مني لأنني أدخن سجائرك وأشرب خمرك وأساعدك على نشر الشائعات. أنت شخص فطن، فكيف لك ألا تستوعب هذه الحقيقة؟».

عندما رأى جدي صامتاً، تابع يقول: «أيها العرّاف العجوز، أنصحك بتجاهل هذا الأمر، والتفكير بإيجابية، لا تقلق بشأن ما يقال، ولا تبرر نفسك طوال الوقت، فهذا سيزيد الأمر إحراجاً لي ولك. هناك أمور يجب أن تتقبلها كقدر محتوم، ربما تكون هذه أزمة تواجهها في حياتك، ولأنك لا تستطيع تجنبها، فعليك أن تتحملها».

نظر الجد إلى الشرطي العجوز متوسلاً: «هل يمكنك مساعدتي بالتفكير في طريقة أخرى لتجاوز هذه الأزمة؟».

شعر الشرطي العجوز بخيبة أمل لأن جهوده ذهبت سدى، فنهض مغادراً وهو يقول: «الحل الوحيد هو تقبُّل الأمر!».

ثم سار وهو يشتم ويقول: «أنت شخص أناني، تفكر دائماً في سمعتك، وتضع سمعتك فوق كل اعتبار، اللعنة، السمعة لا قيمة لها! لقد كنت أعيش كالكلب في البداية، وها هو ذا المخصي يعيش الآن ككلب ضال، والأعمى الصغير قد صار عاجزاً لا يستطيع حتى مسح مؤخرته بعد التبرز، لكننا جميعاً لا نزال نعيش حياتنا كما هي. ولو فكرنا بطريقتك نفسها لكنا قد متنا جميعاً، وبقيت وحدك على قيد الحياة».

رأيت جدي متسماً مكانه كدجاجة خشبية، تبدو على وجهه أمارات القلق والاضطراب، وكأنه يواجه كومة من الفضلات -فضلات الأعمى الصغير- وعليه أن يأكلها، ولا سبيل أمامه سوى ذلك. شعرت كأن جدي فقد عقله، ثم تأكدت من ذلك لاحقاً، ففي أحد الأيام حمل سلة من الذرة، وطلب مني أن أرافقه لزيارة بيت الأعمى العجوز.

قلت: «ألست تكره ذلك الأعمى الصغير أكثر من أي شخص آخر؟ لم تذهب إلى منزله؟».

قال: «أريد أن أتحدث مع والده في أمر ما». كان قد اختار هذا التوقيت مسبقاً، تحديداً الوقت الذي يغادر فيه الأعمى الصغير البيت. عندما وصلنا إلى منزله، أعطى جدي للأعمى

العجوز سيجارة أولاً، وسأله عن حاله، ثم أقر بخطئه، معترفاً بأنه لم يكن في وعيه عندما وصف ابنه الأعمى الصغير بأنه شاذ. كان ذلك موقفاً مخجلاً بحق، حتى أنني شعرت بالخجل نيابة عن جدي. سحبته من ملابسه محاولاً إسكاته. لم يعرف ماذا أقصد، فحدّق في وجهي غاضباً. لحسن الحظ أن الأعمى العجوز لم يكن يرى أي شيء. وكان مشغولاً بشم رائحة الذرة التي جمعناها من الحقل مؤخراً، وأخذ يثني على جودتها كأنه يراها. قال جدي إنه قد جمعها للتو من الحقل في الصباح. كان جدي يسترضيه مثل خادم متملق، حتى أنني وددت لو كان بوسعي التبول على الذرة.

الأعمى العجوز أصغر من والدي بسنتين، لكنه يبدو أكبر سنّاً من جدي. شعره أشيب، ولحيته شعناء، وتظهر على وجهه علامات سوء التغذية، ملابسه مهلهلة، ويرتدي حذاء قماشياً مثقوباً من الأمام، وسروالاً قصيراً ممزقاً تتدلى خيوطه من الأطراف. كان مثيراً للشفقة، لكنني لم أشعر بالشفقة عليه، فابنه الأعمى الصغير قد روج الشائعات وأضر بسمعة عائلتنا عمداً، كنت أكره عائلتهم كلها، لذلك عندما رأيت هيئة الأعمى العجوز البائسة، لم أشعر بسوى السعادة.

كان الأعمى العجوز يقرأ الطالع للناس، وله طريقته الخاصة في الكلام. قال وعيناه البيضاوان تحدقان إلى الأعلى، وأصابع يده اليمنى تعبت بأصابع يده اليسرى كما لو كان يعبث بقلب جدي: «أعتقد أنك لم تأت إليّ من أجل قراءة الطالع، لا بد أنك هنا للتحدث مع ابني. لقد خرج للتو، ولو كان لديك أي شيء تقوله، يمكنك أن تخبرني، وسأخبره لاحقاً». عادةً ما كان جدي فصيحاً مفوهاً، لكنه في هذا اليوم كان عاجزاً عن النطق. كان يتكلم بطريقة غامضة ومتردة وغير منظمة. لقد استغرق الأمر مني وقتاً طويلاً لفهم ما يقوله. قال إنه سمع من مصادر عديدة أن الكلمات الموشومة على بطن العقيد ليست هي نفسها الكلمات التي كتبها

الأعمى الصغير على اللوحة في المرة الأخيرة، وأنه يعتقد في الوقت نفسه أن الأعمى الصغير يعرف الكلمات الحقيقية الموشومة على بطن العقيد، ويأمل أن يقنع الأعمى العجوز ابنه ليخبره بحقيقة تلك الكلمات. قال جدي: «لطالما كان المخصي يعاملك جيداً في الماضي، فلا ترموه بالباطل».

الأعمى العجوز: «لَمْ تقول إن ما قاله ابني باطل؟»
جدي: «لأنه لا يمكن أن يكون شاذاً، أخبرني أحدهم بذلك».
الأعمى العجوز: «ومن الذي أخبرك بذلك؟».

لوّحت لجدي بيدي أطلب منه أن يتوقف عن الكلام، ولكن بعد التفكير بعض الوقت، قال جدي إن من أخبره هو الشرطي العجوز. غضبت بشدة، ورمقته بنظرات كنظرات عيني الأعمى العجوز البيضاءين.

قال الأعمى العجوز: «هو رجل قد يبيع نساءه للآخرين مقابل قدحين من الخمر، فما بالك بأن يطلب منه شخص أن يشهد زوراً؟». كان هذا ردّاً عدوانياً بعض الشيء، لكن جدي لم يتراجع عما جاء لأجله، واستمر يحاول إقناعه.

قال جدي: «لو كانت هي الكلمات نفسها التي رُوِّج لها ابنك، لما فعل به المخصي ما فعله، فتلک ليست جريمة، إذن لَمْ أسكت المخصي ابنك بتلك الطريقة؟».

قال الأعمى العجوز ضاحكاً: «أنت شخص مثير للسخرية، ما دام الأمر لا يستحق كما تقول، فلمَ أنت قلق بشأنه هكذا؟ هذا الأمر لا علاقة له بعائلتك، فلمَ تكلف نفسك كل هذا العناء؟».

علمت أن الأعمى العجوز يسخر من جدي، وأنه يريد تحويل مجرى الحديث لمصلحته. زاد غضبي، وحاولت سحب جدي من ملابسه ليفادر، لكنه دفعني بعيداً مرة أخرى. كان يتصرف بسذاجة شديدة، فالأعمى العجوز يسخر منه، أما هو فلا يزال يسترضيه. زاد غضبي حتى أنني

تجاهلته ومشيت بعيداً، وتركته يُحرج نفسه كما يرغب. لذلك لم أعرف ما الذي دار بينهما لاحقاً، ولا أريد أن أعرف. شعرت أن جدي أخرجني بشدة، تماماً كما سبق أن قال ذات مرة: هذا أشبه بشخص عقله في مؤخرته، يتسوّل للحصول على القاذورات كي يأكلها.

وبالفعل، عندما عاد جدي لاحقاً، بدأ يسب ويلعن بمجرد دخوله المنزل: «يا له من ابن عاهرة! الرب عادل حقاً، مثل هذا الشخص يستحق أن يكون أعمى. أنا أيضاً أعمى، كيف لي أن أذهب لأحصل على العسل من فم اللئيم؟».

خرجت من غرفتي وانتابتي رغبة في أن أقول له: أنت أشبه بشخص عقله في مؤخرته، يتسوّل للحصول على القاذورات كي يأكلها. ولكن عندما خرجت، رأيت وجه جدي منتفخاً محمراً من شدة الغضب، خفت منه جداً حتى أنني لم أجرؤ على قول كلمة واحدة. رأيت كوحش جريح، مستعد للقتال حتى الموت. في ذلك اليوم فهمت حقيقة جديدة: الحاجز الوحيد بين كونك إنساناً أو وحشاً هو الغضب.

(61)

كان الطريق مبنياً على طول ضفة النهر، ولأن في ضفة النهر منعطفات عديدة، كان الطريق ملتوياً أيضاً. أنا أتحدث عن الطريق السريع، الواصل إلى الجبل، ثم ينقسم بعد وصوله عند يانكو إلى فرعين. يمكن أن يأخذك أحدهما إلى يونفكانغ، ودونغ يانغ، ويوو، وجينهو، موطن الحدادين والنجارين، وسيأخذك الآخر إلى شياوشان، وتشوجي، وشاوشينغ. إذا سرت نحو ضفة النهر -نهر فوتشون- يمكنك الذهاب إلى المدينة، والمحافظة، بل حتى إلى هانغتشو، وسوتشو، وشنغهاي. تقع المحافظة عند شمال النهر، وتقع قريتنا جنوب النهر، لذلك علينا ركوب العبّارة لعبور النهر. تعبر العبّارة مرة واحدة كل ساعة، وهي كبيرة بحجم ملعب كرة السلة ويمكنها حمل سيارة جيب على متنها.

قال جدي: «لم تكن هناك عبّارات أو طرق سريعة في الماضي، فكل هذه الأشياء من صنع اليابانيين. عندما وصل الغزاة اليابانيون إلى هانغتشو، كان جسر نهر تشيانغ قد بُني للتو، لكن فُجّر لمنع الغزاة اليابانيين من عبور النهر. تقدّم اليابانيون على طول النهر، بحثاً عن مكان للعبور. وبالفعل وجدوه عندما وصلوا إلى محافظتنا، فالنهر هنا ضيق، ووضفتاه مستويتان، وهنا بنوا رصيفاً، وعبروه بالعبّارة. حملت العبارة دباباتهم وقواتهم عبر النهر، ساروا يقتلون ويحرقون وينهبون على طول الطريق، متجهين نحو مدن جينها وويونغكانغ، فهناك يقع مقر حكومة المقاطعة المنقول حديثاً، وهناك تتمركز أيضاً قوات الكومينتانغ الرئيسية. لم تكن القوات الرئيسية ندّاً لليابانيين، فاضطرت إلى الفرار. أولئك الذين فروا بسرعة ذهبوا إلى جيانغشي، في حين اضطر الذين فروا ببطء إلى الاختباء في الجبال القريبة. الجبل الأمامي كبير كالبحر، وهو مكان مثالي للاختباء، تفرّق المئات في الجبال والتلال، وكانوا يخرجون بين الحين والآخر لشن كمائن، وإحداث بعض الفوضى. بعد أن اكتشف اليابانيون الوضع -بمساعدة الخونة- أرسلوا طائراتهم ودباباتهم لقصف المنطقة دون تمييز، ما أدى إلى حرق عديد من قمم التلال في الجبل الأمامي وتحويلها إلى رؤوس صلعاء. غادرت الطائرات بعد إلقاء القنابل، لكن الدبابات لم تتحرك، بل اصطفت متمركزة بجانب النهر أكثر من عشرة أيام. أما أبناء القرية، ففرّ منهم من تمكن من الفرار، واختبأ البقية في معبد قوائده، يتضرعون لبوذا كي يحميهم. لم يخذلهم بوذا، وأرسل الراهب العجوز للتنافس مع قائد القوات اليابانية، واتفقا على أن يسحب القائد قواته ولا يُلحق بهم أي ضرر حال فرار الراهب، أما لو فاز القائد فيحق لليابانيين قتله وحرق المعبد. وكانت النتيجة هزيمة القائد الياباني هزيمة نكراء، فاستسلم وتراجع بقواته، ومن ثم نجا المعبد والمختبئون داخله من تلك الكارثة».

ولكن بعد مرور أكثر من عشرة أيام، تعرضت القرية للتدمير على يد اليابانيين. التهموا الحبوب جميعها عن آخرها، وذبحوا جميع الماشية عن آخرها، ونهبوا الأشياء الثمينة كلها عن آخرها، وهذه هي ما يطلق عليها سياسة «الثلاثة عن آخرها» اليابانية التي كان جدي يتحدث عنها في كثير من الأحيان. عندما كان الشرطي العجوز يتحدث عن هذه السياسة، كان يضيف عنصرًا آخر إلى «عن آخرها»، ويقول: «اغتصبوا النساء جميعهن». كثيرًا ما سمعت الشرطي العجوز يقول إنه عندما دخل الغزاة اليابانيون القرية، هربت النساء جميعهن، لكنهم أسروا أكثر من اثنتي عشرة امرأة من القرى المجاورة، وحبسوهن في قاعة الأسلاف، واغتصبوهن جماعياً ليلاً ونهاراً. عندما انسحب اليابانيون، تركوا جثتين داخل قاعة الأسلاف، إحداهما لفتاة صغيرة والأخرى لامرأة عجوز، عاريتين تمامًا، وبدا أنهما تعرّضتا للاغتصاب حتى الموت.

قال الشرطي العجوز: «هناك مقولة قديمة مفادها: الطفل لن يموت من البكاء، والشاب لن يموت من التعب، والمرأة لن تموت من الجماع. لكن هاتين المرأتين لا تصلحان للجماع، فأحدهما لم تصل إلى سن الجماع بعد، والأخرى قد فاتها سن الجماع. إن اغتصاب النساء بهذه الطريقة يُظهر أن اليابانيين ليسوا بشراً، بل وحوش، وإن شئت فقل أسوأ من الوحوش».

لم يخبرني جدي بهذه الأشياء قط، ربما لأنه كان خائفاً من أن تتلوث أفكاره. قال جدي: «كانت بداية إنشاء الطريق السريع بسبب تعبيده بالدبابات اليابانية، فالدبابة الواحدة تحتوي على عشر بكرات، تلك البكرات تترك أثاراً أينما حلت. وبعد بضع مرات من عبورها، تشكل الطريق تلقائياً. في الماضي، كان الطريق أرضاً طينية جفت، كان وعراً وغير مستو. عندما يمر فوقه الناس في الأيام المشمسة والجافة يتطاير الغبار في كل مكان على جوانبه، وفي الأيام الممطرة، يكون موحلاً زلماً.

وبعدما أُسِّست الصين الجديدة، وأصبح العمال هم قوام الدولة، دعت الحكومة الجميع إلى بناء الطرق، وتسويتها، وتغطيتها بطبقة من الحصى، بحيث تمتص الماء على الأقل في الأيام الممطرة، حتى لا يلتصق الطين بالأقدام. استُخرجت الحجارة من الجبال عن طريق التفجير، بعد ذلك سُحقت باستخدام كسارة الصخور. كانت بالحجم نفسه تقريباً، لكنها كانت متنوعة الألوان: معظمها رمادي وبني، وقليل منها أبيض، وهناك عدد قليل للغاية بلون الألواح الحجرية السوداء. لكن في الأيام الممطرة، كانت الألوان جميعها تختفي، وتتحول إلى قطع رطبة. أما في الأيام المشمسة، فتسطع الألوان كلها، ويعم الضوء السماء والأرض. وعندما تهب الرياح، يختفي ضوء الشمس، ويتلاشى السطوع أيضاً.

كان جدي يخرج في رحلة مرة كل شهر. عندما يسير جهة الجبال، يكون ذاهباً لزيارة عمتي الكبرى وعمتي الثالثة، وعندما يسير نحو ضفة النهر، يكون ذاهباً لزيارة بيت عمتي الثانية. في الماضي، عندما كان جدي يغادر في رحلاته تلك، يصبح بإمكانني رؤية العقيد قادماً إلى منزلنا، والآن، لا يزال جدي يغادر في رحلته الشهرية كعادته، لكن لم يعد من الممكن رؤية العقيد قادماً إلى منزلنا. ربما يكون والدي هو الشخص الوحيد في القرية الذي يعرف مكانه، لقد اعترف بذلك بنفسه، لكنني كنت أتمنى لو لم يكن يعرف. عندما كنت أفكر في أن والدي يعرف مكان العقيد، وأنه سيأخذ الشرطي العجوز لزيارته ذات يوم، ينتابني شعور أعمى بالخوف والقلق، وكأنَّ الشرطة ستأتي لاستجوابي في أي وقت.

فقدت القصيدة الثورية التي كتبها القائد «هُو» على جدار المدرسة لونها الأحمر الساطع الأصلي بعد تعرُّضها للشمس والمطر والرياح والثلوج، وأصبحت حمراء باهتة متسخة. السبب في تلك الأوساخ هو آثار الكرة، كنا نستخدم الكلمات المكتوبة على الحائط هدفاً لنصوب الكرة نحوه في أثناء حصة التربية البدنية، وفي الأيام الممطرة، تكون الكرة

مبللة وقذرة، ومع كل ضربة بالكرة، تترك علامة سوداء على الحائط. معظم العلامات السوداء كان يمحوها المطر، أو تجففها الشمس، لكن بعضها لم يمكن من السهل غسله ويبقى ثابتاً على الحائط مثل الكلمات، وهو ما جعلها تبدو متسخة. لم أكن أتذكر ذلك القائد «هو» في المعتاد، فقط في بعض الأحيان أتذكره عندما أرى تلك الكلمات.

وعندما أتذكره، أفكر في أمر العقيد، وأبي، ورجال الشرطة، فينتابني شعور بالخوف.

كنت أشعر أن شجاعتي تتضاءل أكثر فأكثر، على عكس قوتي، ففي العام الماضي لم أكن أستطيع حمل جدي، ولكن الآن أستطيع حمله إلى الطابق العلوي. بالطبع، جدي لا يحتاج إليّ لحمله، ولا يحتاج إلى الصعود إلى الطابق العلوي. أعني أن قوتي زادت كثيراً هذا العام، لكن شجاعتي لم تزد، وبدلاً من ذلك تضاءلت، وذبلت، وانكمشت، مثل جسد جدي. فبعد ذلك المرض الذي كاد يودي بحياته، صار جسده نحيلًا، وأصبحت الملابس التي كان يرتديها فضفاضة بشكل واضح. عندما نظرت إليه من الخلف، كانت الرياح تملأ ملابسه من الاتجاهات جميعها، فصارت كأنها ترفرف وسط الرياح، في مشهد يوحي بالوحشة والعزلة. قال جدي: «عندما يهزل الحصان يبدو وبره طويلاً، وعندما ينحف الإنسان يبدو فمه كبيراً». وبالفعل، اكتشفت أن فمه وعينه صارت أكبر قليلاً بالفعل، كما لو كانت تتماشى مع حقيقة ما قاله. لكن بالرغم من أنه صار نحيفاً، فإنه كان في حالة معنوية جيدة. يخرج كل يوم كعادته، يذهب إلى قاعة الأسلاف أو الدكان، ويخرج كل شهر في رحلة لزيارة بيوت بناته، ويقضي وقتاً هائناً عندهن. أما أنا فكنت أقضي أيامي كالعادة برفقة كتب الواجبات المنزلية، والأرانب التي أربيها. أنا الآن في السنة الثالثة من المرحلة الإعدادية. درجاتي ليست جيدة ولا سيئة، ولكن يجب عليّ أن أحسن درجاتي لضمان الالتحاق بالمرحلة الثانوية. كنت على يقين

بأنني لن أتمكن من الالتحاق بالمرحلة الثانوية، لذلك بدأت بالتراخي والاستسلام قبل نهاية العام الدراسي الأخير، وكنت أقضي أيامي بلا عمل مفيد، مثل الراهب الذي يتظاهر بقرع الجرس، بل حتى أنني كنت أفضل في التظاهر بشكل صحيح، وغالبًا ما كنت أختلق الأعذار المختلفة للتأخر عند المدرسة أو مغادرتها باكراً. ومع حلول شهر أكتوبر (حسب التقويم الميلادي) يتحول لون ثمار الكاكي البرية فوق الجبل من الأخضر إلى الأحمر تدريجياً، ويتغير طعمها من الحامض اللاذع إلى الحلو الحامض. وقبل أن تصبح حلوة تماماً، تختفي عن آخرها دون أن يتبقى منها ولا واحدة. كانت حصة التربية البدنية في ظهر ذلك اليوم الحصة الأخيرة، فخططت أنا والنمر القزم لتمثيل مسرحية، كان هو مسؤولاً عن التظاهر بالإصابة، وكنت مسؤولاً عن توصيله إلى المنزل. مثّلنا المسرحية بإتقان. جلس النمر القزم وسط حفرة من الرمال، وأمسك بإحدى قدميه وهو يبيكي. أبلغت المعلم ثم حملته على ظهري عائداً إلى المنزل، ثم أنزلته بمجرد أن غادرنا بوابة المدرسة، فركض أسرع مني، بعدها صعدنا الجبل من عند ذيل النمر، واتجهنا مباشرة نحو مؤخرة النمر.

هناك أمر محظور بين القرويين يقضي بعدم جواز الاقتراب من مؤخرة النمر، لذلك لم يكن أحد يجروء على استخدام الأدوات الحادة في تلك المنطقة من الجبل التي تسمى ذيل النمر، لذلك ظلت تلك المنطقة غابة بكراً، فنمت وترعرعت الأشجار والكروم هناك، وتحولت إلى غابة كثيفة، حتى الرياح لا تقدر على اختراقها. وكلما كبرت الغابة، تكاثرت بها أنواع الطيور كلها، ونمت بها أنواع الأشجار والفواكه جميعها. وفي الربيع، كنا نأتي إلى هنا لجمع التوت، وفي الصيف نجمع الخوخ البري، أما الآن فهو موسم الكاكي البري. صعدنا إلى الشجرة وهزنا الأغصان بلطف، فكانت ثمار الكاكي الناضجة تتساقط، ولو هزناها بقوة، فستساقط منها الثمار النيئة، وهذا أمر نعدّه غير أخلاقي. مخطئ من يظن أننا

أطفال متوحشون عديمو الأخلاق، فالأخلاق التي سنّها أسلافنا محفورة داخلنا، مثل الشامة التي لا يمكن محوها، هذه الأخلاق يجب على الجميع أن يتبعها، خاصة المتعلقة بمؤخرة النمر. ما الأخلاق التي أتحدث عنها؟ يجوز لك أن تفعل أشياء تضر الآخرين لكنها تنفعك، ولكن لا يجوز لك أن تفعل أشياء تضر الآخرين ولا تنفعك. نهز الأشجار بلطف ليتساقط الكاكي الناضج كي نأكله، وهذا يضر بالآخرين لكنه ينفعنا، فلا بأس في ذلك. لو هززنّا الأشجار بعنف، وأسقطنا ثمار الكاكي النيئة، فحتى الماشية لن تأكلها، وستُترك لتتعفن، ويأكلها الذباب والبعوض، وهذا أمر ضار لنا وللآخرين، لذا فهو غير أخلاقي.

لكننا جئنا قبل أوان نضج ثمار الكاكي المعتاد، ولم نجن سوى قليل منها. بعدما تناولناها، شعرنا بخدر في ألسنتنا كما لو أنها فُركت بورق صنفرة، وهو ما يعني أنها لم تكن ناضجة تمامًا. اتفقنا على العودة بعد يومين، وعدنا يومها محملين بخيبة الأمل. وبعد أن نزلنا من الجبل، صادفنا في طريقنا الأعمى الصغير بالقرب من معبد قواندي، وبدأ يصيح نحونا بأصوات غير مفهومة، لم نعرف ما الذي يحاول قوله، فهو الآن كالأخرس لا يستطيع الحديث، ولكن من تعبيرات وجهه كان بوسعنا معرفة أنه سعيد للغاية. تساءلت في نفسي: هل من الممكن أنه يكون قد ذهب للتو إلى معبد قواندي ليعترف بذنوبه، ويطلب من الإله قوان قونغ أن يغفر له، وأن يمن عليه بالشفاء؟ لكنني فكرت ثانية، كيف يكون ذلك ممكنًا؟ لقد دُمّر تمثال قوان قونغ، وكان هو الذي تزعم عملية تدميره، فكيف سيمن عليه بالشفاء؟ وبهذا فلن تكون هناك فرصة لشفائه إلا بعدما ينتقل إلى العالم السفلي، كان هذا هو أيضًا رأي جدي والشرطي العجوز. نادرًا ما كان الاثنان يتفقان على أي شيء، لكنهما كانا متفقين بخصوص هذا الأمر. وفي النهاية، فكرت أنه ربما كان سعيدًا لأنه عثر على بعض الطعام داخل المعبد.

قال جدي: «بالنسبة إلى المعبد، فمهما تعرّض للتدمير، فسيظل هناك من يذهب إليه لتقديم القرابين، حتى إن كان يعلم أن المشردين سيسرقونها».

على مدار العام الماضي، عانت عائلة الأعمى الصغير فقراً مدقعاً، فقد أنفقوا كل أموالهم على علاجه دون أن تتحسن حالته، وصارت العائلة على وشك الإفلاس. لم يكن بوسعهم حتى تحمّل تكلفة ثلاث وجبات كل اليوم، وغالباً ما كانوا يعانون الجوع. والجائع لا يكثرث لماء وجهه، فالشيء الأهم هو الحصول على طعام، لذلك صار الآن يذهب في كثير من الأحيان إلى معبد قواندا لسرقة القرابين. وكان أيضاً يسرق اللحوم المملحة وبراعم الخيزران المجففة المعلقة تحت أفاريز نوافذ بيوت الآخرين، بل يسرق حتى بقايا الطعام. لو كان بإمكانه تسلق الأشجار، لما كان بوسعنا قط الحصول على أي ثمرة من الفاكهة البرية التي تنمو فوق الجبل. وبسبب معاناته الجوع، فقد صار الحصول على الطعام همه الأول، وسيكون سعيداً للغاية لو تمكّن من الحصول على بعض الطعام من داخل معبد قواندي. لذلك لم أكن أعتقد أن هناك شيئاً آخر من شأنه أن يجعله سعيداً جداً مثل الحصول على الطعام.

عندما وصلت إلى المنزل، كانت والدتي قد أعدت الطعام بالفعل ووضعت على الطاولة. كان البخار يتصاعد منه، دون أن يأتي أحد لتناوله. كان جدي يجلس أمام باب الغرفة الشرقية، يدخن سيجارة، وكان والدي يقف أمام الغرفة الغربية، ويخفض رأسه ويدخن أيضاً، ويفصل بينهما الفناء بأكمله. كان بإمكانني أن أرى وأشعر من ملامحهما الباردة أنهما مهمومان، وأن هناك حاجزاً من الكراهية بينهما. شعرت بخوف شديد لدرجة أنني لم أجرؤ على التقدم إلى الأمام للدخول إلى الفناء، وكأن الفناء خندق ممتلئ بالدماء. لم أعلم ماذا حدث، واستمر الأمر على هذا النحو إلى أن اكتشفت قبل ذهابي إلى الفراش ليلاً أن العقيد قد قبضت عليه الشرطة!

(62)

على بُعد قرابة عشرة أميال من قريتنا جهة الجبل، توجد قرية صغيرة تسمى تشينوو، حيث تزوجت عمتي الكبرى، وعلى بُعد قرابة عشرة أميال من قرية تشينوو جهة الجبل توجد قرية كبيرة تسمى قرية لوه، حيث تعيش عمتي الثالثة. ومع حلول عيد الربيع كل عام، كنت أذهب برفقة جدي إلى بيوت عماتي لمعايدتهن. لم أكن أحب الذهاب إلى بيت عمتي الثالثة، لأنه بعيد جداً. لكن لا بد من الذهاب، حتى إن كان هذا ضد رغبتي، فهذه صلة رحم. بعد زيارة هاتين القريتين مرات عدة، أصبحت على علم ببعض أحوالهما، على سبيل المثال: لم تسمى قرية لوه بهذا الاسم؛ هل لأن جميع سكانها من عائلة لوه؟ لا، فكلمة «لوه» تعني الإبل، وهو ما يعني أيضاً أن هناك نقصاً في المياه في هذا المكان، وقد صار القرويون هنا مثل الإبل، يبحثون عن الماء في كل مكان. لا توجد هنا أنهار كبيرة، فقط جدولان جبليان صغيران، غالباً ما يجفان، وبحلول الشتاء، لا يكون بهما ماء كاف لملء وعاء واحد، ولذلك حضر أصحاب كل منزل هنا كل صهرجاً مائياً أمام المنزل أو خلفه لتخزين المياه.

قال جدي: «نقص المياه في قرية لوه مرتبط بالجبال المنخفضة هنا. ففي الواقع، أو بالمعنى الدقيق للكلمة، لا توجد جبال هنا، فقط سلسلة من التلال تسمى تلال العلق، ما يعني أنها مثل العلق، طويلة ورقيقة، كما لو كانت قابلة للتمدد، وبمجرد أن تصعد إليها لن تتمكن من النزول مدة من الوقت. العلق يختلف عن البعوض والحشرات الأخرى الحذرة التي تلدغك وتهرب بمجرد أن تصدر عنك أي حركة، فهو غبي ولصيق، وبمجرد أن يلتصق بجسدك، لن تتمكن من التخلص منه، وفعل ذلك يتطلب الصبر والمهارة، يجب عليك حكه ببطء حتى يشعر بالخطر، حينها فقط يمكنك

التخلص منه. في كثير من الأحيان كان غرباء كثيرون يقعون في فخ تل العلق، يصعدون إليه دون تناول طعام كافٍ، فتتضوّر بطونهم جوعاً، لأنهم لا يمكنهم النزول منه إلا بعد السير مسافات بعيدة، ووقتاً طويلاً.

تقع تلال العلق الطويلة وسط سلاسل الجبال والتلال التي تشبه البحر، وهي أشبه بالمضيق، ما يجعلها مناسبة للغاية لتكون بمنزلة حدود فاصلة. الجزء الخلفي من التلال هو الخط الحدودي. على هذا الجانب توجد محافظتنا، وعلى الجانب الآخر توجد محافظة شياوشان المجاورة. بعد النزول من الجبل، تكون أول قرية تصادفها هي قرية تشن الصغيرة التابعة لمحافظة شياوشان، تقبع وسط الوادي الجبلي. وبعد الخروج من الوادي، تكون أول قرية تصادفها هي قرية تشن الكبيرة، وهي إحدى زوايا سهل هانغتشو-جياشينغ-هوتشو. يمكن للقرى الواقعة عند السهول أن تتوسع إلى ما لا نهاية. لذلك كانت قرية تشن الكبيرة ضعف حجم قريتنا، ويسكنها ما يقرب من عشرة آلاف شخص، وربما تكون أكبر قرية في محافظتنا- لا أعلم»، هكذا قال جدي.

قال جدي: «من السهل إخفاء الأشخاص وسط عدد كبير من الناس، تماماً مثل أوراق الأشجار المختبئة بين أوراق الأشجار الأخرى، من الصعب للغاية العثور عليها».

العقيد حاذق للغاية، فكيف يمكنه ألا يفطن إلى تلك الحيلة؟ لذا ذهب واختبأ في قرية تشن الكبيرة، واستقر مع والدته المُسنة في معبد قديم هناك. وتصادف أن كانت والدته العقيد قد تعرّفت إلى عدد كبير من رهبان هذا المعبد عندما كانت تتعبّد في جبل بوتو. هذا الراهب الكبير كان يعاني ورماً في ظهره، وكان الورم ينمو بلا توقف، إلى أن أصبح الآن بحجم ثدي امرأة عجوز يتدلى من ظهره، ويتأرجح في أثناء سيره. يا لها من مفارقة! فبالرغم من اتساع هذا العالم، فإن العقيد قرر اللجوء إلى هذا المكان دون غيره، والسبب هو أنه علم بحالة هذا الراهب، ويعلم

أن بإمكانه مساعدته في التخلص من هذا المرض، حينها سيصبحان صديقين، ومن ثم يمكنه البقاء هناك.

ليست لشرطتنا أي سيطرة على هذا المكان، ولا توجد نشرات للقبض عليه في الشوارع، ولا أحد يعرف أنه مطلوب للعدالة. وعلى مدار أكثر من عام، ظل يكنس أرض المعبد صباح مساء، ويتلو الترانيم الدينية برفقة والدته ليلاً ونهاراً، حتى صارت براعته في تلاوة الترانيم تضاهي براعة الراهب الكبير، بل حتى أنه تعلم التحدث باللهجة المحلية الأصيلة لمحافظة شياوشان، وحلق رأسه، وارتدى ثياب الرهبان، فلم يستطع أحد أن يعرف من أين جاء، ولم يشك أحد في هويته. كان محبوباً من الجميع هنا، الجميع يحترمه ويقدره، حتى أنه عندما ذهبت الشرطة لإلقاء القبض عليه هو ووالدته في ذلك اليوم، تجمّع الرهبان معاً وسدوا الباب، رافضين السماح للشرطة بالقبض عليهما. لكن في النهاية، علم العقيد أن المقاومة لن تُجدي نفعاً، فأقنع الرهبان بالتفرق، ثم اقتادته الشرطة هو ووالدته في سيارة جيب وغادرت المكان.

عبرت السيارة تل العلق متوجهة نحو المحافظة، فمرّت في طريقها عبر قريتنا. وعند مرور السيارة، أوقفتها الشرطة أمام قاعة الأسلاف، ثم أنزلوا العقيد، وسمحوا له بالعودة إلى منزله مدة عشر دقائق لجلب الأشياء التي يحتاج إليها قبل إيداعه السجن. في ذلك الوقت كنت أتناول ثمار الكاكي برفقة النمر القزم عند مؤخرة النمر، لذلك لم أرَ مشهد اقتياد العقيد، ولكن معظم الناس رأوه، والذين لم يروه سرعان ما سمعوا به. وكان والدي، وجدي، والشرطي العجوز، وحتى الأعمى الصغير قد رأوه جميعاً بأعينهم.

قال جدي: «لقد أصبحت بشرته أكثر بياضاً، وجسده أكثر بدانة، كان أصلع، يرتدي ملابس تشبه ملابس الرهبان، يبدو كراهب بالفعل».

لكن في الحقيقة، كان مجرمًا ألقى القبض عليه، يداه مقيدتان، ورجال الشرطة يرافقونه في كل خطوة، لا يسمحون له بالتحدث إلى أي شخص، ولم يكن يتمتع بأي حرية على الإطلاق. أراد والدي أن يتقدم ليتحدث إليه، لكن الشرطة أبعدته؛ قفز الأعمى الصغير أمامه، وحاول أن يبصق عليه، لكن الشرطة أبعدته أيضًا، بل ووبّخته. كانت الشرطة ترافقه وتحميه كأنه ملكية عامة. لم تنزل والدته من السيارة، بل دفنت رأسها وبكت في صمت، فلم تكن تجرؤ على البكاء بصوت عالٍ، ولو فعلت، ستوبّخها الشرطة وتطلب منها أن تصمت. لم يكن بالإمكان رؤية وجهها، كل ما يمكن رؤيته هو شعرها الأبيض الأشعث، وملابسها السوداء. كانت تختبئ خلف المقعد الأمامي، ترتجف باكية، مثل خروف أسود برأس أبيض محبوس في قفص ينتظر الذبح. رأى أحدهم أن يديها كانتا مقيدتين، ظهر جزء من الأصفاد الفضية اللون من أسفل أكمامها السوداء، فبدت كأساور فضية. في تلك الليلة، كان الجميع في القرية يسأل السؤال نفسه: كيف اكتشفت الشرطة مكان اختباء العقيد؟ كان جدي يشك في أن الشرطي العجوز هو من سرّب الخبر، فوالدي كان قد سبق أن اصططحبه معه لزيارة العقيد في المعبد. مكتبة سُرّمن قرأ

قال جدي: «هذا شخص لا يمكنه التحكم في فمه، عندما يسكر، قد يتفوّه بأي شيء».

قال والدي: «لا أصدق هذه الشكوك، وتلك الكلمات الموشومة على جسد العقيد هي خير مثال لذلك».

قال جدي: «هذا صحيح فعلاً، فهو لم ينطق بكلمة واحدة تخص ذلك الوشم على مدار أكثر من عشرين عاماً».

قال والدي: «لا أعتقد أنه قد يتحدث عن أي شيء يخص العقيد، حتى إن قتلته».

سأله جدي: «وهل أخبرت أحداً غيره إذن؟».

أجاب والدي حانقًا بصوت عالٍ: «أتظن أنني طفل في الثالثة؟».

قال جدي: «لَمْ تتحدث بصوت عالٍ؟ هل تخشى ألا يسمعك الناس؟ اسمعني جيدًا، عليك أن تتظاهر بأنك لا تعلم أي شيء، فالشرطة ستعتقلك حال علمت أنك كنت على علم بالجريمة ولم تبلغ عنها. أليست والدته مثالاً لذلك؟ لَمْ يعتقلونها؟ تهمتها هي التستر على مجرم، فالتستر على المجرم جريمة، ألا تعلم ذلك؟».

كانا يتحدثان في القاعة الأمامية، وكنت أنا كنت مُستلقيًا على السرير في الغرفة الجانبية، أستمع وأفكر. وبالرغم أن أحدًا منهم لم يتحدث عن الأمر، وبالرغم من أنني لم أرَ شيئًا، فإن هناك مشهدًا كان يتبادر إلى ذهني دائمًا: القرويون يخرجون من الزقاق في مجموعات، ويتجمعون عند باب قاعة الأسلاف، ويلتفون حول سيارة الشرطة الجيب، في انتظار عودة العقيد، وعندما يعود العقيد، لا ينظر أحد إلى وجهه، بل يحدقون في بطنه، يمنون أنفسهم لو كانت نظراتهم قادرة على إنزال سرواله. ليس الأمر أن الجميع لم يتعاطف معه، أو أراد السخرية منه، لكنهم كانوا يريدون إشباع فضولهم. أنا أيضًا كذلك، فعندما سمعت أن الشرطة اقتادته إلى هنا، شعرت بالكراهية تجاههم فجأة، وفي الوقت نفسه، كنت أتمنى أن يُنزلوا سرواله لأتمكن من رؤية الكلمات الموشومة على بطنه. كل ما كنت أفكر فيه هو بطنه، فقط بطنه، حتى أنني لم أعد أتذكر شكله. كانت الرياح تهب ضعيفة خارج النافذة، حينها شعرت بالإرهاق الشديد نتيجة تخيلاتتي الفوضوية تلك، حتى أنني فقدت القدرة على الاستغراق في النوم.

(63)

كان العقيد في غاية الذكاء، فالشرطة كانت قد ألقت القبض عليه بشكل مباغت، كان هجومهم سريعًا ومفاجئًا، وأنجزوا مهمتهم بسرعة، فلم يتمكن من أخذ أي من متعلقاته من المعبد. ولأنه اقتيد خالي الوفاض، نجح

في إقناع الشرطة بالسماح له بالعودة إلى منزله لجلب حاجياته، وكانت تلك فرصة ثمينة لا يمكن تفويتها، أراد استغلالها ليخبر والدي أن يذهب لأخذ قطيته. ولكنه لا يستطيع إخبار والدي بذلك علانية أمام الشرطة، فهم لن يسمحوا لأحد بالاقتراب منه، لذلك فكّر في طريقة لتوصيل تلك الرسالة إلى والدي، فترك لوالدي علامة سرية، ألقي بمنشفة تُستخدم لتحميم القطة عند باب المنزل بشكل عشوائي، ثم ترك الباب مفتوحاً. كانت خطته أن والدي عندما يرى باب بيته غير مغلق، فسيذهب لإغلاقه، وعندما يرى المنشفة على الأرض، سيتذكر القطة. وعندما تقدم الأعمى الصغير ليلصق عليه لاحقاً، انتهز الفرصة وظل يسب الأعمى الصغير قائلاً: «حيوان! حيوان!». وبينما هو يسبه، كان يرمق والدي بطرف عينه. أدرك والدي على الفور أن العقيد يذكره بأمر القطة، فعاد إلى منزل العقيد لتبين الأمر.

في البداية ظن والدي أن العقيد قد جلب معه القطتين إلى المنزل، ولكن عندما رأى المنشفة ولم ير القطتين، أدرك أن القطتين لا تزالان في المعبّد. وفي صباح اليوم التالي، ذهب والدي إلى قرية تشن الكبيرة، وأحضر معه القطتين، وكثيراً من متعلقات العقيد أيضاً. لم أعرف ما تلك المتعلقات، فقد خزنها والدي في غرفة العقيد، وأحضر معه القطتين إلى منزلنا. ومنذ ذلك الحين، صار في منزلنا عضوان آخران من آكلي اللحوم، وتقلصت فرصي في تناول لحم السمك المجفف كثيراً. لو قلت إن هناك أي شيء بخصوص العقيد يثير حنقي، فهو أولاً هاتان القطتان، ثم والدته العجوز الغريبة. لكن تلك المرأة العجوز صارت مثيرة للشفقة. لقد ظلت تتعبّد إلى بوذا طوال حياتها، لكن بوذا لم يهتم لشأنها، أو يكافئها بأي شكل، بل تركها تقبع داخل السجن في مثل هذا العمر.

وبمجرد حل مشكلة القطتين، طلب والدي من الشرطي العجوز أن يرافقه إلى المحافظة لزيارة العقيد.

كان الشرطي العجوز معتادًا الذهاب إلى مكتب الأمن العام بسبب المقامرة، لكن ذلك كان سببًا في أن يتعرف إلى أحد المسؤولين عن قطاع الخدمات في مكتب الأمن العام، الذي تبين أنه كان قريبًا له. هذا المسؤول كان يعامل الشرطي العجوز بحفاوة بالغة، دعاه ووالدي إلى الجلوس على الأريكة في مكتبه، وأعدَّ لهما الشاي، وقَدَّم لهما السجائر. ولكن عندما حدثه الشرطي العجوز عما جاء لأجله -زيارة العقيد- هزَّ رأسه رافضًا، وشرع يحاضرهم مثل المعلم، تمامًا كما لو كانوا داخل حجرة الدراسة. كان كلامه منصبًا على الانضباط الصارم والالتزام بالقوانين، مؤكدًا أنه لن يسمح لهما بطلب كهذا. عاد الاثنان خاليي الوفاض، مرهقين ومحبطين. عندما دخل والدي من باب المنزل، رأيت وجهه شاحبًا مثل ورقة ذابلة، ثم صعد على الفور إلى الطابق العلوي لينام، حتى دون أن يتناول العشاء. دعا جدي الشرطي العجوز لتناول العشاء معه، وجَهَّز له بعض الخمر، في محاولة منه لمعرفة ماذا حدث.

كان لدى الشرطي العجوز ما يريد أن يخبر به جدي، لذلك وافق على طلب جدي، وجلس يأكل ويشرب دون تحفُّظ.

شرع الشرطي العجوز يقول: «لقد عوملت كطالب في المدرسة الابتدائية اليوم، هذه جريمة كغيرها من الجرائم، كنت أعرف أن الجرائم تقسم إلى كبيرة وصغيرة، لكنني لم أكن أعرف أنها تُصنَّف إلى فئتين مختلفتين: مدنية وجنائية. وأن جرائم القمار، والدعارة، والسرقة، وحتى العراك، ما لم يُصب أحد بأذى أو ترق دماء تُعدَّ كلها جرائم مدنية. هذه الجرائم المدنية تُحال إلى مركز الشرطة، ويمكن لمعارف المتهم زيارته. لكن المخصي قد تسبَّب في إيذاء شخص ما عمدًا، لذا فهذه جريمة جنائية، ولهذا زُجَّ به في السجن، ولن يُسمح لأحد بزيارته قبل صدور الحكم عليه. إضافةً إلى ذلك، كان الشخص الذي آذاه هو أحد أفراد الحرس الأحمر، كما أنه ظل هاربًا أكثر من عام، أضف إلى ذلك تاريخه

السابق مع حزب الكومينتانغ، كل هذه أسباب فاقمت عاقبة جريمته، وأُدرج ضمن قائمة المجرمين الخطرين، وقد يُحكم عليه بالإعدام».

لم يكن جدي شخصاً جاهلاً، فهو يعلم أن لكل عائلة قواعدها الخاصة، ولكل دولة قوانينها الخاصة. الإصابة تظل إصابة مهما حدث، أما القتل فهو أمر مختلف. أخذ يعرض على الشرطي العجوز عدداً من الحقائق الواحدة تلو الأخرى ويناقشها معه، وخلص في النهاية إلى أن العقيد ليس مداناً بجريمة تستحق الإعدام.

لكن الشرطي العجوز قال: «إن الثوار هم من يمسون بزمام السلطة الآن، لذا فليس بمقدور أحد أن يتكهن بعقوبة المخصي».

جدي: «المدانون بالقتل فقط هم من يعاقبون بالإعدام، هذا هو قانون الدولة».

الشرطي العجوز: «أنت لست ممثلاً عن الدولة، لذلك لا يمكنك ضمان أي شيء».

جدي: «أضمن لك أن أقصى عقوبة قد يواجهها هي السجن مدى الحياة».

الشرطي العجوز: «السجن مدى الحياة أسوأ من الإعدام».

جدي: «أن تعيش حياة بائسة أفضل من أن تموت ميتة كريمة».

الشرطي العجوز: «كيف يمكنك أن تسمي العيش داخل السجن حياة؟ هذا ما يسمّى العيش وسط المعاناة».

جدي: «الحياة لا تخلو من المعاناة، وكونك إنساناً هو نوع من العيش وسط المعاناة».

الشرطي العجوز: «أنا لا أشعر بالمعاناة ما دامت لديّ سجاثر أدخنها وخمر أشربه».

استمرا في حديثهما ونقاشهما، وتطرقا في أثناء حديثهما إلى أمور أخرى، وفي النهاية لم يعرفا إلى أين وصلا بحديثهما، وهذه سمة كبار السن.

قال جدي: «الشباب لا يسيطرون على مشاعرهم، وكبار السن لا يسيطرون على أفواههم».

ولكن في هذا الوقت لم يستطع والدي أن يتحمل ثرثرتهم، بل وسعادتهم في أثناء الحديث! لذا غضب بشدة، وقفز من فراشه، ثم نظر من النافذة، وألقى بحذائه نحو الطابق السفلي وهو يسب ويلعن. أدرك الشرطي العجوز خطأه، فصنع وجهه بيده مرتين، وسكب الخمر على الأرض، ثم غادر في صمت. عندما رأيت نظرة الحزن والإحباط على وجه والدي، بدا كأنني أرى قلبه المكسور. والدي شخص صامت في الأصل، كثير التفكير قليل الكلام. ومنذ ذلك الحين أصبح أكثر صمتاً، لا يتحدث إلى أي شخص تقريباً، لا يتحدث إلا إلى القطط، وفي كل مرة أراه يتحدث إلى القطط، أشعر بالحزن والشفقة عليه.

وفي أحد الأيام، بينما كنت عائداً من المدرسة إلى المنزل، رأيت من مسافة بعيدة مجموعة من الناس متجمعين عند مدخل قاعة الأسلاف، ينظرون إلى شيء ما، لا بد أنه ملصق إعلاني. من الذي كتب هذا الملصق؟ فكّرت على الفور في أنه ربما كان الأعمى الصغير من كتبه. لكن ماذا كتب؟ لا بد أنه كتب ثانية عن كون العقيد شاذاً أو شيئاً من هذا القبيل. من المستحيل ألا يكون قد علم بأن جدي يبذل أقصى جهده لتكذيبه، ومن المستحيل أن يترك جدي يهزمه بهذه البساطة. وبعدما قبض على العقيد الآن، أصبحت الفرصة مثالية لضرب الحديد وهو ساخن. عندما فكرت في الأمر بهذه الطريقة، لم أجرؤ على الذهاب إلى هناك لرؤية المكتوب على الملصق، فأنا لا أريد أن أضع نفسي في موقف كهذا، وبالرغم من أنني متأكد أن المكتوب هو محض هراء، فإن معظم الناس يفضلون سماع الهراء بدلاً من الحقيقة. من قال ذلك؟ ربما كان المعلم، فمن المعلوم أنك لن تجد الحقيقة إلا عند الأقلية.

قال جدي: «كل كلمة هي مصباح مضيء».

معظم الناس في القرية أميون، لا يستطيعون حتى قراءة كلمة واحدة، وعقولهم مظلمة تمامًا، والتحدث إلى هؤلاء الأشخاص كالنفخ في قرية مثقوبة، لذلك فعلى الرغم من أن جدي أخبرهم مرارًا وتكرارًا عن حقيقة كون العقيد ليس شاذًا، فإن كلامه لم يُجدِ نفعًا. هذا هو السبب: الناس يحبون سماع الأكاذيب بدلًا من الحقيقة، تمامًا ككونهم لا ينادون بعضهم بعضًا بأسمائهم، بل بألقابهم.

كنت أمشي خفيض الرأس، أتمنى لو كان بإمكانني الطيران، لكن النمر القزم رأني من بعيد، فركض نحوي متحمسًا، وناداني بصوت عالٍ أشبه بنعيق الغراب:

«تعال وانظر، لقد أصدر مكتب الأمن العام إشعارًا يقول فيه إن العقيد خائن، وليس شاذًا».

ليس شاذًا؟ تحولّ صوت نعيق الغراب في أذني إلى صفير بلبل. ذهبت لألقي نظرة. كانت هناك قطعة من الورق الأبيض مكتوب عليها بخط اليد بفرشاة سوداء، كان بوسعي قراءة كل الكلام المكتوب، فقد كانت كل عبارة مكتوبة بطريقة أنيقة ومتقنة:

إعلان

وفقًا لمعلوماتنا، فقد انتشرت شائعة واسعة النطاق في القرية مضادها أن المعارض الثوري جيانغ جنغنان (الملقب بـ«المخصي») لديه وشم على الجزء السفلي من بطنه، هذا الوشم يشير بشكل مباشر إلى اتهامه بالشذوذ الجنسي. وقد تبين لنا أن الوشم حقيقي، لكن مضمونه زائف. فالمضمون الحقيقي للوشم يشير إلى أنه من كبار جواسيس اليابانيين الملاحين! وأنه خائن كبير للوطن! أتمنى أن يصحح الجميع موقفه، ولا ينشر معلومات كاذبة تجعل من خائن مثله ارتكب جرائم شنيعة مادة للسخرية وتؤدي إلى فقدان الروح الثورية البروليتارية.

هذا للإعلان.

عاش القائد العظيم الزعيم ماو!

تحيا الثورة الثقافية البروليتارية العظمى!

كان الختم الممهور أدنى الإعلان هو بالفعل الختم الأحمر الكبير الخاص بمكتب الأمن العام للمحافظة، والتاريخ المدوّن عليه هو تاريخ أول أمس.

قرأته مرارًا وتكرارًا من بدايته إلى نهايته، فشعرت أن كل كلمة مثل تعويذة سحرية، تجذب انتباهي وتداعب قلبي. كانت حالتي المزاجية معقدة، خليطًا بين السعادة، والارتباك، وحتى القلق. لكن بوجه عام شعرت بالسعادة والفرح والبهجة - الكلمات نفسها ذات النطق المتشابه في لهجتنا! وكما تعلم، فقد تسببت تهمة الشذوذ في معاناة كبيرة لعائلتنا بأكملها، وكان الأمر كأننا مصابون بنوع من المرض المخزي الخفي الذي يصعب تفسيره، فالتفسير يجعل الأمور أسوأ، والصمت في مواجهته هو بمنزلة الإقرار به. وبسبب هذا، كنت أشعر بالنقص الشديد، وكأنني أجُر خلف جسدي ذيلًا كبيرًا، أخاف دومًا أن يسحبني منه زملائي في الفصل، أو يدوسوا عليه. والآن، قُطع هذا الذيل تمامًا بواسطة هذا الإعلان، وانقضت الأيام التي عشت فيها في خوف وقلق نتيجة شعوري بالعار إلى غير رجعة!

(64)

كانت حالتي المزاجية هي أيضًا الحالة المزاجية نفسها لعائلتي بأكملها، خاصة جدي، فقد ذبح جدي دجاجة خصوصًا لهذه المناسبة، وأعدّ لنا طاولة من الطعام والشراب احتفالاً بهذا اليوم المميز. كانت الدجاجة شهية، دسمة، ثم وضعها أمامنا في وعاء فخاري، كانت الأجواء المبهجة في المنزل تعبّر عن السعادة التي تغمر قلوبنا. حتى قطنا العقيد

كان بوسعهما الشعور بأجواء البهجة تلك، فوقفتا في الفناء وذيلاهما منتصبان، تستمتعان بوجبتين من رؤوس الأسماك وذيلوها، فهما لا تأكلان الدجاج، ولكن كيف لجدي أن يعاملهما بطريقة سيئة في مثل هذا اليوم السعيد؟

حسنًا، لن أتحدث عن السعادة، سأحدث عن الشكوك. كيف أصبح العقيد خائفًا فجأة؟ يقول الإعلان إن لديه وشمًا أسفل بطنه، فما الكلمات الموشومة عليه؟ ولم نشرط الشرطة هذا الإشعار على وجه التحديد؟ وكأنَّ الشرطة فعلت ذلك خصوصًا لتبرئة ساحة عائلتنا، لماذا؟ كان والدي مهتمًا بالسؤال الأول، لكنه لم يستطع الإجابة عنه، وكان لجدي مهتمًا بالسؤال الثاني، لكنه أجاب عنه بجملة واحدة.

قال لجدي: «من الواضح أنه (العقيد) يريد مساعدتك، وبالطبع مساعدة نفسه أيضًا. لا بد أنك أخبرته عن نشر الأعمى الصغير ملصقًا إعلانيًا عندما ذهبت إلى قرية تشن الكبيرة لزيارته، أليس كذلك؟». عندما رأى والدي يومئ برأسه، تابع: «هذا الإعلان بمنزلة قذف روث البهائم في وجهه وفي وجهنا جميعًا، يا له من أمرٍ قذر! الشذوذ أشدُّ خزيًا من الإجرام، فالمجرم مجرد شخص شرير، لكنَّ الشاذ حيوان. من هذا الذي قد يصمت في مواجهة تهمة كهذه؟ وحتى إن لم يكن يهتم لأمرك، فعليه أن يفكر في نفسه، ويوضح الحقائق. كيف يُوضِّحها؟ الكلام الشفهي لن يفيد، ومن الأفضل توضيحها على شكل إعلان عام».

سأله والدي: «ولم استجابت الشرطة لطلبه بنشر هذا الإعلان؟». أجاب لجدي: «ألا تعرفه جيدًا؟ ذكاؤه منقطع النظير، ولا يوجد ما يشيه عن شيء يريد فعله. إضافة إلى ذلك، هذا ليس بالأمر الصعب، لو كنت مكانه لفكرت في طريقة لحله، فالأمر بسيط للغاية. ألا تريدون استجابتي؟ حسنًا، سأخبركم بكل شيء، ولكنَّ هناك شرطًا واحدًا، عليكم مساعدتي في توضيح حقيقة ما. وبالنسبة إلى الشرطة، فالأمر ببساطة

لا يعدو سوى كتابة إعلان، واستدعاء دراجة نارية للصقه في كل مكان. فلم لا يستجيبون لطلبه؟».

أعتقد أن ما قاله جدي منطقي للغاية.

بناءً على فهمي العقيد، فمن المؤكد أنه سيفعل هذا حتى إن لم يكن من أجل نفسه، بل من أجل والدي فقط. لقد ترعرعا معاً مثل الإخوة تماماً، وهو شخص شهم ومخلص للغاية، فكيف يمكنه أن يترك والدي يعاني وصمة كهذه؟ العقيد هو الرجل الأكثر شهامة في العالم، وجدي هو العجوز الأكثر بصيرة في العالم، أما والدي؛ كيف أقول ذلك؟ فكل ما أستطيع قوله إنه أكثر شخص صامت رأيت، فحتى في مثل هذا الوقت الاحتفالي، لم يكن يتحدث كثيراً. وبالمقارنة معه، كان جدي فرحاً مبتهجاً حتى أنه لم يتوقف عن الضحك والكلام، كل تصرفاته كانت متطابقة تماماً مع أجواء هذا اليوم السعيد. حتى عيناه القاتمتان الغائمتان صارتا لامعتين ساطعتين في هذا اليوم.

كانت ليلة خريفية منعشة، سماؤها صافية وهواؤها نقي، واختفى البعوض والذباب إلى حد كبير، واختفت أيضاً الروائح الكريهة في المجاري، فهذا هو أفضل أوقات العام. بعد العشاء، استمتعت أنا وجدي بهذا الوقت، جلسنا في الفناء وتبادلنا أطراف الحديث في أثناء تقشير الذرة لإعداد العصيدة في صباح اليوم التالي. أما والدي فلم يكن يتحدث، على الأقل ليس معنا. كان يحمم القطتين البيضاء والسوداء، فصارت البيضاء أكثر بياضاً والسوداء أكثر سواداً في ضوء القمر الفضي، وكان مواؤهما محملاً بالغضب والاستياء بما لا يتناسب مع هذه الليلة البهيجة. بعد تقشير الذرة، تراكت قشورها في الفناء، فانبعثت منها رائحة الحبوب العشبية الخفيفة، التي كانت تناسب أجواء هذه الليلة. لقد عاش العقيد مثل هذه الأيام من قبل، لكنه ربما لن يشهدها مرة أخرى في المستقبل. كان جدي يعتقد أن العقيد لن يُحكم عليه بالإعدام لأنه لم يقتل أحداً،

لكنه الآن يواجه بتهمة الخيانة، ونحن لا نعرف مدى خيانتة، لذا من الصعب الحكم عليه. قال جدي إنه في العام الذي استسلم فيه اليابانيون، كان الخونة يقفون في صفوف ويُعدمون رمياً بالرصاص على دفعات، وكانت الطلقات الفارغة تملأ الأرض في ساحات الإعدام، حتى أن بعض سكان القرية جمعوا تلك الطلقات الفارغة واستخدموا المبارد لثقبها لتحويلها إلى صفارات. كان صوت الصفارات حاداً للغاية، وكانت فعالة في تخويف العصافير بشكل كبير. أما لو ذهبت إلى حقول الأرز ومزارع الخضراوات في أثناء هذا الموسم، فسوف ترى الفزاعات في كل مكان، تتمايل مثل المهرجين، لماذا؟ لتخويف العصافير.

أخبرني جدي أن العصافير كانت رمادية اللون، تبدو مثل اللصوص، كما أنها نهمة للغاية. العصافير هي الأعداء الطبيعية للمزارعين، من الصعب طردها أو قتلها. أما طيور السنونو فهي سوداء اللون، وتبدو مخلصنة وفيّة، وهي حليف دائم للمزارعين، لذا كان المزارعون يتركونها تبني أعشاشها أسفل أفاريز منازلهم.

(65)

منذ نشر الإعلان، بدا الأمر كما لو أن مكتب الأمن العام قد حفر نافذة داخل قريتنا، فصرنا نسمع أخباراً عن العقيد من وقت إلى آخر. كانت هناك أقاويل كثيرة مختلفة، مثل وعاء من العصيدة الساخنة، يتصاعد بخار غليانها، ولا يُرى قعرها، وصار من الصعب الجزم بما هو صحيح وما هو زائف، وما الذي عليك تصديقه أو ما الذي عليك تكذيبه. تقول إحدى الروايات إن العقيد كان عنيداً لدرجة أنه علّق في زنزانه حديدية ليالي عدّة، وكُسّر عديد من ضلوعه، لكنه رفض الكلام وفضّل الموت على الاستسلام، وتقول رواية أخرى إن العقيد كان عميلاً سرياً لحزب الكومينتانغ، وإنه بارع في التعامل مع الشرطة، فقد استخدم الحيل لخداع

الشرطة، ولم يتعرض للضرب على الإطلاق، وتقول رواية ثالثة إن الشرطة استدعت خبيراً من المقاطعة، وإن هذا الخبير أحضر معه دواءً، هذا الدواء كان عديم اللون والطعم والرائحة، إذ خلطه بالماء، وأعطاه للعقيد ليشربه. وفي غضون عشر دقائق تحولَّ العقيد إلى شخص آخر، أجاب عن كل أسئلتهم، واعترف بكل شيء. كان لكل رواية من هذه الروايات من يصدقونها، ومن يكذبونها أيضاً، ولم تكن ذات مصداقية.

والشيء نفسه ينطبق على الكلمات الموشومة على بطن العقيد، بدا كأن الجميع يخمن لغزاً، لا يعبأ بأي شيء، ويخمن بشكل عشوائي، وتوصل إلى تخمينات عديدة في وقت واحد، مثل: أنا كلب تابع للجيش الياباني، عاش الجيش الياباني، الجيش الياباني جيش جبار، أنا خائن أستحق الموت، أنا لست مخلصاً، بل خائن، وما إلى ذلك. لقد كان الأمر كما لو أنهم كانوا يخمنون عبثاً، يقولون كل ما يخطر ببالهم، حتى أن البعض قالوا إن الموشوم على بطنه ليس جملة مكتوبة، بل خريطة، تلك الخريطة تحتوي على نقاط الاتصال السرية لجواسيس لجنة الاستخبارات العسكرية في شنغهاي في ذلك الوقت. حاول جدي مراراً أن يستفهم من الشرطي العجوز عن مدى صحة هذه التخمينات، فكان الشرطي العجوز يوبّخه قائلاً إن كل هذا محض هراء! وفي أحد الأيام، وقعت حادثة عراك في القرية، وجاء أفراد من مركز الشرطة لفضّ العراك، وتصادف أن تحدث أحد أفراد الشرطة عن العقيد، وألقى بياناً حول وشم العقيد عدّه القرويون ذا مصداقية، فانتشر كالنار في الهشيم، وغطى على كل التكهّنات الفوضوية السابقة، وصار البيان الأبرز. لم يتعرض هذا البيان لحقيقة تعرّض العقيد للضرب، أو تناوله دواء، فهذه مرحلة من مراحل الاستجواب، وقد تكون أيضاً سرّاً لا يجوز إفشاؤه. لم يتحدث ذلك الشرطي إلا عن النتيجة: لقد أراد العقيد الاستفادة من سياسة تخفيف العقوبة حال الاعتراف، واعترف بأنه هو الذي فعل ذلك بالأعمى الصغير؛

لَمْ فعل ذلك به؟ لأنه رأى الكلمات الموشومة على بطنه؛ ما تلك الكلمات؟ إنها كلمات بذيئة؛ ما تلك الكلمات البذيئة؟ لا يمكن قولها، لأنها بذيئة للغاية، لا يستطيع الشخص التلفظ بها، فهي مثل السم، لا يمكن لمسها، لأن لمسها سوف يلوث فمك ويسمم قلبك. والمهم هنا ليس كونه كلامًا مبتذلًا، بل لأنه يتعلق بكونه خائنًا، فهذه الكلمات المبتذلة تشبه الشعار، تشير بشكل قاطع إلى أن العقيد خائن كبير وأن خيانتته لا تُغتفرا!

قال جدي: «لا يمكنك رؤية من يتحدثون في الراديو، ولا يمكنك إخفاء الأشخاص في خزانة زجاجية». ما يعنيه هو أنه ينبغي للإنسان أن يكون واضحًا وأن يكون حديثه مكتملاً. إذا قلت جزءًا من الحقيقة ولم تذكرها كلها، فلا تلم الآخرين على اختلاق الأكاذيب وبث الشائعات. لذلك، ولمدة من الوقت، اختلق القرويون أنواع الكلمات البذيئة كلها، ولصقوها على بطن العقيد. كلها كلمات بذيئة فاحشة إلى أقصى حد، بعضهم يتحدث عن عضوه الذكري وبعضهم يتحدث عن فتحة شرجه، كلها أوصاف تضح بالعري والفسوق، دون أي مواربة. كنت أشعر بالقشعريرة في كل مرة أسمعها، واستشعرت حقًا ما يعنيه كون الكلام «مؤذيًا مثل السم»، لم أجرؤ على عدم نطقه بفمي، بل حتى لم أجرؤ على سماعه بأذني. فأنا ما زلت في السادسة عشرة من عمري على أي حال. وعلى حد تعبير جدي، فقد بدأ شعر عانتي ينمو للتو، وما زلت سريع الخجل.

وفي إحدى الليالي بعد مدة وجيزة، استلقيت في فراشي، وكان جدي على وشك إغلاق البوابة عندما اندفع الشرطي العجوز إلى الداخل وهو في حالة سكر. وبمجرد دخوله، صاح يطلب سيجارة. أعطاه جدي سيجارة وسخر منه: «لَمْ يدعوك أحدهم إلى شرب الخمر دون أن يعطيك سجائر؟».

ربت الشرطي العجوز على جيب سرواله وقال: «السجائر هنا، علبه كاملة».

قال جدي: «إذن عليك أن تعطيني أنت سيجارة».

قال الشرطي العجوز: «حسنًا، المهم هو أنني جئت لأحكي لك القصة».

سأله جدي: «أي قصة؟».

قال الشرطي العجوز: «بالطبع قصة العقيد».

ضحك جدي يسخر منه: «هل أشرقت الشمس من الغرب؟ في المرة الأخيرة التي أعطيتك فيها زجاجتين من الخمر، خدعتني ولم تخبرني ولو بمعلومة واحدة. لم جئت اليوم من تلقاء نفسك؟ هل تحاول خداعي مرة أخرى؟».

قال الشرطي العجوز: «خدعتك المرة الماضية لأنني كنتُ على اتفاق مع المخصي يمنعني من الحديث عنه، وحديثي عنه سيكون نقضًا لاتفاقي معه، وعدم احترام مني له. لكنه اليوم بدأ يتحدث عن نفسه، لذا صار الاتفاق ملغيًا. ألم تسمع القرية بأكملها تروي عنه قصصًا غارقة في البذاءة وكلها محض افتراء؟ لذلك سأحكي اليوم احترامًا له، ولأجعل هؤلاء الناس يتوقفون عن تلك النميمة».

كان يتحدث وهو يصيح نحو الطابق العلوي، يطلب من والدي أن يأتي ويستمع، ثم قال لجدي: «يمكنك أن تتشر ما سأقوله لك اليوم على نطاق واسع، كي تُسكت تلك الأفواه القذرة، وتعرفهم الحقيقة».

نزل والدي، وأعدَّ له الشاي، واختار مكانًا ووضع فيه كرسيًا. من المفترض أن الفناء هو أفضل مكان للدردشة في هذا الموسم، لكنهم اختاروا الجلوس في القاعة الأمامية، لأنهم لا يريدون إزعاج أحد، وربما كان السبب أيضًا هو أن ما أرادوا التحدث عنه ليس من المناسب أن يسمعه الآخرون، خاصةً أنا. ولكنني كنت مصممًا على الاستماع إلى ما يقولون. سبق أن تعقبتهم إلى الغرفة التي تشبه القبر لأسترق السمع، فما بالك بأنهم يتحدثون هنا في منزلنا؟! في الواقع، كنت سأسمعهم حتى إن لم أكن أرغب في ذلك، فالشرطي العجوز كان في حالة سكر، وكان

صوته عاليًا، وربما كانت أمي وأخي الأكبر في الطابق العلوي قادرين على سماعهم.

قال الجد: «السكراري أصواتهم عالية، والأموات حدقاتهم واسعة». هذا صحيح تمامًا. فعلى الرغم من أن والدي وجدي نصحا الشرطي العجوز مرارًا وتكرارًا بالتحدث بصوت منخفض، فإنه كان يخفضه بعض الوقت ثم يعود أعلى من ذي قبل.

(66)

بعد أن نبّهه والدي وجدي، بدأ الشرطي العجوز يحكي القصة من الوقت الذي وقع فيه العقيد في أسر اليابانيين ونُقل إلى معسكر أسرى الحرب في هوتشو، حدث هذا في عام 1943.

قال الشرطي العجوز: «في ذلك العام ذهبت إلى شنغهاي أربع مرات، كانت المرة الأخيرة بعد موسم الانقلاب الشتوي، وبعد أن وصلت هناك، سمعت أن المخصي قد وقع في ورطة، تعرّض للخيانة من أحد مرؤوسيه، وقُبض عليه وأودع في معسكر أسرى الحرب في محافظة تشانغشينغ بمدينة هوتشو للعمل في حفر الفحم. في ذلك الوقت، كانت علاقتي به وثيقة للغاية، لذلك كان من البدهي أن أذهب لزيارته بعد تعرّضه لتلك الأزمة. في الأصل كنت أنوي تغيير مسار عودتي، والنزول من القطار في سوتشو، وعبور بحيرة تايهو ثم الذهاب لزيارته. لكن بعد الاستعلام عن الأمر، اكتشفت أنني لن أتمكن من الذهاب لأن التوقيت غير مناسب، فالوقت كان في منتصف الشتاء، وبحيرة تايهو متجمدة، والسفن متوقفة عن الإبحار. لم يكن المرور عبر هانغتشو خيارًا متاحًا أيضًا، فلم تكن هناك قطارات أو حافلات تصل بين هانغتشو وهوتشو في ذلك الوقت، وكانت وسيلة النقل الرئيسية هي الأقدام: أقدام الإنسان وأقدام الخيول. كان لديّ مال في ذلك الوقت، لذلك لم تكن لديّ أي مشكلة في استئجار

عربة خيل. لكن عربات الخيول لم تكن خيارًا متاحًا أيضًا، فالجو قارس البرودة، ولن أتمكن من توفير عشب لإطعام الخيل على طول الطريق، هل أخذ معي علفًا كافيًا؟ الرحلة طويلة جدًا والعربة ليست كبيرة بما يكفي لحمل العلف الكافي. لم تتجح كل تلك الوسائل، ولم يكن بوسعي سوى الانتظار حتى حلول العام المقبل.

بعد رأس السنة الصينية، وفي نهاية شهر مارس، كان الربيع في أوج ازدهاره، والعشب متناثرًا في الحقول وعلى جوانب الطرق، لذلك كان من الممكن الذهاب بعربة خيل، جهّزت أمتعتي وانطلقت في رحلتي. استقلت أولاً قاربًا إلى هانغتشو، وقضيت الليل في أحد النزل، ثم استأجرت عربة، وانطلقت في الصباح الباكر التالي، ووصلت إلى محافظة تشانغشينغ قبل الظلام. كان معسكر أسرى الحرب في منطقة جبل نيوتو، ويستغرق الوصول من المحافظة إلى هناك بعربة تجرها الخيول ساعات عدة. وبعد وصولي إلى هناك، سيتعين عليّ العثور على مكان المعسكر، وبعد الوصول إلى مكان المعسكر، سيتعين عليّ العثور عليه. المهم هو أنني بعد تلك الرحلة الشاقة، نجحت في الوصول إلى هناك وعثرت عليه أخيرًا قرباً الساعة الثالثة أو الرابعة بعد ظهر اليوم التالي. لا أقصد أنني عثرت على المخصي نفسه، بل على السجن الذي يدير معسكر الاعتقال. كان معسكر اعتقال أسرى الحرب تحت سيطرة اليابانيين، لكن في الواقع لم يكن هناك سوى عدد قليل من اليابانيين، وكان معظم المسؤولين من الصينيين الخونة المتعطشين للمال. بعدما وصلت إلى السجن، وأعطيته دولارين فضيين، لمعت عيناه في ذهول! وتمنّى لو كان بإمكانه أن يعود بالزمن إلى الوراء ليتمكن من استدعاء المخصي من المعسكر.

نعم لقد غادر المخصي قبل شهر واحد فقط من ذهابي إلى هناك، أي قبل عيد الربيع، جاء شخص ما يقود سيارة وأخذه معه. كان السجن مهذبًا معي لأنه لاحظ أنني رجل ثري، أحضر لي بعض الشاي وتحدّث

معي أكثر من ساعة. أخبرني أن الرجل الذي جاء لأخذه كان ذا هيبة، يرتدي بدلة وقبعة سوداء من اللباد، وكانت بطاقة الهوية التي أخرجها صادرة عن مقر القيادة الياباني في نانجينغ، والسيارة التي يقودها تحمل أيضاً لوحات عسكرية يابانية. في البداية، كنت أعتقد مثلك - (يقصد والدي) - أن المخصي أُخرج من السجن لعلاج شخصية مهمة، كانت لديه عيادة في شنغهاي، وشهرته على كل لسان، لذلك جاء إليه هذا الشخص لكي ينقذ حياة أحد المصابين. ولو كان الأمر هكذا، فمن المفترض أنهم سيعيدونه إلى هنا ثانية بعدما يُنهي مهمته. لكن السجان قال: بما رأيته أعتقد أنه ذاهب إلى مكان لن يعود منه ثانية، أين ذلك المكان؟ لا أعلم، ولم أأخذ إلى هناك، لا أعلم، المهم هو أن الأمر كان سرّياً للغاية.

وفي وقت لاحق، عندما وصلت إلى شنغهاي، أخبرتني الفتاة رقم سبعة أن المخصي ذهب إلى بكين، وكانت بكين تسمى بيبينغ في ذلك الوقت. سألتها لمَ ذهب إلى بكين؟ لكنها سألتني ماذا يمكنه أن يفعل وهو قيد الأسر؟ وهل لديه فائدة سوى قضيبه الذي يشبه «قشرة الجوز»؟ اتضح أن العاهرة الكبيرة وشت به ثانية. وربما كانت تهدف إلى مصلحته وتريد إنقاذه من الأسر، فأخبرت إحدى النساء اليابانيات عنه. من هذا الذي يمكنه إنقاذ أسير حرب من السجن؟ أخبرتني الفتاة رقم سبعة باسم امرأة يابانية، وسألتني إذا كنت قد سمعت عنها من قبل. لكن كيف لي أن أكون قد سمعت عنها؟ وحتى إن كنت قد سمعت عنها فكيف أتذكرها، فأنا لا أتذكر سوى أرقام فتيات بيت الدعارة. أضف إلى ذلك أن الأسماء اليابانية غريبة، وطويلة، ويصعب تذكرها. أخبرتني الفتاة رقم سبعة أن تلك المرأة اليابانية كانت صينية في الأصل، ولكن أحد اليابانيين تبناها في طفولتها، لذلك أصبح لها اسم ياباني، وكان والدها بالتبني شخصية ذات نفوذ كبير، حتى أن وانغ جينغوي، رئيس الحكومة العميلة، كان ينحني أمامه ويقدم له الشاي. وبفضل سطوة والدها بالتبني، أضف إلى ذلك

أنها كانت ذكية وجميلة ولديها شبكة علاقات قوية، كانت قادرة على فرض أوامرها على اليابانيين، وكانت كلمة واحدة منها كافية لإعدام شخص ما أو إنقاذ حياته.

لم أستطع أن أتخيل من هي تلك المرأة. وفي أحد الأيام، أحضرت لي الفتاة رقم سبعة صحيفة فيها صورتها. كانت جميلة بالفعل، وجهها بيضاوي، وخصرها نحيل، ترتدي ملابس على الطراز الغربي، ومظهرها أنيق بشكل لافت. اعتقدت أن المخصي محظوظ هذه المرة، فهي لا تبدو شخصاً سيئاً على الإطلاق. لكن في الحقيقة، كانت خائنة وشريرة حتى النخاع. قالت الفتاة رقم سبعة -بالطبع كانت قد سمعت ذلك من العاهرة الكبيرة- أن تلك المرأة لا تستطيع العيش يوماً واحداً دون الرجال، حتى أنها نامت مع والدها بالتبني، وابنه، كانت أكثر فسقاً من الخنازير والكلاب. لقد مارست الجنس مع أعداد لا تُحصى من الرجال، ولكن بعدما مارست الجنس مع المخصي، لم تعد ترغب في أي رجال آخرين، فاعتنت به كحيوان أليف، حبسته في مكان عالي الأسوار، فيه حديقة واسعة، ومجموعة من الخدم، وأغدقت عليه بأفخر أنواع الطعام والشراب، كان لديه كل شيء عدا الحرية. عندما يخرج، كان حراسها الشخصيون يراقبونه، وعندما يعود، كانت كلاب الصيد تراقبه. لو عشت حياة كهذه عشرة أيام أو أسبوعين، فستشعر بأنك تعيش حياة الملوك، لكن لو استمرت مدة أطول، فسيكون الأمر كما لو كنت قابلاً في السجن. المهم هو أنها خائنة معروفة، وطبيعة عمل المخصي هي قتل أمثاله من الخونة، لكنه الآن أصبح كاللعبه في يدها، وكان هذا أكثر ما يؤلم المخصي، فكيف سيشرح هذا الأمر لرؤسائه في المستقبل؟

قاطعه جدي فجأة: «يجب عليه أن يتحين الفرصة لقتلها».

ردَّ الشرطي العجوز على الجدِّ بنبرة متهمكة: «أتظن نفسك ذكياً؟ هي ليست بهذا الغباء، لقد تناولت من الملح في أثناء حياتها أكثر مما تناولت

أنت من الأرز. كانت تعلم أن المخصي سبق أن عمل جاسوسًا عسكريًا، لذا كانت حذرة منه، فبمجرد أن صار في قبضتها، وشمّت اسمها على بطنه. وكما تعلم، فقد رأى حفيدك (يقصد ابن عمي) ذلك الوشم. في الأصل كان بطن المخصي موشومًا بكلماتٍ من النسوة اليابانيات في شنغهاي، سطر من الأحرف الكبيرة، موشومة بشكل أفقي، وهناك سهم أسفلها، وعلى جانبي السهم كانت هناك مسافة، فأضافت تلك المرأة اسمها في تلك المساحة، والتقطت صورةً للوشم، ثم احتفظت بها في خزانتها. ولو أقدم على قتلها ستكون تلك الصورة دليل إدانته، سيعرف الجميع أنه كان يضاجعها، وسيعتقد الغرياء أن ما حدث كان بسبب خلاف بين العشاق، وليس بدافع إتمام مهمة وطنية. استمر المخصي يعاني هذا العار لاحقًا، فهو لن يستطع تفسير هذا العار أو غسله حتى إن ألقى بنفسه في النهر الأصفر. وهذه قصة أخرى».

أخذ الشرطي العجوز رشفة من الشاي واستمر يقول: «لنعد إلى الموضوع، ففي ذلك الوقت كان المخصي لا يزال يحدوه الأمل في أن يتمكن من الاتصال بالتنظيم يومًا ما، لذلك كان يريد استغلال تلك المرأة للحصول على معلومات استخباراتية. تمامًا كما كان يفعل مع النسوة اليابانيات في شنغهاي من أجل الحصول على معلومات استخباراتية. ولو نجح في الاتصال بالتنظيم، ستكون تلك المرأة بمنزلة صيد ثمين، فلم لا يجرب؟ هذه هي طبيعة البشر، عند الحديث عن الماضي، من السهل على الجميع ادعاء الحكمة، ولكن في مواجهة المستقبل، فحتى أكبر الحكماء قد يعجز عن التفكير. كانت لدى المخصي أحلام كبيرة، ولكن نهايته كانت سيئة، فقد مر عام دون أن يتمكن من التواصل مع التنظيم، فالتنظيم مقره في شنغهاي، وهو الآن غريب في بكين، ويعيش تحت المراقبة طوال الوقت، فكيف يمكنه التواصل مع التنظيم؟ وبسبب عدم قدرته على التواصل مع التنظيم، وعدم قدرته على إنجاز أي مهمة

تذكر، أصبح بمنزلة كلب تحتفظ به تلك المرأة، ولأن تلك المرأة خائنة كبيرة، فقد تحول المخصي إلى كلب تابع للخونة، وفي النهاية حكمت عليه حكومة الكومينتانغ بالسجن في أحد سجون بكين».

وهنا توقف الشرطي العجوز وسأل والدي: «هل تعلم أنه كان مسجوناً في بكين؟». لم يقل والدي شيئاً، ربما كان يهز رأسه نائفاً فقط. حينها تابع الشرطي العجوز يقول: «نعم، كانت تلك نقطة سوداء في تاريخه، لذلك أبقاها في طي الكتمان. لكنني سمعت هذه المرة أنه بادر بالاعتراف للشرطة، لذا أظن أن الشرطة أجبرته على تناول دواء ما فعلاً، وإلا لما كان ليتحدث قط».

قال والدي: «علمت أنه عاد لاحقاً إلى جيش الكومينتانغ وأصبح طبيباً عسكرياً، فكيف أصبح طبيباً عسكرياً وهو في السجن؟».

لكن الشرطي العجوز سأله: «بناءً على كلامك هذا، فكيف استطاع الانضمام إلى جيش التحرير الشعبي أو جيش المتطوعين لاحقاً؟ الأمور تتغير. اللعنة، لقد قضى هذا المسكين معظم حياته في السجن، سجنه اليابانيون، ثم الكومينتانغ، وها هو ذا الآن على وشك أن يسجنه الحزب الشيوعي، لا أعلم إن كان سيتمكن من الخروج هذه المرة».

تتهّد، وتجنّش، ثم استطرد: «سارت الأمور على هذا النحو، فبعد استسلام اليابان، حُكم عليه بالخيانة، وسُجن في السجن الحربي في زقاق باوجيو ببكين- كانت بكين تُسمى بيبينغ آنذاك. هذا السجن تابع لمكتب الاستخبارات المركزي التابع للكومينتانغ. مكتب الاستخبارات المركزي ومكتب الاستخبارات العسكري خصمان، لكنهما في الوقت نفسه فضيل واحد، فكلاهما وكالة استخباراتية سرية على أي حال. اكتشفت كل هذا لاحقاً عندما اعتقلني مكتب الاستخبارات العسكري للاستجواب». في الأصل كنت متكنّاً على السرير أستمع إلى حديثهم، لكن لاحقاً بعدما ذهب الشرطي العجوز إلى حظيرة الخنازير ليتبول وعاد ثانية،

سحب كرسيه وغيّر اتجاهه قبل أن يجلس. حينها لم يعد بوسعي سماع بعض الكلمات بوضوح، فاضطرتت إلى النزول من السرير، والجلوس على أريكة جدي كي أستمع بشكل أفضل. سحبت الأريكة بجوار الباب، وفتحت الباب بشكل أوسع قليلاً، حينها صار بإمكانني الاستماع بشكل أوضح.

كانت ليلة بلا قمر، والرياح تهب من خلال شقوق الباب، ما جعلني أشعر ببعض البرودة. كانت هناك بطانية قطنية رقيقة فوق الأريكة، فجدي كان يعاني التهاب المفاصل، وغالباً ما يستخدمها لتغطية ركبتيه وساقيه. كانت البطانية تعبق برائحة جسد جدي ورائحه قدمه. أعرف تلك الرائحة جيداً، فعندما كنت طفلاً، لم أكن أستطيع النوم إلا عندما أعانق قدمي جدي، وعندما عانقت تلك البطانية الآن، شعرت كأنني أعانق قدمي جدي، فانتابتي رغبة في النعاس، لكنني كنت أقاومها.

قد لا يتذكر كبار السن في القرية العام الذي وُلدوا فيه، ولكنهم جميعاً يتذكرون العام الذي استسلم فيه اليابانيون؛ كان العام الرابع والثلاثين لقيام جمهورية الصين، أي عام 1945 حسب التقويم الميلادي. كثيراً ما أخبرني جدي أنه في أحد أيام الصيف، أسقطت الولايات المتحدة قنبلة ذرية على اليابان، وبعد يومين أسقطت قنبلة أخرى، فأعلن اليابانيون استسلامهم. وعلى حد تعبير الشرطي العجوز القديم: سببت القنبلتان الذريتان سحابتين فطريتين، هاتان السحابتان الفطريتان فجَّرتا خصيان اليابانيين وحولتها إلى لحم مفروم، ولكن في الوقت نفسه، حوَّلته هو أيضاً إلى فقير معدم، فقد خسر الأموال التي كسبها سابقاً كلها على طاولات القمار، وأفلس تماماً.

في الأيام الأولى بعد استسلام اليابان، ازدهرت بيوت الدعارة بشكل مدهش، وصارت مقصداً دائماً للداعرين والمقامرين، كلهم كانوا لصوفاً وأشراراً استغلوا الفوضى لكسب المال، كانوا يقامرون بمبالغ كبيرة، يمارسون الحيل والألاعيب، ولا يلتزمون بقواعد اللعب، ولم يكن الشرطي العجوز على دراية بتلك الحيل، وفي غضون أسبوعين فقط، كان قد خسر كل ماله. رفض الاستسلام للأمر الواقع، فاقترض المال ليستمّر في المقامرة ويعوّض خسارته، لكنه خسر كل شيء، وصار مثقلاً بالديون دون أن يتبقى لديه أي شيء. خشي الدائن أن يتخلف عن سداد دينه ويهرب، لذا جرّده من ملابسه وحبسه في قبو أسفل بيت الدعارة، حينها طلب الشرطي العجوز من الفتاة رقم سبعة مساعدته من أجل سداد دينه وإنقاذ حياته.

لكن الفتاة رقم سبعة ذهبت ولم تعد ثانية، فهذه هي طبيعة أمثال هؤلاء الفتيات.

وجد الشرطي العجوز نفسه بلا حيلة، ولم يكن أمامه سوى انتظار الموت، ولكن على غير توقع، جاء شخص لإنقاذه. ففي صباح أحد الأيام، وبينما كان بيت الدعارة غارقاً في جو من الهدوء، والجميع لا يزال يغط في نومه، ولا يوجد سوى الزهور والنباتات في الفناء وحدها مستيقظة، تتبارى بينها بألوانها الزاهية أسفل أشعة الشمس، فجأة، فُتح باب الفناء الخشبي الكبير ذو اللون القرمزي بالقوة، ودخلت منه امرأة، يطلق عليها «القائدة». كانت في أوائل الثلاثينيات من عمرها، جميلة، وترتدي ملابس عادية، لكن مظهرها كان يوحي بالقوة والشراسة، يرافقها فريق من الشرطة العسكرية. أطلقت رصاصتين بمجرد دخولها الباب، قتلت بهما اثنتين من كلاب الصيد كانا ينبحان نحوها، ثم أغلقت الأبواب كلها من أجل تنفيذ أمر اعتقال. الشخص الذي قبض عليه كان العاهرة الكبيرة. كانت تستحم في حوض الاستحمام حينها، ولم يجرؤ الجنود على الدخول، فدخلت القائدة بنفسها. وبمهارة فائقة، لفّتها بإحكام بملاء السرير، وشرعت في استجوابها على الفور. وبعد أن انتهت، سلمتها للجنود الذين وضعوها في سيارة واقتادوها بعيداً.

لم تغادر القائدة المكان، وأمرت جنودها بوضع طاولة وكُرسي في صالة الطابق الأول من المبنى ذي الطابقين الذي كانت تسكنه العاهرة الكبيرة، وطلبت منهم إحضار جميع الفتيات من المبنى المجاور ذي الثلاثة طوابق لاستجوابهن. كان الاستجواب جزأين: الجزء الأول هو استجوابهم عما يعرفونه عن خيانة العاهرة الكبيرة، والجزء الثاني كان سؤالهم عن مكان وجود العقيد. في ذلك الوقت، كان الشرطي العجوز محبوساً في الطابق السفلي منذ ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، وعندما عثر عليه الجنود كان جائعاً لدرجة أن بطنه صار ملتصقاً بظهره، وقدميه ملتصقتان بيديه، فكان عليه أن يمشي على يديه، مستنداً إلى الجدار. عندما خرج من القبو كان مرهقاً بشدة، تسيل من فمه رغوة بيضاء، بدا كأنه يحتضر. كانت

هناك مأكولات خفيفة كثيرة في بيت الدعارة، بما في ذلك البسكويت والكعك والحلوى والسجائر والكحول، متناثرة في كل مكان مثل مخلفات الدجاج وسط ساحة المزرعة.

قال الشرطي العجوز: «التهمت كل ما وقعت عليه عيني، ولم أتوقف حتى تقيأت وسالت رغوة بيضاء من فمي مرة أخرى».

تركته القائدة يستجمع وعيه، ولم تستجوبه إلا بعدما انتهت من استجواب البقية. كانت الشمس قد مالت نحو الغروب، وصارت الأزهار في الفناء ذابلة بعد يوم من التعرّض لأشعة الشمس، لكن أشعة الشمس الغاربة صبغتها بلون وردي فاقع. في تلك الأثناء، كان الشرطي العجوز قد واجه الموت مرتين، ولم يعد يخشى الموت على الإطلاق. كان يعرف من سيستجوبه، ولماذا، ففتيات بيت الدعارة اللواتي عُدن من الاستجواب وصفن تلك القائدة بأنها شيطانة، عيناها حادثان كالسكين، وعندما تغضب تُخرج مسدسها الأسود من خصرها وتضرب به على الطاولة القرمزية اللامعة. كانت تلك طاولة طعام العاهرة الكبيرة، وقد سبق أن تناول الشرطي العجوز الطعام عليها من قبل، ويعرفها جيداً، فسطحها ناعم كالحرير، لونها أحمر لامع كما لو كانت مطلية بالدم، لدرجة أنه يمكن استخدامها مرآة. كان فم الشرطي العجوز ممتلئاً برائحة عصارة معدته، ولا يتوقف عن التجشؤ، وعندما أجلسه الجنود أمام الطاولة الحمراء، كان رأسه متدلياً، فرأى أولاً وجه القائدة عبر سطح الطاولة، شعر بوجهها يتأرجح كما لو كان مغموراً وسط الماء.

قال الشرطي العجوز: «في البداية أبقيت رأسي منخفضاً، ولم أجرؤ على النظر إليها، لكنني كنت قلقاً من وجود مسدس أو أداة تعذيب على الطاولة، لذلك رفعت رأسي أسترق النظر».

لم يكن هناك مسدس، ولا أدوات تعذيب، لا شيء على الإطلاق. كان سطح الطاولة كما هو لامعاً كالمرآة، فشاهد عند حافة الطاولة ذراعين

تغطيها أكمام مغطاة بنقوش زهرية بيضاء فاتحة، يطل من بينهما وجه امرأة مضغوط. وأسفل الطاولة كانت هناك ساقان متقاطعتان، الساق اليسرى فوق اليمنى، كاشفة عن كاحل القدم اليمنى الجميل الناعم. في ذلك الوقت، كان الشرطي العجوز لا يزال جاهلاً ما تُضمّره قلوب النساء، لكنه ضليع في دراسة أجسادهن. وعندما نظر إلى ذلك الكاحل، علم أنه يخص امرأة جميلة، نحيفة، في حدود الثلاثين من عمرها.

قالت القائدة: «ارفع رأسك وأخبرني من أنت، ولمَ رائحتك كريهة هكذا؟».

رفع الشرطي العجوز رأسه ينظر إليها، ثم نظر إلى اليسار فشعر بعينيه مشوشتين، ونظر إلى اليمين فشعر بدوار في رأسه... لم يتوقع قط أن يلتقي بها في هذا المكان! كان يظن أنه لا يزال محبوباً في الطابق السفلي ويعاني الكوابيس. سارع ينظر نحو النافذة، فرأى ضوء الشمس التي مالت إلى الغروب يلمع من خلال فتحة النافذة، فتأكد أنه ليس في الطابق السفلي، ثم نظر إليها مرة أخرى، كانت هي بغضّ النظر عن الزاوية التي ينظر منها إليها. وفي مواجهة نظراته البلهاء تلك، تبددت نظراتها الحادة التي تشبه السكين، وتحولت إلى نظرات من الشك والحيرة، أو ربما حتى المفاجأة.

(68)

كان الجو مظلمًا وعاصفًا للتو، ومعلوم أن العاصفة ستسوق السحب المظلمة أمامها وتُفسح المجال للقمر. كان ذلك في الشهر العاشر من التقويم القمري. نفق ما نفق من الثعابين والحشرات والحيوانات، واختبأ منها من اختبأ، دون أن يترك أثرًا. كان الوقت متأخرًا والناس نيامًا. عندما صمت الشرطي العجوز، سمعت صوت ضوء القمر يزحف على السطح، طرد الظلام بعيدًا، وتسلل إلى الفناء ثم تسلق الجدار، فأصبح الفناء أكبر وأهدأ.

قال جدي: «عندما يتسلق ضوء القمر الجدار، يتسلق الناس أسرتهم». هذا هو المنطق الذي يلجأ إليه جدي عندما يحاول إقناعي بالذهاب إلى النوم، فلجدي طريقته الخاصة في الإقناع، هناك أسباب للنوم والاستيقاظ، لكل شيء سبب. لو تحدثنا عن طرائق الإقناع، فأنا متأكد أن قدرة جدي تفوق الآخرين بكثير، لدرجة أن لا أحد يستطيع التفوق عليه، ولكن عندما يتعلق الأمر بسرد القصص والشجار، فالشرطي العجوز أفضل منه بالتأكيد. عندما يتشاجر الشرطي العجوز، فإنه يلعن ويسب الوالدين، وكل عبارة يقولها لا تخلو من الأعضاء الجنسية، شتائمهم قد تقتلك غيظًا، أو تعيدك من موتك لترد عليه السباب، وعندما يروي القصص يمكنه أن يتحدث عن كل شيء، بداية من طاولات القمار إلى أصوات ممارسة الجنس في الفراش، ومن الفضة اللامعة إلى الأجساد البيضاء الناصعة، ومن الأجساد البيضاء الناصعة إلى بيوت الدعارة السرية الخفية، كل التفاصيل التي يمكنها أن تفسد أخلاق أي شخص صالح. يشرب كلما صادف الخمر، ويشمل كلما شرب، ويحكي القصص كلما ثمل، لا فرق عنده بين مكان وآخر، ولا يشييه تعب أو نصب، وبوسعه أن يروي قصة واحدة عشرات أو مئات المرات. تراه يروي القصص القديمة نفسها مرارًا وتكرارًا، وتعتقد أنه فقد كل شيء، ولكنك لا تتوقع أبدًا أنه لا يزال لديه منجم ذهب ضخم مدفون. لا أستطيع أن أتخيل كيف يمكن لشخص ثمل طوال الوقت أن يسيطر على منجم الذهب هذا، تمامًا كما لا أستطيع أن أتخيل سكيرًا عجوزًا يحرس برميلاً من الخمر المعتقد دون أن يأخذ منه أي رشفة. هذه الحقيقة كانت تجعلني أحترم الشرطي العجوز، وأعتقد أن على الجميع أن يحترموه.

بدا ضوء القمر أكثر سطوعًا عندما كان الشرطي العجوز صامتًا، كأنَّ الصمت من ذهب بالفعل، يمكنه أن يلعب، ويضيء ضوء القمر. كان الشرطي العجوز بارعًا في سرد القصص؛ كلما وصل إلى نقطة حاسمة، يتوقف

ليشرب الماء ويشعل سيجارة جديدة. يفعل هذا لإثارة شهية المستمع، وأيضاً لشرح القصة بالتفصيل، يُشعر كإنه لن يستطيع الاستمرار، ولكنه في الواقع ليس سوى توقف مؤقت على سبيل الاستعراض. وبعد أن انتهى من الاستعراض، بدأ الشرطي العجوز الحديث مرة أخرى.

«من تلك القائدة؟ هي تلك الفتاة التي نقلت المخصي ليعمل برفقتها عميلاً سرياً للكومينتانغ. لا بد أنكما سمعتما عنها من قبل، لقد أنقذ المخصي حياتها، وأنقذ جنينها أيضاً. في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى شنغهاي، التقيت بها عرّضاً في عيادة المخصي. يومها جاءت في منتصف الليل تستقل سيارة سوداء. كان ذلك اليوم غريباً حقاً. لم يكن من المفترض أن أكون في العيادة، لكنني كنت هناك. وكان من المفترض أن يكون المخصي في العيادة، لكنه لم يكن هناك. عندما أخبرتها بهذا الكلام، غضبت بشدة، وكأني لمست ثدييها. وبخّنتني واستجوبتني كما لو كانت شرطية وأنا متحرش، وكأني لمست ثدييها حقاً. كان لديها ثديان مكتئزان، وقوام رشيق، وذراعان طويلتان وساقان طويلتان كذلك، كم محظوظ من يضاعفها! لكنني حينها كنت قد مارست الجنس مع عدد لا يُحصى من الفتيات في بيت الدعارة، ولم تكن لديّ رغبة في ممارسة الجنس حينها، حتى إن كانت أمامي أجمل الجميلات. كنت أتساءل فقط، كيف يمكن لها، وهي امرأة شابة، أن تكون لديها مثل هذه النبرة الحادة عندما توبّخ الناس، وكأنها متمرسة في هذا. كانت تتحدث باسترسال مطلق، الجملة تلو الأخرى، والسؤال تلو الآخر، وكل سؤال قادر على جعلني أعترف بكل ما أعرف، لكنني فعلت كما علّمني المخصي من قبل، تحدثت باللهجة المحلية، وتظاهرت بالبلاهة، كأني لا أعرف أي شيء، فقط كنت أومئ برأسي وأنحني، وأتصنّع الابتسامة على وجهي. عندما رأته أبله، ولا أفهم ما تقول، استدارت وبحثت في الأدراج والخزائن عن بعض

الشاش والكحول، ثم غادرت. حينها فقط أدركت أنها جاءت إلى هنا بحثاً عن المخصي ليساعدها في إنقاذ حياة شخص ما، ولأن المخصي لم يكن موجوداً، اضطرت إلى أن تذهب لتفعل ذلك بنفسها. قبل أن تغادر، طلبت مني أن أخبر المخصي أن يذهب إليها سريعاً فور عودته، وأن اسمها جيانغ تايقونغ، وهو اسم داهية عسكري قديم. وعندما تذكّرت أنني غبي لا أفهم كلامها، خلعت دبوس شعر مصنوع من اليشم من رأسها، وألقته على الطاولة، تقصد بذلك أن المخصي سيعرف أنه يخصها.

كان لديها زوجان من دبائيس الشعر في رأسها، عندما نزعتهما، انسدل جزء كبير من شعرها، فوجدت نفسها مضطرة إلى انتزاع الدبوس الآخر وترك شعرها ينسدل كاملاً. انسدل شعرها الطويل كالشلال، انهمر على كتفها، وغطى ظهرها، وتمدد إلى خصرها. كانت ترتدي فستاناً صينياً ضيقاً، لونه أخضر عشبي، ومع انسداد شعرها الأسود الطويل، أصبح جسدها كاملاً ناعماً ولامعاً فجأة، كان الأمر أشبه بحمالة الصدر، تعلم أنها مجرد غطاء خارجي، لكن ارتدائها أكثر إغراءً من خلعتها. لقد كانت بارعة للغاية في التأنق، أمسكت بدبوس الشعر بين إصبعيها تمشط به شعرها المسدول، وهو ما أضفى على مظهرها مزيداً من السحر. كانت هيئتها تشبه هؤلاء العاهرات في بيت الدعارة، لكنها كانت أكثر أناقة ونظافة منهن. شاهدتها وهي تخرج من الباب، تتمايل بجسدها في أثناء مشيتها، وتدخل السيارة، فشعرت كأن خصرها ومؤخرتها يضيئان الظلام. حينها فكّرت في نفسي وقلت، اللعنة عليّ، لقد نمت مع عدد لا يُحصى من الفتيات في بيت الدعارة، لكن أيّاً منهن لا تقارن بجمالها. وفي وقت لاحق، عندما كنت أمارس الجنس مع فتيات بيت الدعارة، كنت أتخيلها في ذهني، بل حتى عندما أفقد الرغبة في أثناء مضاجعتهم، ويرتخي قضيبي، كانت الرغبة تعاودني سريعاً فور التفكير فيها، فالمهم هو الرغبة، وما دون ذلك كله يأتي لاحقاً.

تحوّل الشرطي العجوز في حديثه إلى تلك الأوصاف البذيئة، لم يتحمّل جدي الاستماع إليه، فطلب منه التوقف عن الحديث عن تلك الأمور. غضب الشرطي العجوز من تدخّل جدي وهمّ بالمغادرة. بالطبع كان يتظاهر بذلك، حتى يعتذر له جدي. حينها تدخّل والدي لتهديئة الأمور، وأعطاه سيجارة، ثم أشعلها له، وحثه على مواصلة الحديث. وبما قاله لاحقاً، بدا أنه كان غاضباً بالفعل، أو على الأقل محبطاً، فبدا حديثه سطحياً، وكان عليهما الاستمرار في طرح الأسئلة للحصول على بعض الحقائق.

قال الشرطي العجوز باقتضاب وبصوتٍ يغلب عليه الاستياء: «ما حدث لاحقاً كان بدهياً، فقد أرسلتني إلى بكين للبحث عن المخصي». سأله والدي: «من؟ من الذي أرسلك؟». ردّ الشرطي العجوز: «وهل هذا يستحق السؤال؟ بالطبع إنها القائدة جيانغ تايقونغ».

سأله جدي: «وكيف عرفت القائدة أنه في بكين؟». ردّ الشرطي العجوز بغضب: «وماذا تظن إذن؟ لقد ظلت تستجوب كل من في المكان طوال اليوم، فهل سيكون هناك شيء لا تعرفه في النهاية؟ هؤلاء العاهرات عديمات الأخلاق بالأساس، ولا يحفظن سراً، الفتاة رقم سبعة هي أيضاً واحدة منهن، ما دام لديك المال سيعاملنك جيداً، ولو أصابك مكروه سيعاملنك باحتقار. وفي مواجهة جنود الشرطة العسكرية وفوهات البنادق السوداء، يمكن أن يشين بأي شخص، فهذه هي أخلاق العاهرات. الخلاصة هي أنه قبل استجابتي كانت قد علمت من مصادر مختلفة أن تلك المرأة اليابانية أحضرت المخصي إلى بكين واحتجزته هناك. في ذلك الوقت، كانت تلك المرأة اليابانية قد اعتُقلت للتو في بكين، ونشرت الصحف الخبر، فظننت القائدة بالطبع أن المخصي ربما قد اعتُقل أيضاً بتهمة الخيانة. هلا فكرت في الأمر؟ هل يمكن أن

يكون الشخص الذي يعيش برفقة تلك المرأة اليابانية مواطنًا صالحًا؟ إنه مجرد كلب خائن عديم المبادئ، فهل يوجد غيره يستحق الاعتقال؟ ولكن من الذي يعرف طبيعة العمل الحقيقي لهذا الشخص؟ فقط تلك القائدة جيانغ تايقونغ. لذلك كان لا بد عليها أن تفكر في طريقة لإنقاذه، فأرسلتني للبحث عنه، لذلك ذهبت إلى بكين، وكانت بكين تُسمى بيبينغ في ذلك الوقت...».

قاطعه والدي: «لا، قبل أن تذهب بنا إلى بكين، أخبرني أولاً لِمَ أرسلتك أنت إلى هناك؟».

وافقه جدي وقال: «هذا صحيح. لديها جنود عديدون يعملون تحت إمرتها، فلم ترسلك أنت؟».

رفع الشرطي العجوز صوته، منفسًا عن غضبه في وجه جدي وقال: «لماذا؟ لأن هذا المخصي بات معروفًا لدى الجميع بأنه خائن! وقد نُشرت أخباره في الصحف، وهو الآن في قلب العاصفة، والمجتمع بأسره يراقب ما سيحدث له بعيون واسعة. لو أرسلت شخصًا لتأدية عمل رسمي دون معرفة وضعه الحالي، ألن تكون عُرضة للقليل والقال؟ فماذا إن كان المخصي قد تحوّل إلى خائن بالفعل؟ لكن لو أرسلتني واستطعتُ إنقاذ المخصي، فهذا هو مرادها، أما إذا لم أستطع، فسيكون الأمر كأن لا علاقة لها بما حدث. هل تعتقد أنها أطلقت على نفسها اسم الداهية جيانغ تايقونغ عبثًا؟ إنها أكثر دهاء من جيانغ تايقونغ نفسه، تُفكر في الأمور من الجوانب جميعها، ويمكنها تخليص نفسها من أي ورطة بكل سهولة، لذلك كانت على يقين بأنه لا يوجد من هو أنسب مني لإرساله إلى بكين».

(69)

ذهب الشرطي العجوز إلى بكين بعده خال العقيد. اختلقت قصة مفادها أن والده قد توفي، وأن والدته امرأة عجوز تعاني مرضًا في

قدميها، ولا تستطيع السفر بعيداً، لذلك كان من المنطقي أن ترسل خاله للبحث عنه. ومن أجل جعل الأمر أكثر مصداقية، طلبت القائدة من الشرطي العجوز العودة إلى قريته أولاً، والتقاط صورة مع والدته العقيد دليلاً على صحة كلامه. من المفترض أن هذا الأمر بسيط للغاية، لكن المشكلة هي أن الشرطي العجوز عاد إلى قريته مفلساً، وكان الدائنون ينتظرونه لقبض أموالهم، وسبق أن كان الشرطي العجوز قد رهن ممتلكاته لدى أحد محال الرهن، وكان صاحب محل الرهن في عجلة من أمره لبيع تلك الممتلكات، وهناك كثير من الإجراءات المطلوبة لنقل الملكية. في هذا الوقت، كان قد فقد سمعته ومكانته بوصفه شرطياً، فهذه صاحب محل الرهن -الذي أصبح من ذوي النفوذ والثراء في ظل الفوضى السائدة حينها- بالحبس لو لم ينفذ تلك الإجراءات. تطلّب الانتهاء من تلك الإجراءات سبعة أو ثمانية أيام، وعندما عاد إلى شنغهاي كان الوقت قد قارب منتصف الشهر العاشر حسب التقويم القمري. بقي في شنغهاي أياماً عدة أخرى، ثم توجه إلى بكين في منتصف الشهر. وفي الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم، قادت القائدة بنفسها سيارة جيب لتوصيله إلى محطة السكة الحديدية. وعلى طول الطريق، شاهد الناس يمارسون طقوساً دينية في كل مكان، وكانت الشوارع والأزقة ممتلئة برائحة البخور والملصقات الدينية المعتادة في ذلك الوقت، فمنتصف الشهر العاشر هو عيد الأشباح وفقاً للتقاليد، ويُعرف عادةً باسم مهرجان شيا يوان.

شعر الشرطي العجوز أن سفره إلى بكين في ذلك اليوم نذير شؤم. توقف القطار كثيراً على طول الطريق. كانت نصف عمليات التوقف مؤقتة، والغرض منها كان واحداً: التحقق من الهويات والقبض على الخونة. ففي تلك المدة، كان الخونة إما مسجونون وإما هاربون، والقطارات مزدحمة، ما يجعلها طريق الهروب المفضّل للخونة. كان الشرطي العجوز يحمل وثيقة أعدتها له القائدة. غلافها أزرق وعليها ختم

أسود، تلك الوثيقة سهّلت له السفر كأنه أحد المسؤولين الكبار. جلس أمامه في القطار رجل في منتصف العمر، هيئته توحى بأنه معلم، يرتدي نظارة وثوبًا طويلًا، قليل الكلام كثير الابتسام، مهذب الأسلوب. عندما جاءت الشرطة للتحقق من الهويات أول مرة، ألقى نظرة خاطفة على هوية الشرطي العجوز، ومن بعدها صار يعامله باحترام وتقدير أكبر، يقدم له السجائر، ويشترى له الفطائر، وكأنه جندي تحت إمرته. وكان هناك عدد لا بأس به من العسكريين على متن القطار، من بينهم جنود وضباط، متجمعين في مجموعات من ثلاثة أو خمسة أفراد، يتحدثون بأصوات عالية، يخالون أنفسهم أبطالًا مقاتلين، ويعاملون الناس وكأنهم أعداؤهم المهزومون، يوبّخونهم متى شاؤوا، ويطلبون منهم ترك مقاعدهم لأجلهم، ويتصرفون بتسلط وتعالٍ. قال ذلك المعلم للشرطي العجوز هامسًا إنه لو كان لدى الصين هذا العدد الكبير من الأبطال المقاتلين، لكان اليابانيون قد انسحبوا منذ زمن طويل.

كان هذا أيضًا رأي الشرطي العجوز نفسه، لذلك صار لدى كل منهما انطباع جيد عن الآخر، وتبادلا الحديث على طول الطريق.

توقف القطار عند محطة تشنجانغ لإضافة عربية إضافية. يقال إن تلك العربية كانت مملئة بالذهب والمدافع الرشاشة والقناصة المرافقين للعربة لحماية الذهب. لا أعلم من أين جاء الذهب، كل ما أعلمه أنه كان متجهًا إلى نانجينغ. تأخر القطار، فنزل الشرطي العجوز والمعلم إلى الرصيف يدخنان ويدردشان، كان الشرطي العجوز يسير والمعلم خلفه، الشرطي العجوز يسأل والمعلم يجيب، يشبهان السيد والخادم تمامًا، وقبل أن يعودا إلى القطار، أخرج المعلم علبتين من السجائر من حقيبته وأعطاهما للشرطي العجوز، وطلب منه أن يقبله مساعدًا له. تعجّب الشرطي العجوز، ولم يستوعب ما قاله بعض الوقت، اعتقد الطرف الآخر أنه متردد، فدسّ دولارين فضيين آخرين في يده، تسبّب هذا في

تردّد الشرطي العجوز وشكوكه، ارتاب في كون هذا الشخص ذا خلفية مشبوهة، ولكن بعدما تذكّر أن الشرطة قد تحققت من هويته من قبل، وكان الأمر على ما يرام، كما أنه شعر أن هذا الشخص لطيف ومهذب، لم يرفض قبول المال والسجائر. أخذ المال أولاً ووضعه في جيب صدرته، ثم أخذ السجائر ووضعه في جيب سرواله. ثم ربت على كتف ذلك المعلم وقال بلهجة الشرطي التي اعتادها:

«حسنًا، اتفقنا».

ثم تراجع لحظة وقال: «ما رأيك أن أكون أنا مساعدك؟».

هزّ المعلم رأسه مرارًا وتكرارًا وهو يقول: «لا، لا، لا، بل أنا مساعدك، أنا مساعدك».

وبعدما أكملًا طريقهما، كان الشرطي العجوز يقدمه للآخرين على أنه مساعده، وكان ذلك الشخص يناديه «الرئيس» طوال الوقت، ويعتني به بأفضل طريقة ممكنة، وكان الشرطي العجوز يقول في نفسه إنه لأمر رائع أن يحصل على مساعد يعتني به هكذا دون عناء. كان القطار يتوقف تارة ويتحرك تارة أخرى، لكن في المحصلة كان بطيئًا للغاية. المحطة القادمة هي مدينة شيوتشو، وهي محطة كبيرة، نزل نصف الركاب من القطار، تاركين كثيرًا من المقاعد الفارغة في العربة التي ظلت مزدحمة طوال الطريق. حينها قال الشرطي العجوز لمساعدته: الآن فقط شعرت بأنني أركب قطارًا. قبل نزول هذا العدد الكبير من الركاب لم يكن القطار سوى عربة تجرها ثيران، فالعربة بأكملها كانت تعج بالضجيج ورائحة الغازات الكريهة. لكن مساعدته قال بثقة إن هناك عددًا أكبر من الأشخاص سيركبون في وقت لاحق.

كان محققًا، فقد صعد مزيد من الناس إلى العربة لاحقًا، وصارت مكتظة عن آخرها بالناس، حتى رفوف الأمتعة كانت مكتظة بالأطفال. لم يكن أحد يجروء على التحرك من مكانه، لأنه قد يتعرّض للدهس أسفل

الأقدام. لكن هذا المساعد لم يتمكن من رؤية هذه المشاهد، فقد اقتاده رجال الشرطة قبل صعود هؤلاء الركاب، فرغم أنه كان يحمل هويته فإن أفراد الشرطة كانوا يحملون صورة له. وفي ظل وجود تلك الصورة، لم تكن هناك أي فائدة للهوية، وحتى إن أعطاه الشرطي العجوز الهوية التي يحملها، فلن تجدي نفعًا. لقد كان خائئًا هاربًا لا تعلم الشرطي العجوز من هذه الحادثة درسًا، فصار يتشكك في أن كل من حوله قد يكون خائئًا. بعدها، لم يقبل سيجارة من أحد، وسلم السجائر والعملات الفضية التي أعطاه لها ذلك المساعد إلى رجال الشرطة، فهي دليل على أنه تعرض للخداع، ولا بد عليه أن يسلمها.

في الواقع، لم يكن في حاجة إلى المال، فقد أعطته القائدة ما يكفي من المال للسفر وبقية النفقات، وأعطته أيضًا معطفًا قطنيًا وحذاء قطنيًا كبيرًا لتدفئته وسط أجواء بكين الباردة، لكن هذه الأشياء كانت مستعملة، وربما خلعتها أحدهم من شخص ميت. ولكن بعدما وصل إلى بكين، لربما كان هو من مات دونها! فمع انطلاق القطار نحو الشمال، صارت الأجواء باردة بشكل تدريجي، ففي اليوم الخامس عشر من الشهر العاشر من التقويم القمري، كان النهار حارًا والليل معتدلًا في شنغهاي، ولكن عندما وصل إلى بكين، كان النهار باردًا والليل أكثر برودة، فهناك تهب الرياح الشمالية العاصفة المحملة بالبرد القارس.

وصل القطار إلى بكين في منتصف الليل، وسط أجواء من الضباب الأبيض والصقيع. في الليلة الأولى، أقام الشرطي العجوز في فندق صغير بالقرب من محطة القطار. ولما كان الوقت باكراً في الصباح، فقد اتفق مع عامل الفندق على دفع نصف أجرة الغرفة. وافق العامل، لكنه كان مأكراً أيضًا، أسكنه في غرفة باردة دون مدفأة، وهو ما جعله يشعر بالبرد الشديد لدرجة أنه استيقظ وهو يعاني خدرًا في جسده وسيلاً في أنفه. وفي اليوم التالي، سكن في منزل كبير بفناء كانت القائدة قد أخبرته

أن ينزل فيه. في فناء المنزل شجرة صنوبر قديمة ذات شكل غريب، مثل القزم، جذعها سميك وقصير، وفروعها مستقيمة ومنحنية بطريقة متناظرة، لها شكل محدد يُبرز بوضوح أن هناك بستانياً ماهراً عمل على تقليمها. في المنزل سبع أو ثماني غرف رئيسة وجانبية، أبوابها مغلقة بشرائط من الورق الأبيض مكتوب عليه بالحبر الأسود، فقط أبواب المطبخ ونوافذه ومبيت الخدم وحدها عليها ملصقات لقصاصات ورقية حمراء على شكل كلمات وصور، كلها ملصقات ذات طابع احتفالي، لكن بعد سنوات من التعرُّض للشمس والرياح، صارت جميعها باهتة، بعضها تضرر، وبعضها الآخر صارت زواياها ملتوية. كان هناك رجل مقطوع الذراع يحرس هذا الفناء الضخم الفارغ، بالطبع كان يشعر بالوحدة هنا، وهو ما جعله يبتسم بحرارة مستقبلاً الشرطي العجوز بحفارة بالغة. بادلته الشرطي العجوز بابتسامة حارة أيضاً، فقد كان لديه شعور بأن هناك حظاً سعيداً في انتظاره.

(70)

الاعتماد على الأموال والوثائق والصور وحدها غير كافٍ للعثور على الأشخاص، فللعثور على شخص ما، عليك الاعتماد على الآخرين أبناء المنطقة، وذوي النفوذ المحليين، أو من يطلق عليهم الثعابين المحليون. قال جدي: «التين البعيد عن أرضه لا يستطيع هزيمة ثعبان في أرضه».

القائدة جيانغ تايقونغ هي تين متخفٍّ، وثعبان محلي في شنغهاي، لذا كان هناك تعاون بينها وبين التانين المتخفية والثعابين المحلية في الأماكن الأخرى، تماماً مثل المسؤولين الذين يحمي بعضهم بعضاً، والعصابات التي يتواطأ بعضها مع بعض.

قبل مغادرة الشرطي العجوز، سلَّمته القائدة جيانغ تايقونغ رسائل

مغلقة، مرقمة: 1-2-3، كتبت عليها أسماء بعض الأشخاص وعناوينهم، وطلبت منه الذهاب إليهم بالتناوب. لو حالفه الحظ، فسوف يتعرّف إليه أحد هؤلاء الثلاثة بعدّه «الخال»، ويساعده في العثور على «ابن الأخت» الذي ربما يكون في ورطة. لكن كيف يتعامل مع هؤلاء الأشخاص حال عثر عليهم؟ لكل واحد منهم طريقة مختلفة، وهناك مباحات ومحظورات في أثناء التعامل مع كل منهم، ولا يمكنه التصرف من تلقاء نفسه، بل يجب عليه تنفيذ التعليمات المكتوبة بحذافيرها. ولو لم يحالفه الحظ ويعثر على أي منهم، فعليه أن يعود سريعاً، ويتخلص من وثائقه، وألا يحدث أحداً عن هذا الأمر نهائياً، ولو فعل فلن تعترف بكلامه، وستتهمه بالكذب.

وعلى غير المتوقع، كان الحظ حليف الشرطي العجوز، تعرّف إليه أول شخص ذهب إليه -صاحب الخطاب رقم 1- وعامله بلطف، ورتّب له مكاناً للعيش، ووافق على مساعدته على الفور للقاء ابن أخته، أي العقيد، وكأنّ العقيد عامل يعمل لديه في مصنعه، ويمكنه أن يصحبه للقائه في أي وقت.

لاحقاً أحضره هذا الشخص إلى هذا المنزل الكبير المهجور، حيث التقى بالرجل المقطوع الذراع.

ذلك المنزل كان وكراً للخونة في الماضي، دارت فيه قصص كثيرة مرتبطة بالخونة. وكان الرجل ذو الذراع المقطوعة يعيش هنا وحيداً، لذلك أخذ يحكي للشرطي العجوز عديداً من قصص الخونة. حينها فقط، أدرك الشرطي العجوز فجأة سبب كل تلك المحرمات والمحظورات التي فرضتها عليه القائدة، ألا وهو كثرة الخونة في تلك الأيام، وسهولة الوقوع في بئر الخيانة. كان العقيد يعيش برفقة خاتنة كبيرة، ويواجه تهمة الخيانة بالفعل، فمن هذا الذي يستطيع أن يضمن أنه لم يرتكب أي خطأ يوصف بالخيانة؟ لو كان ذلك قد حدث بالفعل، فستكون قد جلبت العار لنفسها بسبب سعيها لمساعدته.

هذا الرجل المقطوع الذراع كانت لديه قصة أيضًا، فقد كان طيارًا في السابق، وزار الولايات المتحدة وميانمار، وخاض معارك جوية ضد اليابانيين، وفي المعركة الأخيرة، اصطدمت طائرته بمنحدر، فتحطمت إلى قطع، لكنه كان محظوظًا بما فيه الكفاية، فنجى من الحادثة، وفقد نصف ذراعه فقط.

نام الشرطي العجوز معه في الغرفة ليالي عدة، وصار لديه انطباع جيد عنه، وتوطدت العلاقة بينهما، لذلك بدأ يحكي عنه لجدي ووالدي باستفاضة، لكنهما أوقفاه ليعود بهما إلى الحديث عما يخص العقيد. قال جدي: «قصة هذا الرجل طويلة جدًا، ولا يمكن سردها في جلسة واحدة، دعنا نستمع إليها في يوم آخر».

وقال والدي: «دعنا الآن نتحدث عن العقيد، أين كان حينها؟». في ظهر اليوم التالي، جاء شخص يستقل عربية ريكشا، واصطحب معه «الخال» إلى السجن الموجود في الزقاق لمقابلة «ابن الأخت». قال الشرطي العجوز: «كنت أنتظر في غرفة فارغة، فرأيت السجناء يقتاد رجلًا إلى الخارج. كان نحيفًا كالومياء، حليق الرأس، يرتدي ملابس قطنية مهلهلة، حتى أنني لم أعرف أنه المخصي. كان نحيفًا لدرجة أن هيئته قد تبدلت تمامًا، لكنه كان شديد البياض، كخروف مات جوعًا فتساقط فراؤه. عيناه جاحظتان من محجريهما، ووجنتاه غائرتان، ولثته أشبه بعروق زرقاء. لم أكن لأستطيع التعرف إليه مهما حدث. وبالرغم من أنني لم أعرفه، فإنه عرفني. بادر يسألني عن سبب مجيئي إلى هنا. سارعت أنأديه بابن أختي، وأحدثه على أنني خاله، وأطلعتة على صورتي مع والدته، وأخبرته عن معاناتها في البحث عنه في كل مكان. شعر أن هناك خطبًا ما، وفهم ما أقصده، فأخذ يجاريني، ويناديني بالخال، ويسألني عن بعض أحوال العائلة. وبالرغم من أن السجن كان بجوارنا، فإنه لم يفهم لهجتنا المحلية، لكنه لم يمنعنا من التحدث بلهجتنا، عادةً

ذلك بمنزلة السماح لنا بالتحدث على انفراد. أخبرته بما كلفتني به
القائدة والمتطلبات التي حددتها كما جاء على لسانها بالضبط.

طلبت القائدة من الشرطي العجوز أن يُبلغ العقيد أن عليه قول الحقيقة
بخصوص إذا ما كان قد تلقى رشى من اليابانيين مقابل التعاون معهم.
وأنها ستساعده إن فعل ذلك أم لا، ولكن هناك طرائق لمساعدته لو كان
قد فعل ذلك، وهناك طرائق أخرى لو لم يكن قد فعل، لذلك عليه أن
يتوخى الصدق التام، لأن الكذب سيعرّض الجميع للخطر.

عندما سمع العقيد ذلك، شعر بالغضب في البداية، واحمرّ وجهه،
وأخذ يسب ويلعن، واغرورقت عيناه بالدموع، وكأنه يعاني الظلم والإذلال.
وبعدما هدأ، تعهّد أمام الشرطي العجوز يقول:

«عد إليها وأخبرها أنني أقسم إنني لم أقدم على أي فعل يؤدي هذا
البلد أو أيًا من أبنائه، وضحيّت بكل ما في وسعي من أجل ذلك، ولتحل
عليّ اللعنات لو كان في كلامي كلمة واحدة على خلاف الحقيقة».

ردّ عليه الشرطي العجوز وفقًا للتعليمات: «إذن عليك أن تكتب لها
رسالة، تشرح فيها ما حدث، وتشير إلى الحقائق، وتطالب بالعدالة، ويجب
أن تُختم الرسالة ببصمة إصبعك المخضب بدمائك».

ووفقًا للاتفاق، ففي اليوم التالي، وفي الوقت نفسه تقريبًا، جاء
الشخص نفسه بالعربة نفسها واصطحب الشرطي العجوز إلى الغرفة
نفسها للقاء العقيد. لم يكن قد أغمض عينيه طوال الليل، فصار وجهه
أكثر شحوبًا، وعيناه أكثر احمرارًا مع هاليتين سوداوين تحتها، ما جعل
مظهره أكثر إثارة للشفقة. كان قد كتب رسالتين بالفعل، واحدة إلى
والدته، والأخرى إلى القائدة، وسلّمهما إلى الشرطي العجوز. أما رسالته
إلى والدته، فطلب من الشرطي العجوز ألا يخبرها بأي شيء، يخبرها
فقط أن أموره على ما يرام، وهذا ما كتبه في الرسالة. أما بالنسبة إلى

الرسالة الأخرى، فقد أمسك بها في يده طويلاً قبل أن يسلمها له، وذكره مراراً وتكراراً بتسليمها إلى القائدة شخصياً.

قال الشرطي العجوز: «بالرغم من أن الرسالة كانت مغلقة، فإنني قرأتها سرّاً. كنتُ أشعر بالفضول لمعرفة ما كتبه فيها، ولكن عندما فتحتُ الرسالة، انتابني خوف شديد حتى أنني لم أجرؤ على قراءتها. لماذا؟ خمس ورقات ممتلئة عن آخرها، وكل كلمة مكتوبة بالدم، وفي نهايتها بصمات لأصابعه الخمسة مخضبة بدمائه، فكيف لي أن أجرؤ على قراءتها؟ وبالرغم من أنني لم أقرأ محتواها، فإن مظهرها أبكاني. فكرتُ في نفسي كم هي بائسة حياة هذا المخصي! وتمنيت لو كان بوسعي أن أذهب إلى السجن بدلاً منه، حتى إن كنت أعلم أنني سأموت في السجن، فقد فقدت مالي وعائلتي، ولا معنى للحياة بالنسبة إليّ».

كان العقيد في حالة مزاجية أفضل في ذلك اليوم مقارنة بالأيام القليلة الماضية، فتحدّث مع الشرطي العجوز حول بعض الأمور العائلية، وعندما علم أن الشرطي العجوز قد بدّد كل ثروته وما زال مدينًا، أخذ يهز رأسه ويقول إن هذه العصابات لا يمكن استقرازها أو تجنبها، ولن يتركوا الشرطي العجوز وشأنه إلا بعد أن يسدد ديونه. قال الشرطي العجوز: لم يعد لديّ ما يستحق أن أعيش من أجله، فليقتلوني إذن. ظل العقيد صامتاً بعض الوقت، ثم طلب من السجناء ورقة وقلماً، وشرع يكتب رسالة أخرى إلى القائدة. ولما انتهى من كتابتها أبلغ الشرطي العجوز أنه بعد إلقاء القبض على أحد مرؤوسيه، سارع البقية في اتخاذ إجراءات احترازية لحماية أنفسهم، نقلوا مقراتهم وأوقفوا اتصالاتهم. وبعد ذلك، عندما علموا أن زميلهم الذي قبض عليه لم ينشق، اعتقدوا أن كل شيء على ما يرام، عادوا للتواصل مرة أخرى، ولكن لسوء حظهم، انشق زميلهم ووشى بهم حينها، وألحق بهم ضرراً كبيراً. ولحسن الحظ لم يكن أحد يعلم بعنوان المقر الجديد الذي انتقل إليه العقيد حينها سوى

تلك القائدة، وهي الوحيدة التي تعلم أن جميع ممتلكاته العامة والخاصة موجودة هناك. ولو كانت الأمور قد سارت على ما يرام، فمن المفترض أن هذه الممتلكات بحوزتها الآن. لذلك كتب إليها العقيد في رسالته الأخيرة يطلب منها سداد ديون الشرطي العجوز حال كانت قد نجحت في الوصول إلى ممتلكاته، وهذه هي الطريقة التي تمكّن بها الشرطي العجوز من سداد ديونه في وقت لاحق، وكانت أموال العقيد هي التي أنقذته من الموت على يد تلك العصابات.

قال الشرطي العجوز: «على حد علمي، كانت القائدة قد نجحت في الوصول إلى ممتلكاته بالفعل، وأعادتها إليه لاحقًا، بما في ذلك صندوق الأدوات الجراحية الذهبية الذي سبق أن رأيتماه». سأله جدي: «وكم تبلغ قيمة الديون التي سدّدها نيابة عنك من ممتلكاته؟».

قال الشرطي العجوز: «ألم تطلب مني للتو الحديث عن المخصي فقط؟ هذا أمر لا يخصه، ولا أريد التحدث عنه». لم يخبر الشرطي العجوز جدي بقيمة تلك الديون ذلك اليوم بالفعل، لكن في وقت لاحق، أخبرني جدي أنه بعد أن علمت القائدة بحجم ديون الشرطي العجوز، صفعته على وجهه مرتين، لكن كانت كل صفعة منها تساوي سبيكة من الذهب سُمكها مثل إبهامه وطولها مثل عيدان تناول الطعام. قال جدي: حتى إن بعنا منزلنا، فلن نتمكن من شراء مثل سبيكة واحدة منها، وهو ما يعني أن العقيد بنى للشرطي العجوز منزلين أكبر من منزلنا هذا. حينها فهمت لماذا كان الشرطي العجوز يدافع عن العقيد إلى هذا الحد، ولماذا كان يكتُم أسرارَه، بل وحتى تجرأ على المخاطرة بالدخول في صراع مع الحرس الأحمر من أجله، فالمال قادر على تحفيز عزيمة الرجال، هكذا قال جدي.

كان الحصول على تذكرة قطار للعودة أمراً بالغ الصعوبة، فاضطر الشرطي العجوز إلى البقاء أياماً عدة، وهو ما ساعد في تخفيف الوحدة التي كان الرجل المقطوع اليد يعانيها، كما منحت الشرطي العجوز الفرصة للتعرف إلى كثير من الأمور التي لم يكن يعرفها من قبل، كبعض المعلومات المتعلقة بالقوات الجوية، وتصنيف الخونة، والعلاقة بين مكتب الاستخبارات المركزي ومكتب الاستخبارات العسكري. وبحسب ما قاله الرجل المقطوع اليد، تُعد امتيازات مكتب الاستخبارات المركزي أكبر من امتيازات مكتب الاستخبارات العسكري. ولكن بسبب ما رآه من صعوبة الحصول على تذكرة القطار، استنتج الشرطي العجوز أنه يبالغ، وأن نفوذ صاحب الخطاب رقم 1 ليس بقوة القائدة جيانغ تايقونغ نفسها، فعند مغادرته شنغهاي، لم تعطه القائدة تذكرة لركوب القطار، بل قادت سيارتها الجيب ودخلت بها إلى محطة القطار معتمدة على بطاقة هويتها فقط، وأوصلته إلى رصيف القطار مباشرة، لكن صاحب الخطاب رقم 1 جعله ينتظر ثلاثة أيام فقط من أجل الحصول على تذكرة. قبل المغادرة، ذهب الشرطي العجوز إلى السجن لزيارة العقيد مرة أخرى، وهذا أمر بالغ السهولة بالنسبة إلى صاحب الخطاب رقم 1، فقد كان بوسعه السماح للشرطي العجوز بزيارة العقيد متى شاء. في الواقع، كان صاحب الخطاب رقم 1 هو رئيس السجن، وهو نفسه الذي نقل العقيد إلى زنزانه أفضل ورتَّب له مهمات عمل أيسر في وقت قصير. وعندما ذهب الشرطي العجوز لوداع العقيد، وجد جسد العقيد ساخناً، وأنفه وجبهته حمراوين، كأنه خرج للتو من الحمام. أخبره العقيد أن وظيفته الحالية هي تشغيل المرجل، وهي أفضل وظيفة في السجن في أثناء الشتاء.

قال الشرطي العجوز: «قبل أن نفترق، طلب مني العقيد أن أخبر القائدة أن جيشي الكومينتانغ والحزب الشيوعي قد انخرطا في القتال

في كل من مناطق الشمال الشرقي وشاندونغ وشانشي، وأن حرباً أهلية
ثالثة شاملة قد صارت أمراً لا مفر منه. وطلب منها أن تمنحه الفرصة
للذهاب إلى ساحة المعارك ليموت هناك، وأنه سيتمكن حتماً من إنقاذ
بعض الناس قبل موته».

تبين لاحقاً أن كلامه كان صحيحاً، فقد زادت وتيرة اشتعال الحرب
الأهلية بشكل أكبر، ولم يعد هناك سوى عدد قليل جداً من الأطباء
العسكريين على الخطوط الأمامية. ولأن شهرته باسم «المشرط الذهبي»
كانت ذائعة الصيت، لم تحتج القائدة لبذل كثير من الجهد من أجل إقناع
قائد الأركان الذي كان يخوض معارك دامية في فوشون شمال شرق
الصين لاستدعائه، أصدر هذا القائد أمراً عسكرياً نقله بموجبه إلى
الخطوط الأمامية ليمارس مهنته بوصفه جراحاً هناك، ووسط ساحة
المعركة التي تتطاير فيها طلقات الرصاص والقذائف، والدماء المتناثرة
في كل مكان، نجح في تقديم إسهامات لا تُمحى خُدت اسمه هناك. وفي
صيف العام التالي، كتب له أحدهم قصيدة طويلة نُشرت في مجلة «حرب
الشمال الشرقي»، وكان مما كتبه:

لقد رأيت وجه الموت البشع،
يفغر فمه المتعطش للدماء،
تطل منه أنيابه كالرمح المزدوج،
لكنه جاء إلى جواني بهدوء،
في يديه ضوء ذهبي،
وفي فمه مفتاح أخضر،
كادت أشباح الجحيم تفتك بي،
لكنه كان قادراً على طردها،
وكتبت لي النجاة بفضلته.

مكتبة
t.me/soramnqraa

امتدت الحرب من الشمال إلى الجنوب، طاردت قوات جيش التحرير الشعبي قوات الكومينتانغ على طول الطريق، وتراجع العقيد برفقة قوات الكومينتانغ إلى حدود مدينة تشنغيانغ بمقاطعة جيانغسو، وانتهى به الأمر طبيباً عسكرياً في القوات البحرية التابعة لجيش الكومينتانغ. وفي وقت لاحق، انشقت القوات التي يعمل بها بين عشية وضحاها، وانضمت إلى جيش التحرير الشعبي. كان جيش التحرير الشعبي حكيماً، لم يميز أو يتغنت ضد الضباط والجنود الذين لم ينشقوا وينضموا إليه، ومنحهم خيار العودة إلى بيوتهم، بل ووفر لهم نفقات العودة. في ذلك الوقت، كان العقيد قد خاض أهوالاً كثيرة، وضاق ذرعاً بصراع المصالح الذي يختلط فيه الشرف بالعار، ولم يعد يكثرث للحياة والموت، وصار أهم شيء في حياته هو قططه. لم يعد يهتم ما القوات التي عليه أن ينضم إليها، كل ما يهمه شيء واحد: هل سيمكنه الاستمرار في تربية القطط حال انضمامه إلى جيش التحرير الشعبي أم لا. لو كان ذلك ممكناً سينضم إليهم، وإلا فسيعود إلى مسقط رأسه. حمل القطتين وذهب إلى قائد جيش التحرير الشعبي ليسأله عن إمكانية الاحتفاظ بهما، فأخبره القائد أن من الأفضل له العودة إلى مسقط رأسه لو أراد الاحتفاظ بالقطط، فعاد إلى غرفة العمليات وحزم أدواته الجراحية المصنوعة من ذهبه الخاص وتعد ملكيته الشخصية، ثم حمل القطتين بين ذراعيه، وخرج من مبنى العيادة المبنى من الطوب الأحمر الذي يعج بالفوضى ورائحة الدواء، وذهب إلى الساحة ووقف في طابور طويل ينتظر الحصول على المال للعودة إلى مسقط رأسه. لم تكن القطتان قد شاهدتا مثل هذا المشهد من قبل، وكانتا تمأنان من وقت إلى آخر، ما جذب إليه نظرات فضولية عديدة. كان أحد جنود جيش التحرير الشعبي المسؤول عن حفظ النظام في المكان يكره القطط، فتقدم ليوبّخه، بل وكان ينوي مصادرة القطتين، اندفع نحوه غاضباً يحمل مسدسه، لكنه أنزل المسدس فجأة وابتسم في وجهه عندما اقترب منه.

قال الشرطي العجوز: «أتضح أنهما يعرف بعضهما بعضاً، فقبل بضعة أشهر كان هذا الجندي واحداً من القوات التي اختطفت المخصي وأحضرتة إلى قائدهم لإنقاذ حياته. أنتما تعرفان ما حدث بعد ذلك، لن أتحدث عن هذه القصة».

كنت أعرف كل ما حدث بعد ذلك، فقد جُنِّدَ ذلك القائد لمحاربة جيش الكومينتانغ عند ضفتي نهر اليانجتسي، ثم عبروا نهر يالو بطريقة بطولية للمشاركة في حرب الولايات المتحدة ومساعدة كوريا الشمالية. ومعلوم أن كل من يصاب في أثناء الحرب يحتاج إلى طبيب عسكري، والعقيد هو أفضل طبيب عسكري، وإبقاء العقيد برفقة القوات بمنزلة إنقاذ لأرواح عديدة. ومنذ ذلك الحين، صار العقيد مرافقاً لهذا القائد في أثناء معاركه في أنحاء البلاد جميعها، ينقذ الأرواح ويشفي الجرحى، يقدم إسهامات جليلة ويحوز الأوسمة، وصار لقب «المشرط الذهبي» ملازماً له. وبعد عودته من كوريا الشمالية في وقت لاحق، عدَّ بطلاً، وكان بإمكانه أن يعيش حياة رغيدة، لكنني لا أعرف على وجه التحديد لماذا طُرد من الجيش بعدها، وأُعيد إلى مسقط رأسه، وأصبح مزارعاً مرة أخرى. والمقصود بقولي «لا أعرف» لا يعني أن لا تفسير لما حدث، بل يعني أن هناك تفسيرات كثيرة. يقول البعض إنه تسبَّب في موت قائد فرقة نتيجة خطأ جراحي، ويقول البعض إنه تحرش بامرأة وحوكم، ويقول البعض إن قائده الأعلى الذي كان يحميه قد تورط في بعض المشكلات، وأتُّهم بالتورط معه. على أي حال، كانت هناك شائعات مختلفة عديدة، لكنني لا أعرف ماذا حدث على وجه التحديد.

(72)

بعدما تسلق ضوء القمر الجدار مدّة طويلة، تملَّكه التعب ونزل، ثم زحف فوق أرضية الفناء، فأضاء بلاطها الرمادي، الذي بدا كأنه ينبعث

منه هواء بارد. بعدما جلست خلف الباب مدة طويلة شعرت بالتعب، وانتابتنى الرغبة في العودة إلى السرير ومواصلة الاستماع إليهم، لكنني كنت أخشى أنني لن أتمكن من سماع بعض الكلمات بوضوح حال استلقيت في سريري. كان الشرطي العجوز يتحدث بصوت مخمور، تارة يعلو صوته وتارة ينخفض، عندما يعلو يكون من الممكن سماعه حتى إن سددت أذني، لكن عندما ينخفض يكون من الصعب سماعه حتى إن ألصقت أذني بالباب، لذلك بقيت مستيقظاً بجوار الباب طوال الليل ولم أجرؤ على الذهاب إلى السرير. لم يكن الجو بارداً، لكن الأرض كانت مشبعة بالهواء البارد. كنت قد نزلت من السرير وأنا أرتدي سروالي فقط، وهو ما جعلني أشعر بالبرد بعد الجلوس على الأرض مدة طويلة. ولحسن الحظ، كانت هناك بطانية رقيقة على السرير.

ربما كان الشرطي العجوز قد شعر بالتعب، فنهض ليغادر دون مقدمات وهو يقول: «اللعة، ظهري يؤلمني، سأعود لأستريح». بعدها سمعت صوت احتكاك أرجل الكرسي بالأرض، تبعه صوت خطوات متعثرة تسير نحو الفناء.

ناداه جدي محاولاً إيقافه وهو يقول: «لا تذهب، فأنت لم تنتهِ من حكي القصة كاملة، إنها أولاً ثم غادر». أجابه الشرطي العجوز وهو يمشي: «لقد انتهيت، هذه هي القصة بأكملها».

عندما وصل إلى الفناء، توقف ونظر إلى الأعلى، ثم قال: «هلا نظرت، القمر في منتصف السماء تماماً، لا بد أنه منتصف الليل، لقد حان وقت النوم. ليس لديك ما تفعله غداً، ويمكنك النوم حتى وقت متأخر، لكن ابنك عليه الذهاب للعمل باكراً، إلى اللقاء».

لم يرغب جدي في تركه يغادر، فطارده إلى الفناء، وأوقفه، ثم وبَّخه وهو يقول: «لقد تحدثت كثيراً عن شنغهاي وبكين، لكنك لم تتحدث عن

الموضوع المهم بعد . كيف يمكنك المغادرة هكذا؟ أخبرني أولاً ثم غادر». قال الشرطي العجوز: «ما الشيء المهم الذي تتحدث عنه؟». ضحك جدي ضحكة باردة وقال: «لا تتظاهر بالغباء، الشيء الذي أتحدث عنه هو تلك الكلمات الموشومة على بطنه». ضحك الشرطي العجوز بصوت عالٍ: «أنت عرّاف عجوز بالفعل، لقد بذلتُ جهداً كبيراً لإرباكك حتى تتسّى هذا الأمر، لكنك ما زلت تفكر فيه».

قال جدي: «أنا لم أصل إلى مرحلة الخرف بعد». كان بوسعي رؤية نصف جسده من خلف الباب، ورؤية السيجارة المشتعلة في يده، كان لونها أحمر خافتاً في ضوء القمر، وكأنها على وشك أن تنطفئ.

ردّ الشرطي العجوز بلا تردد: «حسناً، سأُسبِع فضولك لأنك ما زلت تفكر في هذا الأمر، فالشرطة قد حققت في هذا الأمر بالفعل، وسيُكشف عنه عاجلاً أم آجلاً. سأمنحك الفرصة للاستمتاع بمعرفة هذا السر مسبقاً. المكتوب هو هذا الشيء...».

لم يكمل الشرطي العجوز عبارته، بل مدّ يده، فصار بإمكانني رؤيتها من خلف الباب، ثم أمسك بقضيب جدي. خاف جدي لدرجة أنه تراجع خطوة إلى الوراء، وصار بإمكانني رؤيته كاملاً.

نهره جدي قائلاً: «ماذا تفعل أيها الصعلوك العجوز؟!».

ضحك الشرطي العجوز وقال: «تريدني أن أخبرك بما هو مكتوب على بطنه، المكتوب هو هذا الشيء، فبالرغم من أنني صعلوك كبير فإنني أشعر بالخجل من التلفظ به».

في هذا الوقت، كان بوسعي أيضاً رؤية والدي من خلف الباب بعدما خرج ليقف بجوار الشرطي العجوز وسط الفناء. نظر الشرطي العجوز إلى والدي، ثم التفت ينظر إلى جدي، فتنهّد، وخفض صوته وهو يتحدث.

لكن الأجواء كانت هادئة للغاية، وكل كلمة كانت تتهاذى بوضوح إلى داخل أذني، سمعته يقول: «أيها العرَّاف العجوز، لا تُلمني على كلامي البذيء، فأنت الذي أصررت على أن أخبرك».

ثم سعل مرتين، وكأنه يقصد التشويش على ما يحاول قوله: «ما سمعته هو -- هل سمعتني جيداً؟ أقصد أنني سمعت فقط، يمكنك أن تصدق أو لا، الأمر متروك لك، وسواء أكان صحيحاً أم لم يكن، فهذا ليس من شأني».

ثم سعل مرتين، كما لو كان يحاول ابتلاع ذلك الكلام البذيء، لكن ربما تسببت نظرات جدي الغاضبة في جعله يتحدث، بصق الكلمات من فمه أخيراً وقال: «الكلمات مقسمة إلى جزأين. الجزء الرئيس عبارة بذيئة وشتمتها تلك المرأة اليابانية في شنغهاي أفقيّاً أسفل سرته: هذا القضيب ملك لإمبراطورية اليابان فقط، وهناك سهم أحمر يشير مباشرة إلى الأسفل، أما الجزء الثانوي فهو اسم ياباني من أربعة أحرف وشتمته تلك المرأة الخائنة في بكين، موشوم بشكل رأسي على جانبي السهم، لكنني نسيت ما هو الاسم».

لا أستطيع أن أتذكّر ما قاله الشرطي العجوز بعد ذلك، لكن تلك الجملة كانت مثل قنبلة يدوية أفقدتني أنا وجدي ووالدي الوعي لحظة. وعندما استيقظت، كان الشرطي العجوز قد اختفى. لم أسمع سوى صوت خطوات الأقدام وهي تبتعد وسط الزقاق. كان جدي ووالدي واقفين هناك مثل زوجين من الأوتاد الخشبية، صامتين، وكان من الواضح أنهما ما زالا فاقدي الوعي.

استفاق جدي قبل والدي، نظر نحو والدي وكأنه يحثه على الاستفاقة، ثم شرع يسب ويلعن على غير عادته وقال: «هؤلاء اليابانيون الملاحين هم ملاعين بحق، لا يتورعون عن اقتراف أي شرور، ويريدون الاستيلاء على كل ما يرغبون فيه لأنفسهم».

استفاق والدي وكأنه كان غارقاً في حلم، ثم حدّق في جدي في دھول، وكأنّ روحه قد امتصّها ضوء القمر. نظر جدي حوله وكأنه يبحث عن روح والدي، شتم ولعن مرة أخرى، ثم تقدّم نحو والدي، وريت على كتفه، وقال ناصحاً: «اذهب لتنام، فقد تأخر الوقت بالفعل»، ثم اختفى من مرمى نظري. كنت أعلم أنه ذاهب إلى حظيرة الماشية لقضاء حاجته.

سار والدي خلفه واختفى من مرمى نظري أيضاً، لكنني ما زلت أسمع صوته بالرغم من أنه كان يتحدث بصوت منخفض: «هذا... هل تعتقد... أن هذا سيكون بمنزلة جريمة أكبر؟».

لم يستطع جدي أن يجيب، فقط تنهّد متحسراً: «لا أعرف إذا كان هذا صحيحاً أم لا».

وبعد لحظة من الصمت، تحدّث محاولاً طمأنة والدي: «حتى إن كان الأمر صحيحاً، فلا داعي للقلق، أنا على يقين أن هناك من سيأتي لإنقاذه كما حدث من قبل، فلندعُ له في قلوبنا كي يأتي هذا المنقذ سريعاً».

وبعد ذلك تسمّر والدي مكانه صامتاً، وعندما عاد جدي من الحظيرة، نصحه بالذهاب إلى النوم، لكنه ظل صامتاً أيضاً. نام جدي على الفور، لكنني بقيت مستلقياً على جانبي، أنظر بعينيّ المفتوحتين إلى شعاع ضوء القمر القادم من خلال الشق الموجود في الباب، محاولاً منع نفسي من النوم. كنت أنتظر سماع صوت أقدام والدي وهو يصعد الدرج، طال انتظاري وأنا أشاهد ضوء القمر يتلاشى تدريجياً، ويخفت شيئاً فشيئاً، ثم تحوّل إلى اللون الأسود في النهاية، لم أعرف إذا ما كان ذلك بسبب نومي، أو بسبب حجب الباب ضوء القمر، أو بسبب السحب الداكنة التي غطت القمر. كل ما أعرفه هو أنني استيقظت في منتصف الليل بسبب الرغبة في التبول، فركضت عبر القاعة الأمامية نحو المرحاض، حينها رأيت والدي راکعاً على الأرض، يسجد ويتضرع. وفي اليوم التالي، لاحظت بقعة غامقة على جبهة والدي، فشعرت برغبة في البكاء حينها.

(73)

لا تحفر الأرض في أثناء موسم استيقاظ الحشرات من سباتها، ولا تصعد الجبل في أثناء موسم الاعتدال الربيعي. احرص على تناول الفواكه والخضراوات في أثناء عيد كنس القبور، والكعك الأبيض في أثناء الانقلاب الشتوي.

بداية الصيف هي موسم ازدهار المحاصيل، والثلوج الكثيفة تعني وفرة الحصاد.

يقفز سمك الشبوط من أعلى بوابة التين، ويدخل إله الرعد إلى المنزل.

لا تسافر وقت اقتراب الفجر، وسافر وقت اقتراب المساء. هذه كلمات كان جدي يقولها لي، ويقولها لابن عمي، وأحياناً يقولها حتى للغرباء. ذات مرة، رأيته يوقف عدداً من زملائي في الفصل في الشارع، ويسألهم:

«من منكم يستطيع أن يخبرني؟ لم لا يمكننا حفر الأرض في أثناء موسم استيقاظ الحشرات من سباتها؟». قالوا: «نحن لا نعرف، ولا نريد أن نعرف».

حتى إن كنت لا تريد أن تعرف، فسيخبرك رغماً عنك: «لأن موسم استيقاظ الحشرات من سباتها هو التوقيت الذي تستيقظ فيه الثعابين والحشرات، وتكون التربة ممتلئة بأنواع مختلفة من اليرقات والبيض، وهي هشة للغاية، وحفر التربة سيقتلها. وبالرغم من أنها آفات، فهي أرواح أيضاً، يجب أن نتركها تتكاثر وتعيش. لا يمكننا بوصفنا بشراً نتحلى بالرحمة أن نقلها قبل ولادتها».

لا أعرف من أين يأتي الجد بكل هذه المعرفة، تمامًا كما لا أعرف من أين يأتي الزعيم العجوز بكل هؤلاء النساء اللواتي ضاجعهن، لكن كليهما كان يحب التباهي بما يبرع فيه. هناك مقولة شائعة في القرية مفادها: إذا لم يُسمح للعرّاف العجوز بالحديث عن الأخلاق، فسوف يصاب بصداع في رأسه العلوي، وإذا لم يُسمح للشرطي العجوز بالحديث عن النساء، فسوف يصاب بالصداع في رأسه السفلي. الرأس العلوي هو الدماغ، والرأس السفلي هو ذلك الرأس... انس الأمر، فهناك بعض الأشياء لا يجوز للأطفال الحديث عنها، وإلا فستكون هذه وقاحة وقلة حياء.

قال جدي: «لحاء الشجرة العتيقة سميك للغاية، لكن جلد وجه الشخص العديم الحياء هو الأكثر سمكًا في هذا العالم». وهذه هي الطريقة التي كنا نصف بها الشخص الوقح العديم الحياء: جلد وجهه سميك.

يجب للأطفال أن لا يكونوا عديمي الحياء. فلو كانوا عديمي الحياء في صغرهم، سيكونون عديمي الحياء في كبرهم. بالطبع، هذا كلام جدي بالتأكيد.

سبق أن قال الشرطي العجوز أكثر من مرة إنه إذا كان من الممكن استبدال المال بالحكم التي يقولها، لكانت عائلتنا أغنى عائلة في القرية. عائلتنا ليست غنية، كان يقول ذلك على سبيل السخرية من جدي. من حسن حظه أن جدي لم يسمعه يقول هذا الكلام، وإلا فمّن المؤكد أنه كان سيتشاجر معه.

كان جدي يقول للشرطي العجوز أحيانًا: «الرجل الأحمق لن يشبع مهما تناول من طعام، وحتى إن لبس الذهب والحريز، فسيكون أشبه بقرد في السيرك».

ويقول أحيانًا: «أنت ببساطة لا تعرف كيف تكون إنسانًا، تعامل النساء كما لو كنّ مالا تتفقّه، ونتيجة ذلك انتهى بك الأمر فقيرًا وحيدًا».

ويقول أحياناً أيضاً: «إذا أردت أن تسخر مني، فعليك أن تكون أهلاً لذلك، دعني أعلمك مبادئ الخجل التي عشت حياتك لا تعرف عنها شيئاً».

وهذا بمنزلة توبيخ له، توبيخ له على كونه وقحاً، وجاهلاً، وعديم الحياء. باختصار، كان لدى جدي شعور بالتفوق الأخلاقي على الشرطي العجوز، فسمعتة ناصعة البياض، ومبادئه واضحة راسخة.

كان الشتاء على خلاف عادته هذا العام. الشمس ساطعة في أثناء موسم الانقلاب الشتوي، ولم يكن هناك صقيع في أثناء موسم البرد الأصغر، ولا جليد في موسم البرد الأكبر، ولم تتساقط الثلوج طوال الشهر القمري الثاني عشر، فقط ندفات خفيفة من الثلج. كأنَّ السماء متعاطفة مع العقيد، لا تريده أن يعاني البرد في السجن وحده، وكأنَّ الحكومة أيضاً متعاطفة معه، فلم تتسرع في إصدار الحكم عليه، ففي الأشهر القليلة التي تلت اعتقاله، توالى الشائعات حول ملابسات الحكم عليه، كان كثير منها مفصلاً، يشمل الوقت والمكان: المكان هو ملعب المدرسة الإعدادية، والوقت كان أحياناً يوم الانقلاب الشتوي، وأحياناً يوم سوق القرية. لكن بعد ثبوت زيف تلك الشائعات، توقف الناس تدريجياً عن الاهتمام بهذا الأمر. ففي فصل الشتاء، لا يكون لدى الناس وقت للاهتمام بالشائعات، يُرسل معظم العمال الأقوياء إلى الشمال لبناء الخزانات والسدود، ويبقى معظم كبار السن والنساء في المنزل، يُشعلون النار للتدفئة، ويخيطون النعال للأطفال، وتخلو الشوارع إلا من الأطفال الذين يخرجون للهو والركض في مجرى النهر الجاف للإمساك بالأسماك المتجمدة وسرطانات البحر، ويحفرون الجحور للإمساك بحيوانات ابن عرس والثعابين التي تغط في بياتها الشتوي.

وكما جرت العادة، أرسل والدي إلى الشمال للعمل في بناء الخزانات والسدود، ويبدو أن العقيد قد نُقل أيضاً. لأكون صادقاً، لم أذكره مدة طويلة، ولم يخطر ببالي إلا عندما أرى القطتين من حين إلى آخر.

الجو بارد في الطابق السفلي في أثناء الشتاء، لذلك عادةً لا تنزل القطتان إلى الطابق السفلي، وتبقىان دائماً في الطابق العلوي، ولا يمكنني معرفة أين تختبئان في الطابق العلوي، فالقطتان لا تشعران بالألفة إلا في وجود والدي فقط، عندما لا يكون والدي في المنزل، تشعران بالوحدة الشديدة، وتختبئان منا في كثير من الأحيان.

ومع اقتراب العام من نهايته، تعج القرية بالحيوية مرة أخرى. الوقت الأكثر حيوية هو بالطبع عيد الربيع، فيه تتخرط كل العائلات في تقديم التهاني بمناسبة العام الجديد، وزيارة الأقارب والترحيب بهم، ينهمك الكبار في تناول مأكولات العيد وشرب النبيذ، والأطفال في عدّ العيديات التي حصلوا عليها. في العادة، لا يهدأ هذا النوع من الصخب إلا مع حلول اليوم العاشر من الشهر القمري الأول، لكن تساقط الثلوج الكثيفة في أثناء عيد الربيع هذا العام قد تسبّب في توقف هذا الصخب باكراً.

وبحلول اليوم السابع من الشهر القمري الأول هبّت عاصفة ثلجية قوية للغاية، ربما كان تأخرها السبب في هبوبها بهذا الشكل القوي، وكأنها تعوّض هذا التأخير. تسبّبت تلك العاصفة في إغلاق طرقات القرية، وهدم زاوية من حظيرة الماشية الخاصة بنا. في صباح ذلك اليوم، كنت أكنس الثلج في الفناء، ولسبب ما تذكّرت فجأة العقيد وصوت وقع حدائه الجلدي الكبير وهو يسير فوق الطريق المغطى بالثلوج، هذه هي ذكرياتي الأولى عنه تقريباً، هذه الذكريات كانت تقفز إلى مخيلتي وتثبت داخلها عاماً تلو الآخر، فصار لديّ شعور بأنها غير قابلة للمحو. في ذلك اليوم، شعرت بقليل من القلق على العقيد بسبب هذا الطقس الشديد البرودة، وتساءلت في نفسي إذا كانوا قد زوّدوه بسترة قطنية وسروال في سجنه، وإلا فمن المؤكد أنه يعاني بشدة الآن.

في ظهر ذلك اليوم، وبينما كان الثلج لا يزال يتساقط، ظهر الشرطي العجوز في فناء منزلنا فجأة، جسده مغطى بالثلوج، دون أن ينطق بكلمة واحدة. ولأن هذا وقت عيد، فقد كان هناك ضيوف في المنزل، وكان جدي ووالدي يتحدثان مع الضيوف في القاعة الأمامية. عندما شاهدا الشرطي العجوز وقفا وألقيا عليه التحية، وأفسحا له ليجلس معهما. تجاهلهما الشرطي العجوز، وتسمّر مكانه يُحدّق فيهما بغضب، ثم توجّه مباشرة نحو جدي، ودون أن يتفوه بكلمة واحدة، رفع يده وصفع جدي مرتين على وجهه، وهو يلعن:

«يا ابن العاهرة، اللعنة عليك وعلى أسلافك».

نحن في وقت العيد، وكونك تذهب إلى منزل شخص ما لتضربه وتلعن أسلافه هو أمر غير مقبول البتة. نهض والدي ومعه الضيوف لدفع الشرطي العجوز بعيداً. أمسك والدي بياقته ودفعه إلى العمود، وضغط على رقبتة بيديه، ثم حدّره بقوله: «إذا لم تقر بأنك مخمور، فسوف أقتلك اليوم!». صرخ الشرطي العجوز: «أنا لست مخموراً. لقد ضربته نيابة عن صديقك، اسأله ما الجرم الذي ارتكبه بحقه؟».

انتهز فرصة ارتخاء يد والدي عند سماعه هذا الكلام، فتخلّص من قبضته وهرع نحو جدي يقول:

«يا ابن العاهرة! أنا أعمى بحق، كيف لي أن أثق بشخص مثلك!».

تدخّل والدي وسأل الشرطي العجوز: «تكلم بوضوح، ما الجرم الذي ارتكبه؟».

قال الشرطي العجوز بغضب: «اسأله بنفسك. لن أدخل منزلكم مرة أخرى. ولو رأيته خارج منزلكم ثانية سأسبه وأضربه، يا له من ماهر خبيث! يتحدث عن الأخلاق والمبادئ أمام الآخرين طوال الوقت، لكنه في واقع الأمر أسوأ من الحيوانات».

خرج الشرطي العجوز غاضباً وهو يسب ويلعن، وعندما مرَّ بجواري توترت بشدة حتى أنني لم أتمكن من التنفس. كنت أود لو أركله بقدمي، ولكنني كنت أعلم أن والدي سيفضّب لو أقدمت على فعل كهذا، فمن غير المناسب أن أعتدي على شخص آخر في وجود والدي. لاحظت أنه لم يكن مخموراً، فلم تكن هناك أي رائحة كحول تفوح منه. أعتقد أنه فقد عقله، ويبحث عن حتفه بنفسه. كانت الساحة مغطاة بالثلوج، والأرض زلقة، فتعثّر وهو يمشي، حينها تمنيت لو سقط ومات مكانه.

لاحقه والدي، وركض خارجاً من البوابة لإيقافه، واختفى بعد خروجه من البوابة.

ذهبت إلى جدي وأمسكت بيده كي أواسيه، لكنني لم أعرف ماذا أقول، فقد جعلني الغضب فاقداً للنطق. وكان الأمر هو نفسه بالنسبة إلى جدي، فمنذ أن تعرّض لضرب الشرطي العجوز وتوبيخه، ظل واقفاً مكانه كالأبله. لم يرد ولم يتذمر ولم يدافع عن نفسه. كان الأمر كما لو أن الشرطي العجوز قد أعطاه مخدراً مسبقاً، ففقد وعيه وكرامته، وتحول إلى شخص أحمق مثير للشفقة. شعرت بالأسف حيال جدي، ولكنني فكرت أيضاً أنه قد يكون هناك شيء مريب في الأمر؛ ربما كان جدي قد أخطأ بالفعل، وهذا الصمت هو اعتراف بالخطأ.

عندما فكّرت في هذا الأمر، قلّ غضبي، وزاد توتري، وشعرت بالقلق أن يكون قد ارتكب خطأ ما بالفعل.

وبعد مدّة عاد والدي. كانت هيئته مثل هيئة الشرطي العجوز وقت مجيئه تماماً، كان الشرر يتطاير من عينيه، ثم توجّه نحو جدي بصمت، وكما فعل مع الشرطي العجوز، أمسك بجدي من ياقة ملابسه، ودفعه نحو الحائط، وسأله بغضب:

«أخبرني الحقيقة. هل أبلغت الشرطة عن مكان اختباء العقيد؟ هل أبلغتهم؟ أخبرني الحقيقة! أخبرني!».

تكلّم يا جدي، من فضلك تكلم. قل إنك لم تفعل ذلك، فأنت لم تكن تعلم بمكان اختباء العقيد، ولم يخبرك أحد بمكانه. تكلّم يا جدي، عليك أن تتكر هذه التهمة، قل إنك بريء. يا جدي، لقد كنت دومًا شخصًا يتحلّى بالأخلاق، ومن المستحيل أن تقدم على مثل هذا الفعل الشنيع. تحدّث يا جدي، من فضلك تحدّث، تحدّث بصوتٍ عالٍ.

لكن جدي لم ينبس بننت شفة، فقط أغمض عينيه، وتدفقت الدموع منها، أشبه بدودتين ترحفان على وجنتيه، وسال المخاط من أنفه. شعرت بقلبي يتحطم عند رؤية هذا المشهد فانفجرت بالبكاء، وكأن جدي قد مات. في هذه الظهيرة اللعينة، كانت السماء صافية والأرض بيضاء مغطاة بالثلوج، لكن البشر حولي كانوا قذرين ملطخين بالسواد. الأشرار يعتقدون على الأختيار، والأبناء يوبّخون آباءهم، والأخلاق والمبادئ تنهار، كل هذا جعلني أشعر بالاختناق. شعرت بظلمة تغشى قلبي، وتمنيت لو كان بوسعي البكاء حتى الموت.

(75)

سرعان ما اتضحت الأمور. كان جدي هو من أبلغ الشرطة عن مكان اختباء العقيد بالفعل، فعلى الرغم من أنه لم يكن يعلم أن العقيد كان مختبئًا في قرية تشن الكبيرة، فإنه علم بمكانه بعد أن أرسل عمتي الثالثة لتعقب والدي في أثناء ذهابه لزيارة العقيد.

ولما كان على والدي عبور تلال العلق الطويلة في كل مرة يذهب فيها إلى قرية تشن الكبيرة لزيارة العقيد، فقد كان يضطر إلى الذهاب إلى منزل عمتي الثالثة أولاً ليستريح ويتناول بعض الطعام قبل أن يستكمل طريقه، وإلا فسوف يشعر بالإرهاق والتعب من مشقة الرحلة. وكان جدي يزور بيوت بناته مرة كل شهر بالتناوب، وعندما ذهب إلى منزل عمتي الثالثة، أخبرته أن والدي أحضر معه الشرطي العجوز إلى منزلها منذ مدة قريبة. قبل ذلك، سبق أن اعترف والدي أمام جدي داخل غرفة الشرطي

العجوز بأنه يعرف مكان اختباء العقيد، ووعد الشرطي العجوز باصطحابه لزيارته يوماً ما. لذلك بعدما سمع جدي ما قالته العمة الثالثة، خَمَّن على الفور أن والدي كان يصطحب معه الشرطي العجوز لزيارة العقيد حينها. وعلى الرغم من أن العمة الثالثة ذكرت أمام جدي من قبل أن والدي قد زار منزلها بشكل متكرر مؤخراً، فإنه لم يكن ليفطن إلى هذا الأمر لولا أنها ذكرت الشرطي العجوز: الأمر أشبه بالعلاقة بين الرعد والمطر، فالرعد يأتي أولاً ثم يعقبه المطر. ولو عاد بالأمر إلى الوراء، فمن المؤكد أنه تفكيره صائب، ولا بد أن يكون العقيد مختبئاً في مكان قريب.

أخبر جدي العمة الثالثة بالوضع، وطلب منها أن تتعقب والدي عندما يأتي لزيارتها في المرة القادمة. العمة الثالثة هي ابنته، ولا يمكنها رفض طلبه. في المرة الأولى التي تبعته فيها، لم تكن تتوقع أن عليها تسلق تلال العلق، كان الطريق طويلاً ووعراً، وكل خطوة منهكة، لكنها امرأة على أي حال، لذلك لم تستطع تحمّل تلك المشقة، وفشلت في تعقبه. وفي المرة الثانية أرسلت ابنها الثاني الذي كان في التاسعة عشرة من عمره، كان خفياً كالسنونو، ونظره حاداً كالنسر، ونجح في تعقب والدي إلى النهاية. وبهذه الطريقة حصل جدي على العنوان، ثم ذهب إلى بيت عمتي الثانية. كان والد زوج عمتي الثانية يملك متجرًا لبيع التوفو في المحافظة، ويعرف مسؤولين عديدين في المدينة، من بينهم أحد كوادر مكتب الأمن العام، هذا الكادر هو نفسه قريب الشرطي العجوز الذي ذكرته سابقاً. كان مسؤولاً عن الأمور الخدمية، بما في ذلك الطعام والشراب، لذلك سبق أن جاء إلى متجر التوفو مرات عدة، أحياناً لمعاينة البضائع، وأحياناً للتحقق من الحسابات. وبعد زيارات عدة، تعرّف إلى والد زوج عمتي الثانية وصارا صديقين.

وبترتيب من والد زوج عمتي الثانية، استقبل الكادر جدي في مكتبه، وسأله عن شكواه. بدأ جدي بالحديث عن الضرر البالغ الذي لحق بعائلتنا

نتيجة الشائعة التي نشرها الأعمى الصغير حول شذوذ العقيد. شرح جدي القصة كاملة بالتفصيل، خوف أن يفوته شيء، وأكد مرارًا وتكرارًا أن معظم الناس في القرية ما زالوا يعتقدون أن العقيد شاذ جنسيًا. ورغم أنه كان يتحدث بطريقة مريكة، فإن الكادر تمكّن من فهم ما يقصده؛ وجود وشم على بطن الهارب (العقيد) هو أمر حقيقي، لكن كونه شاذًا هو أمر زائف. لكن القرويين جعلوا من الزيف حقيقة، فطالت التهمة والدي أيضًا، ما شوّه سمعة عائلتي وقلب حياتنا جسيمًا.

شعر الكادر بالضجر، فقاطع جدي يقول: «ما الفائدة من حديثك هذا؟ فهذا المجرم هارب، ولا أستطيع مساعدتك».

قال جدي: «إذا وعدتني بمساعدتي، أستطيع مساعدتك في القبض عليه».

سأله الكادر: «كيف يمكنني مساعدتك؟».

قال جدي: «إذا قبضت عليه، وتبينت حقيقة الكلمات الموشومة على بطنه، ستأكد أن المكتوب ليس أنه شاذ».

ضحك الكادر: «وماذا بعد ذلك؟».

قال جدي: «لا بد أن يُصدر مكتب الأمن العام لديكم إعلانًا لشرح الحقيقة لأهل القرية. فمهما أوضحنا لهم لن يكون ذلك بالتأثير نفسه للإعلان الصادر عنكم».

فهم الكادر أخيرًا مُراد جدي. هذه صفقة تبادلية، يحصل بوساطتها كل طرف على ما يريد. كان هذا طلبًا معقولًا وقانونيًا، لذا وافق الكادر على الفور، فأخبره جدي بالعنوان. وبعد ذلك ألقى القبض على العقيد، وجاءت الشرطة إلى القرية ونشرت الإعلان، وهكذا تمت الصفقة بنجاح، واستفاد منها الطرفان على أفضل وجه.

كان هناك بند آخر في الاتفاق ينص على أن على الكادر أن يُبقي الأمر سرًا، وألا يخبر أحدًا بأن جدي هو من أبلغ عنه. حماية خصوصية مصدر

البلاغ هي أمر معقول وقانوني، فوافق الكادر دون تردد، ولم يكشف عن هوية جدي. لذلك، ففي المرة الأخيرة التي ذهب فيها الشرطي العجوز ومعه والدي لزيارة العقيد، استقبلهما هذا الكادر بلطف، ولم يحدثهما سوى عن اللوائح والقوانين فقط، دون أن يأتي على ذكر أي أمور أخرى. لكن هذا الكادر كان مسؤولاً عن الشؤون الخدمية، وغالباً ما يرافق القادة لتناول الشراب، فصارت لديه قدرة كبيرة على الشرب، بل وصار مغرمًا بالشرب، ويُعد عيد الربيع فرصة نادرة لإشباع رغبته في الشرب، كان الناس يتنافسون على دعوته لتناول الشراب أينما حلَّ لكونه كادرًا في مكتب الأمن العام. وفي اليوم السابق، دعاه أحدهم لتناول الشراب في بيته، وتصادف أن كان الشرطي العجوز ضمن المدعوين، ولأن هناك علاقة قرابة بينهما، جلسا معًا وشربا بنهم. بعدما ثمل الكادر، كشف للشرطي العجوز عن السر الذي يخفيه جدي، الأمر الذي أغضب الزعيم العجوز فاستمر يشرب حتى ثمل هو الآخر. ولأنه كان ثملًا، نام حتى الظهر، ثم جاء مباشرة إلى منزلنا بعدما استيقظ.

(76)

حتى بعد تعرُّضه للضرب والتوبيخ على يد الشرطي العجوز، أو تعرُّضه للإهانة على يد والدي، لم يعترف جدي أو ينكر هذا الاتهام. لكن عدم الإنكار هو في الواقع اعتراف. ولكن والدي كان يريد أن يعرف السبب، فهذا والده على أي حال، ولا يمكنه التصرف بتهور، فماذا إن كان هناك سبب، كأن أجبره أحدهم على التحدث تحت التهديد، أو أنه كشف السر عن طريق الخطأ؟ حينها سيختلف الأمر، وسيختلف رد فعله أيضًا. وبعد أن فكَّر والدي في الأمر مليًا، خطرت على باله عمتي الثالثة، فذهب إليها ليستبين الأمر بالرغم من تلك الثلوج الكثيفة التي تعوق الحركة.

لم تتحمل عمتي الثالثة ضغوط والدي، فأخبرته بكل شيء، الأمر الذي أثار غضب والدي لدرجة أنه بكى على الفور، فما فعله جدي سلوك مشين لا يُغتفر!

كان الظلام قد حلَّ عندما عاد والدي إلى المنزل، وكان جدي قد ذهب إلى الفراش. في الواقع، لم يتمكن جدي من النوم، كان مثل سمكة موضوعة على لوح التقطيع، تنتظر تقطيعها. جاء والدي الذي سار على قدميه عشرات الأميال فوق الطرق الثلجية مثقلًا بالتعب والغضب، ففتح الباب، وجلس على المقعد دون أن يقول كلمة واحدة، ثم أشعل سيجارة، وشرع يدخنها ببطء، كأنه يريد أن يُحدث جدي دون مواربة، عندما رأيته على هذا النحو، شعرت بنوع من السعادة، ظنًا مني أنه لن يعنف جدي، لكنني لم أكن أعلم أن كل كلمة سينطق بها والدي بعدما انتهى من سيجارته كانت قاتلة مثل الرصاص.

تحدث والدي بصوت خافت، وإيقاع بطيء، كلمةً بكلمة، وقال: «أنت لست إنساناً. من الآن فصاعداً، أنت لست والدي، ولن أتناول الطعام معك على المائدة نفسها، ولن أكرث لو عشتَ أو مت، ولو مت سأدفنك فقط، فأنا لا أظن أنك ستعيش طويلاً، وكلما عجّلت بموتك أرحتني منك».

تكلّم جدي أخيراً بصوت ضعيف ومتقطع، يتحدث بصعوبة وكأنها كلمات رجل يحتضر: «أنا... فقط... لا أريدك... أن توصم... بهذا العار... وأردت أن أخلصك... من وصمة العار هذه».

انتفض والدي من مكانه فجأة، وانفجر كالقنبلة وهو يصيح في وجه جدي:

«ذلك العار يمكن تحمّله، لكن هذا العار الذي ارتكبته أنت لا يمكن تحمّله! انتظر وسترى، فمن الآن فصاعداً سينظر إلينا الناس على أننا وحوش وشياطين، وسيبصقون عليك حيثما رأوك! لقد دمرت حياتنا». والدي نصف أخرس، صامت كتوم، لا يتحدث كثيراً، وعندما يتحدث

ينفلت لسانه ويتلعثم، لا يتحدث بالمنطق، بل بالحقيقة فقط. لكن هذه المرة، تحول تمامًا، وأصبح شخصًا مختلفًا، كان يتحدث بشكل عقلاني، بلا توقف، مثل المدفع الرشاش، وبدا واضحًا أنه ظل يفكر في الأمر طوال الطريق، والأمر الأكثر غرابة هو أن ما قاله هذه المرة كان مؤثرًا للغاية، وكأنه يلقي موعظة دينية.

وفي غضون أيام قليلة، وقعت مجموعة من الحوادث الغريبة في منزلنا: رأينا فأرًا ميتًا ملقى عبر النافذة، خرجت بطتان من فئائنا ولم تعودا، ولم يعد منهما سوى كومة من ريش البط المتناثر في كل مكان وسط الفناء. بدا واضحًا أنهما تحولتا إلى وجبة في بيت أحدهم، ولم يكتف بذلك، بل استهزأ بنا، كما تشاجر أخي الأكبر مع شخص ما لأن هذا الشخص وصفه بأنه لقيط جاحد، وعندما ذهبت إلى دكان آتاي الأعرج لشراء صلصة الصويا، لم يخرج النمر القزم للعب معي كالعادة، فهذه المرة صفعه آتاي الأعرج على وجهه وطلب منه عدم الخروج عندما حاول اللعب معي، لكنه في الواقع كان يطردني بطريقة غير مباشرة.

كان والدي يعلم السبب في كل هذا، فقرّر الاعتراف بالذنب أمام الجميع. لذا ذهب وجثا على ركبتيه أمام مدخل قاعة الأسلاف يومًا كاملاً رغم البرودة الشديدة طلبًا للمغفرة. ولكن ما حصل عليه كان وابلًا من السباب، مثل «ثعلب في ثوب حمل»، «عاهرة تدّعي العذرية»، «لو كانت لديك الشجاعة اذهب وضع نفسك من أجل العقيد»، وما إلى ذلك.

كان الاستماع إلى هذا الكلام مثيرًا للغضب، وهذا هو هدفهم أيضًا، يفضّبونك لينفوسوا عن غضبهم. ربما كان الشرطي العجوز هو الشخص الوحيد في القرية الذي يعلم أن والدي بريء، لكنه لم يُظهر أي تعاطف مع والدي. وقف فقط يتفرج دون أن يدافع عنه، بل على العكس، فقد ذر الملح على الجرح، وشارك في إهانته أيضًا.

قال لوالدي: «على الأبناء أن يتحملوا عاقبة أفعال الآباء، هذا أمر بدهي».

هذه الجملة سبق أن قالها جدي من قبل، هو فقط اقتبسها.

ظل جدي راقداً في فراشه، ولم يجرؤ على الخروج من المنزل على الإطلاق، فقد حذرته والدتي مرات عدة من أنه سيتعرّض للإهانة لو خرج، وقد يبصق الناس عليه ويوبّخونه ويسبونونه. وبالرغم من أنه لم يخرج، فإن أحدهم جاء إلى بيته ليوبّخه. هذا الشخص كان جدي الصغير، ابن عم جدي الذي يسمونه اليسوعي. كان جدي الصغير طيباً عطوفاً، لا يتوقف عن قول «آمين، آمين» ولم يكن حتى يقتل الحيوانات أو يأكل اللحم. لكن هذه المرة أخذ يسب جدي ويوبّخه بلا توقف، ثم وضع تمثال يسوع الذي سبق أن أحضره له العقيد من هانفتشو على الطاولة، وطلب من جدي أن يركع ويعترف بخطاياهم أمام يسوع. كان جدي مثل الطفل المطيع، ركع أمام يسوع، وظل يبكي حتى سالت الدموع والمخاط على وجهه، ثم صرخ يوبّخ نفسه قائلاً إنه يستحق الموت، كان منظره مهيناً بحق.

عندما رآه جدي الصغير على تلك الحالة، لقّنه درساً قاسياً وقال: «لطالما كنت حكيماً طوال حياتك، فكيف لك أن ترتكب مثل هذا الخطأ الشنيع، هل تعرف من الشخص الذي وشيت به؟ أنتم تطلقون عليه اسم المخصي، لكنه في الحقيقة إمبراطور. هل من أحد في القرية لا يحترمه؟ من لا يتذكره بالخير؟ أنا مثال لذلك، فقد عاملته أنت بقسوة ودعوت عليه بأن يعيش مقطوع النسل، ومع ذلك أنقذني عندما رأيته في ورطة، لم يكن يحمل ضدك أي ضغينة، كل ما يهمله هو أن نكون بخير. مثل هؤلاء الأشخاص الصالحين يعيشون بيننا لأن يسوع هو من يرعانا، إنه يسوع الذي لا يؤمن بيسوع. وإساءتك إليه هي إساءة ليسوع. عليك أن تصلي من أجل يسوع كي يمنحك الخلاص، فأنا لا حيلة لي لمساعدتك».

كنت بالجوار أنظر إلى تمثال يسوع فوق الطاولة، ظهره إلى الحائط، رأسه مائل ومُتدلّ، ذراعه ممدودتان، ومصلوب بالمسامير، يدها تتزفان،

وقدماه تنزفان أيضًا، وبدا كأنه يعاني أشد الألم، ويحتاج إلى من يخلصه. فجأة شعرت أن هذه حال جدي، يعاني ويحتاج إلى من يخلصه. هل يستطيع يسوع حقًا أن يخلصه؟ لم أكن متأكدًا من قدرة يسوع على ذلك، لكنني جثوت على قدمي، وركعت أمامه أصلي إليه كي ينقذ جدي. وفي الوقت نفسه، كان والدي لا يزال جاثيًا على ركبتيه أمام قاعة الأسلاف. أخبرني جدي ذات مرة أن ركبتي الرجل ثمينتان كالذهب، وأن الموت أفضل من الركوع، لكننا الآن ثلاثة أجيال من رجال العائلة نجثو على ركبنا في التوقيت نفسه. وعندما فكرت في حالنا الآن، تمنيت لو كان يوسع يسوع أن ينزل من على الطاولة ليخنقني حتى الموت أنا وجدي، فالعيش بالنسبة إلينا أسوأ من الموت!

(77)

كان هذا اليوم هو يوم ذوبان الجليد، والأيام التي يذوب فيها الجليد تكون أبرد من الأيام التي يتساقط فيها. ولأن والدي ظل جاثيًا على ركبتيه وسط البرد طوال اليوم، سار يتعثر في مشيته في أثناء عودته إلى المنزل بشكل يفوق تعثر آتاي الأعرج في مشيته. آتاي الأعرج لديه قدم واحدة عرجاء، لذا كان يسير بطريقة متقطعة. لكن والدي كان يومها أعرج القدمين، ويسير بطريقة متقافزة، فبدا في حالة يُرثى لها. وفي صباح اليوم التالي، أيقظتني والدتي وطلبت مني أن أصعد إلى الطابق العلوي لأضع منشفة ساخنة على ركبتي والدي.

كانت ركبتا والدي منتفختين للغاية، كأنَّ هناك كعكة مطهوه على البخار ملتصقة بكل منهما، كانت ركبتاه ناعمتي الملمس، ككرتين قد تتفجران بمجرد الضغط عليها بالأظفار. وبينما كنت أدلك ركة والدي، كانت والدتي تحزم أغراضه، بما في ذلك ملابسه الداخلية، والملاءات، والمناشف وغيرها. بدا الأمر كما لو أن والدي سيذهب إلى الشمال للعمل

في بناء الخزانات والسدود ثانية. تساءلت حينها كيف يمكن أن يسافر والدي بعيداً للقيام بأعمال بدنية في هذه الحالة؟ لاحقاً فكّرت أنه ربما استغل أحدهم وضعنا الحالي ليعاقب والدي. كان جدي قد علّمني من قبل أن هذه حال الدنيا، لو كنت في موضع القوة، سيتملكك الناس، ولكن لو كنت في موضع الضعف، فسيزيدون طينك بلة.

لكن بحلول العصر، اكتشفت أنني كنت مخطئاً. لم يكن والدي ذاهباً إلى العمل في بناء الخزانات والسدود، بل كان ينوي الذهاب إلى بيت العقيد. طلب مني أن أحمل القطين، وطلب من أخي الأكبر أن يحمل جوالاً ممثلاً بالأغراض، وسار أمامنا يتقافز نحو منزل العقيد. كانت والددة العقيد قد نظفت القاعة الأمامية وغرفة القطط في الطابق السفلي، وعندما وصل أخي الأكبر نصب سريراً لوالدي في غرفة القطط. ومنذ ذلك الحين، عاش والدي مع القطين. وباستثناء العودة إلى المنزل لتناول الطعام، كان يمكث في منزل العقيد طوال الوقت، وكان منزلنا مثل المطعم بالنسبة إليه. كان والدي مصرّاً على عدم تناول الطعام على الطاولة نفسها مع جدي، لذلك كان يترك الطاولة عندما يجلس جدي، عندما يناديه جدي لا يجيب، وعندما يبكي جدي لا يهتم، باختصار، وفي بوعوده التي قطعها على نفسه بمقاطعة جدي. في الواقع، كان ما فعله والدي أكثر مما قاله، فهو لم يقل من قبل إنه سيترك منزلنا ويعيش في منزل العقيد، فهل كانت هذه طريقة جديدة لطلب الصفح من أهل القرية، يقصد بذلك أن يحرس منزل العقيد كي يسامحه الجميع؟ هذا أمر لم أكن أعلمه.

لكنني كنت أعلم أن التوسل طلباً للصفح لن يجدي نفعاً، لأن أهل القرية ما زالوا يحتقروننا، بمن في ذلك أنا. عندما بدأت الدراسة، لم يكن أحد يرغب في الجلوس معي على الطاولة نفسها. طلبت مني المعلمة الجلوس في الصف الأخير، على طاولة مهترئة ساقها مكسورة، ثم حدثتني بعبارات ساخرة كان لها وقع كبير عليّ:

«الطاولة معطوبة بعض الشيء، لكن لا بأس ما دام صاحبها غير معطوب. ففي قديم الزمان، كان هناك شاب فقير للغاية، لا يملك ثمن زيت لمصباحه، فحفر ثقباً في الجدار ليستعين بالضوء القادم من بيت جاره، واستمر يستذكر دروسه على أفضل وجه، ثم التحق بجامعة عريقة، وأصبح عالماً مشهوراً بين أبناء جيله».

وفي اليوم التالي، وجدت أن طاولتي قد صارت مهترئة أكثر. لقد بادر شخص ما -يقال إنه رفيقي السابق في محنتي، النمر القزم- بعمل قطع كبير بالسكين فوق الطاولة على شكل علامة X، ثم تبعه البقية وحضروا علامات مشابهة أصغر. كان الأمر أشبه بدجاجة أنجبت مجموعة من الكتاكيت بين عشية وضحاها، فتحولت طاولتي إلى حظيرة دجاج فجأة. وعندما رأت المعلمة (المعلمة نفسها) هذا الوضع، نصحتني بنبرة ساخرة أيضاً أن أفكر في السبب وراء هذه التصرفات. كان صوتها حاداً كسكين يطعن قلبي، وكل كلمة تقطر بالدماء:

«كما تعلمون جميعاً، علامة X على ورقة الاختبار تعني أن الإجابة خاطئة. إذا كانت هناك علامات X كثيرة دون علامة $\vee$ واحدة، فهذا يعني أنك حصلت على صفر. أما وجود علامة X على الملصقات الإعلانية، فهي تدل على الأشرار، والمعادين للثورة، وأعداء الشعب، ويجب على الجماهير مهاجمتهم بشكل جماعي، بل وقتلهم. لكن ماذا تمثل علامة X على الطاولة؟ لا أعرف، لكنني آمل أن تعرف. وإذا كنت لا تعرف، يمكنك أن تعود إلى المنزل وتساءل جدك، فهو عرّاف عجوز يعرف كل شيء».

لأكون صادقاً، تهمة الشذوذ هي تهمة مشينة للغاية، ولكن عندما طالت تلك التهمة عائلتي في الماضي، لم يسبق لأحد أن مارس التمييز ضدي، أو حتى سخر مني علناً. على الأكثر، كان البعض يهمسون عني من وراء ظهري، ويرمقونني بنظرات غريبة، كانوا يفعلون ذلك خلسة، ولا يجروؤن على النظر إليّ مباشرة. لأنهم يعرفون أنني أحمل معي مبرداً حاداً، وأي

شخص يعبث معي سيكون كمن يلعب بالنار، ويلقي بنفسه إلى حتفه. قبل أن تبدأ الدراسة هذه المرة، كان لديّ شعور بأنني سأتعرّض للسخرية، لذلك طلبت المبرد من جدي، لكنه رفض أن يعطيني إياه. حدثني جدي باكياً: «هذه المرة مختلفة، عليك أن تتحمل، لقد كبرت، ويجب أن تتعلم كيف تتحمل الصعوبات».

تحملت، وعانيت، وتعذبت، وصبرت، ولكن النهاية كانت مثل ركوع والدي على ركبتيه، ولم يرحمني أحد، بل ازداد الأمر سوءاً، وكاد يكلفني حياتي. ففي أحد الأيام، بعد انتهاء الدراسة، كانت السماء غائمة كثيفة، كأن الثلج سيتساقط ثانية. سار زملائي في مجموعات، يضحكون ويلعبون، لكنني كنت أسير وحيداً، أكثر كآبة من السماء الغائمة. لا أعلم متى يمكنني العودة للانضمام إلى زملائي، ومتى ستعود الأمور إلى سابق عهدها؟ ليست لديّ أي فكرة. مشيت في صمت، أتحمّل عذاب الوحدة والخوف، فانتابني شعور بالاشمئزاز والكراهية تجاه جدي لم أشعر به من قبل. أعلم أنه دمر حياته وحياته عائلته بأكملها هذه المرة. لقد ارتكب خطأ تلو الآخر، وهوى بعائلتنا إلى الحضيض. شعرت كأنه يتعفن حياً، والرائحة الكريهة التي تتبعث منه تثير اشمئزاز الجميع، بمن فيهم أنا. قبل أيام قليلة كنت أتساءل هل يجب أن أبتعد عنه وأنتقل للعيش في الطابق العلوي؟ سقطت طوبة مكسورة من الأعلى عصر ذلك اليوم، ما دفعني إلى اتخاذ قرار، وتنفيذه على الفور.

لكي أعود إلى المنزل، يجب أن أمر من أمام دكان آتاي الأعرج، ثم أدخل الزقاق المؤدي إلى قاعة الأسلاف. قاعة الأسلاف عالية، والزقاق طويل، والسماء ضيقة وطويلة، والأفق أكثر كآبة. عادةً، أستطيع عبور هذا الزقاق في دقيقة واحدة، فقد عبرته مرات لا تُحصى في السنوات الست عشرة الماضية. ولكن دقيقة واحدة في عصر ذلك اليوم كانت بطول حياتي بأكملها: طارت قطعة طوب مكسورة من نافذة قاعة الأسلاف،

وسقطت فوقى فى صمت؁ ثم انزلقت على ظهري؁ وتحطمت على الأرض إلى قطع. أصبت بجرح سطحي فقط؁ خَلَف وراءه بقعة من الدم؁ لكن لو كنت أبطأ بخطوة؁ لأصابتني فى رأسى؁ وربما مت قبل جدي.

فى ذلك اليوم؁ أدركت أخيراً سبب عدم خروج جدي من المنزل منذ ذلك اليوم. كان مثل الفأر الذى يفضّل البقاء فى جُحره بدلاً من الخروج. لأنه يعلم أنه لو خرج سيكون هناك مزيد من الطوب والبلاط المكسور يتطاير من النوافذ نحوه. لن تعرف من الفاعل؁ سيقول الناس إن الفاعل هو الريح؁ أو ربما قط؁ أو فأر. أشك أن جدي الصغير كان ليقول: يسوع يعرف أنهم يكذبون؁ لكن يسوع سيففر لهم.

آه يا جدي! آه يا جدي!

فى تلك الليلة؁ صعدت دون تردد إلى الطابق العلوى؁ ونمت فى سرير أخى الثانى. كان أخى الثانى يعمل فى مكان بعيد عن المنزل طوال الوقت؁ ونادراً ما يعود إلى المنزل. وهو الآن لم يعد يرغب فى العودة إلى المنزل؁ فالمنزل قد صار أشبه بمخبأ العدو؁ وهناك من يرغبون فى تفجيرِه طوال الوقت. نمت وحدي فى سرير غريب؁ لا وجود لشخير جدي المألوف؁ وحلّ محله شعور بالألم جراء جرح ظهري؁ لذلك لم أستطع النوم. أنا أيضاً لم أكن أرغب فى النوم خوفاً ألا أستيقظ أبداً. كنت أرى الموت حياً أمامى؁ حقيقياً؁ قريباً؁ مرئياً؁ ملموساً؁ تماماً مثل الأرانب التى أربيها.

لم أكن أخشى الموت؁ عمري ستة عشر عاماً فقط؁ ولا أخشى سوى أن يضرّني أبى أو أن تغفني أمى؁ لكن الموت لم يكن يخيفني قط. ولكن الذين يحبونني يخشون عليّ من الموت! لا تظن أنه لا يوجد أحد يحبني لمجرد أنني لا أعيش حياة مرفهة مثل قطتي العقيد.

قال جدي: «جميع الآباء يحبون أبناءهم تماماً كما تحب الأشجار أن تحجب الرياح».

وفي اليوم التالي، طلب مني والدي ألا أذهب إلى المدرسة وألا أخرج من البيت، ولو خرجت، لا بد أن يكون أخي الأكبر برفقتي. أما هو، فخرج وسط الثلوج، حاملاً مظلة، وأخذ معه بعض الطعام، ولم يعد إلا بعد أيام عدة، ثم اصطحبني معه وخرجنا في الصباح الباكر من اليوم التالي، ركبنا القارب أولاً، ثم ركبنا سيارة، ولم أكن أعرف إلى أين نحن ذاهبان. لم أكن أعلم أن هذا سيكون وداعاً طويلاً، ولأنه كان في الصباح الباكر، لم أكن في استفاقتي كاملة، ولم أودع جدي. أوصلني أخي الأكبر إلى الطريق السريع، وأوصلتني أمي إلى المدينة عند ضفة النهر، حيث يوجد رصيف السفن. احتضنتني وبكت، متوسلة إلى الرب أن يحفظني سالماً طوال حياتي.

بكت أمي وهي تقول لي: «عدني أن تهتم بسلامتك، وأن تعود لزيارتي». حينها فقط أدركت أنني ذاهب إلى مكان بعيد جداً، وربما لن يرى بعضنا بعضاً مرة أخرى. كانت الشمس قد أشرقت بالفعل، وانعكست أشعتها الحمراء على سطح النهر من بعيد، ولمعت أشعتها الصافية على سطح النهر القريب، فانعكس ضوءها على شعر أمي. وأول مرة، لاحظت أن شعر أمي الأسود يخالطه كثير من الشعر الأبيض.

مكثت مدة شهر تقريباً في قرية مجهولة بجوار البحر، في منزل صياد عالجه العقيد، وكان والدي يعرفه أيضاً، بعدها، أخذني الصياد إلى قارب صيد صغير في ليلة مظلمة. وعند بزوغ الفجر، رأيت سفينة عابرة للمحيطات بحجم تل كبير. وبحلول الظهيرة، صعدت على متن تلك السفينة. كانت السفينة ممتلئة بأنواع نادرة من التربة والحجارة حُمِلت من الصين. وتحت تأثير نسيم البحر الرطب، كانت تطلق رائحة مالحة ومرة في الوقت نفسه. قادني أحدهم، مشينا أكثر من نصف ساعة حتى تمكنا من المرور عبر سلسلة من الأبواب الحديدية السميقة، والنزول عبر ثلاثة طوابق من السلالم الحديدية الرمادية اللون، إلى أن وصلنا أخيراً إلى كابينة تخزين ممتلئة بالبباطس والقلقاس والفجل والملفوف وبراعم

الخيزران المجففة والشعيرية، باختصار كثير من الخضراوات الصالحة للأكل والأسماك المخلة واللحم المقدد. وفي زوايا عدة من تلك الكابينة، كان هناك عشرات من الناس إما جالسون وإما مستلقون، رجال ونساء، كبار وصغار، بدوا كأنهم جميعاً يكرهونني، فلم يرحب بي أي منهم، لكنني كنت في حالة مزاجية جعلتني أفسر الأمر على أن ذلك ربما كان بسبب كونهم متعبين للغاية.

بالفعل، كنت في مزاج متسامح في ذلك اليوم، فعلى الرغم من أنني لم أكن موضع ترحيب، وعلى الرغم من أنني كنت أعلم أنني أهرب لأنجو بحياتي، وعلى الرغم من أنني كنت قلقاً من أنني قد أفشل في الهروب وأموت في أثناء الرحلة، أو يُلقى بي في البحر لإطعام الأسماك، كانت هناك أخبار رائعة للغاية شجعتني، فقبل انطلاق السفينة، أوصل لي أحدهم رسالة مفادها أن والدي ظل ينتظر عند بوابة مكتب الأمن العام مدة يوم كامل، والتقى أخيراً بالكادر المسؤول عن الخدمات. وبمساعده، حصل والدي على بيان كتبه العقيد بنفسه، كان بياناً مكتوباً بحروف كبيرة على قطعة كبيرة من الورق، موجهاً إلى أهالي القرية جميعهم، يأمل منهم أن يسامحوا جدي. كتب العقيد ذلك البيان بصدق لا يخلو من المنطق والأدلة، وهو ما جعل كل من قرأه يقتنع ويتأثر، وسامحوا جدي على الفور. ويقال إن العبارة الأخيرة من البيان كانت: كل شيء بقدر.

لم يكن يهمني القدر الذي سأواجهه، كل ما يهمني هو إذا ما كانت تلك الرسالة صحيحة أم لا. لو كانت صحيحة، فلا داعي للهرب والنجاة بحياتي. ولكن بحلول الوقت الذي فكّرت فيه في هذا الأمر، كنت قد صعدت بالفعل على متن السفينة، ولم يعد بإمكانني النزول منها. أعتقد أنه ربما قد يكون هذا قدري، أن أهرب لأنجو بحياتي، أن أهرب إلى مكان مجهول.

كل شيء بقدر، هذا ما قاله جدي مرات عدة من قبل. في ذلك اليوم، ندمت كثيراً لأنني لم أودع جدي عندما غادرت المنزل. أعتقد أنه كان من

المفترض أن يكون جدي حزيناً بسبب تصرفي القاسي هذا، وربما كان هذا قدره. لقد عاملني بأفضل ما يكون مدة ستة عشر عاماً، لكنه في المقابل لم يحصل مني حتى على دقيقة وداع واحدة. قال جدي ذات مرة إن دقيقة واحدة من الوفاق تساوي عمراً كاملاً من الكراهية، ولكن الأمر كان على العكس تماماً بالنسبة إليّ وإليه. عندما فكّرت في هذا الأمر، لم أتمالك نفسي من البكاء بصوت عالٍ، كانت السفينة تبهر في ذلك الوقت، وصوت محركاتها الضخمة يبتلع صوت بكائي، حتى أنني لم أتمكن من سماع صوت بكائي ولو لحظة.

الباب السابع عشر

(78)

نحن الآن في الثاني من ديسمبر عام 2014 الساعة التاسعة مساء بتوقيت بكين، الثالثة عصرًا بتوقيت مدريد في إسبانيا. لديّ توقيتان، ولا بد أن يكون لديّ توقيتان، لأنني منقسم إلى نصفين؛ نصف في مدريد والنصف الآخر في الصين. عمري الآن اثنان وستون عامًا، وهو سن التقاعد في الصين، ولكنني ما زلت مشغولاً للغاية إلى الآن. لقد منحتني النهضة التي تمر بها الصين الفرصة لبدء أعمال تجارية. افتتحت شركتي الأولى عندما كنت في التاسعة والأربعين من عمري، والآن صارت لديّ ثلاث شركات فيها مئات الموظفين، وهناك أمور عديدة عليّ فعلها. لذا يجب عليّ العودة إلى الصين مرة أو مرتين كل الشهر. وبسبب فارق التوقيت، أعمل في أغلب الأحيان ليلاً ونهارًا. في البداية كنت أشعر بالقلق من أن تنهار صحتي بسبب الإرهاق، لكن صحتي صارت أفضل في أثناء الأعوام الماضية، بل يمكنني القول إنني صرت بصحة أفضل. يقال إن أجساد البشر لحم ودم، وليس هناك أي شخص لديه مناعة ضد المرض، لكن يبدو أن لديّ جسدًا من الفولاذ. كنت أشعر بالتعب الشديد في كثير من الأحيان حتى أنني كنت أغفو وأنا واقف، لكن المرض لم يطرق بابي قط. لم أعانِ حتى من نزلات البرد أكثر من عشر سنوات. كنت أشعر كأن لديّ قلبين، تمامًا مثل الطائرات المدنية التي أستقلها عادةً، لديها محركان.

طالعت في الصحف أن الطائرات المدنية هي الأكثر أمانًا، لأن هناك نسخة احتياطية لكل مكون من مكوناتها الأساسية. بالطبع لن يجدي ذلك نفعًا حال تعرضت الطائرة لهجوم إرهابي، فالإرهابيون سرطان البشرية

في عصرنا الحالي، وهذا ما تقوله الصحف أيضًا. أطلع الصحف كل يوم. عندما أعود إلى الصين أطلع صحيفة «الأخبار المرجعية»، وعندما أكون في الخارج، أطلع «جريدة إل بايس» الإسبانية والنسخ الصينية من صحيفة «الصينيون في الخارج» وصحيفة «أنباء أوروبا». ترافقني هذه الصحف الأربع طوال العام مثل ظلي. قلت لزوجتي ذات مرة إن هذه الصحف كانت بمنزلة غنائم معركتي مع الوحدة عندما كنت شابًا. والآن لم أعد وحيدًا، فالشركات، والأسرة، والأقارب، والأصدقاء، والموظفون، وحفلات الزفاف، والجنازات كلها أمور تشغل وقتي، لم يعد لدي وقت لأشعر بالوحدة بسبب كثرة أشغالي. لقد صارت الوحدة بالنسبة إلي مثل المومياء المتهالكة. لم أعد أعرفها ولا أستطيع تذكرها. الشيء الوحيد الذي تبقى من آثارها هو قراءة الصحف، فقد صارت تلك العادة مثل الندبة التي لن تمحى أبدًا. قلت إنه وبفضل نهضة الصين، توسعت أعمالي بشكل كبير، لذلك ذهبت في العام الماضي إلى قاعة الشعب الكبرى لحضور اجتماع للصينيين المغتربين، وقد أوردت القناة الرابعة للتلفزيون المركزي تقريراً عن هذا الاجتماع، وصادف أن شاهدت زوجتي هذا التقرير على شاشة التلفزيون في المنزل، فعانقت حفيدنا بحماسة وهي تبكي، لدرجة أخافت حفيدنا الصغير.

نعم، الحياة كالحلم، فبالعودة بضعة عقود إلى الوراء، لم أكن لأحلم قطّ بأنني سأكون في هذا الوضع اليوم. كان والدي خائفًا أن يتسبّب ذلك الفعل المشين الذي ارتكبه جدي في موتي أو أن أعيش حياة بائسة إذا لم أمت، لذلك تحمّل المخاطر ووفّر لي طريقًا للهروب. ورغم أن هذا الطريق كان باردًا وعاصفًا، فإن ما فعله والدي كان قرارًا صائبًا، فالقرية لم تعد قادرة على استيعابنا، وكان الهروب أفضل من البقاء والاستسلام للعقاب. هربت، وهرب أخي الأكبر وأخي الثاني أيضًا، ولكن بطرائق مختلفة.

محطتي الأولى بعد الهروب كانت برشلونة، وهي مدينة تقع على الساحل الإسباني، كبيرة جداً وجميلة، مثل شنغهاي في الصين. وبقدر ما هي كبيرة وجميلة، كنت صغيراً وقبيحاً، صغيراً لدرجة أنني بلا اسم، لا أجرؤ على الخروج إلى الشارع في وضع النهار، وأرتجف عند سماع صفارات الإنذار. وهذه حال المهاجرين غير الشرعيين جميعهم، مثل الفئران في المزاريب، لا يمكنهم سوى العيش بهذه الطريقة البائسة، وأفضل طريقة للبقاء على قيد الحياة هي العثور على عمل في تلك المزاريب. كنت محظوظاً بالعثور على عمل في مصنع أحذية يديره أحد الصينيين القدامى هنا، كنت أعمل مدينتين في اليوم، ومهمتي واحدة، تثبيت الأربازيم على الأحذية الجلدية. إذا لم نحسب مدة التدريب التي استمرت عاماً، فقد عملت خمس سنوات كاملة أسهمت فيها في إنتاج عشرات الآلاف من الأحذية الجلدية على الأقل، ولكنني لم أرَ سنتاً واحداً على الإطلاق. كان رأس التين يأخذ كل أموالني، رأس التين يُطلق عليه الآن اسم رأس الأفعى، ويعني المَهْرَب، وهو شخص ذو قدرات هائلة، كان مسؤولاً عن تهريبنا وترتيب أمورنا، ولكن من المستحيل أن يكون هذا بلا مقابل، بل كان يأخذ أموالنا في المقابل، هذا المال الذي يحصل يسمى رسوم التهريب. وبعد سنوات عديدة، أخبرني والدي أن الرسوم التي دفعها للسمسار الذي سلّمني للمهرّب كانت سواراً ذهبياً أخذه من منزل العقيد، لذلك يمكن عدّها مسروقة. لكن المهرب قال إن السمسار لم يعطه ولا حتى سنتاً واحداً، بل أعطاه حياتي فقط. وهذا يعني أنه لم يأخذ مقابلاً في البداية، لذلك كان عليّ سداد تلك الرسوم من أجر عملي. أين ذهب السوار الذهبي؟ لا أعرف. لقد مرت سنوات عديدة، ومات السمسار، ولم يعد من الممكن معرفة الحقيقة.

نحن الآن في عام 1991، وهذه المرة الأولى التي أعود فيها إلى الصين. لقد مر على تلك الواقعة 22 عاماً، ولم يعد هناك داع للحديث عنها.

طالعت في الصحف أن الناس يجب أن يتعلموا التخلي. والتخلي هو نوع من التسامح مع الآخرين، وهو أيضاً نوع من التسامح مع الذات. لقد تخلّيت عن أشياء كثيرة في حياتي، لكن هناك بعض الأشياء لا يمكن التخلي عنها. لقد عملت في تثبيت الأباذيم على الأحذية الجلدية في مصنع الأحذية مدة ست سنوات، وتعلمت أن الأضرار ليست مثل أربطة الأحذية التي يمكن إزالتها. فبمجرد تثبيتها، تصبح جزءاً من الحذاء لا يمكن إزالتها. ولو أزلتها، فسيتضرر الجلد. بعض الأشياء تنمو داخل لحمنا ودمنا، الموت فقط هو الذي يستطيع أن يحررها.

في عام 1991، لم أكن قد بدأت أعمالي التجارية بعد، وكان كسب المال أمراً صعباً للغاية، ولكي أتمكن من توفير ما يكفي من المال لشراء تذكرة طائرة، كان عليّ أن أتحمّل خمس سنوات أو ستاً، وهو أمر بالغ الصعوبة، أشبه بتثنية طفل صغير. قلت إن العودة إلى الصين في ذلك الوقت ستكون مؤلمة، ولكن ما دمت أستطيع تحمّل تكاليفها وتبعاتها، فلن أستسلم. لقد انتظرت مدة اثنين وعشرين عاماً، أعتمد على الذكريات كل يوم لمقاومة الشوق الذي لا ينتهي، وأنسج أحلامي بالعمل الجاد مثل ثور يدور في ساقية.

كل شيء كنت أفعله كان من أجل العودة! وكما لا يستطيع الشخص حمل نفسه بيده، لم أستطع التخلي عن فكرة العودة. بمعنى ما، كنت أعيش فقط لأعود.

والحمد للرب أنني عشت حتى جاء هذا اليوم أخيراً: اليوم الذي انتظرته مدة اثنين وعشرين عاماً! أتذكر أنه منذ اللحظة التي استلمت فيها تذكرة الطائرة من شباك التذاكر في ذلك اليوم، بدأ قلبي ينبض بقوة، كنت متحمساً، ومتوتراً، وخائفاً. داهمتني مشاعر وأفكار مريكة كثيرة، حتى أنني شعرت بالدوار في طريق عودتي إلى المنزل. وبمجرد أن دخلت إلى المنزل، اختلّ توازني فجثوت على ركبتي من شدة التعب، كأنّ

هذه المجموعة من التذاكر الورقية (حجرت تذكرة ذهاب وعودة ترانزيت، كان سعرها أرخص) تزن ألف رطل. عندما أفكر في هذا الآن، لا أزال أشعر بألم في ركبتي، ويظهر أمام عيني مشهد زوجتي وهي تمسح الدموع من على وجهي بلطف، كأنَّ هذا كله قد حدث أمس.

يخوض الإنسان في حياته تجارب كثيرة، بعضها مثل الهواء، يتفرَّق مع الريح، دون أن يترك أي أثر، وبعضها يشبه العلامات المائية، يبقى مدّة قصيرة من الوقت، وبعضها مثل المنحوتات الخشبية، التي لا يمكن محوها أبداً بعد نحتها. لكنني كنت أشعر أن بعض التجارب التي مررت بها تشبه الندوب التي خلّفتها مكواة نار اخترقت لحمي، لا يفارقني ألمها.

(79)

أينما يرقد رفات أحبائك، فهذا هو موطنك.

في عام 1991، عندما عدت إلى مسقط رأسي حاملاً حقائب سفري، مرهقاً من شدة التعب، كان هناك ثلاثة قبور أخرى لأقاربي حُفرت فوق ظهر النمر في الجبل الخلفي: أحدها كان قبر جدي، والثاني كان قبر والدتي، والثالث كان قبر أخي الثاني، ولو عدنا زوجة أخي الثاني إحدى أقاربي أيضاً، فسيكون عدد تلك القبور أربعة، هذا القبر الرابع هو قبر زوجة أخي الثاني التي لم يحدث أن التقيتها من قبل.

عندما دخلت بحذر إلى منزلنا القديم الذي لم أزره منذ 22 عاماً في عصر أحد الأيام الممطرة من فصل الربيع، كان والدي يجلس وحيداً على أريكة أمام باب القاعة الشرقية التي اعتدت أن أنام فيها برفقة جدي، كان يدخل سيجارة ويراقب الماء يتساقط من الأفاريز على ألواح الحجر الأسود المتسخة وسط الفناء. ظن أنني شخص دخل إلى منزله بالخطأ، رفع رأسه ينظر نحوي، ثم خفض رأسه يدخل، وسألني:

«عمن تبحث؟».

ناديته «أبي»، وأخبرته اسمي. بدا الأمر كما لو أنه لم يرني منذ 22 ساعة فقط. لم يكن متحمساً على الإطلاق، ربما أراد أن يمنحني بعض الوقت للتعرف إلى هذا المنزل القديم المتهالك، ثم شرع ينظر بعينه حوله من الأسفل إلى الأعلى ومن الخارج إلى الداخل بلا مبالاة، وكأنه يقول لهذه الجدران القديمة والأبواب القديمة والأرضيات القديمة: لقد عاد ساكن قديم. كان المنزل يعج برائحة عفنة وحامضة وكريهة، وعتبات الأبواب وألواح الأرضيات والسقوف والزوايا مغطاة بشباك العنكبوت المترية، وهناك بعض المقاعد والكراسي المصنوعة من الخيزران متاثرة في القاعة الأمامية، والصورة المألوفة للزعيم ماو مُلصقة على الجدار الأمامي للقاعة، لكن إحدى زواياها مهترئة، والطاولة مغطاة بالغبار، كأن كل الرماد الناتج عن سنوات تدخين والذي قد نُثر عليها وُورِّع بالتساوي. الشيء النظيف الوحيد في الغرفة كان الطاولة التي اعتدت أن أكتب عليها واجباتي المنزلية، فقد كان هناك شعاع أحمر خافت ينعكس من سطحها وسط الضوء الخافت.

اعتقدت أن والذي قد أصيب بالخرف، فشرعت أتأمل التجاعيد الداكنة على وجهه. بدا والذي نحيفاً مثل كومة من العظام، والأوردة الزرقاء على ظهر يديه سميقة مثل السيجارة التي يمسكها بين أصابعه. وبعد دقيقة كاملة، ناديته مرة أخرى «أبي» وعرفته بنفسه. ألقى سيجارته بعيداً، ونظر نحو نار السيجارة وهي تنطفئ ببطء تحت المطر، ثم تكلم أخيراً وقال:

«لقد مات جدك».

كنت قد خمنت هذا منذ وقت طويل، خمنت هذا من جوانب عدة، فجدي كان شخصاً شديد الحرص على سمعته، حتى أن شائعة كاذبة تتعلق بالشذوذ كادت تودي بحياته، فما بالك بمهاجمة كل سكان القرية بمن فيهم والدي إياه وإدانتها علانية، هل كان ليتحمل ذلك؟

طالعت في الصحف أن الحكماء يستطيعون استشراف المستقبل عبر وقائع الماضي. أنا لست رجلاً حكيماً، لكني أستطيع أيضاً التكهّن بموت جدي بسبب الأخطاء التي ارتكبتها، حتى إن استغرق الأمر بعض الوقت. بالإضافة إلى ذلك، كنت أكتب رسالة إلى عائلتي كل عام بعد مغادرتي، لكني لم أتلّق أي رد. في أثناء السنوات الأولى، كنت أنتظر الرد بفارغ الصبر، ولكن بعد ذلك توقفت عن الانتظار، وكنت أكتب فقط لأخبرهم أنني ما زلت على قيد الحياة. جدي هو الشخص الوحيد في عائلتي الذي يستطيع القراءة والكتابة، ولو كان على قيد الحياة لكان قد كتب لي بالتأكيد. حتى إن كان يعلم أنه سيموت في اليوم التالي، كان سيكتب لي ردّاً. وفي وقت لاحق، أخبرني والدي أنه بعد أيام قليلة من مغادرتي، وقبل إصدار الإعلان الذي كتبه العقيد، كان جدي قد أنهى حياته بنفسه، شقّ نفسه داخل الحظيرة. ربما كان التأثير الذي أحدثه إعلان العقيد هو أنه منع الناس من نبش قبره بعد موته، فقد سبق أن هدّد الشرطي العجوز مراراً بأن جدي لا يستحق الدفن في أي شبر من تراب القرية، وأنه يجب تقطيع جثته وإطعامها للذئاب. إضافة إلى ذلك، لو كان جدي لا يزال على قيد الحياة، لكان قد قارب المئة عام. وشخص مثله يعيش محملاً بتلك الوصمة ويعيش في خوف لن يتمكن أبداً من أن يعيش مثل هذا العمر المديد.

بعد قليل من الصمت قال والدي:

«لقد ماتت والدتك أيضاً».

لقد خمّنت هذا أيضاً من المشهد المهجور للمنزل الذي رأيته للتو. لو كانت أمي لا تزال على قيد الحياة، فمن غير الممكن أن أرى أمامي كل هذا الغبار وخيوط العنكبوت. والدي هي الشخص الأكثر دأباً في العالم. وما دامت موجودة في المنزل، فلن تبيت أي قمامة على الأرض في منزلنا مهما كثرت، ولن تجد أي أثر لخيط العنكبوت على الجدران أو

تحت الأرض. وتفشي الغبار وخيوط العنكبوت بهذا الشكل هو دليل واضح على أن والدتي ترقد الآن تحت التراب. سألت والدي: متى وكيف توفيت والدتي؟ كنت أتمنى أن يكون سبب وفاتها طبيعياً، ليس انتحاراً، ولا قتلاً. لكنه تجاهل سؤالتي، وأكمل:

«لقد مات أخوك الثاني أيضاً. مات قبل والدتك».

لقد مات أخي الثاني بسبب المرض، سرطان الدم. قد يكون هذا مرضاً مهنيًا يصيب العاملين في مهنة النقاشة. لكن والدي لم يكن يعتقد ذلك، لأن هناك عاملين كثيرين في تلك المهنة في المدينة، وهو الوحيد الذي عانى هذا المرض الغريب. من بيننا -نحن الإخوة الثلاثة- كان أخي الثاني هو الأكثر شبهاً بوالدنا. فهو هادئ للغاية، لا يحب الكلام، ولقبه هو «قطعة الحديد»، لأن قلبه يبدو كأنه مغلف بالحديد. لذلك كان لدى أبي سبب للاعتقاد بأن أخي الثاني مات بسبب الاكتئاب. قال والدي عن أخي الثاني: «كان كالزوجة التي خانها زوجها، عابسًا وصامتًا طوال اليوم. لقد قتله صمته، ونحن أيضًا كنا سببًا في موته. لقد ارتكب جده إنثمًا لا يُغتفر، وكان هو ضحية أفعال جدك». وهذا ما قاله والدي لاحقًا. كان والدي بمنزلة ناقوس الموت في ذلك اليوم، فبعدما أعلن عن موت أخي الثاني، أعلن عن موت زوجة أخي الثاني أيضًا:

«لقد ماتت زوجة أخيك الثاني أيضًا، ماتت قبل أخيك الثاني».

أخي الثاني غليظ الطباع، بلغ الثلاثين دون أن يخطب أو يتزوج. وفي سن الثانية والثلاثين، وبضغط من والديه، اشترى زوجة من قويتشو تصغره بعشر سنوات. لا أعلم إن كان ذلك بسبب حاجز اللغة أو فارق السن الكبير، فقد ساءت علاقتهما بعد الزواج، فكان أخي الثاني لا يعود إلى المنزل في كثير من الأحيان، وعندما يعود كانا يتشاجران. كان يفضل البقاء مع الأثاث ودلاء الطلاء على العودة إلى المنزل، وكأنه تزوج بدلاء الطلاء. ويقال إن زوجة أخي الثاني لم تتعلم لهجتنا قط حتى موتها، لأن

أخي الثاني نادرًا ما كان يعود إلى المنزل ولم يكن أحد من أفراد العائلة يتحدث معها. وبسبب حاجز اللغة، كانا يتشاجران كثيرًا، ويتبادلان رمي الأشياء وتحطيمهما. وفي إحدى المرات، ضربها أخي الثاني بقوة فكسر أحد أسنانها الأمامية، ثم أغلق الباب وخرج. بكت زوجة أخي الثاني طوال الليل، ثم شرّيت زجاجة مبيد حشري في الصباح، وماتت. كان هذا في العام الثالث من زواجهما، وتركّا خلفهما ابنًا. نمت برفقة هذا الابن في السرير نفسه تلك الليلة. كان في الحادية عشرة من عمره، يدرس في المرحلة الابتدائية، ولم يكن يشبه أخي الثاني على الإطلاق، ويقال إنه يتمتع بأداء دراسي ممتاز ويحتل المرتبة الأولى في الفصل في المواد جميعها، وهو ما يختلف تمامًا عما كان عليه أخي الثاني، فقد كان الأخير في الصف في كل المواد، لذلك ترك المدرسة باكراً ليتعلم إحدى الحرف. بعد أن انتهى والدي من الحديث عن وفاة زوجة أخي الثاني، شعرت كأني محاط بجثث الأموات، كنت أرتجف خوفًا، ولم أجروء على سؤاله عن أخي الأكبر، فبالنظر إلى الحالة البائسة التي كان عليها المنزل، لم يبدُ أن هناك أي أخ أكبر أو زوجة أخ أكبر بالطبع، قد لا تكون هناك زوجة أخ أكبر من الأساس. تجرأت وسألت إذا كان أخي الأكبر قد رحل أيضًا، فقال والدي:

«نعم لقد رحل، لكنه لا يزال هنا». توقف ثم أكمل:

«من الجيد أنه رحل، وإلا لما نجا، ولما نجوت أنت أيضًا».

اغرورقت عيناى بالدموع، كأنتى كنت فى ساحة معركة مات فىها جنود فرقتى بأكملها، لكنى تمكنت أخيراً من إنقاذ شخص واحد، وتمكنت أيضاً من إثبات جدارتى بالعمل المضى. لكن والدى بدا كأنه غير مرحب بعودتى؛ بالنسبة إله كانت قيمة عودتى رقماً سلبياً، بل حتى أنه كان يأمل ألا أعود. أخبرنى لاحقاً أن السبب فى عدم طلبه من أى شخص الرد على رسائلى طوال هذه السنوات، هو أنه لا يريد أن يعرف أى شخص آخر أننى

ما زلت على قيد الحياة. كان خائفًا أن يعثر عليّ ملك الموت عبر عنواني. لقد قرر بالفعل أن هذه القرية نذير شؤم بالنسبة إلى عائلتنا، ويخاف أن يطاردني النحس والشؤم، وألا أتمكن من العيش حال عدت.

(80)

ذهب أخي الأكبر إلى قرية تشين وو، وهي قرية جبلية نائية، وتزوج من هناك وعاش في بيت عائلة زوجته. لقد نجا بحياته، لكنه خسر كرامته بهذا الزواج. الأخ الأكبر هو بمنزلة الأب، ومهما كانت العائلة فقيرة، فإنها لن تتخلى عن ابنها الأكبر أو تسمح له بالعيش في بيت عائلة أخرى أبدًا. فهذه إهانة وانتهاك للكرامة، بل وتعادل خيانة الوطن من أجل مكاسب شخصية، والعمل في الدعارة لكسب العيش. هذه حياة أسوأ من الموت، فهي مثل الركوع طلبًا للرفقة، أو الانبطاح من أجل البقاء على قيد الحياة. أدركت أنه حتى إن سامح أهل القرية عائلتنا، فنحن لا نستطيع أن نسامح أنفسنا، وأننا على استعداد لقبول العقوبة والتكفير عن خطايانا. انتحار جدي هو قبول للعقوبة، وانبطاح أخي الأكبر هو قبول للعقوبة، أليس موت أخي الثاني بسبب المرض في سن صغيرة، وهروبي إلى بلاد بعيدة للنجاة بحياتي هو أيضًا قبول للعقوبة؟

وبعد أن انتهى والدي من سرد العقوبات التي تعرّضت لها عائلتنا، دخل في نوبة من الصمت. كان لديه ما يخفيه عني، يخاف أن يزداد تأثري لو أخبرني بأمور كثيرة لا أعلمها، حينها سيتعرّف إليّ ملك الموت، وتحل عليّ العقوبة. كان يخاف الواقع القاسي، وهو ما أفقده روحه، وجعله مصابًا بالاضطراب. السماء الملبدة بالغيوم الممطرة، ووجهه الداكن النحيف، ونظراته الخجولة الكئيبة، وشعره الرمادي الخفيف، وعلامات اليأس واللامبالاة على وجهه؛ كل هذا ذكّرني بتلك الرحلة الطويلة للهروب وسط البحر. في ذلك الوقت، كنت أستعد للموت كل يوم، وأعاني كوابيس

الموت كل ليلة. عندما وصلت أخيراً إلى الشاطئ، صرت -أنا ذلك الشاب حينها- مثل رجل عجوز، ركعت على الرصيف مع مجموعة من الرفاق الذين نجوا من الموت، وسجدت للرب مراراً وتكراراً، وهو ما جذب نحونا مجموعة من طيور النورس الفضولية التي انقضّت من السماء، وحامت فوق رؤوسنا ترفرف بأجنحتها، وهي تتعق كما لو كانت تسبنا ظناً منها أننا نسرق طعامها. كانت هيئتنا حينها تبدو بالفعل مثل الدجاج الذي ينقر الطعام من على الأرض.

طالعت في الصحف أن الحياة ليست كما نعيشها، بل كما نتذكرها. حتى والدي لم يسمح لي بالعيش في المنزل، فقد أعطاني مفتاح بيت العقيد وطلب مني أن أعيش هناك. سألته عن أحوال العقيد، لكنه كان مقتصدًا جدًا في كلامه وقال بشكل غامض: «ستعرف كل شيء».

كنت أعتقد أن العقيد موجود في منزله، ويمكنني أن أذهب وأسأله بنفسه. عندما وصلت هناك، وجدت المنزل من الداخل والخارج غارقاً في حالة من الفوضى ناجمة عن خلوه من ساكنيه مدة طويلة؛ كانت الأعشاب في حديقة الخضراوات أطول من قامتي، وممتلئة ببراز القوارض والطيور المختلفة وجثثها، تبعث منها رائحة كريهة بسبب نقعها في مياه الأمطار، والحجارة السوداء المستخدمة في رصف الأرض قد تداعت بسبب عدم قدرتها على الصمود أمام الحركة الدووبة لديدان الأرض وضغط الأعشاب الضارة من الأسفل، وهناك شجرة متسلقة مجهولة تغطي الدرج تتقدم في طريقها نحو النوافذ، والكرسي الموجود عند الشرفة -حيث كان العقيد يستلقي ويقرأ الصحف- قد تحطم إلى قطع كما لو أنه أصيب بصاعقة. لم يعد المفتاح يعمل لأن ثقب المفتاح كان مسدوداً بالصدأ، لذلك اضطررت إلى فتح الباب بالقوة.

بدا المنزل مرتباً من الداخل، لكن كان يفوح برائحة الموت، فالغبار وخيوط العنكبوت تغطيان كل شيء. وكل خطوة أخطوها، كانت تثير سحابة من الغبار الناعم أسفل قدمي، وأحياناً تعلق خيوط العنكبوت بفمي وعيني. كل ما يقع عليه بصري كان يُشعّرني بالرعب، كأنني أتعرّض للتعذيب. ربما كان القميص القطني الأبيض المعلق على الشماعة خلف الباب محملاً بآثار العرق المالحة في يوم من الأيام، فها هي العثة قد أكلته، وصار ممتلئاً بالثقوب، كما لو أنه نُزِع من فوق هيكل عظمي. وفي غرفة القطط، كانت إحدى زوايا الستارة لا تزال معلقة، فظلت قائمة كما هي، كأنّ هناك شبحاً معلقاً يلف نفسه بها. كانت سلّتا القطط ممتلئتين بطبقة من فضلات الفئران السوداء الجافة، ما يجعل من المستحيل على الشخص أن يتخيل الحياة المترفة والمدللة التي كانت تعيشها القطط في يوم من الأيام.

لم أصعد إلى الطابق العلوي، فكل ما رأيته أصابني بالخوف الشديد. كان والدي يعتقد أن هناك شبحاً في منزلنا، لكنني لم أشعر بذلك من قبل، وعندما وصلت إلى هنا شعرت بوجود الأشباح. بدا الأمر كما لو أن الأشباح قد تخرج من الطابق العلوي أو من زاوية ما في أي وقت وتمد لسانها الطويل الملطخ بالدماء نحوي، أو أن المبنى بأكمله يبدو مثل شبح منعزل، بلا أي أثر للبشر. قال والدي إنني سأعرف كل شيء، والآن فهمت أخيراً ما يعنيه: إما أن العقيد لا يزال في السجن، وإما أنه حُكِم عليه بالإعدام. أعتقد أنه لو كان لا يزال في السجن، فمدة 22 عاماً أشبه بعقوبة الإعدام، بل أسوأ من الإعدام. شعرت بحزن شديد على العقيد، وانتابتنني رغبة في البكاء، وهذا أيضاً هو الدافع الذي جعلني أرغب في مغادرة هذا المنزل. كنت أشعر كأنني أتألم بسبب الذل الذي يخيم على هذا المكان، وعلى الفور أدّرت رأسي غاضباً لأغادر المكان، فأنا لن أتحمّل البقاء هنا مدّة أطول.

من المؤكد أنني لن أستطيع العيش هنا .

ومن المؤكد أيضًا أن لا أحد يرغب في العيش هنا، فالأمر يتطلب بضعة أيام على الأقل لتنظيف هذه الكميات الكبيرة من القمامة والنفايات التي تراكمت عبر الزمن وإزالتها. ليس من المبالغة القول إنه غارق في الخراب، كل الخشب متعفن، وكل الحديد صدئ، والجدران المبنية بالطوب مغطاة بالطحالب وبيض الحشرات، والأعشاب الصغيرة تنمو بين قرميد السقف المموج. كان كالجسد الذي نهشته مخالب الزمن القاسي بلا رحمة. ربما لم يزرُ والدي هذا المكان منذ سنوات عدة على الأقل، ولا يزال يحتفظ في ذهنه بالانطباع الذي تركه عليه قبل عشر سنوات، وربما كان يعتقد أن الأشباح تخاف الأشباح، وأن إقامتي في هذا المنزل المسكون ستجعل الأشباح التي تطاردني تتقاتل مع الأشباح التي تقيم هنا، حينها سأستطيع العيش في أمان.

استدرت لأغادر، وبينما كنت أمر بجوار خزانة جانبية، لفت إطار صورة انتباهي مصادفة؛ كان الإطار مائلًا إلى جانب الخزانة المواجه للباب. لم يكن هناك أي شيء فوق الخزانة سوى الغبار الكثيف، بدا من مظهره الوحيد المنعزل وزاويته المائلة وكأنه يتوسل إلى شخص ما كي يأخذه بعيدًا. كان إطار الصورة بحجم ورقة مجلة، والغبار يغطي الصورة تمامًا. مسحت الغبار فرأيت صورة لرجل وامرأة في منتصف العمر يقفان جنبًا إلى جنب وبيتسمان لي، وكأنها صورة زفاف. لم ألاحظ ذلك على الفور، ولكن سرعان ما أدركت أن هذا الرجل هو العقيد. كانت ابتسامته غير طبيعية، جامدة ومصطنعة، وهذا السبب أيضًا في أنني لم أتعرف إليه على الفور. ففي مخيلتي، كانت ابتسامة العقيد عفوية ومشقة، وصوت ضحكاته عاليًا، كان رجلًا مرحًا يحب الضحك، لكن الآن بدا كما لو أن المرأة الواقفة بجانبه تصوّب مسدسًا نحو خصره لتجبره على الضحك. كانت المرأة ذات شعر قصير يصل إلى كتفها، وجهها مستدير، وأنفها

ممتلئ، وفمها واسع، وذقنها قصير. الصورة بالأبيض والأسود، لذلك لا يمكن رؤية لون بشرتها، لكن يبدو أنها أصغر سنًا بكثير من العقيد. ربما كان السبب هو ابتسامتها الجميلة التي تجعلها تبدو أصغر سنًا، ففي ظل ابتسامة العقيد الجامدة، بدت ابتسامتها أجمل بكثير، وكأنها رأت استسلام العقيد في عدسة الكاميرا، فجاءت ابتسامتها أشبه بابتسامة منتصرة، تُخفي أسرارًا كثيرة. لم أكن أعرفها، لكن صورة الزفاف منحتها هوية واضحة: زوجة العقيد.

كانت هذه مفاجأة مذهلة بالنسبة إلي، وينبغي أن يكون مفاجئًا أيضًا أنها بقيت هنا. أعتقد أن الشخص الموجود في الصورة -ربما العقيد، أو ربما زوجته- كان يستعد لأخذها معه، بل وأحضرها بالفعل بالقرب من الباب، ولكن بطريقة ما نسيها، تمامًا كما ننسى مفاتيحنا فوق الخزانة عندما نغادر البيت.

عدت لأسأل والدي عن صورة الزفاف. تفاجأ بشدة، ورفض تمامًا أن يخبرني بأي شيء. قال إنه سيخبرني، ولكن ليس هنا، ثم طلب مني أن أعود وأنظف تلك الغرفة على الفور. كان يخشى التحدث معي كثيرًا هنا، ويخشى أكثر من أن أبيت ليلتي هنا. كان ينظر حوله بذعر، وكأن الأشباح تتنصّت علينا. ربما هو نفسه لا يخاف هذه الأشباح، لكنه يخاف عليّ. قلت له لو كان هناك أشباح بالفعل، فأنا أفضل أن أُقتل على يد الأشباح في بيتي بدلًا من أن أُقتل على يد الأشباح في بيت العقيد. نظر إليّ ثم بكى. كانت هذه المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها والدي يبكي. كان شخصًا صامتًا، يفضل أن يعض على أسنانه حتى تتكسر بدلًا من أن ينطق كلمة واحدة. البكاء يحتاج إلى التعلم، لقد تعلم البكاء بالفعل بعدما فقد كثيرًا من الأحبة، صار صوته منخفضًا، أجش، أشبه بالفحيح، مثل كم قميص يتمزق بشكل متقطع، والدموع تنهمر من عينيه بلا توقف في اتجاهات متعددة، ثم تتساقط نحو الأسفل. لم أتمالك نفسي من الحزن وأنا أفكر في عبارة تقول: دموع الرجل العجوز هي أقسى شيء في العالم.

في صباح اليوم التالي، ذهبت إلى المدينة لشراء البخور والأوراق الجنائزية والتعاويذ البوذية، ثم ذهبت مباشرة إلى منطقة ظهر النمر عند الجبل الخلفي لزيارة القبور الأربعة الجديدة لجدي وأمي وأخي الثاني وزوجة أخي الثاني. لم يكن موعد عيد كنس القبور قد حلَّ بعد، لذلك فمن غير المناسب زيارة القبور القديمة، أما هذه فهي قبور جديدة بالنسبة إلي، لذلك يجب أن أزورها.

كان الوقت حينها موسم استيقاظ الحشرات من سباتها، والجو ممتلئ بالتقلبات، فقد هطلت الأمطار أمس وكان الجو قارس البرودة لدرجة أن أصابعي تجمدت. أما اليوم فقد تحسن الطقس بعد انتهاء المطر، وأصبح أكثر دفئاً. صار الطقس شديد الحرارة في أثناء صعودي إلى الجبل، لدرجة أنني اضطررت إلى خلع ملابسني طوال الطريق. كان والدي يخاف أن تتعرَّف إليَّ الأشباح، لذلك رفض مرافقتي، بل حتى أنه حاول منعي، لكنه كان يعلم أنه لا يستطيع منعي. تصادف أن كان يومها يوم الأحد، لذا اصطحبت معي ابن أخي الذي أخبرني أنه يعرف مكان تلك القبور. ولكن عندما وصلنا إلى أرض المقابر، كانت القبور منتشرة، وعشب الشتاء الذابل وخضرة الربيع النضرة متشعبة في كل مكان، وهو ما جعل الأمر بمنزلة اختبار لذاكرته، فهو لا يزال طفلاً في الحادية عشرة من عمره على أي حال. وبعد عمليات بحث وتذكُّر ومقارنات متكررة، حدَّد لي أربعة قبور. انحنيت أمامها وبكيت، لكنني كنت أتساءل في قلبي عن إذا ما كان ابن أخي قد أتى بنا إلى القبور الخطأ. لم يكن بوسعي سوى أن أواسي نفسي، فلو كانت هذه قبور أخرى غير قبور أقاربي، فسيكون ذلك بمنزلة تحقيق لرغبة والدي الذي يرفض هذه الزيارة، وأيضاً حماية لي من أن تتعرَّف إليَّ الأشباح.

كان وقت الغداء قد حلَّ عندما نزلنا من الجبل، لذلك تناولنا بعض المأكولات الخفيفة عند الكشك المواجه لقاعة الأسلاف. وهناك تعرّف إليَّ أحدث الأشخاص، وشرع يتحدث عن هذا وذاك. شعر ابن أخي الصغير بالملل، فغادر برفقة زميل له في الفصل مر بجوارنا. لم تكن عودتي إلى القرية تستدعي التباهي، ولم أكن أرغب في الظهور في الأماكن العامة، لذا انتهيت من تلك المحادثة سريعاً، وعدت إلى المنزل وحدي. عندما مررت بجوار منزل العقيد، سمعت البوابة تتأوه من الألم، ثم انفتحت بمقدار عرض الكتف، وأطلَّ من خلفها رأس والدي، ثم أوماً إلي وقال: «هيا ادخل».

تفاجأت بأنه لا يزال قادراً على التعرّف إلى صوت وقع خطواتي بعد مرور اثنين وعشرين عاماً، كما تفاجأت أيضاً بسبب وجوده هنا. عندما دخلت وجدت أن والدي قد نظّف الشرفة، ووضع زوجين من الكراسي المصنوعة من الخيزران هناك. وغسل الأرضية والكراسي بالماء. كانت شمس الظهيرة مشرقة وداقئة، تسطع بقوة على الأرضية الإسمنتية للشرفة، وتكشف عن علامات البلل التي خلفها الغسيل. كانت الكراسي فارغة كأنها تنتظر من يجلس عليها. جلست أنا ووالدي دون أي مقدمات، وكما هو متوقع، كان الصمت بمنزلة تحضير لا بد منه. رأيت والدي يُخرج سيجارة ويشعلها ويدخنها. وبعد أن سحب بضعة أنفاس، قال دون تفكير: «أهل القرية جميعهم يعرفون ذلك».

سألته: «يعرفون ماذا؟».

قال: «يعرفون كل شيء عن العقيد، وعن تلك المرأة».

لم يكن يخاف الأشباح في هذا المكان، بل كان يحب الأشباح الموجودة هنا، حتى أنه بدأ بالحديث دون أن ينتظر سؤالي. بدا واضحاً من طريقة حديثه ونبرته والكلمات التي استخدمها أنه استعد ملياً لهذا الحديث مسبقاً. لم يسبق أن تحدث إليَّ والدي طويلاً كهذه المرة طوال حياته، لكنه

لم يتحدث طويلاً كما كنت آمل، فلو كتبت ما قاله لن يتجاوز صفحتين. هذا كل ما جمعه من كلام ليقوله لي بعد اثنين وعشرين عاماً من الغياب، كان شخصاً كتوماً بحق.

أخبرني والدي أن الشرطة حكمت أولاً على والدته العقيد بالسجن ثلاث سنوات، وسجنها في سجن هانغتشو النسائي. أما إعلان الحكم على العقيد فقد تأخر كثيراً، أدرجت قضيته بعدها قضية مهمة، أحواله محكمة المحافظة إلى محكمة المدينة، وأحواله محكمة المدينة إلى محكمة المقاطعة، لذلك تأخر النطق بالحكم عليه مراراً وتكراراً، ولم يُحكم عليه إلا بعد أشهر عدة من مغادرتي. ففي الأول من مايو الموافق عيد العمال من ذلك العام، عُقدت جلسة إعلان النطق بالحكم في قاعة البلدية. وفي اليوم السابق للنطق بالحكم، استمرت الإذاعة تعلن بلا توقف عن أكبر محاكمة عامة في تاريخ البلدية للجاسوس الكبير، والخائن الكبير، والمجرم الكبير الذي اعتدى على جنود الحرس الأحمر، بثت الإذاعة قائمة طويلة من التهم المخيفة جذبت الناس للمجيء ومشاهدة ما سيجري في اليوم التالي، وهو ما جعل القاعة مكتظة للغاية، وانتهى الأمر بتدافع خطر أدى إلى إصابة أطفال عديدين. لحسن الحظ لم يذهب كثيرون من أبناء قريتنا، فالجميع يُكن احتراماً كبيراً للعقيد، ولم يكن أحد يرغب في رؤيته وهو على تلك الحال.

قال والدي: «أنا أيضاً لم أكن أرغب في الذهاب، ولكنني اعتقدت أن هذه قد تكون المرة الأخيرة التي أراه فيها، وربما أضطر إلى استلام جثته، لذلك كان عليّ الذهاب».

اعتلى المنصة صف من القضاة، ومعهم قادة اللجان الثورية في المحافظة بملابس مدنية، ورؤساء مكتب الأمن العام بالزي الرسمي، وعدد من رجال الحرس الأحمر وممثلي الجماهير. كان القائد «هو» -الذي اعتاد والدي أن يناديه باسم الشارب الصغير- يجلس في أقصى

اليسار، فقد رُقي إلى منصب رئيس قسم في إدارة الدعاية باللجنة الثورية للمحافظة، وكان ترديد الشعارات مسؤوليته الرئيسية في ذلك اليوم. أدى عمله محملاً بحماسة ثورية ودوافع شخصية، لذا كان يهتف بشعارات قوية وواضحة، وبأسلوب استعراضي وتحريضي، وهو ما أثار الحماسة الثورية لدى الحاضرين. قبل أن يخرج العقيد للمحاكمة، كانت القاعة ممتلئة بالفعل بالهتافات وصيحات الاستهجان. بعدما أُخرج العقيد من خلف المنصة، ساد الصمت مدّة من الوقت، وكأن العرض على وشك أن يبدأ. لم يكن العقيد مقيداً، لأنه تحت حراسة اثنين من رجال الشرطة المسلحين. وحتى إن كان بإمكانه أن يتحول إلى طائر ويطير، فبوسع البندقيتين إسقاطه من الجو.

قال والدي: «كان نحيلاً كالقرد، لحيته غير المهدبة تغطي نصف وجهه. حتى أنني لم أستطع التعرف إليه».

كان يوماً مشمساً في شهر مايو، والطقس حاراً بالفعل. لم يكن العقيد يرتدي سوى قميص وسروال، بدا نحيلاً للغاية لدرجة أنه ربما كانت موجة الهتافات لتجرفه بعيداً لولا وجود الشرطة بجواره. نهض القاضي من مقعده، وهو يحمل ملفاً جلدياً أسود، وقرأ التهم الموجهة إلى العقيد الواحدة تلو الأخرى. وعندما قرأ محتوى الكلمات الموشومة على بطنه، والتي تثبت أنه كان «كلباً يضاجع المرأة اليابانية». صاح أحد الحضور فجأة:

«اخلعوا سرواله لنرى ما هو مكتوب!».

هذا الشخص كان العرّاف الأعمى والد الأعمى الصغير. لم يكن يستطيع رؤية أي شيء، ومع ذلك زاحم الناس ليقف عند مقدمة المنصة في ذلك اليوم، وقف يحدق بعينيه البضاوين، ويصيح في الجميع الذين استجابوا له. وفي الوقت نفسه أحضر الأخ الأصغر للأعمى الصغير إلى المسرح بمساعدة اثنين من الأوغاد الذين استأجرهم من المدينة وحاولوا

خلع سروال العقيد . لم يستخدم القائد «هُو» مكبر الصوت لإيقافهم، بل هتف بشعارات: عاش الزعيم ماو! عاش الشعب! كان يقصد بهتافاته هذه تحفيز الجماهير على خلع سروال العقيد ومشاهدته وهو يتعرّض للإذلال. سبّه والدي: «هذا اللعين! أراد أن يفضح العقيد، لذا قرر ألا يمنع هؤلاء الأوغاد».

لم يعرف الشرطيان اللذان يقتادان العقيد كيف يتصرفان. استدارا ونظرا إلى صف القادة الذين ظلوا يتهامسون بينهم طويلاً دون أن يتخذوا أي قرار. وفي غمضة عين، هرع الأخ الأصغر للأعمى الصغير ومن معه نحو العقيد وحاولوا إنزال سرواله. بدا العقيد الضعيف غير قادر حتى على الوقوف في تلك اللحظة، لكنه انفجر بقوة هائلة، مثل قنبلة يدوية، فأطاح بالشرطيين الواقفين خلفه، والأوغاد الأربعة الواقفين أمامه، أسقط بعضهم بيده، وركل بعضهم بقدمه، وصدّم بعضهم بجسده، فلاحث له الفرصة للهروب. كان مسار هروبه غريباً. في البداية، دار حول المسرح باحثاً عن مخرج، لكنه في النهاية لم يختار الهروب إلى المكان الآمن خلف المنصة، بل قفز من فوق المنصة وسط الحشد. كانت هذه القفزة مثل القنبلة التي أطاحت بعدد من الناس. بعضهم أصيبوا على الفور، وصرخوا من شدة الألم، لكن صوت عوائه المجنون ابتلع صوت صراخهم. بدا الأمر كما لو أن هناك مكبر صوت في حلقه، وبدا جسده مثل حصان جامح، يركض بتهور، ويخيف الجميع، حتى أنهم هربوا خوفاً أن يسحقهم بأقدامه. ظل يزار ويعوي وهو يركض، فتفرّق الحشد بعيداً عنه طبقة تلو الأخرى مثل الأمواج. وأخيراً، عندما لم يجد أمامه أحداً، لم يهرب نحو المخرج، بل استدار واندفع نحو الحشد ثانية، كأنه يريد أن يكرر ما فعله مرة أخرى.

قال والدي: «وهكذا أصيب العقيد بالجنون».

الشرطة لا تحتجز المجانين، وكذلك السجون. بعد أقل من شهر من اعتقاله، أبلغ مركز الشرطة أهالي القرية بالتوجه إلى السجن لاستلامه. تولى سكرتير الحزب في القرية والشرطي العجوز زمام المبادرة، واصطحبا معهما عشرات من أهل القرية، وذهبوا إلى المحافظة في مسيرة كبيرة لإعادته إلى القرية. وعلى طول الطريق، لم يتوقف العقيد عن السباب، وكان القرويون يكونون شفقة عليه.

قال والدي: «لقد جُن جنونه تمامًا. حتى أنه لم يعد يتعرف إليّ، وكان يضرب كل من يراه ويوبخه».

ومنذ ذلك الحين أصبح والدي هو الذي يعتني به. أوكلت القرية إلى والدي مهمة رعاية العقيد. كان والدي يعيش معه في بيته، ويهتم بأكله وشرابه وتبولة وتغوطه، تمامًا مثل المربية.

من السهل الاهتمام بالأكل والشرب والتبول والتغوط ما دمت تبذل أقصى جهدك، وكانت لدى والدي الطاقة والجهد لفعل ذلك. لكن الجزء الصعب كان هو السيطرة عليه ومنعه من الجنون، ومن ضرب الآخرين أو إيذاء نفسه عندما تأتية نوبة الجنون. لم يكن أحد يعلم متى سيصاب بنوبة الجنون، لكن الجميع يعلم أنه عندما يصاب بها، فسوف يضرب أي شخص يراه، ويمسك بأي سكين يراها، ويطعن نفسه في بطنه. ربما كان أكثر شيء ندم عليه في حياته هو أنه لم يستخدم مهاراته في الجراحة لمحو الوشوم الموجودة على بطنه. لذلك كان يفكر في الأمر ويريد أن يمحوه عندما كان يجن.

قال والدي: «في الواقع، رأيت أنه حاول محوه من قبل، لكنه لم ينجح، ربما كان محوه أمرًا بالغ الصعوبة».

ولكي يمنعه والدي من إيذاء نفسه، كان يقيده بالأصفاد كل يوم مثل حارس السجن. مرت أكثر من ستة أشهر على هذه الحال، ثم جاءت

امرأة إلى القرية تبحث عن العقيد. كانت امرأة أنيقة، تتحدث الصينية الفصحى، تبدو كفتاة قادمة من المدينة. انخرطت في البكاء عندما رأت العقيد، كانت تبكي بصوت عالٍ وكأنها شقيقته الصغرى.

لكن العقيد وحيد والديه، لذلك ليست لديه أي شقيقات، فمن هي إذن؟

قال والدي: «هي تلك المرأة الموجودة في الصورة».

أخرجت صورتين كانت تحملهما معها لتثبت أنها كانت رفيقة العقيد في السلاح عندما خدم طبيباً عسكرياً في جيش المتطوعين الصيني الشعبي في كوريا. أرادت أن تأخذ العقيد معها قائلة إنها تعرف طبيباً يمكنه علاجه. دعا سكرتير الحزب في القرية اثني عشر شخصاً من كبار السن وعقد اجتماعاً موسعاً للجنة القرية في قاعة الأسلاف للنظر في الأمر. صوّت الجميع بالموافقة على أن تأخذه تلك المرأة معها. وفي أحد الأيام بعد مرور أكثر من عام، أعادت المرأة العقيد إلى القرية. كان العقيد قد تحسّن كثيراً حينها. لم يعد يسب الناس أو يتشاجر معهم. بل على العكس، أصبح هادئاً للغاية، ومتزناً بشكل كبير، وفي بعض الأحيان كان يبتسم عندما يرى الناس. لكنه في معظم الأوقات كان صامتاً، وودوداً للغاية، يفعل كل ما يُطلب منه فعله. كان كالطفل المطيع تماماً.

قال والدي: «لقد تحول من مجنون شرس إلى مجنون مهذب».

عندما عادت تلك المرأة هذه المرة، كانت تنوي الزواج بالعقيد، ورعايته بقية حياتها، فطلبت من لجنة القرية أن تُصدر وثيقة زواج للعقيد. عقدت لجنة القرية اجتماعاً آخر للنظر في الأمر. بالطبع لم يكن هذا أمراً يمكن رفضه، فصوّت الجميع بالموافقة. بعدها ذهبت المرأة إلى البلدة لإنهاء الإجراءات والتقاط صورة خاصة بوثيقة الزواج، أي تلك الصورة التي رأيته. وفي شتاء ذلك العام، أُطلق سراح والدة العقيد من السجن بعد انتهاء مدة حبسها، وعادت إلى منزلها، وكان هذا سبباً آخر لعودة المرأة

إلى القرية برفقة العقيد. كانت قد حسبت الوقت، وتعلم موعد خروج السيدة العجوز من السجن. في الأصل كانت السيدة العجوز في حالة صحية سيئة، وبعد ثلاث سنوات من المعاناة في السجن، ساءت صحتها بشكل أكبر، وأصبحت تسير بالكاد، وتآكل بصعوبة أيضًا. لم يكن بوسعها سوى شرب العصيدة. كان على تلك المرأة الاعتناء بتلك السيدة العجوز المريضة التي لا تستطيع مغادرة الفراش، وذلك الرجل الكبير الذي يحتاج إلى معاملة الأطفال. استمرت تخدمهما بجهد وتفانٍ، وفي ظل رعايتها الدقيقة، عاش المريضان حياة كريمة، وخفّت معاناتهما كثيرًا.

قال والدي: «قال جميع من في القرية إن والددة العقيد ظلت تتعبّد إلى بوذا طوال حياتها، لذا أرسل لها بوذا هذه المرأة لمكافأتها».

كان الجميع في القرية ينادونها بـ«إلهة الرحمة»، وكانت هي أيضًا تعامل الجميع في القرية صغارًا وكبارًا مثل إلهة الرحمة. وفي وقت لاحق، سمعت عديدين من أهل القرية يتحدثون عنها ويقولون إنها امرأة لا مثيل لها في هذا العالم، وكم هو محظوظ من تكون في حياته امرأة مثلها!

بعد مرور أكثر من عام، ماتت والددة العقيد بسبب الاختناق في أثناء تناول العصيدة. سارت تلك المرأة في جنازة السيدة العجوز وهي تبكي بكاءً مؤلمًا وصادقًا لدرجة أن كل نساء القرية بكين متأثرات ببكائها. ليس هذا فحسب، بل انضمت إلى الرجال الذين يحملون النعش إلى القبر، وسندت النعش بيديها وهي تبكي بمرارة حتى أن كل رجال القرية بكوا متأثرين ببكائها. بعدها، ظل كل من يتذكر هذه المشاهد يوم جنازة والددة العقيد يشعر بحالة من التأثر والحزن الشديد الذي لا يمكن محوه بمرور الوقت.

قال والدي: «وجود امرأة مثل هذه في حياة العقيد يعني أن موقع بيت العقيد متوافق مع طقوس الفنگ شوي التي تجلب الحظ السعيد لساكنيه». وهذا هو السبب الذي جعل والدي يستدعيني إلى هنا للتحدث إليّ،

ولهذا السبب أيضًا طلب مني العيش هنا. كان يعتقد أن هناك أشباحًا في منزلنا، لكن هذا المنزل مؤكد أنه خالٍ من الأشباح. لا يوجد هنا سوى إلهتي الرحمة، يقصد المرأتين، إحداهما كبيرة في السن والأخرى شابة. وبعد أن انتهت الأيام السبعة لتأيين حمايتها، قسمت المرأة الممتلكات الموجودة في منزل العقيد، أخذت ما يمكن أخذه، وأعطت الباقي للأشخاص المحتاجين في القرية، ثم اصطحبت العقيد والقطتين إلى بلدتها. كانت القطتان قد كبرتتا في السن، ولا تستطيعان المشي، ويجب حملهما في سلة، وكان العقيد لا يزال يتمتع بحالة بدنية جيدة. قال والدي: «حمل القطتين بيديه، وغادروا معًا».

احتشد مئات الأشخاص من القرية، رجالاً ونساءً وكباراً وشباباً، لمرافقتهم إلى رصيف الميناء عند نهر فوتشون. غادرت السفينة الرصيف مع انطلاق صوت الصافرة، انحنى المرأة وهي تمسح دموعها مدة طويلة أمام القرويين الذين جاؤوا لتوديعها. وكذلك فعل العقيد، مثل طفل يفعل كما تفعل أمه. تأثر الحشد بهذا المنظر فبكوا جميعاً، ولا يزال والدي لا يتمالك نفسه من البكاء عندما يتذكر ذلك المشهد.

قال والدي: «لم أرهم منذ ذلك الحين».

كنت أرغب في زيارة العقيد وتلك المرأة التي يقال عنها إنها الأفضل في العالم. أعطاني والدي العنوان، هذا العنوان كانت المرأة قد كتبت له بنفسها على صفحة من كتاب التمرينات الخاص بي. كان العنوان في بلدة تشوجياجياو بمدينة شنغهاي، وهو المكان الذي عليّ المرور به في طريق عودتي إلى مطار هونغتشياو بمدينة شنغهاي. الأمر الذي جعلني أكثر تصميمًا على زيارتهما.

لم تكن هناك سيارات أجرة كثيرة في ذلك الوقت، ولم أكن لأتحمل كلفة الأجرة، حتى إن كان هناك كثير منها. كان ذلك عصر الدراجات النارية. كانت أجرة ركوب الدراجة النارية من بلدة تشوجياجياو إلى قرية سانغ المكتوبة في العنوان يوانين. عندما وصلت، عرفت لماذا تسمى قرية سانغ، وتعني قرية التوت، فالقرية محاطة بمساحات كبيرة من أشجار التوت الخالية من الأوراق. كان الربيع في بداياته، ولم تكن أشجار التوت قد أورقت بعد، لكنها كانت كلها مُقَلَّمة، وكأنها منتج صناعي خرج للتو من خط الإنتاج، كانت كلها متشابهة، وقصيرة، ومرتبعة في صفوف. عندما تنظر إليها من بعيد، تتذكر صفوف الجنود الحليقي الرؤوس المتأهبين للهجوم في صمت. المكان كله سهل لا نهاية له، وهناك قناة صناعية مستقيمة، سطحها هادئ، والأرض العارية على كلا الجانبين سوداء كأنها تتضخ بالزيت. عند دخول القرية، وجدت أن المنازل جميعها مصنوعة من الطوب والقرميد الأسود، سقوفها على شكل مظلة، مكونة من طابقين وساحة خلفية. وكأنها بُنيت وفقاً لخطة موحدة، تماماً مثل بعض التجمعات السكنية في مدريد.

هذه قرية تطورت بفضل زراعة التوت وتربية دودة القز، كانت قرية شابة تعج بالحيوية.

سائق الدراجة النارية هو شاب من أبناء هذه القرية، وعندما أطلعت على صورة زفاف المرأة والعقيد، أخبرته أنني أريد إعادتها إليهما من باب إعادة الشيء إلى صاحبه. وعلى الرغم من أنها كانت صورة قديمة تعود إلى ما يقرب من عشرين عاماً، فإن هذا السائق تعرّف إليهما من النظرة الأولى، ثم سار بنا في دروب القرية مباشرة إلى باب منزلهما، وأخبرني أن الرجل الذي يقيم هناك مريض نفسياً، لكنه في الوقت نفسه امتدح

أخلاق المرأة وكرم طباعها، ورعايتها الدائمة لزوجها المريض، ولطفها وتواضعها مع القرويين. توقفت الدراجة النارية عند الباب، ودون أن أطلب منه، صاح السائق ينادي مَن بالداخل: «يا جدتي الطيبة، هناك ضيف جاء لزيارتكم».

تساقط حينها بعض المطر الخفيف، فهذا موسم تكثر فيه الأمطار، وتكون درجات الحرارة متقلبة. يصبح الجو باردًا عندما تمطر، وعندما تهب الرياح أشعر ببرودة أكبر، وتتيبَس يداي وقدماي. في الأصل كنت عائداً إلى مدريد، لذلك كانت معي أمتعتي؛ صندوق من الورق المقوّى وحقيبة قماشية، بالإضافة إلى شبكة فيها بعض من براعم الخيزران الطازجة والفاصوليا وأشياء أخرى أحضرتها للعقيد وزوجته. كان السائق قد ربط هذه الأشياء على المقعد الخلفي للدراجة النارية، وقبل أن أتمكن من تفريغها، سمعت صوت صرير الباب وهو ينفّث خلفي، تلاه صوت وقع أقدام توقفت عند الباب، ثم شعرت بدفعة من الهواء تضرب ظهري. خُيِّل لي كأن أحدهم يراقبني من الخلف، فلم أجرؤ على النظر خلفي.

أنزلت أمتعتي، واستدرت فرايت امرأة عجوزاً نحيفة تحديق إليّ. كان شعرها خفيفاً يعلوه الشيب. بدا شعرها في حالة من الفوضى كأنها لم تشدّه منذ سنوات، وتسبَّب هبوب الرياح في جعله أكثر فوضوية. كان وجهها شاحباً تغزوه التجاعيد، وخداها غائرين، وعظام وجنتيها بارزة، وذقنها مدبباً. الجزء الوحيد الممتلئ في وجهها هو ذلك الانتفاخ أسفل عينيها. كان ظهرها منحنياً وجسدها يميل إلى الأمام، شعرت أنها قد تسقط أرضاً لو لم تكن متمسكة بإطار الباب. بدا واضحاً أن هذا شخص قد استنزفته الحياة، فهيئتها مختلفة تماماً عن ذلك الشخص الذي رأيته في الصورة. في البداية، ظننت المرأة أنني جئت إلى المكان الخطأ، فلم تسألني من أنا، بل سألتني عمن أبحث. أنا أيضاً ظننت أنني أتحدث إلى الشخص الخطأ، لذا ترددت ولم أعرف كيف أرد. في تلك الأثناء شاهدت

المرأة إطار الصورة الذي أحمله تحت إبطي، كنت قد أطلعت السائق عليه قبل انطلاقنا، لقد احتفظت به تحت ذراعي ولم أعده إلى حقيبتني، فسألتني:

«هل أنت من قرية شوانفجيا؟».

قلت: «نعم»، حينها تقدمت لمساعدتي في حمل أمتعتي، وسألتني من أنا. أخبرتها باسم والدي، فرحت بشدة، وأنزلت الأمتعة وأمسكت بيدي وسألتني هل أنا ذلك الشخص الذي كان يعيش خارج البلاد. عندما رأنتني أومئ برأسي، أمسكت بيدي بقوة وقالت: «لقد قرأت رسائلك».

في السنوات القليلة الأولى بعد سفري، خاصة في السنة الأولى، كنت أكتب الرسائل بشكل متكرر، كل شهر تقريباً. كانت كتابة الرسائل طريقي الوحيدة لاستغلال الذكريات من أجل مقاومة الوحدة التي لا تفارقني. ولأنني لم أكن ألقى أي ردود، أضف إلى ذلك أنني كنت مشغولاً بشدة، بدأت لاحقاً أكتب أقل، وفي النهاية حافظت على الحد الأدنى من الرسائل، وهو رسالة واحدة سنوياً. كانت هي من تقرأ رسائلي على مسامع والدي في أثناء السنوات القليلة الأولى، لذا صارت تعرف كثيراً عني.

قالت وهي لا تزال ممسكة بيدي وتبتسم مبتهجة: «نحن أصدقاء قدامى إذن».

لقد استنزفتها الحياة، لكنها لا تزال تحتفظ بتفاؤلها وحماسها، بل حتى حس الفكاهة. كانت قبضتها قوية للغاية، شعرت بذلك عندنا قبضت على يدي بإحكام. كانت يداها كبيرتين وخشنتين، مثل أيدي الرجال. بعد ذلك، حملت هي صندوق الكرتون بيد واحدة، ودخلت إلى المنزل قبلي. وبالرغم من أنها كانت تسير منحنية، فإن خطواتها كانت ثابتة مترنة. لاحظت أن جدران منزلها قديمة بشكل واضح مقارنة بمنزل جاريتها، كانت الجدران البيضاء متسخة ومتهالكة، كأنها لم يُعد طلاؤها منذ سنوات طويلة. طلاء الباب قد بهت أيضاً، أعتقد أنه كان بني اللون، لكنه الآن

صار ممتلئاً ببقع رمادية وبيضاء غير منتظمة. ولكن عندما دخلنا إلى المنزل، وجدته نظيفاً ومرتباً، وفيه أثاث كثير. وعلى الجانب الأيمن من المدخل توجد مجموعة من المعدات الطبية التي نراها في العيادات، بما في ذلك سرير متنقل، وخزانة أدوية، وحامل المحاليل الوريدية، وسמاعة الطبيب، وصندوق طبي للزيارات المنزلية.

أخبرني والدي أن لقب عائلتها هو «لين»، وبسبب فارق السن، يجب أن أناديها العممة لين. ظلت العممة لين مشغولة منذ أن دخلنا، أفرغت الصندوق، ومسحت الطاولة، وأعدت الشاي. أخذت الشاي، ثم جلست على الطاولة، ونظرت حولي بحثاً عن العقيد. انتهيت من فنجان الشاي، دون أن أتمكن من رؤيته، لذلك لم أستطع منع نفسي من سؤالها: «أيتها العممة، أين العم؟».

لم يسبق أن ناديت العقيد بالعم مطلقاً، لذلك شعرت ببعض الخجل حينها، وكأني أعامله كشخص غريب. أجابت: «إنه في الطابق العلوي».

ثم نظرت إلى الأعلى ونادت: «أيها الرجل العجوز، انزل، لدينا ضيف». سمعت وقع خطوات سريعة في الطابق العلوي، قوية، ورنانة. ثم سمعت وقع خطوات على الدرج. فنهضت لأستقبله. أشارت لي العممة بالجلوس، وذهبت لاستقباله. في الواقع، لم تكن هناك حاجة إلى استقباله، كانت خطواته سريعة، فوقفت العممة عند الدرج تنتظره. وعلى الرغم من أنني تخيلت ملامح مختلفة عن شكل العقيد بذكرياتي وتلك الصورة، فإن مظهره كان أبعد ما يكون عن خيال أي شخص؛ كانت بشرته حمراء، وعيونه لامعة، ووجهه ممتلئاً، ورأسه أشيب لامعاً، يبدو تماماً مثل دمية ذات شعر أبيض ووجه طفولي. وجهه الأبيض والممتلئ جعلني أتساءل عن إذا ما كان قد أجرى عملية زرع جلد. كانت بشرته نضرة، نابضة بالحياة، مرنة، مثل الأطفال تماماً. تعبيراته أيضاً مثل الأطفال، فقد بدا متحمساً

ومتوترًا عندما رأى شخصًا غريبًا، يريد أن يتكلم لكنه لا يعرف ماذا يقول، وينظر إلى العمة لين بخجل. سلّمت عليه وناديته «عمي»، لكنه خاف بشدة، واختبأ خلف العمة لين. لم تُعرفه بي العمة لين أيضًا. فقط واسته بقولها: «لا بأس، لا بأس».

ثم أمسكت بيده تحاول تهدئته.

كانا شخصين مختلفين تمامًا عما رأيته في الصورة وما يدور في خيالي، شابة صارت عجوزًا، لكنها هادئة رصينة، ورجل عجوز أشيب تحوّل إلى طفل خجول. كان الأمر غريبًا بالنسبة إلي، خاصة العقيد، هيئته وسلوكه الطفولي جعلًا من المستحيل بالنسبة إلي أن أجد أي رابط بين الذاكرة والحقيقة. لم أستطع إخفاء ارتباكي في تلك اللحظة. كنت أعرف أن عينيّ تتحركان بسرعة مثل ذبابة خائفة، وتعايير وجهي تضج بالمفاجأة والحيرة. فالمقارنة بين هذين الشخصين الواقفين جنبًا إلى جنب تُظهر تناقضًا صارخًا جعلني أفتنع بحقيقة لا شك فيها: العقيد هو من استنزف حياة تلك المرأة.

طالعت في الصحف أن الحياة مكبس يضغط على الناس حتى يسحقهم تمامًا، لكن الناس أنفسهم هم الجزء الأهم من هذا المكبس.

(84)

أخبرتني العمة لين أنها -بوصفها طبيبة- تعرف أن هذا النوع من الجنون الذي يصيب العقيد عند الاستثارة الشديدة يمكن علاجه بشكل نهائي إذا تلقى العلاج في الوقت المناسب. ولكنها لم تكتشف الأمر إلا بعد مرور أكثر من ستة أشهر، وعندما أخذته إلى الطبيب، كان الوقت المناسب لتلقي العلاج قد فات. ونتيجة ذلك، أصبح على مثل هذه الحالة الآن، وصار ميئوسًا منه.

ضربت لي مثلاً: «الأمر أشبه بإصابتك بجرح في يدك، حتى إن قطعت أوتارك وكسرت وعظامك، فما دمتَ قد تلقيت العلاج في الوقت المناسب، يُمكن شفاؤك تماماً، ولن يتبقى من الجرح سوى ندبة. لكن لو تأخرت في تلقي العلاج، ستسوء الحالة ويتعفن الجرح، وستضطر إلى بترها. وإن لم تفعل، ستتشر العدوى في جسدك حتى يتعفن وتموت. أعتقد أنك تعلم أن والده مات بهذه الطريقة أيضاً».

نعم، كنت أعلم ذلك. وأعلم أيضاً أن هذا نوع من العلاج الاضطراري، أن يقطع الإنسان ذراعه كي ينجو بحياته. وهذا هو العلاج الذي خضع له العقيد في النهاية، بُتر ذكاؤه المعتاد من أجل كبح جنونه. وصار ذكاؤه الحالي لا يتجاوز مستوى ذكاء طفل يبلغ من العمر سبع أو ثماني سنوات، بل طفل يخشى الناس، خاصة الغريباء والكبار. اقترحت العمدة لين عليّ أن أعامله كطفل، وأن أكون حنوناً معه، وألعب معه، حينها سيطمئن لي. كان لديّ طفلان في ذلك الوقت، ولد وبنت. الولد عمره عشر سنوات والبنت عمرها سبع سنوات. عندما بدأت أعامله مثل ابني ذي السنوات السبع، تحسنت العلاقة على الفور، فصار يحب الاستماع إلى كل ما أقوله، ويجيب عن أي سؤال أسأله. كان طفولياً وساذجاً وفطرياً تماماً. عندما أحكي له القصص، يجلس يستمع في هدوء، وعندما نلعب الشطرنج، يستمتع باللعب معي أكثر من ابني. أيقنه نة رة قبتهم

كان ينادي العمدة لين بزوجه، لكنه في الحقيقة كان يتعامل معها على أنها أمه.

ومع اقتراب المساء، ذهبت العمدة لين إلى المطبخ لتحضير العشاء، فبدا كأنه تحرر فجأة، وقادني سرّاً إلى الطابق العلوي وفتح لي باب إحدى الغرف. هذه هي الأكبر من بين الغرف الثلاث في الطابق العلوي، مستطيلة الشكل وممتلئة بجميع أنواع ألعاب الأطفال: الكرات الزجاجية، والمقاليع، والسهام البلاستيكية، والمسدسات الخشبية، والكتب المصوّرة،

واللوحات الملونة، وما إلى ذلك. بدا أنه كان مولعاً بالرسم بشكل خاص، فبخلاف اللوحات الملونة المستندة إلى الحائط التي رسم عليها فتاة ذات ضفائر بالطباشير الأحمر، كانت هناك أمام النافذة أيضاً درفة باب يستخدمها كطاولة، مفرودة عليها ملاءة سرير بيضاء كتلك التي تُستخدم في المستشفيات، وعلى أحد جانبيها كان هناك صف من أقلام الرصاص، وأقلام الفحم، وأقلام التلوين المختلفة، وبدا واضحاً أنه يستخدمها في الرسم. في البداية أخذ يستعرض أمامي ألعابه المختلفة، ثم سألني إذا كنت أرغب في رؤيته يرسم. قلت: نعم، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، ثم سحب كرسيه وجلس عليه، وفتح الورقة، واختار قلمًا، وخفض رأسه، وبدأ يرسم بهدوء. هيئته الجادة الهادئة وهو يرسم ذكّرني على الفور بابني وابنتي. لكن قامته الطويلة، وشعره الأشيب، وأنفاسه الثقيلة، جعلتني غير قادر على التفكير فيه بوصفه طفلًا. لم أكن قد انتبهت لملابسه حينها، فانتباهي كان كله منصباً على ملامحه الغريبة وسلوكه وطريقة كلامه. حينها فقط أدركت أنه يرتدي سترة بنية فضفاضة دون خياطة، فيها ثقوب على الأكمام والمرفقين، وينطلوناً مخملياً أزرق داكناً، وزوجين من النعال القماشية في قدميه.

رسم جندياً أمريكياً يرتدي خوذة فولاذية رمادية، ويحمل مدفعاً رشاشاً أسود، ويلبس حذاءً جلدياً بني اللون، ولديه نجوم وخطوط ملونة على صدره الأيسر. وبالنظر إليه بوصفه طفلًا لا يزال في السابعة أو الثامنة من عمره، كانت سرعته وبراعته في الرسم باهرة بالفعل، ما جعلني أعتقد أنه اعتاد رسمها مرات لا تُحصى من قبل.

نظرت إلى اللوحة وسألته: «من هذا؟».

قال بلا تردد: «شخص أمريكي».

سألته مرة أخرى: «هل قابلت أمريكيين من قبل؟».

فكر قليلاً ثم أجاب: «نعم».

توقف برهة ثم قال: «كنت جندياً متطوعاً في كوريا».

تفاجأت بأنه لا تزال لديه ذكريات. وضعت اللوحة وأمسكت بيده لا إرادياً، وكأنني أذكره بماضيه المجيد، ثم قلت: «لقد كنت طبيباً عسكرياً هناك، أليس كذلك؟ أعلم أنك أنقذت كثيرين».

بدا كأن ذاكرته قد سقطت من على منحدر بمجرد أن لمست يدي، ففكر بجدية وقال: «طبيب عسكري؟ إنقاذ الناس؟ أين؟».

قلت: «في كوريا الشمالية، ألم تقل للتو إنك خدمت جندياً متطوعاً في كوريا الشمالية؟».

قال: «أنت تكذب، أنا لا أريد أن أكون جندياً متطوعاً، أريد أن أكون جندياً في جيش التحرير الشعبي».

وفي وقت لاحق، أخبرتني العمة لين أن ذاكرته صارت مثل سمكة تقفز من الماء، تبقى أسفل الماء معظم الوقت، ولا تظهر إلا كومضات قصيرة بين الحين والآخر، كما أنها غير مترابطة. بالفعل، كان هذا هو ما حدث للتو. قال شيئاً، لكنه أنكره في اللحظة التالية، ما جعلني أشك أنني توهمت شيئاً لم يحدث.

قال إنه يريد أن يكون جندياً في جيش التحرير الشعبي، ثم قلب صفحة على الفور، ليرسم لي صورة لجيش التحرير الشعبي. كانت فرشاة الرسم بمنزلة مهدئ له، وكانت ورقة الرسم بمنزلة عالمه الخيالي. شاهدته ينغمس في الرسم، تنساب فرشاته بمهارة تترك خلفها خطوطاً ناعمة. وقفت خلفه بحذر، منبهراً بما يفعله، أحاول جاهداً ألا أصدر أي ضوضاء، وكأنني أشاهد رساماً موهوباً يصنع تحفة فنية.

وفجأة ترك فرشاته وقال لي: «أحتاج إلى التبول».

ثم ركض بسرعة إلى الغرفة المجاورة، وهي غرفة نومه والعمة لين. مؤكداً أن هناك مرحاضاً في تلك الغرفة.

لم تكن أبواب الغرفتين مغلقة، فسمعت صوت تبوله، حينها لم أتمالك نفسي من التفكير في «الجزء السفلي من بطنه»، فهذا هو المكان الأكثر سرية بالنسبة إليه، حيث توجد كل أسرار حياته، بما في ذلك المجد والعار، الصعود والهبوط، الخطايا والجنون، وها هو هذا المكان قد صار قريباً من نظري الآن. شعرت بنوع من الاندفاع، وفكرت في الذهاب للتبول بجواره وإلقاء نظرة على مكمّن سره، ففي ظل معدل ذكائه الحالي، لا أعتقد أنه سيرفض. هو الآن بعقل طفل في مثل عمر ابني، وابني لا يخجل من جسده، ويركض حول الغرفة عارياً بعدما يستحم. لكني كنت أشعر بالشفقة تجاهه، ولم تسمح لي حالتي المزاجية الحالية بتنفيذ تلك الفكرة.

طالعت في الصحف أن الشفقة هي التي تمنع الناس من استغلال الآخرين، وأن الشفقة هي زر الحذف الذي يمسح الرغبات.

سرعان ما انتشرت رائحة البراز والبول الكريهة في الممر، مثل صوت رفرقة أجنحة الطيور الذي يقتحم هدوء المكان. بعدما تبول، ركض عائداً، دون أن يربط حزامه، كان يمسك بأعلى سرواله بإحدى يديه، ويسحب حافة ملابسه الداخلية باليد الأخرى، وقال لي بعصبية وغموض: «تعال وانظر، لديّ بعض الكتابة هنا».

ثم نظر خلفه يتصوّت، وهمس قائلاً: «لا تخبر زوجتي، ستوبّخني. فهي دائماً توبّخني على هذا».

في الماضي كان يتقبل اتهام الآخرين له بأنه مخصي، وظل عازباً طوال حياته، بل ارتكب جريمة وسُجن من أجل أن يحتفظ بهذا السر، لكنه الآن يريد إظهاره للآخرين بمبادرة منه، ويرغب في أن يُطلعني عليه رغم علمه أن زوجته ستوبّخه. حاولت أن أخفي حزني عليه لكني لم أستطع. تقدمت لمساعدته في ارتداء سرواله وربط حزامه، ثم عانقته وبكيت، ودموعي تحرق عيني. استغرب من بكائي، وكنت أستغرب كيف يمكن للعالم أن يكون قاسياً إلى هذه الدرجة.

ندمت بشدة على مجيئي إلى هنا، حتى أنني فكرت في المغادرة رغم حلول الليل.

(85)

هطلت الأمطار بغزارة قرب المساء. فتساقطت قطرات المطر بقوة على السطح محدثةً صوت فرقة، مثل وحش عملاق يلتهم القمر يد كما لو كان يقضم قطعاً من البسكويت. وعندما حلَّ الليل توقف المطر فجأة، وكأنه قد انطفأ بفعل الليل. شعرت بعدم الارتياح، حتى أنني كدت أختق، وانتابتني رغبة شديدة في الخروج للتنفس. بعد العشاء، ساعدت العمه لين في غسل الأطباق. وبينما كانت تقص أظفار العقيد، أخبرتها أنني أريد الخروج للتنزه. اقترحت العمه لين أن أذهب لمشاهدة مصنع الحرير في الجانب الشرقي من القرية، قائلة إن هذا المصنع استورد للتو دفعة من الماكينات الألمانية، وإن ماكينة واحدة منها تعادل عمل مئة شخص، وهو أمر يستحق المشاهدة. قلت حسناً، لكنني لم أكن أرغب في رؤية أي ماكينات. فبالي مشغول بما لاقاه العقيد في حياته الماضية والحاضرة، وكل ما أشعر به هو الحزن، والألم، والمرارة. خمنت أن بوسعي العثور على مكان أستطيع أن أفرغ فيه كل طاقة البكاء لديَّ بعد خروجي من منزلهما. بكيت كثيراً وسط حقل التوت الرطب، وشعرت ببعض التحسن. وعندما عدت ظهرت هذه القرية بأكملها أمام عيني. هذه القرية الممتدة على سهل واسع تختلف تماماً عن قريتي، فهي تتمتع بروح الانفتاح والحدادة، وفيها طرق واسعة، ومنازل مرتبة بشكل أنيق، ومصابيح شوارع، وأشجار على جوانب الطرق، وزهور ونباتات أمام كل منزل، وشرفات في الطوابق العليا، وستائر على النوافذ. هناك بعض الناس يسرون متشابكي الأيدي على الطريق، ومن وقت إلى آخر كانت الدراجات تمر بجانبني، أو تسير قادمة نحوي؛ لم يكن أحد يكثرث لوجودي بوصفي شخصاً غريباً هنا،

بل حتى لم يرمقني أحد بنظرة فضولية. عندما عدت إلى قريتي بعد مرور اثنين وعشرين عاماً، كنت غريباً بالنسبة إلى سكان القرية جميعهم، وأعرف هذا الشعور جيداً، ففي أثناء سيرى في أزقة قريتي، كانت عيون فضولية عديدة تحيط بي من كل اتجاه. لكن هذه القرية لا تكثرث أبداً لوجود الغرباء، لقد صارت منطقة شبه حضرية، وكان معظم العاملين في مصانعها يأتون من مقاطعات أخرى.

طالعت في الصحف أن الصين شهدت تحولات هائلة منذ تطبيق سياسة الإصلاح والانفتاح، امتدّت من المدن إلى القرى، ومن الغذاء والملابس والإسكان والنقل إلى الأيديولوجيا.

كنت أشعر أنني أكثر شخص مؤهّل للحديث عن هذه النقطة الآن، فعلى الرغم من أنني قضيت ما يقرب من نصف وقتي في الصين في السنوات الأخيرة، فإنني عادة ما كنت أشعر بالدهشة والسعادة في كثير من الأحيان لأن نصف وقتي الآخر الذي قضيته في الخارج كان على النقيض تماماً مما رأيته في الصين.

لكن رغم التغيرات التي رأيته في عام 1991، فإنني كنت أشعر بالحزن أكثر من شعوري بالفرح.

بقيت حينها في القرية مدة أحد عشر يوماً، وهي مدة كافية بالنسبة إليّ لاستعادة ذكريات طفولتي، لكنني لم أتمكن من استعادة سوى عدد قليل جداً من الذكريات؛ أصبح الجدول الصافي خندقاً قذراً كرهه الرائحة. وقيل إن هناك عشرات من مصانع الورق وأفران الفولاذ على جانبي النهر الذي لا يزيد طوله على ثلاثين كيلومتراً، وأن النهر بأكمله أصبح بمنزلة مجرى طبيعي لمياه الصرف الخاصة بتلك المصانع. كانت غابات الخيزران الخضراء فوق الجبل تعج بصوت التفجيرات، كانوا يفجرون تلك المناطق لاستخراج الحجارة من أجل بناء الطرق، والمصانع، والمنازل. أما الأزقة المرصوفة بالحصى والمحمّلة بعبق التاريخ فقد تحولت إلى

طرق إسمنتية رمادية لأنها لم تعد مناسبة لسير الدراجات وكانت تتسبَّب في انزلاقها وسقوط راكبيها في كثير من الأحيان. وداخل قاعة الأسلاف، صارت هناك آلات خضراء صدئة تُنتج أكوامًا من القمامة بيضاء كل يوم، وقيل إنها كانت تُرسل إلى المدن الكبرى لتصنيع الأطباق، وعيدان تناول الطعام، وملاعق الحساء، والمناديل وغيرها من المنتجات التي تُستخدم على طاولات الطعام داخل المباني الزجاجية الشاهقة. كما اختفت أيضًا ورشة الحدادة، وتوفي كماشة اللحم في حرب فيتنام ودُفن في منطقة باوشان بمقاطعة يوننان. تزوج ابن عمي ثم طلق زوجته، وأقام علاقة علنية مع امرأة زوجها مشلول طريح الفراش من القرية المجاورة، وأنجب منها طفلاً لم أعرف كيف سجَّلت شهادة ميلاد له. تولى اللقيط إدارة أعمال والدته (العنقاء الزغبية) وفتح مطعمًا للوجبات الخفيفة في المدينة، ويقال إنه كان يشتري الأرز المتعفن بثمان زهيد، ويصنع منه كعكات مطهوه على البخار جميلة المنظر، ويبيعها لسكان المدينة بثمان مرتفع. أما النمر القزم فقد استأجر المخزن الذي احتجز فيه العقيد سابقًا، وجدَّده كله، وانضم إلى متجر سلسلة عريقة في هانغتشو، وكان يبيع منتجات باهظة الثمن. وبطبيعة الحال، فقد هرم كبار السن وماتوا مثل آتاي الأعرج، والشرطي العجوز، وسكرتير الحزب في القرية، على عكس الجد، الذي مات منتحراً. ويقال إنه في العام الذي سبق وفاة الشرطي العجوز، اختار موقعاً لمقبرته وغرس هناك شجرتي سرو، ماتت إحداهما في العام التالي، وهو أمر غريب للغاية، أما الشجرة الأخرى فلا تزال على قيد الحياة حتى اليوم، بل نمت لتصبح بارترفاع طابقين.

باختصار، تغيرت القرية كثيرًا، بداية من الجبال إلى المياه، ومن الحقول إلى الأرض، ومن الطعام إلى الملابس، ومن السكن إلى المواصلات، ومن البشر إلى الجماد، اجتاحتها التغيير كالنار في الهشيم، وبدت هذه القرية الضخمة التي يبلغ عدد سكانها آلافًا عدة ممثلة بالمواد القابلة للاشتعال

والانفجار، لا تنطفئ نيران التغيير فيها، بل يزداد تأججها، ولم يعد هناك شيء لم تطله نيران التغيير تقريباً. الشيء الوحيد الذي لم يتغير هو الأعمى الصغير، ولسانه المقطوع، ويداه المتصلبتان، وهيئته الرثة التي تفيض بالكراهية والجنون. عندما كان والده الأعمى العجوز على قيد الحياة، كانت لديه معيشة مستقرة، ويعيش بقدر من الكرامة. لكن بعد أن مات والده، لم يعد يجد من يوفر له نفقات العيش، ولم يعد بإمكانه البقاء على قيد الحياة إلا بالاعتماد على معونات ذوي القلوب الرحيمة. لقد محا الزمن آثار الشعارات الثورية الرنانة التي كُتبت في مدخل القرية ومخرجها، بما في ذلك القصيدة الثورية الحمراء التي كتبها القائد «هُو» على جدار المدرسة، لكنه لم يستطع أن يمحو آثار الغل والكراهية العميقة التي تُكنها عائلتي تجاه هذا الأعمى الصغير. لم أذهب لرؤيته، وتجاهلته مرتين عندما التقيت به في الشارع، كنت أود لو كان بوسعي أن أركله حتى الموت. كنت أشعر أنه هو الشبح الذي يطارد عائلتي، فلولا افتراؤه علينا واختلافه قصة الشذوذ، ما كان جدي ليرتكب تلك الحماقات. وددت لو أخبرته والذي أنه لا يوجد أشباح للموتى في هذا العالم، وأن كل المصائب التي حلت بعائلتي سببها في الواقع هذا الشبح الحي.

وبعد سنوات عديدة، منحني التقدم في السن والنجاح قدراً من النضج وسعة الصدر، وهو ما جعلني متسامحاً مع القدر، وصار لدي بعض التعاطف تجاه الأعمى الصغير. وبمرور الأعوام، نما هذا التعاطف كما تنمو الأشجار، وتحول أخيراً من تعاطف بالقول إلى تعاطف بالفعل، ومددت له يد المساعدة.

لكن في عام 1991، لم أكن أكن له سوى الكراهية، كراهية حتى النخاع! حتى بعد عودتي إلى مدريد، ظللت محملاً بتلك الكراهية، وتمنيت لو مات ميتة شنيعة. ما زلت أتذكر بوضوح، ففي تلك الليلة، استلقيت على الفراش الذي جهزته لي العمة لين في غرفة ألعاب العقيد، لكن شخير العقيد

المدوي أيقظني، وبقيت أتلعب في فراشي بسبب الأرق. وفي مرآة الأرق رأيت بوضوح وجهين لنفسي يتصارعان: الأول كان وجهًا حزينًا بسبب ما حلَّ بالعقيد، ضعيفًا حتى أنه لا يستطيع إغلاق عينيه، والآخر يصير على أسنانه غضبًا بسبب الأعمى الصغير البغيض، مندفعًا لدرجة أنه أوشك أن يسحب سكينًا ليجهز عليه.

علمت أنني لن أنام في ليلتي هذه. هبَّت رياح باردة عبر النافذة، حاملة معها رائحة أشجار التوت والترية، وخلفها بريق ضوء القمر في النصف الثاني من الليل. العجيب في الأمر أنه عندما ارتفع القمر، توقف شخير العقيد فجأة، كما لو كان يخشى الضوء، ثم سمعت صوت تنفس العمدة لين الخفيف. كانت تتنفس تنفسًا غير منتظم، وهو ما ذكرني بالتجاعيد غير المنتظمة التي تملأ وجهها. وقبيل الفجر، كان الجزء الشرقي من السماء ممتلئًا بسحب رمادية باهتة، لم أكن أعلم إذا ما كانت ستتحول إلى سحب بيضاء أم سحب داكنة بعد الفجر.

(86)

عدت من نزعتي مرهقًا وقلقًا. بدا كأن العمدة لين كانت تتوقع قلقي، فقبل أن أعود، رافقت العقيد لينام في سريريه، ثم وضعت لي فراشًا على الأرض في غرفة ألعاب العقيد لأنام عليه، وجلست على المقعد الذي كان العقيد يجلس عليه للرسم وقت العصر تدخن سيجارة في انتظار عودتي. عدت متأخرًا عما كانت تتوقع، علمت ذلك عندما لاحظت وجود عدد من أعقاب سجائر في المنفضة. سألتني إذا كنت أريد سيجارة أم لا، قلت لا. أخبرتها أنني كنت أدخن في الماضي، ولكنني أقلعت عن التدخين لتوفير المال من أجل شراء تذكرة عودتي إلى الوطن. أخبرتني أنها تعلمت التدخين في مستشفى الجبهة. في ذلك الوقت، كان هناك جنود جرحى كثيرون ذوو الأطراف المبتورة، كانوا مكتئبين ويريدون التدخين، لكن لم

تكن لديهم أيدي للإمساك بالسجائر للتدخين، فكانت تشعلها وتطعمها لهم. وهكذا اعتادت التدخين دون أن تدري، وكأنها عدوى أصابتها.

استمرت تقول: «أقلعت عن التدخين لاحقاً، لكن بطريقة أو بأخرى اشتعلت رغبتني في التدخين مرة أخرى في السنوات الماضية». قالت ذلك بالفعل: «اشتعلت رغبتني»، وأيضاً عبارة «أطعمهم السجائر» التي قالتها سلفاً. كانت تتفوه ببعض التشبيهات الساخرة من وقت إلى آخر، ثم تبتسم، حينها تبدو تجاعيد وجهها أكثر وضوحاً.

أعلم أن التدخين يمكن أن يخفف قلق الناس إلى حد ما، وأعلم أيضاً أن القلق بشأن رعاية العقيد هو الذي أشعل رغبتها في التدخين مرة أخرى. أليست هناك عبارة تقول: إذا طال أمد بقاء المريض في فراشه، فسيتخلى عنه أكثر أبنائه برأ؟ ما الذي قد يكون أكثر إثارة للقلق والتوتر من التعامل طويلاً مع طفل في السبعينيات أو الثمانينيات من عمره؟ لكنها لم تعتقد ذلك. بل على العكس، كانت تقول إن رعايتها العقيد جعلتها تشعر براحة شديدة، وبالرغم من شعورها بالتعب فإن التعب كان يمدّها بالقوة، وجعل لحياتها معنى.

في أثناء تدخينها، كانت تبدو كأنها محاطة بحالة من الحكمة والفتنة التي يتحلى بها كبار السن.

وفجأة أطفأت سيجارتها وقالت لي بشكل مباشر: «أعتقد أنك لم تأتِ إلى هنا لمجرد زيارته».

لم تكن لديّ إجابة واضحة، ولم أعرف كيف أرد. كنت أجلس على المقعد الصغير الوحيد، وذهني غارق في حالة من الفوضى، هممت بالوقوف بعدما شعرت أن أفكاري ذات وزن ثقيل، وأن الكرسي الصغير لم يعد قادراً على تحمّلها.

لوّحت لي بيدها كي أبقى جالساً، ثم قالت: «أعتقد أنك ربما جئت لرؤيتي أيضاً، فالجميع في القرية يعتقد أنني غريبة الأطوار، أليس كذلك؟».

قلت: «لا، كلهم يقولون إنكِ شخص طيب للغاية، ويطلقون عليك لقب إلهة الرحمة».

قالت: «نعم، ولذلك يستغريون من معاملتي إياه بهذه الطريقة، ألا تعتقد أن هذا غريب؟».

قلت: «لأنكما كنتما رفيقي سلاح في يوم من الأيام».

قالت: «انضم إلى الجيش في السابعة عشرة من عمره، وقاتل ضد الجيش الأحمر، والغزاة اليابانيين، وجيش التحرير الشعبي، وتشيانغ كاي شيك، والأمريكيين. قضى نصف حياته على الجبهة في الخطوط الأمامية، رفاق سلاحه كثيرون، والأرواح التي أنقذها أكثر. فلم كنت أنا الوحيدة التي تعامله بهذه الطريقة؟ لا بد أن هناك قصة وراء هذا».

شعرت أن لديها رغبة لحكي قصص الماضي، فهي تعيش مع طفل كبير، ولا تستطيع التحدث معه إلا عن أشياء طفولية طوال الوقت، وليس هناك من تتحدث إليه عن نفسها، ومؤكد أنها تشعر بالوحدة الشديدة، وهذا الماضي المدفون داخلها قد يفاقم وحدتها. فمع تقدمنا في العمر يزداد هذا الشعور بالوحدة، ويزداد الشعور باقتراب الموت. ربما لم تكن تخاف الموت، لأن الخوف لن يفيد، فالموت آتٍ عاجلاً أم آجلاً، ولا يمكن إيقافه. لكن الماضي يمكنه البقاء على قيد الحياة، فللماضي -خاصة الماضي المؤلم- الثقل والجمود اللازمان للبقاء على قيد الحياة.

علمت لاحقاً أنها بقيت في قريتنا مدة طويلة وتعاملت مع أشخاص عديدين، لكنها لم تُحدث أحداً عن ماضيها قط، بمن في ذلك والدي. كأنَّ احترام أهل القرية للعقيد وامتنانهم لها قد أفقدها الشجاعة للتعبير عما في داخلها، وماضيها المظلم، كما أنها كانت تعلم أن أحداً لن يفهم ما مرَّت به، فقلوب الناس في الريف بسيطة مثل حياتهم، ويرون الأمور إما بيضاء وإما سوداء، ولا يستطيعون التمييز بين الأمور المعقدة المتداخلة بين الأبيض والأسود. وجدي يُعدُّ مثلاً لذلك. خطأ واحد جعله يتمادى

ويسقط نحو الهاوية، وحتى بعد وفاته، ظلت خطايا تلاحقه. كانت خائفة أن تصبح نسخة أخرى من جدي، فكتمت أسرارها، تاركة الناس يُخمنون ويفسرون كما يتراءى لهم. لكن في تلك الليلة، كان ظهوري بمنزلة إغراء لا يقاوم بالنسبة إليها، فهويتي كانت مناسبة لهذا الموقف، بل ومتوافقة تمامًا؛ كنت شاهدًا -ابن أفضل صديق للعقيد، وغريبًا في الوقت نفسه- أعيش في الخارج على بُعد آلاف الأميال. جلست هناك بهدوء، فبدت تعبيراتها ورغبتها في الحديث أكثر وضوحًا في ضوء المصباح، وشفاتها الشاحبتان تتحفران للحديث والتحرر من طول الانتظار.

ودون أن تطلب رأيي، أو تمهد لحكايتها، أشعلت سيجارة أخرى، ثم شرعت تقلب في كتاب التاريخ الذي أهملته منذ مدة طويلة: «في العام التاسع عشر لقيام جمهورية الصين، الموافق لليوم السابع من الشهر القمري الأول عام 1930، أي في هذا الوقت نفسه من العام تقريبًا، وُلدت في هذه الغرفة».

كانت عائلتنا تمتلك مساحة من حقول التوت، وورشة لتربية دود القز، وعلى الرغم من أن والدي لم يكن عاملاً ماهراً، فإن والدتي كانت خياطة ماهرة، وكانت عائلتنا تعيش حياة لا هي جيدة ولا سيئة. وفي وقت لاحق، أُجّر والدي الحقول وورشة دود القز، وبدأ عمله الخاص، كان يشتري الحرير من القرية، ويشحنه بالقوارب إلى هوتشو لبيعه للوسطاء، ويكسب ربحه من فارق السعر. وبعد بضع سنوات، أصبحت عائلتنا إحدى العائلات الثرية في القرية. وكان لديّ شقيقان أكبر مني وأخت كبرى. أرسل والدي أخي الأكبر ذا الخمسة عشر عامًا إلى شنغهاي للدراسة عندما اندلعت معركة شنغهاي. أنا أيضًا كنت أدرس في المدرسة الابتدائية في المدينة عندما بلغت السابعة، وهو ما يدل على أن عائلتي كانت تمتلك بعض المال حينها. لكن الحرب دمرت عائلتنا. قُتل أبي وأمي وأخي الثاني وأختي في الوقت نفسه بوساطة قتابل ألقته الطائرات اليابانية. في ذلك الوقت،

كانت عائلتنا كلها على القارب نفسه، نستعد للهروب إلى هوتشو، حيث كان لوالدي أصدقاء هناك. كانت الأمور على ما يرام لو بقينا في المنزل. انظر إلى هذا المنزل، أليس جميلاً؟ لكنه القدر، لا مفر منه. قُتل والدي وأخي الثاني في الانفجار على الفور، وغرقت أمي وأختي بعد تحطم القارب. لم يكن أي منا يستطيع السباحة، فقط أخي الأكبر كان يستطيع السباحة، ونجا بحياته. لا أعلم كيف نجوت أنا أيضاً، فعندما استعدت وعيي وجدت نفسي مستلقية بجانب النهر. لا أعلم من الذي أنقذني وأوصلني إلى الشاطئ. هذا هو قدري، هذا القدر الذي كان ينتظرني لأعاني بقية حياتي.

عدنا إلى القرية ولجأنا إلى شقيق والدي الأكبر. هذا العم كان شخصاً طيباً، لكن زوجته كانت تعاملنا معاملة سيئة، وغالباً ما تتجهَّم في وجوهنا وتُبدي استياءها من وجودنا وقت تناول الطعام. كان الأخ الأكبر في سن المراهقة، ولم يستطع تحمُّل معاملتها السيئة، فقرر ترك بيت عمي. لحسن الحظ، كانت ممتلكاتنا المتمثلة في منزلنا وورشة دودة القز وحقول التوت لا تزال موجودة، ولا ينقصنا شيء للعيش بكرامة. كان بوسع أخي الأكبر تربية ديدان القز، وكان بوسعي الاعتناء بنفسي، ومن ثم استمرت حياتنا. كانت هناك علبة طباشير في المنزل، لا أعلم من أين جاءت، استخدمها أخي الأكبر في رسم علامات على أعمدة الخيزران في ورشة دود القز كل يوم، وفي كل مرة كان يرسم علامة، كان يقول لي: أريدك أن تكبري بسرعة، فبعدما تكبرين، سأنضم إلى الجيش وأحارب اليابانيين لأنقم لعائلتنا. وبعد أكثر من عام ونصف من رسم العلامات، فاق عدد العلامات في ورشة دود القز عدد شرانق الدود. وفي صباح أحد الأيام، وجدت غرفته فارغة. ترك لي رسالة وبعض المال فقط، أخبرني في رسالته أنه رحل، وطلب مني أن أعنتي بنفسي. كنت مستعدة ذهنياً لهذا اليوم، فلم أفاجأ أو أخف.

وبعد شهرين، تلقيت رسالة من أخي الأكبر في تشانغشا، يخبرني فيها أنه انضم إلى جيش الجنرال شيويه يوي، ويتدرب الآن على المدافع الرشاشة. لم أسمع عنه أي خبر أكثر من ثلاث سنوات بعدها. وعندما جاء الخبر كان خبر وفاته، مات في معركة تشانغشا منذ عام. وقد جاءني بالخبر رجل من قرية مجاورة التحق بالجيش معه. وعلى الرغم من أنني كنت في الثانية عشرة من عمري فقط في ذلك الوقت، فإنني كنت أعمل بجد يفوق قدرة من هم في العشرين. كنت أستطيع فعل كل شيء، بما في ذلك غسل الملابس، والطبخ، وتربية ديدان القز، ولف الحرير، والغزل. كانت ورشة دود القز بسيطة، مصنوعة من أعواد الخيزران. لم تستطع العلامات التي رسمها أخي الأكبر بالطباشير على ألواح الخيزران الصمود أمام الرياح والمطر، تمامًا مثل حياة أخي الأكبر التي لم تتمكن من الصمود أمام وابل الرصاص. وبعد أن علمت بوفاة أخي الأكبر، بدأت أيضًا برسم العلامات نفسها في ورشة دود القز، واحدة كل يوم. اعتقدت أنه ربما فقد أخي الأكبر حياته لأنه كان يرسم بالطباشير، لذلك بدأت بحفر العلامات بالسكين والمقص.

عادة ما كانت القوات تأتي إلى المدينة لتجنيد الناس سرًا. وبعد مرور أكثر من عام من حفر العلامات، بدأت بالتواصل مع تلك القوات، وطلبت منهم الانضمام إلى الجيش. ولأنني لم أكن قد بلغت السن المطلوبة حينها، رُفضت مرة تلو الأخرى، إلى أن جندتني إحدى الوحدات التابعة لجيش الكومينتانغ في نهاية ربيع عام 1945 وبداية صيفه. انطلقت برفقة القوات إلى وادٍ بجوار بحيرة تايهو في مدينة بيشينغ بمقاطعة جيانغسو لتعلم مهنة التمريض، وقبل أن أنتهي من الدورة المخصصة لتعلم التمريض، استسلم اليابانيون. كان الجميع يحتفل في الساحة، لكنني كنت أبكي وحدي في غرفتي. لقد انضمت إلى الجيش فقط من أجل الانتقام لعائلتي. وما دمت قد فشلت في الانتقام، فقد راحت دماء عائلتي

هدراً، ولن يكون لحياتي معنى. كنت في الخامسة عشرة من عمري في ذلك الوقت، وشعرت أن الحياة بلا معنى. لقد تحمّلت كل الصعوبات طوال السنوات الثماني الماضية بسبب وجود مشاعر الكراهية التي أكنها لليابانيين، وعندما ماتت الكراهية، صارت حياتي بلا هدف. في تلك الليلة، غنى الآخرون يحتفلون حتى بُحَّت حناجرهم، أما أنا فبكيت حتى تورّمت عيناى، لدرجة أن مقلتيّ كادتَا تخرجان من محجريهما.

وفي الليلة الأخيرة قبل انتهاء دورة التمرّيز، أقامت القوات احتفالاً آخر. في أثناء الاحتفال، استدعاني القائد بمفردي إلى غرفته، وسألني إذا ما كنت أرغب في الذهاب إلى المستشفى العسكري على الجبهة أو الذهاب إلى مستشفى كبير في مدينة مثل شنغهاي أو نانجينغ. قلت إن اليابانيين قد استسلموا، فأين هي الجبهة؟ قال إن اليابانيين استسلموا، لكن الشيوعيين لا يزالون موجودين، والخطوة التالية ستكون محاربة الجيش الرابع الجديد وجيش الطريق الثامن، وما زالت هناك معارك يجب خوضها. فكّرت في نفسي: لقد التحقت بالجيش لمحاربة اليابانيين، وليس لمحاربة الشيوعيين، لذلك طلبت العودة إلى شنغهاي. وافق على طلبي، لكن في الوقت نفسه طلب مني أن أسلمه جسدي. رفضت، لكنه دفعني على السرير عنوة. كان يوماً حاراً وكنت أرتدي ملابس خفيفة، لذا خلع ملابسي بسرعة وتحسّس جسدي. أنا لست فتاة صغيرة مدللة، بل سيدة عجوز ظلت تحت العلامات بالسكين والمقص سنوات، عانيت كثيراً في حياتي وأحمل في داخلي كثيراً من الكراهية العميقة. قاومته بشدة، وتحينت الفرصة ثم ركفته بقوة بين فخذه، جثا على الأرض يصرخ ألماً، لم أكتفِ بذلك، بل ضربت رأسه بعقب المسدس الذي كان معلقاً على الحائط، ففقد وعيه، حينها لففت ملأتي سرير على شكل حبل، وربطته بإحكام، ثم هربت في أثناء الليل.

طالعت في الصحف أن القلب قد يكون ثائراً كالبركان وملامح الوجه هادئة كسطح البحيرة. وهذا هو النضج في الحياة، الناتج عن تراكم تقلباتها.

فوجئت بأنها ظلت هادئة ومتماسكة وهي تتحدث عن أشياء مثل القتل والاغتصاب، وكأنها تتحدث عن أمور عادية. ربما تبلد شعورها بالخوف والرعب، تماماً مثل راحة يدها التي صارت مغطاة بطبقة من الجلد الخشن، لا تهاب نصل السكين. لقد ظلت على هذا النحو وهي تحكي، كان على وجهها دوماً التعبير نفسه؛ تعبير بلا أي تعبير، نظرات هادئة، والنعمة نفسها؛ ريح هدأت وأمواج سكنت، ثلج يتساقط في صمت، نعمة من اللامبالاة. لكن العقيد في الجوار كان يشخر بصوت عالٍ، أحياناً يكون صوت شخير محملاً بالبهجة، وأحياناً أخرى بالحزن والأسى، وكأنه كان يعيش مشاعر مختلطة من الأفراح والأتراح في حلمه.

ولأنها هربت، فمن الطبيعي أنها لم تجرؤ على العودة إلى قريتها خوف المطاردة. صارت تتنقل في أنحاء شنغهاي كالمشرّدة، عملت في المهن الشاقة كلها، لكنها لم تجرؤ على البحث عن عمل في المستشفى، خوف أن يجدها أعداؤها. كان بإمكانها أن تتحمّل المشقة، لكن هناك كثيرين يستطيعون تحمّل المشقة مثلها، فالشوارع تعج بالناس الذين يتنافسون للحصول على مصدر رزق. كانت المنافسة شرسة وكانت تواجه دائماً صعوبات في كسب لقمة العيش. وأخيراً، تحلّت بالشجاعة للعمل ممرضة في المستشفى، فهذه مهنة متخصصة على أي حال، وسبق لها أن تعلمتها، لذلك لم يكن هناك منافسون كثيرون، ومن ثم استقرّت أخيراً، وعاشت حياة هادئة مدة عامين تقريباً.

كان قد مر وقت طويل منذ أن تحدثت باللغة الفصحى آخر مرة، لذلك كانت تتحدث ببطء في البداية، وأحياناً تتحدث بلكنتها المحلية دون قصد.

لكن أساس اللغة الفصحى لا يزال موجوداً على أي حال، وبمرور الوقت صارت تتحدث بسرعة أكبر، وبتلقائية أكثر، لكن نبرة صوتها وتعبيراتها ظلت كما هي دون تغيير، وكأنها أسيرة لماضيها القاسي.

«لكنني وُلدت محكوماً عليّ بالبؤس، وكما يقال، الأيام الحلوة لا تدوم طويلاً، ففي الساعة الثالثة من عصر يوم العشرين من مارس عام 1949، وبينما كنتُ أعطي حقنةً لمريضٍ طُعن في شجارٍ بالشارع، نادتي رئيسة الممرضات فجأةً».

كانت تتذكر هذا التاريخ والوقت بوضوح شديد، كما لو كان هذا هو وقت ولادتها. في الواقع، كان الأمر أشبه بالولادة تقريباً، فقد كان هذا وقتاً تاريخياً جديداً بالنسبة إليها، فالعقيد كان ينتظرها على طاولة العمليات بعدها بثلاثة أيام.

والآن لنتحدث عن تجنيد جيش الكومينتانغ للشباب، كنا نعتقد دائماً أنهم يجندون الذكور فقط، لكن في الواقع كانوا يجندون الإناث أيضاً. ففي ذلك المساء، اقتادني ضابط من الكومينتانغ يتحدث بلهجة سيشوان، كان هناك نحو عشر ممرضات شابات من المستشفى يصطففن وسط القاعة. أخذ يمشي أمامنا ذهاباً وإياباً، ينظر إلينا، ويشير بإصبعه، وينادي أسماءنا. نادى أسماء خمس منا في المجموع، وكنت آخر واحدة ينادي اسمها. لم تجرؤ أي واحدة منا على الاعتراض، فمن تعترض تعرف أنه سيصوب مسدسه في وجهها، وسيقتادها رغماً عنها. زُج بنا نحن الخمس في مقعد يسع ثلاثة أشخاص داخل سيارة جيب، وجلس هو يدندن في المقدمة. كنت قلقة من أن يكون سبب أخذنا من هنا هو العمل في الدعارة، لو كان هذا صحيحاً، سأقتل نفسي أمامهم، فقد رأيت بعيني موتى عديدين، ومات جميع أفراد عائلتي، ولم أعد أخاف الموت.

سارت بنا السيارة الجيب أكثر من ساعة، ثم أنزلونا منها ووضعونا في شاحنة كبيرة مغطاة، كانت الشاحنة ممتلئة بفتيات في عمري نفسه.

سألتهم خلسة، فاكتشفت أن جميعهن ممرضات، بل حتى أن بعضهن كن لا يزلن يرتدين معاطف بيضاء. بدا الأمر كما لو أنهم يأخذوننا لطبيب عدد كبير من الجنود الجرحى. وكان هناك حارس يحمل مسدسًا على خصره ويندقية في يده. حذرنا بقوله: لو خالفت أي واحدة منكم التعليمات سنجعلها تأكل حبات الفول السوداني الفولاذية، يقصد بذلك طلاقات الرصاص، أي أنهم سيطلقون النار عليها. سألناه إلى أين نحن ذاهبون، قال إننا سنذهب إلى أماكن مختلفة عديدة. ولو حالفنا الحظ، فقد نتمكن من مقابلة الرئيس لي تزونغرن، ولكن إذا لم يحالفنا الحظ، فلن نتمكن إلا من مقابلة الأشباح؛ يقصد الموت.

غادرت الشاحنة المدينة ليلاً، متوجهة نحو نانجينغ. مررنا بمعسكرات حربية عديدة على طول الطريق. في كل مرة نمر فيها بأحد المعسكرات، تُنزل عدد من الفتيات، أحياناً خمس أو ست، وأحياناً ثلاث أو أربع، حسب حجم المعسكر. وفي عصر اليوم الثالث، أنزلت أنا وأربع أخريات في معسكر على مشارف مدينة تشنجانغ، بالقرب من معبد جينشان، على ضفة نهر اليانجتسي. علمنا لاحقاً أن هذه وحدة بحرية. لم تكن التكنات كبيرة، لكنها كانت كلها مبنية من الطوب الأسود أو الأحمر، فبدت متماسكة ومتينة، على عكس عديد من التكنات التي مررنا بها على طول الطريق. بدا واضحاً أن الأحوال هنا أفضل بكثير. كنت سعيدة لتوزيعي في هذه التكنة، وتبددت مشاعر الخوف التي انتابتني على طول الطريق، بل حتى شعرت بأنني محظوظة، ونسيت الإهانة التي شعرت بها عندما اقتادوني من المستشفى دون سبب واضح.

أسكنونا نحن الخمس في غرفة واحدة، فيها أربعة أسرة حديدية من طابقين، وكانت الغرفة مجهزة بكل وسائل المعيشة الأساسية. كانت هناك بوسترات أفلام على الحائط، ومراة صغيرة مستديرة، وعلبة مكياج نسائية على الطاولة، بل حتى كثير من الملابس الداخلية النسائية في الخزانة،

كما لو أن من كن هنا قبلنا قد متن للتو. في الواقع، لقد هربن. كانت هناك منشورات منتشرة في كل مكان في الشوارع تقول إن جيش التحرير الشعبي على وشك أن يعبر النهر، ويقطع الطريق على جيش الكومينتانغ. لذلك فررن للنجاة بحياتهن، وجاؤوا بنا بدلاً منهن. فكّرنا نحن أيضاً في الهروب، لكن التكنات كانت مدجّجة بالحراس، وأضواء الكشافات في الخارج ساطعة طوال الليل، تخترق كل زاوية، وتسد كل طريق للهروب، ولم يكن أمام الجميع خيار سوى انتظار الموت. في تلك الليلة، حصلت كل واحدة منا على طقم من الزي العسكري والمعاطف البيضاء. البعض قلن إن هذه ستكون أكفاننا. لكن الموت والتعب مسألتان مختلفتان بالنسبة إلي، فالموت مسألة مستقبلية، والتعب مسألة حاضرة. وبعد رحلة شاقة كهذه، كنت متعبة جداً حتى أنني نمت بمجرد استلقائي، تماماً كشخص ميت.

وبحلول منتصف الليل، طرق أحدهم الباب، وقال إن هناك عملية جراحية طارئة، ويريد اثنتين منا لتقديم المساعدة. كانت هناك دراجة بخارية ثلاثية العجلات متوقفة أمام الباب ومحركها يدوي، فعلمنا أن الأمر عاجل للغاية. ذهبنا برفقة زميلة أخرى، ركبنا الدراجة النارية، ثم وصلنا بعد دقيقتين فقط. كانت غرفة العمليات في الطابق الأول. عندما دخلنا رأينا الدماء منتشرة في كل مكان على الأرض، وعلى طاولة العمليات، وعلى معطف الطبيب الأبيض، وكأنه مسلخ وليس مستشفى. كان الجرحى يرقدون هناك مثل خراف ميتة، يحتضرون في صمت. رأينا الطبيب واقفاً هناك، كان طويل القامة، يحمل بين يديه كومة من الأمعاء، ويقلبها بحركات سريعة، بحثاً عن الرصاصة. لم نكن قد شاهدنا مثل هذا المشهد من قبل، تقيأت زميلتي على الفور، ما جذب انتباه الطبيب، فالتفت نحونا. كان يرتدي كمادة وغطاء رأس وقفازات، لا يظهر من وجهه سوى عينيه، وبالرغم من ضوء مصباح منصة العمليات الشديد

السلطوع، كانت عيناه تلمعان مثل لمبتين صغيرتين. هزَّ رأسه لي يطلب مني أن أذهب لمساعدته. ذهبت إليه بيديَّ العاريتين، فهزَّ رأسه مرة أخرى، وأشار لي بارتداء كمامة وغطاء للرأس وقفازات. كان كل شيء جاهزاً على صينية العربية بجانبه. ارتديت الطقم كاملاً وساعدته في شق بطن المريض وإخراج مزيد من الأمعاء، سرعان ما نجح في العثور على الرصاصة، فأثنى عليَّ بعدِّي فألاً حسناً.

ظلّ منهمكاً مدة تزيد على ثلاث ساعات، يتبادل العمل بأدوات جراحية مختلفة، وكنت مسؤولة عن تسليمه إياها. كنت أسلم الأداة الخطأ في كثير من الأحيان، لكنه لم يكن يغضب، بل يقول كلمة واحدة فقط: خطأ. انتهت العملية أخيراً عند الفجر، فخلع غطاء رأسه، وكمامته، وقفازاته، ومعطفه الأبيض الملطخ بالدماء. رأيتُه شاحباً، متعباً للغاية. لم يكن يرتدي زياً رسمياً، بل يرتدي سترة من الصوف تحت معطفه الأبيض، ربما كانوا قد أحضروه إلى هنا على نحو مفاجئ كما فعلوا معي. أعطاني بعض التعليمات حول الرعاية التمريضية، ثم أشعل سيجارة وغادر. عندما استدرت لتنظيف طاولة العمليات، اكتشفت أن مجموعة الأدوات الجراحية بأكملها، بما في ذلك المقصات، والملاقط، والمشارط، والإبر، الكبيرة والصغيرة، كانت كلها مصنوعة من الذهب. كنت متوترة للغاية في أثناء مساعدته، حتى أنني لم ألحظ ذلك.

وفي قرابة الساعة التاسعة صباحاً، جاء إلى غرف المرضى لمتابعة أحوالهم. كان يرتدي زياً يحمل رتبة عقيد، ولأنه استيقظ للتو، كان وجهه متورداً، لا يشبه على الإطلاق ذلك الشخص الذي قابلته في الليل. تعرّف إليَّ من النظرة الأولى، وسألني عن حالة المصابين وبعض الأمور الشخصية. وعندما علم أنني جُنُدت تجنيداً قسرياً، خَمَّن أنني أريد الهروب، ونصحني بعدم التفكير في أي فعل أحقق، ثم أشار إلى الجندي الجريح الفاقد الوعي وأخبرني أن هذه نتيجة تفكيره في الهروب.

اتضح أننا بذلنا كل هذا الجهد طوال الليل من أجل إنقاذ جندي هارب. الممرضات يفكرن في الهروب، والجنود يفكرون في الهروب أيضاً، أعتقد أن هذا الجيش لن ينتصر أبداً.

وبعد شهر واحد، تمكن جيش التحرير الشعبي من عبور النهر. لم نسمع سوى بضع طلقات نارية في أنحاء الثكنة جميعها، ودخل جيش التحرير الشعبي إلى الثكنة بسلاسة. ولأنه لم يعد أحد يجروء على الفرار، وبهذا لم يكن هناك مصابون، نادراً ما كان يأتي إلى المستشفى، لذلك لم أره سوى مرات عدة فقط في أثناء هذا الشهر. سمعت أنه يجلس في منزله يومياً، يعتني بقطه، ويطلع الصحف، هناك من يوصل له الطعام، ويغسل ملابسه، ويعاملونه كأنه ضابط كبير. التقيت به ذات مرة في الطريق إلى الثكنة. ابتسم لي بأسنانه البيضاء، وناداني باسمي، وسألني: هل هذا اسمك؟ قلت نعم، ثم توقفت، وانتظرت أن يسألني مزيداً من الأسئلة، لكنه لم يقل أي شيء آخر، ومضى منتفخ الصدر بخطوات واسعة إلى الأمام. استمعت إلى صوت وقع خطواته على طول الطريق، وكأنني أستمع إلى الموسيقى، انتابتي مشاعر الفرح، ولم أتمالك نفسي من الالتفات لأنظر إليه، على أمل أن يلتفت لينظر إليّ أيضاً.

هذه هي المرة الأولى في حياتي التي ألتفت فيها خلفي لأنظر إلى رجل. كنت في التاسعة عشرة من عمري، وكان في الحادية والثلاثين. وهو أيضاً الرجل الوحيد الذي ألتفت خلفي لأنظر إليه طوال حياتي. لم يلتفت لينظر إليّ، فشعرت بفراغ في قلبي، كما لو كان موجوداً دائماً في قلبي، لكنه غادر، تاركاً لي قلباً فارغاً.

كانت تحاول جاهدة استخدام التفاصيل لترسم لي الصورة البطولية للعقيد وهو في سن الحادية والثلاثين، وحاولت أيضاً أن تستعيد مشاعرها بوصفها مراهقة وقعت في حب رجل أول مرة. لكن العقيد النائم في الجوار كان يشخر بصوت عالٍ، فقطع حبل أفكارها. ربما كان قد رأى كابوساً،

فتحوّل شخيرته فجأة إلى صراخ، هذا الصراخ سحبها من الماضي البعيد،
وأعادها إلى الحاضر ثانية. كان صراخه أشبه بصراخ ابنتي في حلمها،
فالأطفال كلهم متشابّهون، لا يخشون شيئاً في أثناء النهار، لكن عندما
ينامون ليلاً، غالباً ما يقتلهم الخوف بسبب كابوس يشاهدون فيه نملة
تبتلع فيلاً، فيصرخون، ويتبولون في فراشهم. ذهبت لتتفقده، تماماً كما
كنت أذهب لتفقد ابنتي النائمة، تحسّست وجهه، وغطته جيداً. لم أذهب
معه، لكنني أعتقد أن هذا ما فعلته، فهذا ما كنت أفعله مع ابنتي، ولو
استيقظت كنت أهدئها، فتعود للنوم ثانية، فهذه حال الأطفال دوماً في
أثناء نومهم.

مكتبة

t.me/soramnqraa

(88)

عندما غادرت زوجة العقيد، نهضت من مكاني وتوجهت نحو النافذة لأريح جسدي الذي تبيّس بسبب الجلوس على المقعد الصغير. كان الجو مظلمًا في الخارج، ولم تكن هناك أي نوافذ مضاءة، وأضواء الشوارع مطفأة أيضًا. كان الوقت في منتصف الليل حينها، مثل القصة التي روتها حتى منتصفها، وتركتني وحدي مع المجهول والشعور بالوحدة. كنت مشوشًا بعض الشيء لا أعرف إذا ما كنت أريدها أن تعود سريعًا أم لا. أستطيع أن أتخيل أنها والعقيد أحب بعضهما بعضًا، ثم كره كل منهما الآخر، لكن ماذا بعد ذلك؟... لم أستطع أن أتخيل مشاعرهما الفعلية تجاهه، هل تفعل ذلك الآن لتستعيد حبها القديم، أم لكي تكفر عن ذنوبها. عندما لا يقابل الحب بالحب فإنه يتحول إلى كراهية، وجرح الكراهية قد تنتج عنه سموم، فهل هي الآن تتجرّع من هذا السم؟ تذكرت زوجتي السابقة، نحن لم يكره بعضنا بعضًا قط، بل القدر هو الذي تسبّب في جرحي بشدة، هذا الجرح لم تختفِ سُميته حتى الآن.

عادت بعد قليل، وقد ارتدت قطعة ملابس إضافية، سترة مخملية بلون اللحم، كبيرة الحجم بما لا يدع مجالاً للشك أنها تخص العقيد. هذا النوع من القماش غالي الثمن في مدريد، أما هنا فهو مجرد منتج محلي. كل أسرة تستطيع شراء بوصفه هدية، لذا أعتقد أنها ربما كانت هدية من أحدهم. لقد قيّد العقيد حريتها بشدة، وكان من المستحيل عليها أن تعود لممارسة مهنتها السابقة. ويقال إنها قبل مجيئها إلى قريننا، كانت الطبيبة الوحيدة هنا، وكانت أيضًا خبيرة المنسوجات الأكثر مهارة. طبّبت المرضى لكسب المال بعدها طبيبة، ونسجت الحرير والملابس لكسب المال بعدها صاحبة عمل. كانت واحدة من النساء الأعلى دخلًا هنا،

وكان المال الذي أدخرته كافيًا لإعادة بناء منزل من جديد . ولكن لاحقًا، أنفقت كل مدخراتها على علاج العقيد، وبسبب رعايتها إياه، لم يكن لديها وقت للعمل وكسب المال . ومن ثم لم يكن بوسعها سوى الاعتماد على علاج المرضى لكسب بعض المال . كانت حياتها صعبة للغاية في مدة ما . ولحسن حظها، طبّقت الحكومة سياسات جديدة في أثناء العامين الماضيين، وصارت تتقاضى راتبًا تقاعديًا كبيرًا كل شهر، لا ، بل كان معاشًا، ومن ثم حُلّت مشكلاتها المادية . بل يبدو أن هذا الحل كان يفوق احتياجاتها، ويمكن معرفة ذلك عبر السجائر التي تدخنها، فقد كانت تدخن سجائر ماركة فينيكس، وهي ثاني أفضل نوع بعد ماركة الفاوانيا . لم تكن قد نسيت أين توقفت في حكايتها، ومن ثم لم تكن بحاجة إلى أي تلميحات مني، فبعد نفسين فقط من السجائر، استعادت تعبيرها الهادئ واستمرت في التحدث بشكل تلقائي وقالت: «قلتُ للتو إن جيش التحرير الشعبي سيطر على المعسكر بكل بسلاسة، ويُقال إنه لم يُطلق أي رصاصة، فطلقات الرصاص القليلة التي سمعناها كانت لجنود أطلقوا النار على أنفسهم، وليست مقاومة» .

كان جيش التحرير الشعبي مختلفًا تمامًا عن جيش الكومينتانغ . عندما وصلوا إلى مستشفىنا ورأوا الممرضات، تتحّوا جانبًا وانتظروا مرورنا قبل أن يمروا . كانت هذه هي المرة الأولى التي أصادف فيها موقفًا كهذا، وكنت خائفة للغاية حتى أنني لم أجرؤ على التحرك إلى الأمام، خوفًا أن يضايقوني . وبعد أن تعاملنا معهم مرات عدة، علمت أنهم أشخاص رائعون . وكانت السياسة التي انتهجوها تجاه الأسرى سياسة رائعة أيضًا . يتحدثون إليهم أولاً، ويقنعونهم بالبقاء والانضمام إلى جيش التحرير الشعبي، ومن لا يرغب في ذلك، يعطونه نفقات السفر للعودة إلى مسقط رأسه . الشخص الذي تحدّث معي كان يعلم أنني يتيمة، وليس لي أقارب في مسقط رأسي . قال: ليس لديك خيار، عليك البقاء معنا، جيش التحرير الشعبي هو بيتك

ونحن جميعاً أقاربك. أبكاني كلامه، وشعرت كأنتي في بيتي حقاً. علمت لاحقاً أن العقيد بقي أيضاً، الأمر الذي جعلني أشعر بسعادة أكبر. ولكنه سرعان ما انطلق برفقة القوة الرئيسية. لم يكن أحد يعلم إلى أين ذهب، لكن من المحتمل أنه ذهب إلى الخطوط الأمامية، لأن الخطوط الأمامية كانت في أمس الحاجة إلى أطباء مثله. لم يودعني، فبالنسبة إليه، لم تكن هناك حاجة إلى ذلك. قلت إننا لم نكن قد التقينا سوى بضع مرات فقط في ذلك الوقت، ولم نتحدث في أثنائها حتى. لقد كنت عاطفية للغاية في تعاملتي معه، ولم يكن يفارق خيالي. لو استخدمنا مصطلحات الشباب اليوم، يمكن القول إنه كان حُباً من طرف واحد. في الواقع، لا يمكن أن نسميه حُباً من طرف واحد، بل مجرد نوع من الإعجاب، نوع من المشاعر المعتادة لدى الفتيات.

واصلت العمل في المستشفى، ونلت إعجاب القادة، فرُقيت رئيسة للممرضات. عاملني جيش التحرير الشعبي كأحد أفراد عائلتي حقاً، واهتم بي بشكل خاص. وبعد تحرير شنغهاي بمدة وجيزة، أي في سبتمبر من العام نفسه، أوفدت للدراسة في مدرسة الكوادر الطبية في شرق الصين، التي أصبحت لاحقاً الجامعة الطبية العسكرية الثانية لجيش التحرير الشعبي. درست هناك لكي أصبح طبيبة تخدير، وكان من المفترض أن أدرس هناك عامين. لكن بعد ذلك اندلعت الحرب الكورية وأرسلت الصين متطوعين للقتال ضد الولايات المتحدة ومساعدة كوريا. استدعتنا المدرسة للذهاب إلى الخطوط الأمامية للدفاع عن بلادنا. سجل أشخاص عديدون أسماءهم للذهاب إلى الخطوط الأمامية، ولكي أحصل على الموافقة، كتبت طلبي بدمائي. وكنت من بين الدفعة الأولى ممن حصلوا على الموافقة. وفي النهاية، وافقوا على إرسال ستين فتى واشتري عشرة فتاة، ما يقرب من سعة عربة قطار كاملة، وذهبنا مباشرة إلى الخطوط الأمامية. قضينا ليلة رأس السنة في القطار، وعلى طول

الطريق، تجمّع آلاف من الناس على الأرصفة ليعطونا زلابية الجياوتسي كي نتناولها بمناسبة العام الجديد. صار لدينا كثير منها، ولم يكن بوسعنا تناولها كلها، فوضعناها في أكياس وعلقناها خارج نوافذ القطار لتتجمد. وبعد مغادرة القطار محطة جينان، بدا الأمر كأننا نعيش داخل ثلاجة، وكانت الأرض مغطاة بالثلج طوال الطريق. عندما عبرنا نهر يالو، صار الجو قارس البرودة، لدرجة تفوق تحمّلنا -نحن أبناء الجنوب- حتى أن مخاطنا كان يتجمّد عندما يسيل من أنوفنا. وبالرغم من برودة الطقس، فإن قلوبنا كانت ممتلئة بحرارة الحماسة. غنينا ورقصنا على طول الطريق. لم نشعر بأننا ذاهبون إلى الخطوط الأمامية للقتال، بل كنا كأننا عائدون منتصرين من هناك.

وعلى غرار المرة التي جندني فيها جيش الكومينتانغ، كان عدد منا ينزلون من القطار في كل محطة ما. الفرق هو أن الأشخاص الذين جاؤوا لاصطحابنا كانوا جميعاً ودودين للغاية. خلعوا قفازاتهم، واحتضنونا بأيديهم وأجسادهم الباردة، وسألوا عن صحتنا، وكأنهم من أفراد عائلتنا. فطننت إلى أن جيش التحرير الشعبي وجيش الكومينتانغ يشبهان دودة القز التي تتغذى على أوراق التوت ودودة القز التي تتغذى على أوراق الكافور، مختلفتان اختلافاً جذرياً. دودة القز التي تتغذى على أوراق التوت تنتج الحرير المستخدم في صنع الملابس وهو ثمين للغاية، في حين أن دودة القز التي تتغذى على أوراق الكافور عديمة الفائدة، ورائحتها كريهة، وتؤذي الناس. نزلت مع واحد وعشرين من زملائي في الدراسة في محطة قطار تسمى شياجيهيو في الطرف الشرقي من بحيرة تشانغجين في كوريا الشمالية، وركبنا في ثلاث سيارات جيب وشاحنة متجهين إلى موقع تركز قواتنا. كنت ممن ركبوا في الشاحنة، ذهبت إلى المستشفى الميداني التابع لمقر الجيش السابع والعشرين، الذي كان كهفاً بالقرب من بحيرة تشانغجين. كنا ستة أشخاص، أربعة فتيان وفتاتين، كل واحد منا

يحمل كيسًا شبكيًا ممتلئًا بزلاوية الجياوتسي المجمدة. في ذلك المساء، أقام المستشفى حفل عشاء، وكانت الوجبة هي زلاوية الجياوتسي التي أحضرناها معنا، وجلس الجميع نستمتع بتناولها.

لكن في منتصف الوجبة، اندفع أربعة أشخاص فجأة، اثنان منهم يحملان أسلحة في أيديهما، وأحدهما يحمل حقيبة إسعافات، والآخر يده فارغتان، لكن عليهما آثار دماء. ربما كان قد غسل يديه في الثلج، لكنه لم يغسلهما جيدًا ولا تزال هناك آثار واضحة للدماء. كانوا قد عادوا للتو من الخطوط الأمامية. بمجرد ظهور هذا الشخص ذي اليدين الفارغتين، بدا الأمر كما لو أن قائدًا كبيرًا قد وصل. صمت الجميع، وقف كل من كان جالسًا على الطاولة التي يجلس عليها مدير المستشفى للترحيب به، وسحبوه للجلوس. نظر إليّ مليًا، كان يشبهه تمامًا، وبعد ثوانٍ تأكدت أنه هو، ركضت نحوه وألقيت عليه التحية. لم يتعرّف إليّ، فعرفته بنفسي، بدا كأنه لم يصدقني. نظر إليّ مليًا ثانية، وفي النهاية قال: كيف أصبحت سمينًا هكذا؟ وبعد أن قال هذا، انفجر ضاحكًا، وضحك معه جميع من في الغرفة.

في الواقع، كان وزني قد زاد كثيرًا في أثناء العام ونصف الذي قضيته في المدرسة العسكرية، فلم أكن قد عشت في رغد مثل هذا من قبل. هذه حال الحياة، إذا لم تمارس أي عمل بدني، وكان لديك ما يكفي من الطعام والشراب، وتعيش حياة خالية من الهموم، فكيف لا يزيد وزنك؟ أما الآن، فانا أعيش في قلق دائم عليه طوال الوقت، فكيف لا أفقد وزني؟ ما قاله جعل وجهي يحمر خجلًا، وشعرت بعدم الارتياح، وكأن كل أصوات الضحك التي تملأ الغرفة تحولت إلى ماء تتاثر على جسدي، وأصبحت مثل الفأر الغارق. عندما رأيته أشعر بالحرج، واساني وقال: لا بأس، أضمن لك أنك ستعودين إلى وزنك السابق في أقل من شهرين، حينها سوف أتعرف عليك، ثم ضحك مرة أخرى. لم أكن أعلم من قبل أنه يحب المزاح والضحك،

لكنني اكتشفت ذلك لاحقاً، كانت ضحكاته عالية جداً، مثل المفرقة النارية. كم أتمنى لو كان بإمكانني سماع هذه الضحكات مرة أخرى، لكن لم يعد بإمكانني سماعها بعد الآن، يمكنني سماعها في أحلامي فقط. في أثناء هذين العامين، على الرغم من أنني كنت عرضة للموت كل يوم، وكنت متعبة بشدة، فإن وجودي معه كان أسعد أوقات في حياتي.

(89)

رغم أن المصباح لم يتغير، فقد بدا أكثر سطوعاً بعدما تبدد ضوءه الخافت الكئيب، والسبب هو أن معظم المصانع قد توقفت، وزادت إمدادات الكهرباء. وبالرغم من أن وجهها لم يتغير، فإنه بدا أكبر حجماً، والسبب هو أن الإرهاق قد تسلل إليه، فالإرهاق يعمق التجاعيد، ويجعل العيون منتفخة، ويطيل الذقن، ويزيد الوجه حجماً وشيخوخة. لكن روحها كانت لا تزال شابة، بل وتزداد شباباً، ذاكرتها صافية، أفكارها حاضرة، وتحدث بطلاقة، ربما كان هذا بسبب الذكريات الجميلة.

يُقال إن سائقي سيارات الأجرة ينسون الركاب جميعهم عدا أولئك الذين ينسون حافظات نقودهم في سياراتهم، فسواء أبقوا عليها أم أعادوها، تظل هذه ذكرى جيدة بالنسبة إليهم. لقد ضحّت بشبابها النفيس وحبها الأول، وتركتها وراء ظهرها فوق الأرض الملطخة بالدماء عند شاطئ بحيرة تشانغجين في كوريا الشمالية. هذه الأرض كانت بمكانة مسقط رأسها نفسها بالنسبة إليها، وستظل عالقة في روحها وتطاردها في أحلامها. لا يمكنها الإبقاء عليها ولا إعادتها، لأنها صارت جزءاً من لحمها ودمها، ستعيش وتموت معها.

شعور الحب الأول أشبه بكتمان سرّ لذيذ، هو ترقّب، وتلصّص، شعورٌ بصدمة كهربائية عندما تلامس الأيدي بعضها بعضاً دون قصد، هو خوفٌ ودعاءٌ وسط هدير المدافع، أشعة شمس العصر تغادر وسط الريح،

نسيمٌ يحمل عبير الأزهار، رحلةٌ شاقّةٌ في ليلة يغزوها الأرق، وفك أنواع الشفيرات المعقدة والغامضة كلها. باختصار، إنه دقيقٌ، مفتت، وحيدٌ، غريبٌ، مُربكٌ، غامض. لم يكن بوسعها تغيير الحقائق، فصارت تستمتع بالانغماس في هذا الواقع المنصرم، وهو ما جعلها لا تتمالك نفسها من الإسهاب في الحديث، الأمر جعلني أشعر بالملل. وأول مرة في أثناء تلك الليلة، شعرتُ بإرهاق في أذني، فلم أتمالك نفسي من مقاطعتها، وقلت: «المهم هو أنك وقعتِ في حبه».

أجابت بلا تردد: «نعم، لم أحب أحدًا في حياتي كما أحبته، أحبته بكل كياني».

ثم عادت تسرد أنواع التفاصيل والأمجاد كلها التي تُفرح القلب وتثير الشجن في الوقت نفسه، كانت غارقة في ذكريات شبابها المنصرم، بحلاوتها ومرارتها. فهذه الذكريات هي مصادر فخرها، وجذور آلامها المتشعبة، جميلة كقوس قزح، لكنها قاسية مؤلمة في الوقت نفسه. كان قلبها يحترق، كقلب وحيد متيمٌ بماضيه. فما من أحد ينسى أين يُخبئ كنزه، وما من أحد ينسى السهم الذي اخترق قلبه. لم يطاوعني قلبي أن أقاطعها ثانية، لذا تركتها تتحدث كما يحلو لها. ليس لأن هذا من آداب السلوك، بل شفقة عليها. لكنها أخيرًا، خرجت من تلك المتاهة وعادت إلى أصل الحكاية ثانية.

«لا أعرف بالضبط متى بدأت أحبه، تمامًا كما لا أعرف ما الذي جذبني إليه. أحببت ضحكته، أحببت هيئته، الطريقة التي يدخل بها، وأعقاب السجائر التي يرميها. أحببت غضبه عندما يشتم حال فشلت العملية الجراحية، وبالطبع أحببت ابتسامته المشرقة بعدما يُجري عملية ناجحة. أحببت طريقة مشيه، ولعبه مع قططه، التي لا بد أنها أسعد لحظاته. أحببت أيضًا شجاعته في الاندفاع إلى خط المواجهة دون تردد، وأحببت فرحه وحزنه عند عودته من هناك، فهناك في مستشفىنا سبعة

جراحين، وقد ذهب وحده إلى خط المواجهة عددًا من المرات يفوق ضعف عدد مرات ذهاب الجراحين الستة الآخرين مجتمعين.

لَمْ كان يذهب لعلاج المرضى؟ لأن بعض الجنود الجرحى تكون إصاباتهم بالغة لا تسمح لهم بمغادرة ساحة المعركة، وسيموتون في الطريق لو غادروا. لذلك، وبعد سماعه الأخبار القادمة من الجبهة، كان يقول للأطباء الآخرين: لا عليكم، سأذهب أنا، أريد أن أجعل ذهبي (يقصد أدواته الجراحية) أكثر لمعانًا. يعني هذا أنه قد يذهب ولا يعود، فالمدافع والأسلحة النارية على خط المواجهة لا تفرق بين الجندي والطبيب، كما أن طائرات العدو تركز هجومها على سيارات الجيب التي تسير منفردة، ظلًا منها أن في داخلها أشخاصًا ينقلون معلومات استخباراتية أو قادة كبارًا. في كثير من الأحيان، كنت أتبعه إلى خط المواجهة لتطبيب المرضى، وواجهنا قصف طائرات العدو أكثر من مرة. في إحدى المرات، اخترقت رشقة من الرصاص الفجوة بين كتفي وكتفه. كنت خائفة حتى أنني صرخت بصوت عالٍ، فضحك وقال: من قال إن طلقات الرصاص عمياء؟ هذه الطلقات تعرف أننا جئنا لإنقاذ الناس، وقتلنا نحن الاثنين يعادل قتل كثيرين من الجنود الجرحى، لذلك لن تصيبنا. ذات مرة، انفجرت سيارتنا بلغم أرضي، وسقطت في وادٍ عميق. توفي السائق على الفور، كنت أنزف من أسفل جسدي، وأُصبت بخلع في كتفي، وأُغمي عليّ من شدة الألم، لكنه لم يُصب بأي أذى. كان يقول دائمًا إن إنقاذ حياة إنسان خير من بناء معبد من سبعة طوابق. لقد بنى بأعماله تلك معابد من آلاف الطوابق، تسلّقها ووصل إلى السماء، ولم يعد ملاك الموت يستطيع الوصول إليه. هذه حقيقة، لقد ذهب إلى الخطوط الأمامية لإنقاذ الناس عشرات المرات. مات وأصيب كثيرون من حوله، لكن أخطر إصابة تعرّض لها كانت كسرًا في إصبع قدمه، أما البقية فكانت مجرد خدوش. كان الأمر كأنه يرتدي سترة مقاومة للرصاص. ربما تكون هذه نعمة من السماء، لكن لا أعرف كيف انتهت به الحال الآن على هذا النحو».

قلت: «أنت نعمته».

قالت: «استمع إليّ وستعرف ما الذي أعنيه بالنسبة إليه»، ثم تابعت تقول:

«في تلك المرة، اعترفت له بحبي أخيراً. ما حدث هو أنه أعاد كتفي المخلوعة إلى مكانها وأنا فاقدة الوعي. كان الألم شديداً لدرجة أنه قد يوقظ الميت. عندما استيقظتُ، وجدتُ الدماء تغطي كل مكان. ظننتُ أنني مصابة، لكنني لم أشعر بأي ألم. طلب مني النهوض والمشي، وفرد ساقي، والانحناء بظهري، شعرت بأن كل شيء على ما يرام. كان يعلم ما سبب النزيف، وبعدها أخبرني أن السبب هو تمزق غشاء بكارتي، انفجرتُ بالبكاء مجدداً. كنت أفضل أن أفقد يدي على أن يحدث لي أمر كهذا، فهذه هي هدية زفاف المرأة إلى زوجها. بكيت بشدة. طمأنني بأسلوب مزاحه المعتاد وقال: لا بأس، احتفظي بهذا البنطال بعد عودتك، وسأكون شاهداً على ذلك أمام زوجك لاحقاً، فهذا بمنزلة وسام عسكري بالنسبة إليك. ارتيمتُ بين ذراعيه وقلتُ له: أريدك أن تكون أنت زوجي. ضحك وقال: هل تخشين ألا يقتنع زوجك بشهادتي حينها؟ حسناً، سأطلب من الجيش إصدار شهادة بذلك بعدما نعود. حينها عانقته بشدة وأخبرته بتفاصيل حبي له كلها. بدا متأثراً، لكنه لم يكن متحمساً. فقط قال بنبرة فكاهية: أنت فتاة لطيفة. لو كنت سأبحث عن زوجة، فستكونين أنت، لكنني الآن بحاجة إلى حب ملاك الموت، وليس حبك أنت».

قلت: إذا أحب بعضنا بعضاً، فسيحبنا ملاك الموت.

قال: لقد رأيت عدداً من الأموات يفوق عدد الطلقات النارية التي سمعتها، وبالنسبة إليّ أنتِ لا تزالين تلميذة، وعليك أن تستمعي لنصيحتي. قلت: لكنك قلت للتو إنك لو كنت تبحث عن زوجة، فسأكون أنا هذه الزوجة.

قال: لكنني قد لا أحتاج إلى زوجة أبداً، ثم التفت وأشار إلى السائق الذي مات على جانب الطريق وقال: انظري إليه، هل يحتاج إلى زوجة؟ كم سيكون الأمر مؤلماً لو كانت لديه زوجة! ستظل زوجته تعيش في ألم طوال حياتها.

حاولت أن أقول شيئاً آخر، لكنه لَوَّح بيده وطلب مني ألا أقول شيئاً، ثم قال إن من غير اللائق قول كلام كهذا أمام الموتى، وإن كل ما يرجوه الآن هو أن أعود سالمة إلى أرض الوطن. أما هو، فأخذ يمسح الدماء عن وجه الميت، ورفع رأسه للسماء وهو يقول: يعلم الرب أنني متُّ مراتٍ عديدة، وأنني لم أعد أهتم لأمر الموت، وكل يوم أعيشه هو مكسب إضافي.

بعد ذلك، لم يصحبني معه لعلاج المرضى مرة أخرى. فهمتُ هذا على أنه حُب وحماية لي، خاصة أنه كان يَتمنني على قططه العزيزة في كل مرة يخرج فيها، وهو ما جعلني أشعر بأن لي مكانة في قلبه. في كل مرة أُعيد إليه القطط، كنتُ أدس له رسالةً ممتلئة بمشاعري الصادقة، بحبي العميق وخوفي العميق، خوفي ألا يعود، أو أن يعود مصاباً. أحياناً كنتُ أتمنى أن يعود مصاباً، ليس بإصابة خطيرة بالطبع، بل إصابة طفيفة فقط، حتى يتعافى وتتاح لي الفرصة لرعايته. لم يكن يرد على رسائلي، ولا حتى مرة واحدة. فقط في إحدى المرات، عندما أخذ الرسالة، قال لي فجأة: «أنتِ تحبين شخصاً لا تعرفين عنه أي شيء على الإطلاق، وهذا تهوُّر منك».

رددت عليه بعبارة سبق أن قالها لي من قبل: «الطريقة الأفضل للتعرفُ إلى شخص ما هي التعرفُ إليه في أثناء القتال في الصفوف الأمامية». كان قائدنا قد سبق أن قال عبارة مماثلة أيضاً. في ذلك الوقت، كنتُ قد عملت ضمن الصفوف الأمامية أكثر من عام، فقلتُ له: «لقد رافقتك أكثر من عام في الصفوف الأمامية، وصرت أعرفك حق المعرفة». لكنه قال: «إن عينيك لا تستطيعان رؤية ماضي».

قلت: «ما أريده هو مستقبلك، وليس ماضيك».

وهكذا، اندفعت وهاجمته بكلماتي بضراوة، بلا أي تردد، ولا تعصب، ولا إعجاب، تخلّيت عن كرامتي بوصفي فتاة، وعن كبريائي، وغروري. وضعت كل ذلك جانباً، في سبيل أن أحصل منه على كلمة واحدة: أحبك! لقد مات أقاربي جميعهم، أعيش وحيدة، بحاجة إلى من يحبني، فأين يمكنني أن أعثر على رجل بمواصفاته في هذا العالم؟ وسيم، كفاء، شجاع، فكا هي، وما دام يحبني، فساكون مستعدة للموت من أجله، وإن لم يفعل، فليس أمامي سوى الموت أيضاً. هذا شعور قد يصعب عليك فهمه».

أعتقد أنني أستطيع فهمها. لقد عشتُ تلك الوحدة والرغبة في السنوات القليلة الأولى بعدما سافرتُ إلى الخارج. ذلك الشعور بالوحدة، ذلك النوع من الحزن والقسوة كان يلازمي كجزء من جسدي، وكنتُ أعرفه تماماً كما أعرف أزقة قريتي.

(90)

لم أعد أطيق الجلوس على هذا الكرسي الصلب، فنهضت وجلست على الأرض. حينها ألقت لي دمية صوفية كبيرة كان العقيد يلعب بها، قائلة إن الأرض باردة، جلست عليها وواصلت الاستماع إليها.

«منذ صيف عام 1951، شن العدو ضدنا حرباً خانقة أكثر من عام، وغالباً ما كان يرسل طائراته لقصف سككنا الحديدية وطرقنا وقواعدنا. يمكنك أن تتخيل مدى شدة القصف، فقد مات فيه ماو آنينغ نجل الزعيم ماو، الذي كان دائماً مرافقاً للقائد بنغ داهواي. كان جيشنا يخوض حروب تطويق وإبادة بشكل رئيس، وكثيراً ما اضطررنا إلى تغيير قواعدنا، وكان مستشفانا يتبع القوات أينما تحركت. وفي منتصف مايو 1952 كنا في طريقنا لتغيير قاعدتنا، وفي إحدى الليالي مكثنا مؤقتاً في إحدى القرى. ربما كان هناك جواسيس يلاحقوننا، فقد أرسل العدو طائراته لقصفنا

ليلاً، ما أسفر عن مقتل أكثر من مئة جندي ومدني. لم يكن الجو بارداً ولا حاراً في مايو، وكان معظمنا ينامون في العراء على جوانب الطرق، ولم يبيت في منازل القرويين سوى الجرحى وبعضنا نحن النساء. كانت منازل القرويين صغيرة، فاضطررنا إلى المبيت منفصلين. أُصيب المنزل الذي نزلت فيه أنا ورئيسة الممرضات بقذيفة. قُتلت رئيسة الممرضات وطفلاها على الفور، وسقطت فوق عوارض المنزل ولم أستطع الحركة. وكادت نيران الحريق تلتهمني حية.

كان يعلم مكان سكني، فجاء لإنقاذي دون أن يكثر لحياته. اندفع نحو النار ببطانية مبللة بالماء، صارخاً: شنغهاي الصغيرة! شنغهاي الصغيرة! ثم عثر عليّ. كان يناديني بهذا الاسم منذ التقينا في كوريا. عندما عثر عليّ، كانت النار قد أحرقت طرف ضفيري، وكان صوت حسيها كفحيح ثعبان ينفخ الهواء. احتضنني بجسده، وأطفأ النار التي طالت ضفيري أولاً، ثم أطفأ النار من حولي، وفي النهاية لفَّ العارضة بالبطانية المبللة ورفعها بعيداً، وهكذا أنقذني من موت محتم. في ذلك الوقت، كانت طائرات العدو لا تزال تقصف، وكان الجميع لا يزال مختبئاً، ولم تبدأ أعمال الإنقاذ بعد. لقد خاطر بحياته لإنقاذي، وبهذا يكون هو من وهبني حياتي اللاحقة. وخوف أن تقصف طائرات العدو مرة أخرى بعد الفجر، أدخلت القوات القرية في أثناء الليل وانتقلنا إلى الجبال. في الطريق، اضطررنا إلى عبور جدول، فأُصبت بجرح بحجم الفم في ساقِي في أثناء العبور، ولم يعد بوسعي السير وسط مياه الجدول. حملني على ظهره وعبر بي النهر، فبدأت بالبكاء عندما استلقيتُ على ظهره.

شهر مايو موسم الأمطار، وكان الجدول ممتلئاً بالمياه حتى ركبتيه. أصابه التعب من حملي، فجلس على الأرض يتنفس بصعوبة عندما وصلنا إلى الشاطئ. كنتُ لا أزال أبكي، أبكي بصوت عالٍ. عندما يكون الشخص متعباً، يكون في مزاج سيئ، لذلك وبَّخني حينها فجأة وقال: «لَمْ تبكين؟».

لكنه ما لبث أن واساني على الفور وقال: «ابكي، ابكي، لقد مات كثيرون، يجب أن تبكي، ثم أمسك بيدي».

أمسكت بيده بقوة، وارتيمت بين ذراعيه، وبكيت بشدة. كان الظلام شديداً قبل الفجر، ولم أستطع رؤية يدي أمامي، فشعرتُ برغبة شديدة في أن يُقبِّلني.

قلتُ: «لو متُ الآن، فلن يتذكرني أحد في هذا العالم».

قال: «نصف من ماتوا الليلة لن يتذكرهم أحد، فالحرب قاسية جداً».

كنتُ أمل في البداية أن يُخبرني أنه سيتذكرني من رسائلي على الأقل، وسيتذكر حبي له. لكنه لم يقل ذلك، فاضطررتُ أن أحده بطريقة مباشرة. رفعتُ رأسي وقلتُ له: «أعطني قبلةً، حتى أترك لك شيئاً تتذكرني به بعد وفاتي».

تردد قليلاً، ثم خفض رأسه وقبَّلني. كانت قبلة تلك مجرد طقس، خالية من الرغبة. أعلم أن الحيوانات نفسها لم تكن لتشعر بالرغبة في ذلك الوقت، فقد مات عدد كبير من الرفاق، وكلنا نشعر بالحزن. لكن بالنسبة إلي، كان هذا الطقس مهماً جداً، كأنني تلقيتُ رداً منه أخيراً.

بعد وصول القوات إلى المقر الجديد، عشنا في سقيفة مؤقتة مصنوعة من جذوع الأشجار. كانت غرفة صغيرة لا تتسع إلا لسريين صغيرين، الأسرة أيضاً مصنوعة من ألواح خشبية مفروشة على الأرض. في ذلك الوقت، لم يكن لدينا سوى فوج واحد على خط المواجهة، وكانت القوات الكبيرة تستعد للانسحاب. كان عدد المعارك قد قلَّ بالطبع، ولكن لا يزال هناك جرحى عديدون، كلهم جُرحوا جراء القصف. قلتُ إنني طبيبة تخدير، ولكني في الواقع كنتُ أؤدي عادةً عمل الممرضات، فبعد وفاة الممرضة الرئيسة، توليت المهمة مكانها، لكنني كنتُ أكثر انشغالاً منها، وغالباً ما كنتُ أعمل في نوبات ليلية. كان معي خمس ممرضات في المجموع، وكنا نعمل في نوبتين في أثناء الليل، نوبة في بداية الليل ونوبة

في آخره. في إحدى الليالي، كنت في نوبة في بداية الليل، لكن زميلتي في السكن تولت نوبتي. عدت ونمت، وبينما كنت غارقة في نومي، شعرت كأن هناك شيئاً يلمس وجهي. في الصيف، يوجد كثير من البعوض وسط الجبال، وكنا ننام داخل الناموسيات. في البداية ظننت أن الرياح هبّت على الناموسية فجعلتها تلامس وجهي، لكن الشيء الذي كان يلامس وجهي تحرك نحو صدري. استيقظت مذعورة، حاولت الصراخ لكنني لم أستطع، لأنه سد فمي بضمه.

كنت أعلم أنه هو، لو لم يكن هو فمن سواه؟ كنا نعمل في أثناء نوبة الليل معاً، وغادرنا معاً. وهو الوحيد الذي يعلم أنني وحدي في الغرفة آنذاك. إضافة إلى ذلك، فهو الوحيد الذي لديه الجرأة على فعل ذلك، لأنه يعلم أنني أرغب في ذلك أيضاً. كانت هذه أول مرة لي، وبالرغم من أنني كنت أرتجف خوفاً، فإنني منحته جسدي دون تردد، تاركة جسدي يُثبت له حبي. ولأن هناك آخرين ينامون بالجوار، والجدار الخشبي لا يمكنه عزل أي صوت، كنا نجز على أسناننا طوال الوقت، نخشى أن يصدر منا أي صوت، بل إننا حتى كنا نكتم أنفاسنا بأيدينا. في تلك الأيام، لم تكن هناك حريات في العلاقات كما هي الحال الآن. وليس بوسع العشاق إلا أن يمسكوا بأيدي بعضهم بعضاً على الأكثر، ولم يكن أحد يجروء على تقبيل الآخر بحرية. لكنه كان جريئاً، ومتفرداً في تصرفاته، وهذا أيضاً من أسباب حبي له. يمتلك نوعاً من الشجاعة والمسؤولية لا يمتلكه غيره، كان رجلاً بحق.

بعد تلك المرة التي انقلبت فيها السيارة، احتفظتُ بالبنطال الملطخ بالدماء. ومن باب المسؤولية، أبلغ الوحدة عن حالتي، فأصدرت لي الوحدة شهادة بالواقعة. كنت أخفيها طوال الوقت، لكن في اليوم التالي مرقتها وغسلت بنطالي. فكرتُ: لما كان يريدني، فلمَ أحتفظ بهذه الأشياء؟ لقد رأى ذلك بعينه، والعين خير برهان، فلمَ أحتاج إلى دليل كهذا؟ أعتقد أنه

تجراً على المجيء إليّ لأنه كان يعلم أنني فقدت عذريتي، ولم يعد الأمر مهماً. قبل عودتنا إلى الصين في سبتمبر، جاء إليّ ثلاث مرات أخرى، كلها كانت في أثناء ليالٍ مظلمة بلا قمر، وفي كل مرة كنا كمن يمثل فيلماً صامتاً، خشية أن نسمعنا أحد.

بعد عودتنا إلى الصين، تمركزنا في مدينة ووشي. انضم مستشفانا إلى مستشفى جيش التحرير الشعبي رقم 101 الواقع بجانب بحيرة تايهو. واصلت عملي السابق طبيبةً تخدير، أما هو ففاز بوسام الشرف من الطبقة الأولى مرة ووسام الشرف من الطبقة الثانية مرتين، وحاز لقب البطل النموذجي. بعد عودته إلى الصين، دعي إلى المشاركة في عدد من المؤتمرات في أماكن عديدة بعده بطلاً نموذجياً. ولم يعد إلى المستشفى إلا بعد أكثر من شهر. في الليلة التي عاد فيها، أقام له المستشفى حفلاً كبيراً. وفي أثناء الحفل، أعلن مدير المستشفى تعيينه مديراً لقسم الجراحة. لم أكن قد رأيته منذ أكثر من شهر، لذا كنت أفتقده بشدة. كان يتحدث ويضحك على منصة الحفل، وكنت أبكي وأرتجف وسط الجمهور، متحمسة كما لو كانت هذه هي الليلة التي جاء فيها إلى غرفتي. دُعي لتناول الطعام برفقة القادة، ولم يعد إلى السكن فور انتهاء الحفل، لذا انتظرت في الطابق السفلي من السكن. عندما رأيت أن ضوء غرفته مضاء، صعدت إليه في الطابق العلوي. كان يسكن في الطابق الثالث، في غرفة أمام الدرج مباشرة، كأنها قد اختيرت بعناية ليسهل لقائي به. بعد أن طرقتُ الباب، ارتميتُ بين ذراعيه، عانقني بشدة، وناداني برقة «شنغهاي الصغيرة». انتظرتُ أن يُقبِّلني، لكنه لم يفعل، بل سألني عن أحوالي، وطلب مني الجلوس. رفضتُ الجلوس، وبادرت بتقبيله، لكنه امتنع، ثم جلس يحدثني عن بعض المبادئ الأخلاقية، كما لو أنه أصبح قديساً بعد حصوله على لقب البطل النموذجي، وأن ما أريده هو رغبة بشرية مبتذلة لا تليق بصورته بطلاً وقودة. غضبتُ من كلامه بشدة وغادرت باكية.

انتظرته أياماً ليصالحني، لكنه لم يأت قط. كنا نلتقي أحياناً في المستشفى أو المطعم، لكنه ظل كما هو، يناديني بـ«شنغهاي الصغيرة»، ويمازحني، لكنه لم يأت للقائي على انفراد، وكأنه لم يحدث بيننا أي شيء، وأن ما حدث قد مضى وانقضى. لم أعد أستطيع التحمل، فذهبت لزيارته في إحدى الليالي، فتحوّل الأمر إلى شجار كبير. أغضبني كلامه هذه المرة بما يفوق التحمل. قلت، لقد وعدتني بالزواج بي. قال: قلت لو كنت سأتزوج، فسأتزوجك. هذا صحيح، لقد قال ذلك في البداية بالفعل، لكن في رأيي، ما دام قد مارس الحب معي فهذا يعني أن عليه أن يتزوج بي، لذلك قلت: لأننا فعلنا ذلك معاً، فعليك أن تتزوج بي. في ذلك الوقت، لم نكن نتحدث بشكل مباشر كما نفعل الآن، فقط كنا نعتمد على التلميح، ولا بد أنه كان يفهم ما كنت أعنيه: ما دمت فعلت ذلك معي، فعليك أن تكون مسؤولاً عني بقية حياتي. لكنه قال إن ذلك حدث في ظروف خاصة وقت الحرب، لم يكن أحد يتوقع أن نعود أحياء من هناك، وكلاماً آخر من هذا القبيل، ثم ابتسم بعدما انتهت من كلامه، كما لو أن كل شيء قد انتهى بمجرد انتهاء الحرب. استشطت غضباً، وانفجرت بالبكاء، وقلت: إذا كنت لا تريدني، فلن يرغب بي أحد بعد ما حدث. قال: كيف؟ أنت شابة، جميلة، وجامعية، وهناك طوابير من الرجال ينتظرون نظرة منك. قلت: لا تتظاهر بالغباء. يجب أن تعلم أنني لم أعد... ترددت وحاولت إيجاد طريقة مناسبة لقول ذلك. قاطعني وقال: أعرف ما تريدني قوله، لكنك لديك شهادة بخصوص تلك الواقعة، وإذا لزم الأمر، يمكنني أن أكون شاهداً على تلك الواقعة أيضاً، فما الذي تخشيه؟ يا إلهي، كيف يمكنه أن يقول كلاماً كهذا؟ يا له من حيوان على هيئة بشرا في ذلك الوقت، وددت لو كان بوسعي أن أضعفه على وجهه، أو أن أقتلع قلبه. لكن يديّ كانتا ترتجفان من شدة الغضب، وكأن يديّ ليستا يديّ، وفي ليس فمي، لا أعرف ماذا أقول. كدت أنهار أمامه، وبالرغم من أن عينيّ

كانتا مغرورقتين بالدموع، كان بوسعي رؤيته بوضوح. نظرت إلى نظراته الوقحة اللامبالية، ثم نظرتُ إلى نفسي، انتابني شعور بأن جسدي يغلي من الداخل، وكأنني على وشك الانفجار. أردتُ أن أضرب رأسي بالحائط وأموت أمامه. تمنيت لو كنت قد ضربتُ رأسي بالحائط ومِت أمامه في ذلك الوقت، لكن لم أجرؤ على ذلك، وركضت باكية».

(91)

الناس كالعملة المعدنية، لهم وجهان. إن صادفت الوجه الحسن فهذا من حسن حظك، وإن صادفت الوجه السيئ فهذا من سوء حظك. وإن صادفتَ الوجهين، فليس بوسعك سوى أن تستعد لأي نتيجة قد تحدث. هذا ما طالعتَه في الصحف بالطبع، فلست أنا الشخص الذي يمكنه صياغة مثل هذا الكلام المُنمَّق، بل حتى لا أجرؤ على قوله. لأنني عندما أقول كلاماً كهذا، سأفكر في جدي. فجدي هو الأبرع في صياغة هذا النوع من الكلام، ولديه كثير منه في جعبته، ويمكنه إخراجه في أي وقت. هذا بالطبع هو الوجه الحسن لجدي. لكنني واجهت أيضاً الوجه الآخر لجدي: الوجه السيئ. أعتقد أن هذه حال العمّة لين أيضاً، فقد واجهتُ وجهي العقيد الحسن والسيء. هذا أمر محبط حقاً، تناقض أشبه بالجليد والنار، والحياة والموت. منذ بداية الليل، وحتى هذه اللحظة، بدأت أرى أحياناً على وجهها بعض التعبيرات، وبعض الانفعالات.

تنهدتُ ثم تابعتُ: «لا أعرفُ كيف تجاوزت تلك المدة، كانت حياة أسوأ من الموت حقاً. وكان الموت أقرب إليّ مما كان عندما كنت على جبهة القتال. أنا طبيبة تخدير، ولديّ أدوية أقتل بها نفسي، فقط حقنة واحدة، وسأموت. راودتني هذه الفكرة مرات لا تُحصى، لدرجة أنني حضّرت الدواء ذات مرة، وأغمضت عينيّ، كل ما عليّ هو أن أدخل الإبرة في أي جزء من جسدي، بعدها لن يتبقى سوى أن يأتي أحدهم ليستلم جثتي.

لكن لم يكن لديّ قريب حتى ليتسلمها. هذه الفكرة هي التي جعلتني أفتح عينيّ مجدداً. قررت أن أستمر في حياتي، فعلى الأقل يمكنني العودة كل عام لزيارة قبور أقاربي الموتى. لم أكن أعيش من أجل الأحياء، بل من أجل الأموات فقط. وهكذا استمرت الحياة.

ولأنني لم أمت، لم يمت حبه في قلبي أيضاً. ففي أحد الأيام، أوقفته على الطريق، وأردت أن أواجهه مواجهة أخيرة. سألته مباشرة، هل ستتزوج بي أم لا؟ عندما رأى نظرتي الحازمة، قال لي بصدق وصراحة نادرة: أيتها الرفيقة شنفهاي الصغيرة، أنت لا تعرفيني جيداً، لا يمكنني الزواج بك، فأنا شخص مقدّر له أن يعيش عازباً في هذه الحياة. قلت: إذا لم تتزوجني، فسأمت. بدا غاضباً بعض الشيء، وقال: لقد أخطأت في حقك بشدة، لكنني على الأقل أنقذت حياتك، فلم تعامليني بهذه الطريقة؟ وأردف: أنا أفعل هذا لمصلحتك، أنت ما زلت فتاة صغيرة، لم تريدين أن تشنقي نفسك فوق شجرة عجوز مثلي؟ أعتقد أنك بالتأكيد ستجدين رجلاً أفضل مني بكثير. قلت: لقد مزقت تلك الشهادة التي أصدرتها لي الوحدة، ولن يرغب فيّ أحد. قال: الأمر في غاية السهولة، سأطلب من الوحدة إصدار واحدة أخرى. أثار كلامه غضبي أكثر! فوبّخته بعبارات بذئية، حاولت الاعتماد على الغضب لكسب تعاطفه، بل حتى أنني حاولت تخويفه، وقلت: ألا تخشى أن أشتكيك؟ لم يقابل غضبي بالتعاطف، ولم تُخفه تهديداتي، بل أغضبته. ردّ بجمود: بأي حق تقاضيني؟ هل رسائلك الغرامية دليل على أنني أحبك؟ بدا من الواضح أنه كان غاضباً بشدة آنذاك، فقد غادر مباشرة بعد كلماته هذه. رأيته من الخلف يسير مبتعداً، كنت أظنه دوماً بطلاً ووسيمًا، لكنني اليوم شعرتُ بقبحه، بل وبأن هناك رائحة كريهة تفوح منه، ما جعلني أشعر بالاشمئزاز الشديد، فجلست مكاني على الأرض لا أدري ماذا أفعل.

كان ذلك يوم سبت.

وفي عصر يوم الاثنين، استدعاني مدير المستشفى إلى مكتبه وسلمني شهادةً جديدة. في الوقت نفسه، شرع ينصحني بطريقة ملتوية ويقول إن لديّ معرفةً أكاديمية وخبرةً ميدانيةً، وقدرةً عاليةً على العمل، وينتظرني مستقبل واعد. قال أيضًا إن مدحه لي بوصفه مديرًا للمستشفى هو بمنزلة وسام عسكري يقلده لي. عندما قال هذا الكلام علمت أنه يدافع عن العقيد، فهمتُ تمامًا أنه قد حسم أمره. وأنه من الآن فصاعدًا، لا يسعني إلا أن أعتد على هذه الشهادة عند زواجي، فهي تُثبت براءتي، وبراءته أيضًا. عندما رأيت أنه قد صار قاسيًا معي إلى هذه الدرجة، لم أتحدث إليه ثانية، واستسلمت لواقعي.

إذا مات القلب، فلن يموت الإنسان، بل سيعيش وكأنه آلة بلا مشاعر. سرعان ما أرسلته الوحدة للمشاركة في دورة للتدريب العسكري في نانجينغ، فُصلنا عن قصد أو عن غير قصد. بالطبع، أعتقد أنه كان عن قصد. كانت الوحدة تقصد بذلك أن تفصل بيننا، من أجل أن ترفع الحرج عنه. كانت دورة التدريب لتدريب الكوادر واختيار براعم الكوادر، تمامًا كما هي حال الدراسة في مدرسة الحزب الآن، ويات من المحتمل أن يُرقى إلى نائب لمدير المستشفى بعد عودته. ساعدني رحيله على الهدوء والتفكير بموضوعية. لم أعد أهتم لأمره. لقد اقتلعت من قلبي تمامًا، وغسلت كل ما تبقى من آثاره. كنت أضع علامة في دفتر مذكراتي كل يوم، تمامًا كما كنت أستخدم السكين لنحت علامات في ورشة دود القز. أحيانًا كنت أملأ صفحة كاملة بالعلامات، وبعد أكثر من شهر نجح الأمر. لم أعد أرغب في وضع علامات داخل دفتر مذكراتي، يبدو أنني قد نسيتَه تمامًا. في ذلك اليوم، أحرقْتُ دفتر المذكرات. بالمناسبة، في أحد الأيام كان قد أعاد لي الرسائل الاثنتي عشرة التي سبق أن أعطيتها إياها. في ذلك اليوم، أحرقْتُ دفتر مذكراتي ورسائلي جميعها، ثم ذهبتُ إلى الحمام لأستحم حمامًا طويلًا. أريد أن أغتسل بعمق وأبدأ حياة جديدة.

في ذلك الوقت، كان هناك وقت موحد للاستحمام، عادةً ما يكون ليلة السبت، وكان الجميع يذهب للاستحمام في الحمام العمومي. في ذلك اليوم، عندما خرجتُ من الحمام، التقيتُ مصادفةً بمدير قسم الطب الباطني، طبيب في الأربعينيات من عمره، من مدينة تونغلينغ بمقاطعة آنهوي، عاد مؤخرًا من كوريا الشمالية أيضًا، لذلك كنا نعرف بعضنا بعضًا جيدًا. كان قد انتهى لتوّه من الاستحمام حينها، فعدنا إلى السكن معًا. تجاذبنا أطراف الحديث في الطريق، لكن حديثنا أعاد فتح الجرح القديم الذي ما لبثت أن تعافيت منه. فقد لمح لي أنه سمع إشاعة مفادها أن العقيد قد تحدّث إلى البعض قائلًا إنني أعطيته جسدي، لكنه شك في أنني أعطيته للآخرين أيضًا، فانفصل عني. مؤكد أنها لم تكن شائعة، فهذا سر لا يعلمه سوى أنا وهو، والآن هناك على الأقل شخص ثالث يعلمه. من أفشى ذلك السر؟ مؤكد أنني لم أفعل ولن أفعل، لذا لا بد أنه هو.

هل تعلم كيف كان شعوري حينها؟ كان كأنني أصبت بصاعقة. أنا لست من ذلك النوع من الفتيات المدللات، بل شخص يجرؤ على قتل الناس عندما تضطره الظروف. وذلك القائد في جيش الكومينتانغ الذي أراد اغتصابي هو خير مثال لذلك. والآن صرت أكره هذا العقيد بدرجة لا تقل عن كراهيتي ذلك القائد. لو كان في الوحدة آنذاك، لذهبتُ إلى مكانه وهشمتُ رأسه، وربما قتلته. لكنه بعيد في نانجينغ، وقد يصبح نائب مدير المستشفى بعد عودته. لم يكن بمقدوري أن أفهم كيف يُمكن لشخص أن يكون بهذه الوقاحة؟ لقد دمر حياتي إلى الأبد، فقررت أن أكتب رسالة إلى الدائرة السياسية للجيش ليلاً، اتهمته فيها باغتصابي، فالعين بالعين والسن بالسن، ولن أتركه يهنأ بحياته!

سرعان ما أرسلت إدارة الأمن في الدائرة السياسية مندوبين إلى وحدتنا للتحقيق في الأمر، وفي الوقت نفسه استدعته الإدارة على وجه

السرعة من نانجينغ للتحقيق معه. بالطبع لم يعترف بذلك، ولكن ما الفائدة؟ كان اتهامي بالغ الوضوح، يتضمّن الزمان والمكان وعدد المرات، ومن حيث العقل والمنطق، كنت أنا صاحبة الحق. أضف إلى ذلك أنه كان قد طلب من الوحدة شهادة ثانية لي، وهو ما يثبت بوضوح أنه نال مني ولكنه يريد التخلي عني، ويفعل ذلك لترضيتي مؤقتًا، وإلا فلمَ ذهب لطلب الشهادة نيابة عني؟ حتى إن لم تكن هناك كل هذه الأسباب، فبمجرد أن يرفع أحدهم دعوى ضدك تتعلق بهذا النوع من الأمور، فأنت مُدان، ولن يفيدك الإنكار، فمن أين لك بالدليل لإثبات براءتك؟

كان قد حاز لقب البطل النموذجي، لذا حاولت جهة العمل أن تدافع عنه في بادئ الأمر، فالجميع يعلم أننا كنا نعيش قصة حب في ذلك الوقت، وهذه حقيقة، وأنا أعترف بها. لذلك طلبت جهة العمل رأيي في إمكانية التنازل عن الدعوى لو عرض عليّ الزواج. قلت لا، قلتها بفمي لكنني كنت أرغب في ذلك بقلبي، ما دام سيعترف بخطئه، ويعدني بالزواج، فسأتنازل. لكنه لم يكن يرغب في ذلك بالأساس، ولم يتراجع رغم محاولتهم معه. ونتيجةً لذلك، قضت نتيجة التحقيق بأن يُسَرَّح من الجيش، فأعيد إلى مسقط رأسه، وجُرِّد من كل الرتب والألقاب، وخسر كل ما حازه من شرف وتكريم ومكانه بين عشية وضحاها.

انتقمت منه، لكن لم تكن هذه النهاية التي تمنيتها لنفسِي، فقد تطلّخت سمعتي، وتحطّم قلبي. في العام التالي، طلبتُ نقلِي، ووافق قادة الوحدة بلا تردد. كانوا متحمسين لرحيلي. لم يكن من المناسب للجميع أن يبقى شخص سيئ السمعة هناك، ومن الأفضل لي ولهم أن أغادر المكان. بل حتى أنهم كانوا يتمنون رحيلي، فأنا شخص غير مرغوب فيه. لم يودعني أحد، ولم يتعاطف معي أحد، أنا أيضًا لم أتعاطف مع نفسي، أحيانًا كنت أندم على أنني دمرت حياته بهذه الطريقة، لكنني بشر في النهاية، لذلك كنت أفقد الشعور بالندم في أغلب الأحيان. تقبلتُ الأمر، وتحاملت على

نفسى، فلم يكن لديّ خيار. هذه هي تقلبات الحياة التي نعيشها، ويجب علينا تحملها لتستمر الحياة. هلا نظرت إليّ وإلى هذا الرجل العجوز، أليست هذه حالنا الآن؟».

(92)

ربما كانت متعبة، أو ربما كانت حريصة على أن تُنتهي القصة على نحو مُرضٍ بالنسبة إليها، لذلك أغفلت جزءاً كبيراً من تجربتها في منتصف القصة. علمت لاحقاً أنها نُقلت إلى مستشفى الشعب في منطقة تشانغنينغ بمدينة شنغهاي، اعتقدت أنه بوجودها في هذا العمل الجديد لن يعرف أحد ماضيها، ويمكنها أن تعيش أياماً هادئة، وتبدأ حياتها من جديد. وعلى نحو غير متوقع، ولم تكد تمضي بضعة أشهر، حتى عادت الشائعات السابقة تلاحقها مرة أخرى في مكان عملها الجديد. لم تكن تعرف السبب، لكنها عرفت النتيجة فقط. بدا الأشخاص في محل عملها الجديد مهتمين للغاية بماضيها المشين، فحرّفوا قصتها، وتناقلوا الشائعات المحرّفة، وصبّوا الزيت فوق النار، الأمر الذي حوّلها إلى امرأة سيئة السمعة مثيرة للشبهات، وصارت هدفاً للحملات التي عادة ما كانت تُشن على العناصر غير المرغوب فيها. كانت من بين أوائل أهداف الحملة المناهضة لليمين، فأُرسلت إلى مزرعة إصلاحية في جزيرة تشونغ مينغ في نوفمبر عام 1957. وفي مارس عام 1959، خُفّضت عقوبتها، وعادت إلى محل عملها الأصلي (مستشفى منطقة تشانغنينغ) للعمل عاملة نظافة، مسؤولة عن تنظيف مراحيض مبنى العيادات الخارجية بأكمله، وفي الوقت نفسه، ظلت أيضاً هدفاً للحملات السياسية المختلفة، وكثيراً ما نُكل بها. وفي أكتوبر عام 1964، سُرقت دفعة من الأدوية من المستشفى، فوجّهت إليها أصابع الاتهام، وفُصلت من عملها، ونُقلت إلى سجن بايماولينغ في جنوب آنهوي لقضاء عقوبة مدتها أربع سنوات.

بدأت حديثها من نقطة دخولها سجن بايماولينغ، تريد بذلك الانتقال إلى قصة العقيد مباشرة، قالت: «المهم هو أنني قضيت أربع سنوات في أحد سجون مقاطعة أنهوي، لن أخبرك عن سبب الزج بي في السجن، وحتى إن أخبرتك فلن تفهم بسبب الفرق بيننا في السن والتجربة، كان الأمر سخيلاً كمسرحية تمثيلية. لكن على أي حال، كان دخولي السجن نوعاً من حسن الحظ، فقد نجوتُ من موجة الثورة الثقافية، وإلا لكنتُ عانيتُ معاناة الرجل العجوز نفسها، على الأقل كان جنود الحرس الأحمر سينكلون بي في الشوارع ويلقون اللافتات والأحذية البالية في رقبتني، أو يحلقون نصف شعري، أو يقذفون بروت الحيوانات في وجهي، لقد أنقذني دخول السجن من هذه الكوارث. ربما كان ذلك تكفيراً عما ارتكبته في حق هذا الرجل العجوز، وسبباً لنجاتي كي أخرج لاحقاً لأعتني به بعدما صار عاجزاً عن الاعتناء بنفسه.

رفعت عينيها اللتين تحيطهما الهالات السوداء كظلال نظارة لم تخلصها من مدة طويلة وسألتني: «هل تصدق؟ لا يوجد في هذا العالم جدار منيع، ولا توجد زاوية لا تصلها الرياح». ودون انتظار إجابتي، أجابت نيابةً عني: «على أي حال، أنا أصدق، وإلا لكان من الصعب فهم كيف هبَّت رياح معسكر ووشي على شنغهاي، وكيف هبَّت رياح قرينك على هذه القرية. المهم هو أن الرياح هبَّت إلى هنا، محمّلة بالأخبار التي وصلت إلى مسامعي، تلك الأخبار كانت موثقة بالأسماء والأحداث والنتائج، لدرجة أن أحدهم أخبرني بكل كلمة مكتوبة على بطنه».

ثم خفضت حاجبها وسألتني بهدوء: «هل تعرف الكلمات الموشومة على بطنه؟».

عندما رأنتني أهرأسي نائياً -تعمدت ذلك- ارتسمت عليها علامات الدهشة، وقالت: «غريب، لقد قضيتما وقتاً طويلاً معاً في المساء، ألم يُطلعك عليها؟».

قلت: «أراد أن يُطلعني عليها، لكنني رفضت».

قالت: «أعلم أنه كان سيطلعك عليها، في الماضي كان يعدّ ذلك المكان إنثماً وعاراً، وكان على استعداد أن يقتل أو يحرق في سبيل ألا يراه أحد. أما الآن، فبعدّه كنزاً، ويريد أن يُريه للغرباء. حاولت منعه دون جدوى، لو منعه فسيبكي، لا أعرف كيف صار على هذه الحالة».

توقفت، ونظرت إليّ، ورفعت صوتها قليلاً، وقالت: «لقد أصبح الشخص الذي طالما تمنّى أن يكونه».

بينما كانت تتحدث، نهضت ببطء، ثم انحنت بتأنٍ، وأخرجت صندوق كرتون قديماً من أسفل المنضدة، شرعت تقلب فيه وهي تقول: «هذه هي روائعه الفنية، يحتفظ بها هنا، فهو الآن كالطفل العاقل الذي يعرف كيف يحافظ على أشياءه». بدا أن هناك عدداً لا بأس به من الأعمال الفنية. أخرجت ورقة عليها إحدى الرسومات، ثم أعطتني إياها، وقالت: «انظر، لقد رسم عليها النقش الموجود على جسده نفسه تقريباً، الحجم والتناسب متشابهان تقريباً، لكن بلا كلمات». نهضت وأخذتها، لكنني لم أجروّ على النظر فيها، وكأن تلك الرسمة إهانة لي.

كانت رسمة على نوع من الورق الأصفر الشمعي أعرفه جيداً، حجمها نصف متر مربع، سطحها لامع خشن. يُنتج كثيرون في قريتنا هذا النوع من الورق في ورشهم القديمة، ويبيعونه في جميع أنحاء البلاد. نُسمّيه ورق الأرواح، إذ يُستخدم في كتابة التعاويذ البوذية وحرقها أمام مقابر الموتى بعدّها نوعاً من الطقوس الدينية. وكونه طفلاً في السابعة أو الثامنة من عمره، هذه اللوحة كانت رائعة حقاً. خطان بسيطان انسيابيان، يُحددان أسفل البطن وانحناء الفخذين، النقطة السوداء في الأعلى هي سرّة البطن، والكتلة السوداء في الأسفل هي شعر العانة، كل شيء في مكانه الصحيح، وينسب متناسقة. ويمكن ملاحظة أن هذه الرسمة هي نتيجة ممارسة متكررة. اللافت للنظر هو وجود صف من ثمانية أحرف

خضراء داكنة على شكل قوس هابط أسفل السرة: «مهمتي هي قتل الأعداء والقضاء على الخونة». كانت الكلمات مستقيمة وسميكة، وموزعة بالتساوي. وأسفل المسافة بين كلمة «الأعداء» و«حرف العطف»، يمتد سهم أحمر يزيد سُمكه تدريجياً، رأس السهم حاد وسميك، ويتجه إلى الأسفل مباشرةً. هناك كتابة على جانبي السهم، كلمتان على كل جانب، «أمر عسكري» على اليمين و«واجب التنفيذ» على اليسار. تلك الكلمات كانت مكتوبة بخط فوضوي، لونه أزرق داكن، وحجمه أصغر بقليل من الكلمات المكتوبة في الأعلى. وبالرغم من أن العمة لين لم تلتفت نحوي، لكن بدا كأنها لاحظت صدمتي، فقالت بهدوء: «لا تتفاجأ، هذا ما يرغب فيه، يريد تغيير الكلمات حسب رغبته». وبينما كانت تقلب في الصندوق، لاحظت بعد برهة كتلة سوداء تمر أمام عيني، فخمنت أنها كانت رسمة لقطته السوداء. وربما كانت هناك أيضاً رسمة أخرى لقطته البيضاء، لكنني لم أتمكن من ملاحظتها لأن العمة لين كانت تقلب بين الرسومات بسرعة.

أخرجت العمة لين لوحةً أخرى وأعطتني إياها. كانت تشبه اللوحة السابقة تماماً، مع اختلاف الكلمات فقط، استُبدلت بعبارتي «مهمتي هي قتل الأعداء والقضاء على الخونة» و«الأمر العسكري واجب التنفيذ» عبارتا «كلنا مسؤولون عن مصاير أوطاننا» و«النصر للصين»، عدد الكلمات نفسه، والأحرف الصينية التقليدية نفسها، والترتيب نفسه من اليمين إلى اليسار، واحدة أفقية واثنان عموديتان. ثم أخرجت لوحةً أخرى، كانت تشبه اللوحة نفسها أيضاً، لكن بلا كلمات، استُبدلت بالكلمات مربعة سوداء.

قالت العمة: «من المفترض أن هناك لوحتان أخريان». لكنها توقفت عن البحث، ثم التفتت، وتحسّست بيدها الكلمات المكتوبة برفق، وهي تُحدث نفسها: «أحياناً أعتقد أن وضعه الحالي أفضل، فبوسعه الآن

نسيان تلك الأشياء القذرة، وتغيير هذه الكلمات المكتوبة وفقاً لرغباته. لو كانت لديه أمنية واحدة فقط في هذه الحياة، أعتقد أنها لا بد أن تكون محو تلك الأشياء القذرة، وتحويلها إلى ما هي عليه الآن، فهذه أمنية لم تفارقه من قبل قط، لكنها لن تتحقق أبداً، فقط في ظل وضعه الحالي وفقدانه الذاكرة يمكنه تحقيقها».

قلت: «لا يزال بوسعه تذكر تلك الكلمات، وهذا يعني أنه لم يفقد ذاكرته».

قالت العمّة: «نادرًا ما يحدث هذا، أحيانًا تكون ذكريات عابرة، لا أعرف كيف جاءت، ولا أعرف كيف انقضت، لذا كان يكتبها بشكل مختلف، أحيانًا يكتب هذه الجملة، وأحيانًا يكتب تلك الجملة، لا يستقر على حال». أخبرتني العمّة لين أن ذاكرته قد أحرقتها النار ولم يتبقّ منها سوى الرماد، وهذه الكلمات هي الرماد المتبقي. لا بد أنه استخدمها وفكّر فيها مرارًا وتكرارًا، لذلك تغلّغت في داخله، وصار من الصعب حرقها، وحتى إن أحرقت، فإنها ستترك آثارًا متناثرة في كل مكان، وسيصطدم بتلك الآثار من وقت إلى آخر.

وفي هذه اللحظة، عادت العمّة لتقلب في صندوق الكرتون، وسرعان ما عثرت على صورة أخرى، كانت رسمًا لمجندة شابة متطوعة، ترتدي سترة قطنية سميقة، تجلس على الأرض أمام صندوق ذخيرة، وهناك قلم يتدلى من شفيتها، وترتسم على وجهها علامات الحزن والتأمل.

ظننتُ أن هذه هي العمّة لين، فسألتها: «أيتها العمّة، هل هذه أنت؟». أومأت برأسها موافقة، ثم التقطت اللوحة وتأملتُها في شروء. وبعد وقت طويل، قالت بأسى: «لم يعد بإمكانه الكذب، مؤكد أنني محفورة في أعماق قلبه».

قلت: «نعم، لا بد أنه يحبك كثيرًا».

قالت: «أعتقد أنه يكرهني».

وضعت سبابة يدها اليمنى برفق على طرف القلم المتدلي من شفة الفتاة، كما لو كانت تريد سحبه، وقالت مبتسمة: «هذا القلم كتب له رسالة حب، لكنه أيضًا تسبَّب في إيذائه».

واسيتها وقالت: «مؤكد أنه تفهَّم موفقك حينها، هو فقط لم تُتَح له الفرصة ليخبرك بذلك».

قالت: «لم يفهمني قط».

قلت: «لكنني أعتقد أنه لولا تلك الكتابات القذرة التي تركها اليابانيون الملاحين على جسده، لكان قد تزوجك حتمًا».

قالت: «الدنيا لا وجود فيها لكلمة لولا، فهي لا تعرف سوى العواقب».

بعد لحظة صمت، سألتني: «هل تعرف تلك الكتابات القذرة؟».

قلت بصدق: «لقد سمعتُ عنها».

سألتني: «وماذا سمعت؟».

لم أقل الحقيقة حينها، بل قلت: «يُقال إن تلك الكتابة هي اسم لامرأة يابانية خائنة». لم أرغب في ذكر الكلمات البذيئة التي سمعتها من الشرطي العجوز، كان من الصعب عليّ أن أتقوَّه بها.

قالت: «نعم، هناك اسم لامرأة يابانية خائنة شريرة للغاية». صمتت برهة، ثم تابعت: «عادة ما كنتُ ألتقى تدريبيًا سياسيًا في الجيش، وكنتُ أعرف تلك الخائنة منذ زمن. لذا عندما سمعتُ الأخبار القادمة من مسقط رأسك، تذكرتُ ما قاله لي من قبل، فهمتُ سبب رفضه الزواج بي في البداية، وتفضيله الطرد من الجيش على الزواج بي. كيف له أن يتزوج بي في ظل حالته تلك؟ كيف له أن يتزوج أصلاً؟ فهمتُ أيضًا أن هذا سبب إيذائه الأعمى الصغير بهذا الشكل لاحقًا، لأن هذا كان بالنسبة إليه سرًا يريد حمايته، حتى إن كلفه ذلك حياته. كان يُفضَّل أن يبقى عازبًا بقية حياته، وأن يرتكب جريمة كتلك، بل ويُفضل الموت في سبيل إخفاء هذا السر وهذا العار، لكن أحدهم أراد أن يُنزل سرّوالة على العلن، كيف

له ألا يُصاب بالجنون؟ لقد جُنَّ بالفعل، لكنني كنت السبب في هذا قبل كل شيء...».

كانت تتحدث بصوت خافت، مُوقظةً ذكرياتي ومشاعري واحدةً تلو الأخرى. شعرت بأن الماضي والحاضر حاضران في ذهني كشوكة في حلقي لم أستطع تحمّلها، فأعدتُ اللوحة إلى الصندوق، وجلستُ مكاني، ثم غطيتُ وجهي، وأجهشت بالبكاء. اقتريت مني وربت على رأسي، ثم ابتعدت ببطء، وجلست على مقعدها، وواصلت قولها بنبرة جامدة:

«لقد آذيتُه، أنا التي آذيتُه...». كررت هذه الجملة مرارًا، كما لو كانت لا تعرف غيرها. وعندما ظننتُ أنها مستمرة في تكرارها، رفعت صوتها، فبدت منفعلة، وسرّعت نبرة كلامها، وقالت: «لكن ذلك الوغد هو من آذاني أولاً».

رفعتُ رأسي وسألتها: «من؟».

صرّت على أسنانها وقالت: «ذلك الرجل الذي أبلغني! رئيس قسم الباطنة الذي قابلني أمام الحمام».

خفضت صوتها مجددًا، كما لو كانت تخشى أن يسمعها العقيد النائم بالجوار. ثم نظرت إليّ وتابعت: «في الواقع، بعد ستة أشهر من إبلاغي عنه، كنت لا أزال أعمل في المستشفى، أصبح هذا الرجل نائبًا لمدير المستشفى، حينها شككت في أنه استغلني. قبلها كان المستشفى بصدد تعيين نائب للمدير، وكان هو والعقيد مرشحين لهذا المنصب. كانت لدى هذا الشخص مؤهلات أعلى من العقيد، لكن العقيد حاز لقب البطل النموذجي، وأُوفد للالتحاق بدورة تدريبية في نانجينغ آنذاك، وكان يخشى أن يحصل العقيد على هذا المنصب، فاستخدم تلك الحيلة القذرة لإبعاده من طريقه».

سألتها: «وكيف عرف بما حدث بينك وبين العقيد؟».

قالت: «هذا ما كنت أفكر فيه طوال تلك السنوات. أعتقد أن هناك سببين لا ثالث لهما. الأول هو أن العقيد تحدّث عن الأمر أمام الآخرين

وهو ثمل، والثاني أنه رأى العقيد وهو يتسلل إلى غرفتي ليلاً».

قلت: «لأنه استطاع إخفاء سر الوشم طوال حياته، فمن غير المرجح أن يكون قد أفشى سرًا كهذا وهو ثمل».

قالت: «نعم، ولكن كيف لي أن أعرف ذلك حينها؟ إضافة إلى ذلك...». توقفت وهزّت رأسها بأسى، كما لو أنها لا تريد الاستمرار في الحديث عن هذا الأمر، أو كما لو أنها تريد التأكيد على كلامها الآتي: «أتمنى أن يكون فعل ذلك وهو ثمل، فهذا يقلل شعوري بالندم. كنت أكذب على نفسي بهذه الطريقة دومًا، لكن...».

وفجأة، انهمرت دموعها، وقالت باكية: «لكن العقيد لم يأت ليحدث إليّ قط».

لم أفهم قصدها لحظة. مسحت دموعها ونظرت إليّ وهي تقول: «لم يكن هو من فعل ذلك، لقد ظلّمته بشكل مجحف!».

فهمتُ ما تقصده، لكنني مع ذلك شعرتُ أن كلامها غير منطقي. كيف لا يكون هو؟ حتى إن لم يكن هو، فكيف له أن يدافع عن نفسه اليوم وهو على تلك الحال كمن فقد ذاكرته؟

شعرتُ أنني لا أستطيع الجلوس، فنهضتُ وسألتها: «كيف عرفتُ أنه ليس هو؟».

وبعد صمت طويل، نطقت أخيرًا وقالت: «أخبرني جسده، نعم جسده. هو الآن يعاني مشكلة عقلية، لكن جسده طبيعي، فبعدما عشنا معًا...». توقفت لتفكر في الأمر محاولة إيجاد عبارة مناسبة، ثم أردفت: «أنا امرأة، ويمكنني أن أشعر بذلك، ليس هو، الأمر واضح جدًا بالنسبة إلي». انهمرت دموعها مجددًا، فغطت وجهها بيديها على الفور، وكأنها تبكي بخجل، ثم قالت في نفس واحد: «لا تسألني من هو ذلك الشخص، لا أعرف ولا أريد أن أعرف، فهذا العالم ممتلئ بالأشرار»، ثم دفنت رأسها وبكت في هدوء.

كان صوتها كصوت فتاة صغيرة، ومظهرها كامرأة عجوز طاعنة في السن، شعرها كعشب الشتاء اليابس، وتجاعيد رقبتها متدلية، كل شبر من جلدها ملتصق بعظامها، ولا أثر للحم على جسدها سوى شحمة أذنيها. طوال الليل، كانت أشبه بآلة قديمة، أو بجدول في موسم الجفاف، بلا تغيير في صوتها وتعابيرها جامدة وغير مبالية، ما جعلني أعتقد أن قلبها صار فارغاً تماماً، أو مُمتلئاً تماماً.

لا يوجد بؤس يضاهي موت القلب، فالقلب الميت لن يتحرك حتى إن انطبقت السماء على الأرض. أعتقد أن هذه كانت حالها منذ مدة طويلة، لذلك كان من الصعب أن أتوقع كيف ستكون مشاعرها في اللحظة التالية. كانت دموعها مخيفة، كأنها ماء يُشعل النار، مخيفة أكثر من وابل من الرصاص يتساقط حولي.

رأيتها تغادر مبتعدة وكأنها في غيبوبة. لا أتذكر إن كنا قد ودع بعضنا بعضاً، حتى إن كنا قد فعلنا ذلك، فلم يكن وداعنا سوى مجرد كلمات جوفاء. كيف لي أن أبيت مرتاح البال في ليلة كهذه؟ لم أتذكر إلا ما حدث صباح اليوم التالي، عندما ودعتهما، سألتني العمّة لين: «هل ستعود لزيارتنا ثانية؟». في ذلك الوقت، كنتُ فقيراً لدرجة تجعلني لا أعرف الإجابة عن هذا السؤال. وبينما كنتُ متردداً، هزّ العقيد الجالس بجوارها رأسه كما تفعل ابنتي وقال نيابة عني: «نعم، سيعود».

كان صوته مفعماً ببراءة الأطفال. ركبْتُ الدراجة النارية وغادرتُ وسط ضجيج محركها. نظرتُ إلى الورا، فرأيتهما يقفان معاً بجانب الدرج أمام الباب. كان وجه العمّة لين كئيباً كسماء ملبّدة بالغيوم الداكنة، وكان وجه العقيد مشرقاً كسماء صافية. وعلى طول الطريق، كانت السماء الملبّدة بالغيوم تتأهب لموجة من الأمطار الغزيرة، لكن في قلبي، كانت ابتسامة العقيد المشرقة قد ألمتني حتى البكاء. لقد كان وداعاً مؤلماً بحق، حتى أن صوت محرك الدراجة النارية كان أشبه بصوت قلب حزين يبكي بأعلى صوته.

طالعت في الصحف أنه لا يوجد سوى فعل بطولي واحد فقط في هذا العالم، ألا وهو أن يظل المرء مقبلاً على الحياة رغم إدراكه حقيقتها. لا أعرف ما حقيقة الحياة، وما البطولة، ولا أعتقد أن هناك ما يُقال عن حب الحياة من عدمه. الحياة، برأيي، كالناس، أحياناً يكون هناك أناس يجعلونك تحبهم، وأحياناً يكون هناك أناس يجعلونك تكرههم. باختصار، لا أتفق تماماً مع هذا القول، لكنه كان عالماً في ذاكرتي، والسبب هو أنني قلت هذه العبارة لزوجتي السابقة في بداية تعارفنا، وكانت هي أيضاً آخر ما قالته لي قبل وفاتها.

قلتُ إنني بعدما سافرت للخارج عملت في مصنع أحذية مدة ست سنوات. كنتُ أستطيع عمل الثقوب في الأحذية وأنا مغمض العينين، لكنني لم أكن أستطيع عمل أي شيء آخر. معظم العمال هكذا، لا يتقنون سوى مهارة واحدة. هذه هي قاعدة الصناعة، فبمجرد أن يتقنوا جميع المهارات، سيبدؤون أعمالهم الخاصة، ويعملون بمفردهم، إذ يمكنهم كسب دخل أكبر عن طريق تأسيس ورشة صغيرة بدلاً من العمل لدى الآخرين. هذا هو أكثر ما يكرهه أصحاب العمل، هذا نوع من الأنانية، والاحتياط، وهو أمر مفهوم. عندما التحقت بالعمل في المصنع، كانت لديّ مُعلِّمة تكبرني بعامين، كان والداها أستاذين في جامعة تشهيجيانغ، والدتها من تشيوانتشو بمقاطعة فوجيان. نشأت في منزل جدتها لوالدتها، وكانت تجيد التحدث بلهجة الهوكين، كما تعلمت أيضاً بعض المصطلحات المحلية، مثل «السماء معتمة» و«الحياة كالبحر المتقلب». كنا نعمل اثنتي عشرة ساعة يومياً، وبعد شهر من العمل، كانت أصابعي العشرة مصابة بالجروح بسبب أبازيم الأحذية المستنّنة. جعلتني حياة العمل مثل الثور في الطاحونة أكره الحياة، لم يكن هناك أي حب، فقد كرهت الحب نفسه، ودفنته في البحر.

في أحد الأيام، تحدّث إليّ رئيس العمال بالإسبانية يطلب مني إنجاز عمل ما. لم أفهم ما طلبه جيداً، فأخطأت، وتلقّيتُ صفتين على وجهي. شعرتُ بظلم كبير، فهو يعلم أنني قد جئتُ إلى هذه البلاد للتوّ، ولا أجدُ الإسبانية. كان يجيد الصينية، لكنه لا يتحدث بها، ويصرّ على التظاهر بأنه أجنبي، ويتحدّث لغةً أجنبية، بل وتعلّم ضرب الآخرين كالأجانب. شعرتُ أن هذه الحياة بلا معنى، فأضربتُ عن العمل، وأضربتُ عن الطعام، وانتظرتُ الطرد، لأعيش مشرداً في الشوارع، وأموت من الجوع والبرد، لكن تلك المُعلّمة أحضرت لي طعاماً، وأطلعتني على صحيفةٍ فيها جملةٌ باللون الأحمر مكتوبة بخط اليد، ونصحتني بالكف عن الإضراب. في ذلك الوقت لم تكن هناك صحف صينية، كانت كل الصحف باللغة الإسبانية. كانت هي التي كتبتُ بالصينية في مكان فارغ أعلى الصحيفة، وكان المكتوب هو هذه الجملة.

لم أفاجأ عندما علمت أنها ابنة لأستاذين جامعيين، فقد كانت تتمتع بقدرٍ عالٍ على التعلّم. عندما التقيتُ بها، كانت تجيد الشجار مع الناس بالإسبانية. علّمتني الإسبانية لاحقاً في أثناء عملي، كما غرست فيّ عادة قراءة الصحف. في ذلك الوقت، لم أكن حتى أتقن القراءة باللغة الصينية، فأنا لم أخرج في المدرسة الإعدادية، ولا أعرف كثيراً عن هذا العالم، فكيف لي أن أفهم مثل هذه الأمثال الشهيرة الراقية المعبرة؟ كانت هناك بعض الكلمات التي يمكنني قراءتها، لكنني لم أفهم معنى الجملة كاملة، فسألتها عن معناها. بالنسبة إليها، كانت هذه جملة بسيطة، لا يوجد فيها ما يستحق الشرح. لم تكن لديها أدنى فكرة كيف تشرحها لي، فقالت شيئاً يشبه المثل الشائع: «هل تعرف العبارة التي تقول الحياة كالبحر المتقلب؟ هذا هو ما يعنيه هذا المثل».

فتى ريفي ساذج في السابعة عشرة من عمره، لديه الشجاعة لمواجهة الموت، لكنه لم يكن يتحلّى بالشجاعة لمواجهة الحياة. في ذلك الوقت، لم

أكن أعرف حتى معنى عبارة «الحياة كالبحر المتقلب». انفجرت المعلمة ضاحكةً وقالت لي: «هذه العبارة بلهجة الهوكين، تصف تعقيد الحياة وتقلباتها، لكن لها معنى أعمق من ذلك، بل إن معناها أكثر اتساعاً من البحر، لكن المقصود منها عمومًا تشجيع الناس للإقبال على الحياة بدلاً من تمنّي الموت. قالت: «إذا كنت تتمنى الموت بسبب صعوبة الحياة، فعليك أن تعلم أن دورك لم يحن بعد، لأن هناك أشخاصاً مثلي يتقدمون عليك في الترتيب».

علمتُ لاحقاً أن عائلتها كانت في غاية البؤس، فقد تعرّض والدها للضرب حتى الموت على يد الحرس الأحمر، فذهب شقيقها للانتقام، وقتل أحد أفراد الحرس الأحمر، وتعرّض هو الآخر للضرب حتى الموت على يد الحرس الأحمر. انقسم الحرس الأحمر إلى فصيلين. فصيل جاء لقتل جميع أفراد عائلتها عن بكرة أبيها، وفصيل آخر نقل الخبر إلى عائلتها سرّاً لمساعدتها هي ووالدتها على الهروب. هربت في تلك الليلة، ورفضت والدتها المغادرة لتبقى بجوار جثتي زوجها وابنها، مفضّلة الموت على الرحيل. تركت نفسها عُرضةً للتعذيب كي تموت وتُنتهي معاناتها. أما هي فهربت عائدةً إلى مسقط رأسها في فوجيان، وعاشت تختبئ هنا وهناك، وفي النهاية لم يكن أمامها خيارٌ سوى أن تبيع جسدها الشاب مقابل هروبها.

في بحر الحياة المتقلب، التقينا كحبتني رمل على الشاطئ. وفي بحر الحياة المتقلب، عملنا وعشنا معاً، وبعد ثلاث سنوات، تركت المعلمة العمل في مصنع الأحذية، وبالإستعانة بمبلغ كانت قد أدّخرته على مدار سنوات، استأجرت دكاناً صغيراً لقلي الفطائر المقلية وبيعها. كانت هذه مغامرةً جريئةً، بسبب قلة الصينيين في المنطقة، وقلة الراغبين منهم في إنفاق أي أموال، وقد لا تجد من يشتري فطائرها المقلية فتضطر إلى تناولها بنفسها. لكنها كانت ذكيةً وبارعةً للغاية، فعدّلت شكل الفطائر،

وجعلتها أصغر حجمًا، مثل البطاطس المقلية الكبيرة، ثم قدمتها مع صلصة الشوكولاتة، وهو ما نال إعجاب الأجانب، وساعد في نجاح مشروعها.

كان دكانها يقع بالقرب من مصنع الأحذية، في شارع صغير كنا نمر به للعودة إلى السكن. رأيتُ عملها يتحسن شيئًا فشيئًا، وفرحت لأجلها. كانت تعلم أنني أعمل بلا أجر، لذلك فكلما رأيتني أتناول الطعام مجانًا. كنتُ أشعر بالحرج، وأحيانًا كانت تبادر بإعطائي كيسًا من الفطائر، قائلةً إنه متبقي عندها. توطدت صداقتنا شيئًا فشيئًا. لاحقًا، راجت تجارتها، فدعيتني لأعمل مساعدًا لها. في ذلك الوقت، كنتُ قد سدّدت كل ديوني للمُهرَّب، وكان الأجر الذي عرضته عليّ معقولاً، فوافقت دون تردد، وسكنتُ في دكانها أيضًا. وفي إحدى الليالي بعد شهور عدة، صرّحت لها بحبي، الأمر الذي فاجأها بشدة.

قالت: «ألا تعرف وضعي؟».

قلتُ: «أعرف».

ما تسميه «وضعها» هو علاقتها مع المُهرَّب. كان المُهرَّب يأتي إلى هنا ثلاث أو أربع مرات في السنة، ويصحبها معه عندما يأتي. الجميع في المصنع يعلم أنها كانت أسيرة لهذا المُهرَّب، يفعل بها ما يحلو له. كان هذا في الماضي، لذا كنتُ أعتقد أن عليها وضع حد لهذا الأمر. هذا ما قلته حينها: يجب عليكِ إنهاء هذه العلاقة. قالت: ألا تخشى سخرية الآخرين؟ قلتُ: أنا لا أخشى الموت، فكيف أخشى السخرية؟ قالت: لا، هذا إجحاف في حقك. قلتُ: وهل يعاملك المهرَّب بإنصاف؟ قالت: سأضع حداً لهذا الأمر، ولكن ليس هنا، وبالتأكيد ليس معك. عندما أجمع ما يكفي من المال، سأغادر هذا المكان وأبدأ حياة جديدة. قلتُ: لنغادر معًا.

قلت كثيرًا لكنني لم أستطع إقناعها، حتى تذكرت الجملة التي كتبتها في الصحفية. عدّلتها قليلاً واستبدلت بكلمة «الحياة» كلمة «أنت».

فصارت: «لا يوجد سوى فعل بطولي واحد فقط في هذا العالم، ألا وهو أن يظل المرء يحبك رغم علمه بأحوالك».

بعد أن قلت لها تلك العبارة بهذه الطريقة، قالت والدموع في عينيها: «سأعتني بك جيداً طوال ما تبقى من حياتي».

قلت: «لطالما اعتيت بي جيداً من قبل».

قالت: «سأفعل ذلك بطريقة أفضل بكثير في المستقبل».

في الحقيقة، كانت زوجتي السابقة شخصاً رائعاً بحق، لكن قدرها كان مريعاً، فقد توفيت بعد سبعة أشهر فقط من زواجنا. في ذلك الوقت، كنا قد انتقلنا إلى مدريد. افتتحنا دكاناً مماثلاً، لكن مردوده كان سيئاً للغاية. ومن أجل توفير النفقات، لم نكن نشترى الدقيق من المدينة، بل نشتره مباشرةً بكميات كبيرة من مزارع تبعد مئات الكيلومترات. لاحقاً، قررنا توفير نفقات استئجار السيارة، فباعنا خاتمها الذهبي الذي تركه له والدها واشترت شاحنة قديمة. كانت السيارة في حالة سيئة لدرجة أن الفرامل لم تكن تعمل جيداً، لكن هذا لا يهم، فنحن نقود ببطء، كنا نغلق الدكان معظم الوقت لعدم وجود زبائن، ولدينا متسع من الوقت. أنفقت كل مدخراتها وخبراتها لفتح هذا الدكان الجديد بالرغم من أن متجرنا القديم يعمل بصورة جيدة، فلم انتقلنا إلى هنا؟ كان ذلك فقط لكي تحافظ على كرامتي بوصفي رجلاً، فلا أحد هنا يعرف ماضيها، لكن كرامتي كلفتها حياتها، وكان السبب هو هذه السيارة اللعينة!

في أحد الأيام، كنا قد انتهينا لتونا من تحميل البضائع، وسرنا مسافة أقل من كيلومتر واحد خارج المزرعة. وبينما كنا نسير فوق منحدر، تعطلت الفرامل، التي لم تكن تعمل أصلاً. تحولت السيارة إلى ثور هائج يركض مسرعاً نحو العشب. في ذلك الوقت، لم أكن أستطيع القيادة، وكانت زوجتي هي التي تقود السيارة. كانت حاملاً في شهرها السادس، وبطنها بارزاً لدرجة أنه كان يصطدم أحياناً بعجلة القيادة. مازحتها ذات

مرة قائلاً: أنتِ أفضل سائقة في العالم، لدرجة أنك تستطيعين القيادة ببطنك. قالت إن طفلنا سيصبح سائق سباقات في المستقبل بالتأكيد، لأنه تعلم القيادة قبل ولادته. لم تتمكن من إيقاف السيارة بسبب تعطل الفرامل، فطلبت مني أن أقفز من السيارة، لكنني طلبت منها أن تقفز هي. قالت إنها لا تستطيع المشي جيداً بسبب بطنها الكبير، فكيف تقفز من السيارة؟ أقفز أنت، صرخت في وجهي تطلب مني القفز، لكنني صرخت فيها بصوت أعلى.

قالت: «اقفز بسرعة! إن لم تفعل، فقد تموت».

قلت: «يمكنني أن أموت! لكن لا يمكنكِ أنتِ أن تموتي، عليكِ أن تتجبي هذا الطفل».

قالت: «إذن علينا أن نموت معاً».

قلت: «إذن لنمت معاً».

لكن في النهاية، كانت هي التي ماتت. لم أصب إلا بجرح سطحي، لكن دمائها سالت من تحتها ومن فيها. لم يكن الوقت ليسعفنا من أجل قدوم مروحية لإنقاذها في هذه المنطقة الريفية البعيدة عن المدينة، فقط أسعفها الوقت لتوديعي قبل وفاتها. لا أريد الحديث عن البكاء والدموع التي ذرفناها آنذاك، لكن سأخبرك بما قلناه:

قالت: «كم كنت أتمنى أن أنجب لك طفلاً قبل أن أموت!».

قلت: «لا يمكنكِ الموت، إن متّ، فسأمت معكِ».

قالت: «لا يمكنكِ الموت، إن متّ، لن يكون هناك من يزور قبوري، ولن يتبقى لي أي قريب في هذا العالم».

ماذا أقول؟ بكيت، بكيت كالمجنون وأنا أشاهد وجهها يزداد شحوباً، عانقتها، فشعرت بجسدها قد صار خفيفاً للغاية، كأنها على وشك الاختفاء. لم يكن بوسعي حينها سوى البكاء كالمجنون، يا إلهي، لقد كان القدر شديد القسوة علينا.

عاشت حياتها تعاني قسوة القدر، لكنها لطالما كانت تمنح الآخرين الأمل في الحياة. لو لم تُقنّني بالاعتذار لرئيس العمال، لربما تجمدتُ حتى الموت في شوارع برشلونة، ولو لم تُقنّني بأن أنجو بحياتي، لربما حفرتُ حفرةً في مكان الحادث ووضعتها فيها ثم احتضنتها منتظرًا الموت. لقد رحلت عني زوجتي، وطفلي الذي في بطنها، فلم أعيش؟ فالحياة بالنسبة إلي ليست سوى معاناة لا أكثر. لكنها قالت وهي تلفظ آخر أنفاسها: «تذكّر، الحياة كالبحر المتقلب، والجرأة على الموت ليست شجاعة، بل الحياة هي التي تتطلب الشجاعة، هل تتذكر ما قلته في بداية تعارفنا؟ لا يوجد سوى فعل بطولي واحد فقط في هذا العالم، ألا وهو أن يظل المرء مقبلاً على الحياة رغم إدراكه حقيقتها». غيّرت كلمة «أنت» مرة أخرى، وأعادتها إلى الأصل، ثم أخبرتني أن صاحب هذه المقولة هو كاتبٌ مشهور يُدعى رومان رولان، وأنه قرأت كتابين من كتبه، واقتبست منهما كثيراً من العبارات، وكانت من بينها هذه العبارة. قالت: «عليك أن تتذكر هذه الجملة من أجلي. فلولا أنني صادفتها في أحد الكتب، لما كنت أنت أيضاً لتصادفها طوال حياتك».

أعرف ما كانت تقصده. هذه الجملة هي التي منحتها الشجاعة لتعيش في ظل الذل والكرهية، ومنحتها الإقبال على الحياة. ذهبت لتعمل بمفردها، وتبني حياة جديدة. كانت قد أخبرتني أنها لو بقيت في المصنع، فلن تتخلص أبداً من مضايقة المُهَرَّب، وحتى إن تخلصت من مضايقاته، فلن تتخلص من آثارها، لذلك عليها أن تكسب المال، وتستخدمه أجنحةً لتطير بعيداً عن هنا. كنت أعرف كل هذا، لكن ما لا أعرفه هو لماذا كانت الحياة قاسية عليها إلى هذه الدرجة. كانت إنسانة رائعة، فلم عانت كل هذا الأسى؟ في تلك الليلة، تقلّبتُ في فراشي داخل غرفة ألعاب العقيد بسبب الأرق، كنت أفكر باستمرار في ماضي العمّة لين، وفي الأحداث التي مررت بها أنا أيضاً، وفي تلك العبارة التي قالها

الكاتب. في الحقيقة، لم تكن هناك عبارة كهذه في الصحيفة. كانت تريد أن تقولها لي، فأخبرتني أنها وردت في الصحيفة لتزيد مصداقيتها، فأنا لم أكن أفهم الإسبانية على أي حال. في الحقيقة، كانت زوجتي السابقة شخصاً رائعاً بحق، لكن قدرها كان مريعاً، مثل العقيد.

(94)

الأحاديث الطويلة التي دارت بيني وبين والدي طوال حياتي كانت تُعد على الأصابع، من بينها كان الحديث الأطول الذي دار بيننا عندما عدت إلى مسقط رأسي المرة الأولى من خارج البلاد في عام 1991، تلك المرة التي تحدثنا فيها أمام منزل العقيد المهجور. كان العقيد محور حديثنا، وكنت أنا من طلبت منه الحديث عنه؛ وبعد أن تحدّث عن العقيد، طلب مني الحديث عن أحوالي، وعما مررت به في أثناء تجربتي في الخارج التي استمرت 22 عاماً، وعن زوجتي السابقة والتجربة المريرة التي رحلت على أثرها في حادث السيارة.

بعدما استمع والدي إلى حديثي، لمعت عيناه فجأة، لم تظهر عليه أي علامات الحزن والتأثر، بل على العكس من ذلك، بدا فرحاً سعيداً، وقال لي: «لا عجب أنك عدت إلى موطنك حياً، لقد ماتت زوجتك من أجلك». أردت أن أخبره أنه مخطئ، وأنني الآن أعيش من أجلها، لكنني حبست الكلمات قبل أن تخرج من فمي. جعلتني حالة اللامبالاة التي ظهر عليها والدي وأنانيته أشعر بالأسف تجاه زوجتي السابقة، شعرت بأن كلامه إهانة لها. كنت أفضل إهانة نفسي على أن أهينها، فهي الألم العميق الذي يسكن في أعماق قلبي، وهي أيضاً حُب حياتي الذي لا يفارقني، ومن غير الممكن أن أسمح لأبي بأن يتصرف تجاهها بهذه الوقاحة.

بعد سنوات طويلة، ربحْتُ كثيراً من المال، وأعدتُ رفاتها إلى الصين. أردتُ دفنها بجوار جدي وأمي وأقاربي، وأردت أيضاً أن أُدفن بجوارها

في المستقبل، فتراب الوطن مؤنس دافئ، وهي الآن تترقد وحيدة في بلد غريب، ترابه مُوحش وبارد، الأمر الذي يعتصر قلبي حزناً.

كان ذلك في عام 2000، في أحد الأيام الحارة -اخترتُ يوماً حاراً كي أنسيها البرد- بعدما علم والدي الثمانيني بهذا الخبر، خاطر بحياته، وصعد الجبل ليمنعني من دفنها في مقابر عائلتنا. كان مُصمماً على منعي من ذلك. ومهما حاولتُ إقناعه، لم تُفلح محاولاتي. حتى أنه هددني بقتل نفسه، وهو ما أثار حنقي الشديد. كان سبب معارضة والدي أنها هي من أنقذتني، وأنني نجوتُ من الموت لأنها ماتت من أجلي، وأنني ربحت كثيراً من المال في وقت لاحق بسبب روحها التي تحميني.

قلتُ: «لهذا السبب يجب أن نُحسن معاملتها ونُعاملها بوصفها فرداً من العائلة».

قال والدي: «الأموات أظهر من الأحياء. لقد ارتكبت عائلتنا أفعالاً شريرة كثيرة. وصرنا ملعونين في قبورنا. ولو دفنتها هنا ستكون كمن أذاها وأرسلها إلى الجحيم. حينها لن تحميك روحها، وستكون كمن يؤدي نفسه بنفسه».

كانت الكوارث المتتالية التي حلت بعائلتنا قد جعلت والدي في زعر دائم، وأصبح ممسوساً مؤمناً بالخرافات. لم أستطع إقناعه مهما توسلت له. لحسن الحظ، عثرت أخيراً على شاهد قبر والديها في مقبرة نانشان في هانغتشو، فشعرت أن دفنها بجوار والديها خيار لا بأس فيه، لكن والديها ماتا منذ أكثر من ثلاثين عاماً، وصارت هناك قبور أخرى حولهما، وبات من المستحيل دفنها بجوارهما. تجولتُ في المقبرة بأكملها ووجدتُ قبراً بعيداً بعض الشيء، لكنه يقع في مواجهة قبر والديها، فعلمت أن روحها ستتعلم بالراحة في هذا القبر. إضافة إلى ذلك، اشتريتُ القبرين المجاورين لها، كي أُدفن فيهما أنا وزوجتي الحالية في المستقبل. لو دُفنا نحن الثلاثة هنا معاً، وتهامسنا بالإسبانية، فلن يفهمنا الأموات

المجاورون. أعتقد أن هذا خيار جيد، ولكنه يعني أنني سأصبح أيضاً كالصهر الذي تزوّج في بيت عائلة زوجته. يبدو أن هذا هو مصيري أنا وإخوتي، إما نموت في القرية وإما نضطر إلى مغادرتها.

ما يُسمى بالرفات هو في الواقع مجرد بضع قطع من بقايا العظام المتبقية بعد حرق الجثة. معدات حرق الجثث الآن متطورة للغاية، إذ تُحرق الجثث حتى تتحول إلى رماد. لكن هذا لم يكن ممكناً في ذلك الوقت، فبعد حرق الجثة يتبقى منها بعض العظام المكسورة والشظايا. كان الوقت في منتصف الصيف، والشمس حارقة، والمقبرة الضخمة هادئة للغاية لدرجة أنه كان بإمكانك سماع صوت الشمس وهي تحرق الأرض، وتصدر حسيساً وبخاراً. الموتى حولي في كل مكان، وأنا الشخص الوحيد الحي. أتممت عملية الدفن بأكملها بنفسي: جرفت التربة، وحفرت الحفرة، وردمتها، ووضعت الحصى، وأقمت الشاهد، وحرقت البخور، فعلت كل شيء بنفسي، استغرق الأمر مني أكثر من ساعتين. كان رفاتنا قد تحلل تحت التراب لأكثر من عشرين عاماً، وبات من الصعب فصل بقايا العظام عن التراب وقشور الخشب المتحللة، لكن عندما لمستها، كان بوسعي الشعور بمرارة الماضي الأليم تعصر في قلبي.

حملت رفات زوجتي السابقة معي مدة ثلاث سنوات. يؤمن الصينيون بأن إكرام الميت دفته، فلمَ لم أدفنها إذن؟ لأنه لم يكن لدي مال، ولا أريد أن أدفنها بطريقة عشوائية.

نقلنا الدكان من برشلونة إلى مدريد. أنفقنا كل مدخراتنا، ولم نكسب أي مال في مدريد. خسرنا كثيراً من المال، وعشنا أياماً صعبة. كانت زوجتي هي من تدعم هذا الدكان، وبعد وفاتها، لم أستطع الاستمرار بمفردي، ولم أستطع تحمّل تكاليف الإيجار. اضطررت إلى التخلي عن كل شيء، وعشت بلا مأوى، أنام في الشوارع وأتناول الطعام الفاسد من صناديق النفايات. كنت أتعامل كثيراً مع صناديق النفايات، ثم وجدتُ

لاحقًا طريقةً لكسب المال منها، فداخل صناديق النفايات هناك، خاصةً تلك الواقعة في المناطق التي يسكنها الأغنياء، غالبًا ما يمكنك العثور على أشياء ثمينة في نظرنا نحن الفقراء، مثل الملابس والأحذية والجوارب، وأواني المطبخ، وحتى أجهزة الراديو والأسطوانات.

وحيث توجد مناطق غنية، مؤكد أن هناك مناطق فقيرة، ودائمًا ما يكون عدد الفقراء أكثر من الأغنياء.

طالعت في الصحف أن المناطق الفقيرة خليج كبير لا حدود له، والمناطق الغنية بحيرة صغيرة يمكن الدوران حولها في ساعة زمن. علمت من سنوات خبرتي في التنقل بين مناطق الأغنياء والفقراء أن هذه ليست مبالغة، بل هي واقع الحال تمامًا. كنت أحمل رفات زوجتي معي طوال الوقت، ليل نهار، فبالرغم من موتها كانت تواسيني أكثر من أي شخص حي، وتمنحني القوة للعيش. كنت أبحث عن الطعام وما يمكن بيعه من القمامة، في انتظار اليوم الذي يمكنني فيه جمع ما يكفي من المال لشراء قبر لائق لها. صار اليوم بإمكانني شراء مقبرة كبيرة لجميع أقاربي، ولكن في ذلك الوقت كان ثمن القبر الصغير بالنسبة إلي أغلى من ساحة بويرتا ديل سول في مدريد. انتظرت مدة ثلاث سنوات دون أن أتمكن من جمع ما يكفي من المال، لكنني قابلت شخصًا كان على استعداد لمساعدتي في جمع المال. في أحد الأيام، كنت أتجول في الشارع كعادتي. لم أكن أنظر إلى الناس، بل إلى القمامة وصناديق القمامة على جانب الطريق. فجأة، ناداني أحدهم. بدا الصوت كأنه قادم من الصين على بُعد آلاف الأميال، وكأنه محمّل برائحة عسل زكية. كان هذا غريبًا جدًا، فعلى مدار ثلاث سنوات لم تتحدث معي أي امرأة قط، ناهيك بمناداتي باسمي. المرأة الوحيدة التي كنت أتحدث معها طوال هذه السنوات الثلاث هي زوجتي التي صارت رفاتًا أحمله في حقبتي بشكل دائم، وبالطبع لم تكن تجيبني. ظننت أنني واهم، لكن الصوت عاد، وصار أقرب.

التفت ناحية الصوت، فرأيت فتاة قصيرة. كان الوقت صيفاً، والمطر يهطل، كانت ترتدي ملابس خفيفة، وتحمل مظلة، ما جعلها تبدو أقصر كطالبة في المرحلة الإعدادية، تعرج قليلاً في مشيها. لم أستطع التعرف إليها، ففي تلك السنوات، لم أكن أرى سوى القمامة، لا أرى بشراً ولا نساء. أخبرتني اسمها، لكنني لم أتذكر من هي. لقد جعلني العيش مع القمامة سنوات طويلة عديم الفائدة كالقمامة، وكما يقول المثل: «من يدخل إلى المطحنة لا بد أن يتغبر». لم أتذكرها إلا عندما ذكرت اسم زوجتي والدكان الذي أغلقته. كانت من مدينة تشينغتيان، من مقاطعتنا تشهيجيانغ نفسها. عندما كنا ندير الدكان، كانت تأتي كثيراً لشراء الفطائر المقلية، فتعرّفت إليّ أنا وزوجتي. في ذلك الوقت، لم نكن نعرف من هي، لكننا لاحظنا أنها كانت تعرج قليلاً في أثناء مشيتها، لم يكن عرجها واضحاً، لكنه كان ملحوظاً إلى حد ما.

علمتُ لاحقاً أن والديها كانا أول جيل من الصينيين المهاجرين إلى إسبانيا، وأنها وُلدت هنا. أُصيبَت بشلل الأطفال في صغرها. كانت عائلتها فقيرة، ولم تتلقَ العلاج في الوقت المناسب. وحسب قولها، اقتطع الرب بوصة من ساقها اليسرى، ولم يُعدها إليها. بدت كأنها تفتقد الفطير المقلي الذي كنا نبيعه، وبدأت بالدردشة معي. وكأنَّ السماء تريد تهية الظروف لتعارفنا، فقد اشتد المطر فجأة. اقتربت مني لتحميني بمظلتها، وقفنا نتحدث طويلاً، فأثارت تجربتي تعاطفها، ووعدتني بإيجاد وظيفة لي. يوجد في مدريد عدد أكبر من الصينيين مقارنةً ببرشلونة، بل حتى أن هناك منطقة سكنية صينية متركزة نسبياً في جنوب المدينة، في ضاحية أوزيرا، حيث وُلدت وترعرعت، لذا كانت على دراية بالوضع هناك، ولديها بعض المعارف، وهو ما جعلها واثقة بأنها تستطيع إيجاد عمل لي. قالت إن هذا على الأقل أفضل من جمع القمامة. ربت على حقيبتني وقلت: لن يرضى أحد برجل فقير يحمل معه رفات زوجته ليعمل عنده، فالصينيون

أكثر الناس إيماناً بالخرافات، وسيعدون ذلك نذير شؤم، ثم تحدثنا عن أمر رفات زوجتي، قالت: لم لا تدفنها؟ قلت: لأنني لم أجمع ما يكفي من المال لدفنها. سألتني كم أحتاج، فأخبرتها بالمبلغ المطلوب تقريباً. قالت دون تردد: «سأقرضك إياه».

قلت: «لا داعي لذلك، فأنا لا أعرف متى سأتمكن من سداده».

قالت: «يمكنك سداده قريباً بمجرد حصولك على عمل».

لم أكن بحاجة إلى رد الدين لاحقاً، لأنها أصبحت زوجتي، وهي الآن زوجتي الحالية. بالطبع، سألتها عن سبب رغبتها في الزواج من «جامع قمامة»، وهو الاسم الأنيق الذي يطلقه الصينيون على «الزبال». قالت إن الرجل الذي لا يمل من حمل رفات زوجته معه ثلاث سنوات لا بد أن يكون زوجاً صالحاً. كانت روح زوجتي السابقة هي التي مهّدت لي هذا الطريق في نهاية الأمر، وهذا الطريق لا يزال مستمراً حتى اليوم، بل وصار أفضل، حتى مما كنت أحلم به، وكانت القمامة هي السبب في كل هذا، فمن كان يظن أن للقمامة مثل هذه القدرة الهائلة على إثراء رجل فقير، وجعله يمتلك ثلاث شركات.

طالعت في الصحف أن هذا العصر هو عصر تحقيق الثراء في الصين، وأن بمقدور أي شخص جني الأموال، وأن أي شيء يمكن تحويله إلى مال، بما في ذلك القمامة. عندما طالعت هذه الجملة، ضحكت في داخلي، متسائلاً: هل كانت تتحدث عني؟

(95)

نحن الآن في الثاني من ديسمبر عام 2014 بتوقيت بكين.

تتجه قريتنا الآن بخطا حثيثة نحو «طريق الثراء» المزدهر. كان بوسعك أن ترى تأثير المال في كل مكان، بل حتى أن أوراق أشجار الجنكة الذهبية كانت أشبه بالعملات النحاسية. يقال إنه في أحد الأيام جاء أحد

رجال الأعمال المعروفين بحبهم لركوب الخيل وهو يركب حصاناً ليتجول في زقاقنا، فقرر إعادة قريتنا إلى ما يُعرف باسم «عصر ركوب الخيل»، أي المظهر الأصلي للقرية القديمة. استثمر عشرات الملايين لتجديد قريتنا، رَمَّم قاعة الأسلاف القديمة، وأعاد تحويل الطريق الإسمنتي إلى الطريق الحجري المرصوف بالحصى، وأصلح جميع المنازل القديمة ورمَّمها، بما فيها منزلنا، ليعيدها بذلك إلى طرازها العتيق، كما حوّل حظائر المواشي إلى إصطبلات للخيول، وربَّى العشرات من مهور الشتلاند الأمريكية المناسبة لركوب الأطفال، وهو ما أدى إلى تنشيط موارد السياحة سريعاً. كانت الحافلات السياحية تصل إلى القرية مع نهاية كل أسبوع، جالبةً الزوار القادمين من بُعد آلاف الأميال لينفقوا أموالهم، حيث يركبون الخيول، ويتناولون الأطباق المحلية، ويشربون نبيذ الأرز، ويشاهدون براعم الخيزران وهي تثبت في الربيع، ويذهبون إلى الجبال لصيد الحيوانات البرية والأرانب في الصيف، كان البعض يربونها خصوصاً لذلك، ويقطفون الكاكي البري والتوت البري في الخريف، لكن كان عليهم دفع ثمنها حسب الوزن. لم تكن القرية تهدأ إلا في أشهر الشتاء الباردة، فتعود إلى أحضان أهلها. ووفقاً لإحصاءات غير مكتملة، كان عدد الزوار القادمين إلى القرية سنوياً لمشاهدة معالمها يفوق عدد أوراق شجرة الجنكة العتيقة المتساقطة. أصبحت القرية القديمة مزاراً سياحياً، فانتقلت معظم العائلات إلى الجانب الآخر من النهر، عند سفح الجبل الأمامي، وبنوا منازل جديدة. أصبح «اللقيط» صاحب المنزل الأكثر فخامة في القرية، يقال إنه افتتح متجرّاً خاصاً بالوجبات الخفيفة في هانغتشو، وحوّله إلى مطعم كبير، وجمع ثروة طائلة. أو كما ورد على لسانه: كانت ثروتي تزداد يومياً، قد يكون في كلامه بعض المبالغة، لكنه بالتأكيد كان يجني كثيراً من المال، وهو ما يتضح من فخامة منزله. اشترى أرض مدرستنا السابقة كاملة، وهدم الفصول الدراسية، والمطعم،

والمخزن الذي سبق أن سُجن فيه العقيد، والمراحيض، وبنى مكانها مبنى فاخرًا على الطراز الغربي مزودًا بغرفة ساونا، وسبق أن استضاف فيه عددًا من كبار قادة الدولة، وكثيرًا ما استضافني هناك أيضًا. فبعدما بدأت مشروعى التجاري، كنت أعود إلى الصين كثيرًا، وكثيرًا ما كنت أتردد على منزله. في كل مرة كنت أزور منزله، كنت أرى مدى بذخه في إنفاق المال، وهو ما كان بمنزلة تشجيع ملموس ودافع قوي لي لأبدأ مشروعى التجاري.

يبدو الحديث عن تجارتي أمرًا محرّجًا، فهي تتعلق بشراء القمامة وبيعها. كانت هذه تجارتي الفعلية، لكن الأمر مختلف الآن. في الماضي كنت أجمع القمامة وأبيعها للفقراء، أما الآن فأشتريها وأبيعها للأغنياء: أصحاب مصانع الورق، ومصانع صهر المعادن، ومصانع الملابس، وغيرها. أشتريها بثمن بخس وأبيعها بثمن باهظ، لكني كنت أنفق معظم الربح على تكاليف الشحن، وأجور العمال، وإيجار الموقع، وغيرها من النفقات، ولا يدخل جيبي سوى جزء صغير. لا أكسب كثيرًا في المرة الواحدة، لكن الأمر مريح على المدى الطويل.

الحياة أشبه بمسرحية، وكل مشهد فيها مترابط بشكل أو بآخر. فلو لم أعش متشرّدًا ثلاث سنوات، لما عملت في تجارة القمامة لاحقًا. في الماضي، كانت القمامة عملاً مذلاً، لكن القمامة الآن هي التي ردّت لي كرامتي مضاعفة.

أجرت معي صحيفة في مسقط رأسي مقابلة، كتب المراسل في تقريره عن المقابلة: القمامة بالنسبة إلي استعارة ورمز للعصر، كانت حياتي ممتلئة بالصعود والهبوط، والتحسين والانتكاسة، وكلها تتعلق بالقمامة. لم أفهم العبارة الأولى، لكن العبارة الأخيرة صحيحة ومتوافقة مع ما قلته. كتب المراسل أيضًا في تقريره أن مصدر إلهامي للعمل في مجال تدوير القمامة جاء من جملة قالها ابن عمي. وهذا صحيح أيضًا، ففي عام 1991

عدتُ إلى الصين أول مرة وذهبتُ إلى مصنع ورق في قرية مجاورة لزيارة ابن عمي الذي كان يعمل هناك. كان الجو لا يزال بارداً في بداية الربيع، وكان ابن عمي عاري الصدر يُفَرِّغُ شاحنة محمَّلة بالبضائع. تلك البضائع كانت مكدَّسة على شكل صناديق مربعة كبيرة، ملفوفة بطبقة من أقمشة الشكائر رمادية اللون، وبدا من مظهرها أنها ثقيلة للغاية، لدرجة أن ابن عمي كان يتعَرَّقُ بشدة جرَّاء حملها. سألته عن ماهية هذه البضائع، فقال إنها قمامة أجنبية مشحونة من الولايات المتحدة، قمامة أمريكية.

سألته: «ما حاجتكم إلى القمامة في مصنع الورق؟».

قال: «القمامة كنز، لو استطعتَ إحضار القمامة التي تجمعها هناك إلى الصين، فستجني ثروة كبيرة بالتأكيد».

أخبرني ابن عمي أن جميع المصانع هنا تحتاج الآن إلى النفايات. كانت وظيفته تصنيف النفايات الأجنبية القادمة عبر المحيط. يُصنَّفُ الورق المُهدَّر نفايات ورقية، وكذلك المعادن، والبلاستيك، أما تلك التي يمكن بيعها كسلع مستعملة فتُصنَّفُ ضمن فئة واحدة. يمكن بيع السلع المستعملة مباشرة بعد تجديدها، وتُباع المعادن للمصاهر، وبياع البلاستيك للمصانع الكيماوية، ويُحفظ الورق لتحويله إلى عجينة.

باختصار، كل شيء قابل للبيع، وكل شيء يتحول إلى مال. يمكن القول إن القمامة كانت مصدراً لثروات الناس.

لكن الأقوال أسهل من الأفعال، فعلى الرغم من أنني أملك ثلاث سنوات من الخبرة في مجال القمامة، وهو ما هَيَّأَ لي ظروفًا مُعينة للعمل في تجارة القمامة، فإن الأمر لم يكن سهلاً، أو يمكن إنجازَه بين عشية وضحاها. لذلك لم أتمكن من شحن أول دفعة من القمامة إلا بعد خمس سنوات، كانت ثمانِي حاويات شحنتها إلى ميناء بيلون بمدينة نينغبو، وبعثتها للوسطاء فوراً، مُحَقَّقاً ربحاً قدره ثمانون ألف يوان. كان هذا أول مبلغ ضخم أربحه في حياتي، ثم صارت الشحنة شحنتين، والشحنتان ثلاث

شحنات، وصار العمل أكثر سلاسة، والريح أكبر. وفي عام 2001 أسست شركتي رسمياً، واستغنيت عن الوسطاء، استأجرت السيارات والعمال بنفسي، وسلّمت البضائع مباشرةً إلى المستهلكين، وجنيت الأرباح التي كانت تذهب للوسطاء. استطعت استقطاب كثير من العمالة، كان هناك عدد كبير من أبناء عمومتي وأبنائهم ممن يبحثون عن عمل. أسست شركة ثانية في عام 2003، واستأجرت موقعاً بالقرب من ميناء بيلون، وفرزت القمامة وبعثتها، وحققت ربحاً أكبر. اكتشفت موهبتي في إدارة الأعمال في أثناء صفقاتي المتتالية. كنت حذراً وجريئاً، ماهراً ومؤهلاً، وبارعاً في تقييم الناس وتوظيفهم وتدريبهم. عندما عدت إلى الصين أول مرة في عام 1991، كان والدي يظن أن من الممكن الوصول إلى مدريد على ظهر الخيل، وقبل مغادرتي للعودة إلى مدريد، أصرّ على أن آخذ معي ابن أخي الثاني الوحيد.

قال: «من الأفضل أن تأخذه معك ليعيش بعيداً عن هذا البيت

المسكون بالأشباح».

مكتبة

t.me/soramnqraa

قلت: «في المرة القادمة».

قال: «ومتى ستكون المرة القادمة؟».

كيف لي أن أعرف؟ في ذلك الوقت، كان عليّ أن أعمل بجدّ وأدّخر المال سنوات كي أتمكن من شراء تذكرة طائرة. لم أكن أعرف كم عامّاً سأنتظر لآخذه معي. بعدما جنيت أول مبلغ من المال من القمامة بعد خمس سنوات، كان أول ما فعلته هو أنني أخذت معي ابن أخي حتى يطمئن والدي. عينته مديراً لشركتي في إسبانيا، كان مديراً كفئاً للغاية، فقد سبق أن درّبه على مهارات الإدارة. كان باراً جداً بجده، أي والدي. وقبل ست سنوات، سلّم جميع أعمال الشركة إلى ابني، وعاد إلى الصين مع زوجته وأولاده لبدأ مشروعاً تجارياً. والسبب هو أنه أراد أن يقضي شيخوخته برفقة جدّه، لكن جدّه كان مصمماً على منعه من السكن في

المنزل القديم، خوف أن يطاله النحس ويفشل. لهذا السبب، بنى منزلاً جديداً على الجانب الآخر من النهر، وكان يعود بين الحين والآخر ليأخذ جدّه للعيش معه يوماً أو يومين. كان والدي يخشى أن نذهب إلى المنزل القديم، لكنه بقي فيه، وهدفه من ذلك هو إبقاء الأشباح بجانبه، حتى لا تأتي لتطاردنا. كان مستعداً لأن يكون كبش فداء من أجلنا، حتى أنه كان يعتقد أن تجارتي ازدهرت في تلك السنوات وصارت أسرتي آمنة ومستقرة بسبب بقائه في منزلنا القديم ونجاحه في منع الأشباح من ملاحقتي. همس لي ذات مرة قائلاً إن هناك أربعة أشباح في منزلنا، وكان قادراً على وصف مظهر كل شبح منهم. كان لأحدهم ثلاث عيون، وللثاني قرون على رأسه، وللثالث شعر أبيض يغطي رأسه وجسده، والرابع بلا وجه، فقط لديه شعر طويل ينسدل من كتفيه. بعد بضعة أيام، أخبرني مرة أخرى أن هناك ثلاثة أشباح في منزلنا، جميعهم أشباح ذكور. وعندما همّ بوصف مظهر كل شبح منهم مرة أخرى، قاطعته قائلاً: «لكنك قلت في المرة السابقة إنهم أربعة».

قال: «لقد قتلت واحداً منهم».

في الواقع، كان يقول أحياناً إن هناك خمسة أشباح أو ستة. لكن كم عددهم بالضبط؟ لا أحد يعرف سوى الأشباح. مؤكد أن والدي لا يعرف. عندما لا نتحدث عن الأشباح، يكون ذهن والدي صافياً، يمكنه استيعاب الأمور، وتذكّر الماضي، ولو سألته عن بعض الأشياء التي نسيته في الماضي، كان بوسعه إخباري بكل شيء، خاصة عن العقيد، بل كان يتذكرها بوضوح شديد. ولكن عندما نتحدث عن الأشباح، لا يكون مستواه العقلي أعلى بكثير من العقيد. صار العقيد مجنوناً بسبب أشخاص أحياء، أما هو فصار مشوّش الذهن بسبب أشباح الموتى، ففي مواجهة الأشباح غير المرئية، كان جباناً كالضفد، وغالباً ما كان الخوف يملكه فيفقد صوابه، لكنه في الوقت نفسه كان جريئاً وشجاعاً. يمكنني أن أفهم هذا على أنه

حب أبوي، ولكن لأكون صادقاً، كان والدي يفتقر إلى القدرة على الحب. طالعت في الصحف أن الحب نوع من القدرة، مثل القوة البدنية، بعض الناس يولدون بضمور عضلي في هذا الجانب. عندما طالعت هذه الجملة، كان أول ما خطر ببالي هو والدي، ثم العقيد؛ العقيد على النقيض من والدي تماماً، فقد وُلد بروح قوية تُحب الآخرين. كانت شخصيتهما متناقضتين تماماً، ولعل هذا ما يُفسر انجذاب بعضهما إلى بعض، وعلاقتهما التي تشبه الأخوة. لم أرَ في حياتي صديقاً جيداً مثل العقيد، زوجتي أيضاً كانتا من طينة العقيد نفسها، صديقتين وفيتين، وهذا كافٍ. طالعت في الصحف أن أفضل صديق في العالم هو المال، وقد صار لدي كل من المال والأصدقاء، وهذا أكثر من كافٍ.

(96)

بسبب احتياجات العمل، وبسبب وفرة الأموال التي جنيتهما من العمل أيضاً، كنت أعود إلى الصين كثيراً. عندما كنت أعود إلى الصين، أذهب لزيارة قريتي عادةً، وأحياناً ما كنت أصادف الأعمى الصغير. كان هو أول «سائح» في القرية. لم يكن لديه ما يفعله طوال اليوم، لذلك يتجول في الأنحاء، وعندما يشعر بالتعب يقف عند باب قاعة الأسلاف، يراقب الناس ذهاباً وإياباً، ويراقب نظراتهم، في انتظار أن يسخروا منه أو أن يشفقوا عليه. من يسخر منه لا يشفق عليه، ومن يشفق عليه لا يسخر منه. لكن بالنسبة إليه، السخرية منه هي في الواقع شفقة عليه، لأنه يشعر بالملل الشديد، الملل الذي يجعل من السخرية منه نوعاً من المتعة بالنسبة إليه.

عندما عدتُ أول مرة، كنت محملاً بأمنيّتين؛ الأولى أن يكون كل شيء في منزلي على ما يرام، والثانية ألا يكون قد طرأ أي تغيير على حالة الأعمى الصغير. كنتُ أخشى أن يكون قد شُفي، لذا فعندما رأيته على

الحال القديمة نفسها، وإن كانت مُثيرة للشفقة -نحيلاً جداً، مُتسخاً كأنه لم يستحم قط، وجهه مُغطى بالبثور، وندبة طويلة- نظر إليّ نظرة استعطاف، لكنني لم أشعر بأي تعاطف معه. شممت رائحة كريهة نفاذة تفوح من جسده، ولم يسعني إلا أن أشعر بالسعادة، كأنه قطعة توفو كريهة الرائحة وأنا جائع. أردتُ أن أقول له: «أيها الأعمى الصغير، هذا هو المصير الذي تستحقه. لقد عدت خصوصاً لأراك على هذه الحالة، هذا هو الثمن الذي يجب أن تدفعه لي مقابل أكثر من عشرين عاماً من الفرار والمعاناة. ها قد صار لهروبي نهاية، لكن معاناتك لا نهاية لها، فالرب عادل، وقد كافأني على تعبي ومعاناتي».

بالطبع لم أقل ذلك.

السبب في أنني لم أقل ذلك ليس الخوف من إهانته، بل الخوف من فقدان كرامتي. كدتُ أقول هذا الكلام ذات مرة، حينها شعرتُ أن ليس من العيب ألا أكرث لكرامتي ولو مرة من أجل التعبير عن الكراهية التي تراكمت في قلبي على مدار سنوات طويلة؛ أي كرامة هذه التي أكرث لها؟ أليست سوى مجرد ثوب ترتديه ليراه الآخرون؟ لمَ لا أتحرق من هذا القيد ولو مرة؟ فأنا بحاجة إلى مكافأة نفسي بهذه المكافأة. لكن عندما فكرتُ في الأمر، شعرتُ أنني أصبحتُ أكثر شخص وحيد في العالم: مرّ اثنتان وعشرون عاماً، وقد سامحه أهل القرية، بمن فيهم والدي، وأنا وحدي ما زالت أعيش وحيداً في الماضي، هذه الوحدة تجعلني أشعر بالخجل، وعدم الجرأة على المطالبة بالمكافأة. قلتُ إنني عندما عدتُ في ذلك الوقت، بل حتى بعد عودتي إلى مدريد، ظللت محملاً بالكراهية تجاهه، وتمنيت لو مات وذهب إلى الجحيم.

يعود الفضل في بقاء الأعمى الصغير حياً وعدم الموت برداً أو جوعاً إلى الطريقة التي مات بها والده. كان والده الأعمى العجوز قد عمل عراًفاً يقرأ الطالع للآخرين طوال حياته، لكن الطالع الوحيد الذي نجح

في قراءته بدقة هو ما يخص حياة ابنه. كان يعلم مسبقاً أنه لو مات، فلن يتمكن ابنه العاجز من البقاء على قيد الحياة. ولو أراد البقاء على قيد الحياة، فعليه الاعتماد تماماً على شفقة أهل القرية وتعاطفهم، حتى التعاطف الجزئي لن يفيد. التعاطف الجزئي منبعه نظرات العيون، وينشأ عَرَضاً، وعلى نحو متقطع. أما التعاطف الكلي فهو شعور بالمسؤولية، ينبع من أعماق القلب، وينشأ من السبب والحالة، ويتدفق ببطء وثبات. أراد أن يترك أثراً يتذكره أهل القرية بأكملها، وأن يفرس شعوراً بالمسؤولية في قلوبهم. لذلك، وقبل وفاته، ركع أمام باب قاعة الأسلاف طويلاً، وعلّق على صدره لافتة كتب عليها الفقرة الآتية، وظل يرددّها على مسامع الناس:

«يا أبناء قريتي، أنا أستحق الموت. لقد أسأت للعقيد وأستحق أشد اللعنات، لكن بعد موتي، ستصعد روحي إلى السماء لتحرسكم. كل ما أطلبه منكم هو الاعتناء بابني جيداً. وبعد موته، ستصعد روحه هو أيضاً إلى السماء لتحرسكم».

ظل راکعاً هناك ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، يرددّها مئات المرات، لدرجة قد تثير تعاطف تماثيل الأسود الحجرية الرابضة عند مدخل قاعة الأسلاف. تهافتت عليه جماعات من أهل القرية: شيوخ ونساء، كوادِر القرية، والمعلمون، والوجهاء، وعدوه بمسامحته، وطلبوا منه أن ينهض ويعود إلى بيته. لكنه لم ينهض. كان عازماً على الركوع حتى الموت، وأن يموت راکعاً، متوسلاً. وهكذا، مات بطريقة مثيرة للشفقة والتعاطف، مضحياً بحياته من أجل ابنه.

ولهذا السبب تحديداً، استطاع الأعمى الصغير أن ينجو من براثن الموت ومن برد الشتاء ولياليه الطويلة. لم يمِت، لكنه عاش حياة بائسة، حياة معلقة بخيط رفيع منهك، وهذا الخيط قد ينقطع أو يسقط في أي لحظة. في كل مرة عدت فيها إلى مسقط رأسي لاحقاً، كنت أراه يعيش

حياة أسوأ من الموت، وكنت دائماً قلقاً من أنه قد لا يستطيع الصمود، وأنه قد لا يتمكن من البقاء حياً حتى عودتي في المرة القادمة. لكن قدرته على البقاء كانت صلبة للغاية. ربما كانت الحياة الأسوأ من الموت هي التي تجعل القدرة على البقاء قوية إلى هذا الحد، وربما كان ذلك بسبب تضحية والده الأعمى العجوز، أو ربما لم يكن إله الموت يرغب في قبول شخص عاجز مثله. باختصار، كانت حياته تتجدد باستمرار، وكأنَّ هناك حاجزاً زجاجياً يفصل بينه وبين الموت.

طالعت في الصحف أن الزمن لا يرحم، وأن الحياة لا تعود إلى الوراء. في الواقع، الزمن لا يرحم أيضاً. لا أعرف إذا ما كان السبب في ذلك هو عودتي المتكررة إلى الصين أو كان سبباً آخر، ففي عام 2001 شعرت بفقدان الرغبة في التشفي منه، وبالتشبع من مشاعر الكره تجاهه، حدث أن التقيتُ به ذات مرة أمام متجر «النمر القزم»، فصاح نحوي بصوت غير مفهوم كعادته، محاولاً استعطافي. لا أعرف لماذا تعاطفت معه حينها، فرميتُ له ورقتين نقديتين من فئة مئة يوان. وعندما خرجتُ من المتجر، أشار إليّ بيده المتيبسة، محاولاً إطلاعي على سطر من الكلمات كتبها للتو على الطين: «الأقوياء هم من يفضون الطرف عن هفوات الضعفاء، شكراً لك».

لم أشعر بأي شيء حيال هذه الجملة. لم تكن لدي رغبة في أن أكون قوياً في نظره، ولا في أن يشكرني. لكنني لم أتوقع أن أكون أنا الذي أشكر نفسي. هذا الإحسان غير المقصود تجاهه ترك لي شعوراً دائماً بالراحة. هذا انتصار بالنسبة إليّ، لقد سامحته، وسامحت نفسي أيضاً. انتصرت على نفسي التي لم أستطع هزيمتها عقوداً. كان الأمر كما لو أنني خضت معركةً ضارية، مات فيها جميع الأعداء، ولم يبقَ منهم أحد. شعرتُ بالفخر والوحدة في آنٍ واحد. الوحدة هي حديقتي التي بدأتُ أتمشى فيها وأستمتع بالسلام الذي جلبته لي.

قبل مغادرة القرية تلك المرة، تركتُ رسالةً للنمر القزم، أخبرته فيها أن يسمح للأعمى الصغير بأن يأكل ما يشاء من المتجر من الآن فصاعدًا على حسابي. قال النمر القزم: إذن عليك أن تدفع فاتورتين، فسوف آخذ نفسي من المتجر كما يأخذ الأعمى الصغير. قلتُ: لا توجد مشكلة، فقال: اللعنة، يبدو أنك قد صرت ثريًا بالفعل. سألته عن مقدار المال الذي يُعدّ صاحبه ثريًا، فقال إن «اللقيط» يربح الملايين سنويًا، وهذا هو الثراء في نظره. قلتُ إنني لا أربح كثيرًا مثله، ولا أحتاج إلى كل هذا المال. كنتُ صادقًا. في ذلك الوقت، لم أكن أربح سوى مئات الآلاف سنويًا، لكنها كانت كافية بالنسبة إلي. مقارنة نفسك بالآخرين تجعلك محبطًا، لذلك لا أقارن نفسي بالآخرين، بل أقارن نفسي بنفسي فقط. طالعت في الصحف أن السعادة هي أن تُرضي نفسك، لا أن تُرضي الآخرين.

(97)

كان «فم النمر» القزم أشبه بمكبر صوت في المتجر، فعندما عدتُ، علم جميع سكان القرية أنني دفعتُ فواتير حساب الأعمى الصغير كلها. وبالطبع، علم والدي ذلك أيضًا. لذلك كنتُ مستعدًا للتوبيخ قبل أن أذهب لزيارة والدي، فالقاعدة بسيطة: «إذا أحسنتُ إلى الرجل الأعمى الصغير، فهذا بمنزلة عداء له». بدا لي كأنني أسمع توبيخه، فسرت نحو المنزل القديم خائفًا.

كانت هذه آخر مرة أخاف فيها من والدي. كان عمره ثلاثة وثمانين عامًا في ذلك العام، أي قبل ثلاثة عشر عامًا. بدا والدي وقتها كجذع شجرة جاف، يجلس كالعادة في مكانه القديم على الكرسي أمام غرفة جدي، لكنه كان عجوزًا لدرجة تفوق الوصف، فقد زحفت التجاعيد من جبهته إلى أعلى رأسه، وتداخلت تجاعيد وجهه بعضها مع بعض. قبل

ثلاث سنوات، أصيب بجلطة دماغية، ففقد القدرة على تحريك يده اليمنى، ما اضطره إلى تناول الطعام بيده اليسرى، ولم يتعلم استخدام يده اليسرى في أي عمل آخر، حتى غسل وجهه. كانت عيناه قد فقدتا القدرة على الرؤية تقريباً، ولم يكن يرى سوى الموت. كان ينتظر الموت برحابة صدر، لكن الموت كان كشبكة عنكبوت مهترئة معلقة على عوارض الحظيرة، تهتز وتوشك على السقوط، لكنها لا تسقط أبداً، بل تزداد ثباتاً. في كل مرة كنت أذهب لرؤيته، كان والدي يبدأ بالجملة الآتية: «قلت لك ألا تأتي إلى هنا، لمَ جئت؟».

سبق أن قلتُ له ذات مرة: «لأنك لم تمت».

قال: «عدني قد مت».

جعلني قضاء الوقت مع والدي في سنواته الأخيرة أستنتج أن أشد الناس قسوة في العالم هم كبار السن، يليهم الأغنياء. كبار السن يصبحون قساة لأنهم إما يخافون الموت وإما لا يخافونه، والأغنياء يصبحون قساة لأنهم يستطيعون شراء القسوة بالمال.

كنت أتوقع أن يوبّخني، لكنه في الواقع أثنى عليّ، وأشاد بمساعدتي الأعمى الصغير. قال: «من الأفضل أن تطعمه بدلاً من أن تتفق المال على رجل ميت مثلي، فبهذه الطريقة لن تأتي روحه لتضايقنا بعد موته».

بدا أنه كان ينتظر أن يتحدث إليّ. أخبرني وقتها أن العمة لين سبق أن قالت له عندما كانت تبحث عن طبيب للعقيد أنها قابلت طبيباً متخصصاً بعلاج تيبس الأطراف في مدينة شيآن. يُقال إنها رأت هذا الطبيب وهو يعالج امرأة ظلت طريحة الفراش سنوات عديدة فتمكنت من النهوض. كان والدي يعتقد أن الأعمى الصغير لا يعاني من سوى تيبس في الأطراف، وليس طريح الفراش كحال تلك المرأة، لذلك فمن السهل علاجه على يد ذلك الطبيب. كان يأمل أن أذهب إلى العمة لين، وأسأل عن عنوان هذا الطبيب كي استدعيه لعلاج الأعمى الصغير.

قلت: «غريب، لمَ تريد أن تؤدي دور إلهة الرحمة؟».

قال: «أريدك أنت أن تكون كإلهة الرحمة، حتى لا تطاردك روحه بعد موته».

قلت: «ألا تخشى أن يُشفى ويأتي لينتقم منك؟».

قال: «أنا لا أخشى الموت، أنا فقط أخشى أن تعاني أنت من مطاردة روحه».

لم أستوعب كلامه هذه المرة، كيف يُمكن لوالدي القاسي الأناني أن يكون رحيماً بهذا القدر مع الأعمى الصغير؟ الأمر ليس مجرد تعاطف بسيط، وإعطائه بعض الطعام والملابس، بل استدعاء طيب، والسفر آلاف الأميال، وإنفاق المال لعلاج يديه. هل يُمكن أن يطرأ عليه مثل هذا التحوُّل بعد كل هذه السنين؟ كان أمراً لا يُصدَّق بالنسبة إلي. السبب الوحيد الذي خطر ببالي هو أن والدي ربما أراد أن تُشفى يده ليتمكن من الكتابة كي يفسر لنا لماذا نشر الشائعات وروَّج أن الكلمات الموجودة على بطن العقيد تقول إنه شاذ، الأمر الذي تسبَّب في تلك المعاناة لعائلتنا بأكملها.

كان هذا أمراً فكرتُ فيه منذ زمن، ففي عام 1996 ربحت أول مبلغ كبير من تجارة القمامة. أول شيء اشتريته لعائلتي كان جهاز كمبيوتر، لأن أطفالنا يحتاجون إليه للدراسة. لم يكن الكمبيوتر ذا ماركة محددة، بل كان مجمَعاً من ماركات عدة، وكان ثلاث قطع كبيرة. أكثر ما أثار إعجابي هو ما يُسمى وحدة الذاكرة، كانت بحجم الدرج، وهي أصغر القطع الثلاث، لكنها كانت الأثقل، ثقيلةً كما لو كانت ممتلئة بالرصاص، مطليةً باللون الأخضر العسكري، كانت أشبه بصندوق الذخيرة. في ذلك الوقت، لم نكن قد اشترينا منزلنا بعد، وكنا نعيش في منزل حامي. كانت لدينا غرفتان فقط، يسكنهما أربعة أشخاص. عندما اشتريت الكمبيوتر، لم يكن هناك مكان مناسب لوضعه. لم تكن غرفة الأطفال تتسع له إطلاقاً، فاضطررنا

إلى وضعه في شرفة غرفتنا، وكانت الشرفة مغلقة بزجاج يحميها من الرياح والأمطار.

في ذلك الوقت، كان الكمبيوتر شيئاً جديداً ومُغريباً. عندما كان الأطفال يذهبون إلى المدرسة في أثناء النهار، كنت أحاول التدرب على استخدامه. حتى الآن ما زلت أكتب على لوحة المفاتيح بإصبع واحد، الأمر الذي يجعلني أبدو شخصاً جاهلاً. في ذلك الوقت، لم يكن هناك نظام لإدخال الرموز الصينية بالحروف اللاتينية بعد، وعندما كنت أحرك سبابتي المتصلبة على لوحة المفاتيح وأرى الحروف تظهر على الشاشة، خطر ببالي ذلك الأعمى الصغير ويداه المتبستان، فبالرغم من أنه لم يكن يجيد الإمساك بعيدان تناول الطعام، فإن يديه كان بوسعهما النقر على لوحة المفاتيح مثلي. بمعنى آخر، لو كان لديه مثل هذا الحاسوب، وتعلم الكتابة عليه، لكان بإمكان الحاسوب «التحدث» نيابةً عنه.

كانت تلك فكرة خطرت على بالي حينها، لكنها كانت مجرد فكرة. لاحقاً، وبسبب احتياجات العمل، كنتُ أضطر كثيراً إلى التواصل مع الناس عبر البريد الإلكتروني، فاشتريتُ حاسوباً محمولاً. كان بحجم مجلة ورقية ووزنها. أضعه في حقبتي وأحمله بيدي. كان عملياً وأنيقاً. عندما اقترح عليّ والدي الذهاب إلى ذلك الطبيب في شيآن، أريته الحاسوب المحمول الذي كنتُ أحمله معي وقتها، وقلتُ له: «إذا كنتُ تريد منه فقط أن يتكلم، فهذا الجهاز سينجز المهمة». لم يكن الأعمى الصغير أمياً، فقد درس في المدرسة الإعدادية، ويجيد القراءة والكتابة، لذا توقعتُ أنه سيتمكن من «الكتابة» على الحاسوب بيديه المتبستين، و«التحدث» إليّ بهذه الطريقة في غضون ليلتين ليس أكثر.

سألني والدي: ما هذا؟ فعرفته إليه بإيجاز. هزّ والدي رأسه وقال: «لمَ تريده أن يتكلم؟ أريدك فقط أن تعالجه، كي يعيش كإنسان ذي كرامة، حتى لا يأتي ليؤذيك بعد موته، فالإنسان بلا يدين ليس إنساناً».

بعد عام، كان والدي لا يزال يفكر في هذا الأمر قبل وفاته، فسألني: «هل سألت عن ذلك الطبيب في شيآن؟». وعندما رأيته أهز رأسي -في الواقع، لم يكن يرى حينها، بل شعر كأني أهز رأسي- كرّر تلك الجملة مرة أخرى: «الإنسان بلا يدين ليس إنساناً».

كان المعنى واضحاً جداً، ألا وهو أنه لا يزال يريد مني أن أنجز تلك المهمة. الوصية التي تركها لي والدي كانت جملتين، إحداهما: أن أعالج يد الأعمى الصغير، والأخرى: أن أبيع المنزل القديم، أو أن أهدمه إن لم يكن يبيعه ممكناً، لأنه منزل مسكون. كانت الوصيتان مرتبطتين ببعضهما ببعض، والغرض منهما هو منع الأشباح من مطارتي، بما في ذلك الشبح الذي سيُصبح عليه الأعمى الصغير بعد موته.

طالعت في الصحف أن معظم الناس قد يتحدثون طوال حياتهم، ولكن لا أحد ينصت إلا لوصيتهم على فراش الموت، وإذا لم يُنصت أحد إلى وصيتهم الأخيرة، فقد ضاعت حياتهم عبثاً.

كان والدي قليل الكلام في حياته، وكانت كلماته الأخيرة قليلة أيضاً، لذلك كان عليّ أن أنفذ وصيته. لم أكن أعرف هل سأستطيع العثور على هذا الطبيب أم لا، لكن على الأقل يجب أن أذهب للبحث عنه حتى ينام والدي مرتاحاً في قبره. لذلك، وبعد دفن والدي، ذهبت إلى العمة لين لأسأل عن عنوان ذلك الطبيب في شيآن. في ذلك الوقت، كنت أعود كثيراً إلى الصين وأزورها هي والعقيد، على الأقل مرة واحدة كل عام. بعد الذهاب إلى هناك مرات عديدة، علمت أن الأفضل هو أن أذهب في الصيف، ويفضّل أن يكون ذلك في مايو أو يونيو، فهذا هو أفضل موسم لتربية ديدان القز، وهو أيضاً أفضل وقت للعقيد، حينها يصبح كشخص طبيعي، على حد تعبير العمة لين، خاصة عندما يدخل غرفة تربية ديدان القز. لو لم أشاهده بأم عيني، ما كنت لأظن قط أنه يمتلك هذه المهارة، كان بارعاً للغاية في تربية ديدان القز!

أتذكر جيداً تلك المرة الثانية التي زرتهما فيها في منتصف مايو، صارت أشجار التوت التي كانت عارية في المرة السابقة خضراء يانعة حينها، حتى أنه لا يمكن رؤية غصن واحد منها. كانت تلك هي المرة الأولى التي أحضر فيها ثماني حاويات قمامة، كسبتُ بعض المال واشتريتُ علبة من الورق والأقلام الملونة للعقيد. لكن عندما رأيتي العمه لين، قالت لي: «من أين له أن يستقطع وقتاً للرسم في هذا الوقت من العام؟ كان من الأفضل أن تشتري له علبة من الوجبات الخفيفة، فهو يسهر يومياً الآن، والوجبات الخفيفة هي أكثر شيء يعجبه».

بعد ذلك، أخذتني العمه وخرجنا من الباب الخلفي. توجد في الفناء الخلفي غرفة بسيطة لتربية ديدان القز مصنوعة من عيدان الخيزران، فيها صفان من الرفوف الخشبية، وعشرات السلال المصنوعة من شرائح الخيزران، كل منها ممتلئة بديدان القز ذات اللون الأخضر الفاتح. الديدان صغيرة، حساسة للغاية، لا تتحمل البرد أو الحر، وتحتاج إلى درجة حرارة معتدلة -يفضل أن تكون 24 درجة مئوية- وتحتاج إلى تناول الطعام كل ثلاث ساعات، بما في ذلك أوقات الليل أيضاً، وإذا لم تأكل طوال الليل، فستموت وسينتهي الأمر بإطعامها للدجاج في اليوم التالي. كما يجب أن تكون أوراق التوت التي تتناولها طازجة وطرية ومغسولة أيضاً، ولا بد أن تؤكل في اليوم نفسه، لأنها لو أكلت أوراق التوت غير الطازجة أو غير النظيفة فلن تعيش لليوم التالي. ولأنها حساسة للغاية، يجب على مربي ديدان القز بذل كثير من الجهد، بحيث يجمعون أوراق التوت مرتين يومياً، قبل شروق الشمس وبعد غروبها، ويستيقظون مرتين على الأقل ليلاً لإطعامها. باختصار، يجب عليهم الاستيقاظ باكراً والسهر طوال الليل. لذلك عادةً ما يتطلب الأمر شخصين على الأقل لتربية هذا الكم من ديدان القز، لكن العقيد كان يعمل وحده عمل شخصين.

أخبرتني العمدة لين: «نصف عائلات القرية تُربي ديدان القز، ويعرفون أن العقيد هو الأمل في تربيتها، فديدان القز التي يُربّيها كبيرة، وقليلًا ما تمرض، نسبة إنتاجها الحرير عالية، وتُباع بأسعار مرتفعة». سألت: «هل من سر في هذا؟».

قالت: «العمل الجاد، فهو جاد ومطيع كالأطفال. يفعل كل المطلوب بالضبط، ولا يتكاسل أبدًا».

ربما لو قارنته مع الأشخاص العاديين، ستكون نقطة قوة للعقيد -ونقطة ضعفه أيضًا- هي أنه لا يتكاسل، ولا يتحایل مثل الكبار، بل حتى لا يكل أو يمل. سبق أن ذهبت مرات عدة إلى غرفة تربية ديدان القز لمشاهدته. كان يعمل بتفانٍ وتركيز شديد، لا يمكن مقارنته إلا بالآلات. على سبيل المثال: عند قطف أوراق التوت، يقطفها الآخرون في حفنات، لكنه يقطفها قطعة قطعة، ويتخلص من تلك القديمة التي قضمتها الحشرات، وينطبق الشيء نفسه على التنظيف، يغسلها قطعة قطعة، ويحرص شديد، ويُطعم الديدان بتوقيت شديد الدقة وفقًا لساعة المنبه، فبمجرد أن يرن المنبه، يركض لإطعامها. عندما يكون الطقس حارًا، يهوي على ديدان القز بالمرّاح اليدوية، واحدة تلو الأخرى، وعندما يكون الجو باردًا، يستخدم أوراق الصحف القديمة لتغطية الفجوات بين عيدان الخيزران حتى لا يتسرب منها الهواء، ويغطي الرفوف بالقش الجاف لإبقائها دافئة. كان بوسعه البقاء ساكنًا ساعة كاملة يراقب الديدان، ويبكي بشدة لو مات بعضها.

أخبرتني العمدة لين أنها علّمت أعمالًا كثيرة: زراعة الخضراوات، والطبخ، وتربية الدجاج والبط، وحتى تربية القطط، لكنه لم يستطع تعلم أي منها. الشيء الوحيد الذي يستطيع فعله هو تربية ديدان القز. تعلمها بسرعة فائقة، وأحبها بمجرد أن بدأ العمل فيها، وصار منغمسًا فيها، وأصبح أكثر مهارة في تربيتها عامًا بعد عام. بدا كأنه مقدّر له أن يأتي إلى قرية سانغ التي تربي ديدان القز، ليعيش معها هنا ويصبح خبيرًا

في تربية ديدان القز. بدا أيضًا كأنه مقدّر له أن يُظهر مواهبه في جميع المجالات التي عمل بها طوال حياته.

لاحقًا، كنت أزورهما كثيرًا في أثناء موسم تربية ديدان القز. كنت أحب رؤية العقيد مشغولًا في تربية ديدان القز، فتركيزه ومهارته كانا مثيرين للإعجاب، وكثيرًا ما كنت أشعر بالفرح لأجله. لكنني كنت أحيانًا أشعر بالحزن دون سبب، تمامًا كما يحدث عندما أرى ابنتي التي تحب اللهو وهي تجلس لتُجز واجباتها المدرسية بجدية أكبر من المعتاد بعد أن تعرّضت للضرب والتوبيخ. كان الشعور بالفرح والحزن متشابكين كالثلج والنار. غالبًا ما كان عقله الطفولي وسلوكه الناضج أمام ديدان القز يُثيران في قلبي نوعًا من الشجن غير المتوقع. ذات مرة، رأيته يتصبّب عرقًا بغزارة ويهويّ على ديدان القز بالمروحة اليدوية طوال مدة ما بعد الظهيرة. حزنت بشدة حتى أنني لم أستطع منع نفسي من معانقته والانخراط في البكاء، لكنه نظر إليّ وطالبني بالصمت وهو يقول: «لا تُصدر أي ضجيج، فديدان القز نائمة».

طالعت في الصحف أن الحياة مُرهقة للغاية، لكن الناس يستمرون في العيش بسعادة. أليست هذه المقولة تتحدث عن العقيد في سنواته الأخيرة؟ كنت أعدّ العقيد في سنواته الأخيرة بمنزلة أب، لذلك أحرص دومًا على زيارتهما، وأبذل أقصى جهدي لأكون بارًا بهما.

هذه المرة، ذهبتُ لزيارتهما حاملًا معي نبأ وفاة والدي ووصيته الأخيرة. ما إن وصلت إلى القرية حتى التقيتُ بالعقيد. رأيته يسير محني الظهر يحمل في يده سلة من أوراق التوت. كان قد عاد لتوه من عند أشجار التوت. تقدّم به العمر بشكل ملحوظ في العامين الماضيين. انكمش جسده، وانحنى ظهره، وغطّت بقع الشيخوخة وجهه ويديه، لم يعد قويًا كالسابق، وصار غير قادر على حمل أشياء ثقيلة، ولم يعد بإمكانه سوى حمل سلة لقطف أوراق التوت، فانخفض عدد ديدان القز التي

يربيها انخفاضاً حاداً، وبدأت جودة إنتاجها بالتراجع أيضاً، وذلك بسبب أنه لم يعد يسمع صوت المنبه في كثير من الأحيان. لكنه ظل الوحيد في القرية الذي لا يزال يربي ديدان القز في مثل هذا العمر، فهو قد تجاوز الثمانين من عمره، وكونه لا يزال على قيد الحياة هو بمنزلة إنجاز. قالت العمة لين إن ذاكرته وإدراكه يتراجعان أيضاً. أصبح الآن كطفل في الثالثة أو الرابعة من عمره. لم يعد قادراً على النطق بجمل طويلة. صار ينسى بسرعة، حتى أنا الذي كنت أزوره كل عام نسيني أيضاً، وصار يشعر بالرهبة عندما يراني. أحياناً كان يختبئ مني حتى إن بقيت يوماً كاملاً، ولا يقترب مني أبداً. أما العمة لين، فلم تتغير كثيراً. لا تزال نحيفة نشيطة كما كانت دائماً. تبدو عجوزاً لم يبقَ منها سوى هيكل عظمي، لكنها لا تزال تتحدث وتتصرف بوضوح وتنظيم ونشاط.

عندما حدثتها عن وصية والدي وسألتها عن ذلك الطبيب في شيآن، لم تتذكر عنوانه إطلاقاً، فقط كانت تتذكر وجود مثل هذا الطبيب. قالت: «لكن الطبيب مهما كان بارعاً لا يستطيع أن يُطيل عمر نفسه، أتذكر أنه كان في السبعينيات أو الثمانينيات من عمره آنذاك، ومن المفترض أن يكون قد رحل الآن».

في الواقع، حتى إن كان لا يزال حياً، وما زالت تتذكر عنوانه، فمن المستحيل العثور عليه، فأغلب العناوين القديمة في الصين لم يعد من الممكن الوصول إليها. إضافة إلى ذلك، حتى إن كان لا يزال حياً، وعثرت عليه، أو حتى إن عثرت على طبيب أمهر منه، أعتقد أن لن يُجدي نفعاً في علاج يد الأعمى الصغير. فعلاج إصابة قديمة مضى عليها سنوات طويلة أمر مستحيل، والمنطق السليم يُخبرني أن أمنية والدي لا يمكن تحقيقها. العمة لين طبيبة في الأصل، وهي أكثر يقيناً مني بعبثية هذا الأمر. قالت: «من يقول إنه يستطيع مساعدتك في تحقيق هذه الأمنية ليس طبيباً، بل مخادع وكاذب كبير، لقد أصيب والدك بالخرف، وما قاله يُظهر

أن ذكاءه يُقارب ذكاء العقيد».

أعلم أن عليّ أن أبذل أقصى جهدي لتحقيق أمنية والدي الأخيرة، لكنني لا أستطيع.

عندما ودعتهما هذه المرة، كان العقيد يتناول غداءه، رأيته يتناول كميات كبيرة من الطعام، تفوق ما أتناوله عادة. رافقتني العمّة لين إلى الباب وقالت مبتسمة: «انظر إلى شهيته. لقد صرت قلقة من أنني لن أعيش أطول منه، وسأموت قبله».

كانت هذه الكلمات مثل أشباح تتجول في هذا المنزل البارد. في كل مرة أدخل فيها إلى هذا المنزل، كنت أصطدم بها. وعندما أصطدم بها، كنت أرى وجه العمّة لين كأنه مغطى بغيوم داكنة، وأشعر بقلبها كأنه يحترق خوفاً. أحياناً كان هناك خطان من الدموع على وجهها، يحاولان السيلان نحو الأسفل، أحياناً كنت أشعر أنهما قطرتان من الدم، وأحياناً كنت أشعر أنهما بمنزلة حياتهما، حياة شخصين، يعيشان حياة صعبة، وحيدين، بئسين، بئسين لدرجة أنه لا يمكنهما التغلب على الدموع بسوى الدموع، والتغلب على الوحدة بسوى الوحدة.

(99)

بعد وفاة والدي، انتقل ابن أخي أيضاً من القرية واستقر في المدينة. كان يعود لزيارة القرية أحياناً، لكنني كنت أعود لزيارة المقابر فقط في عيد كنس القبور. كانت هذه أيضاً إحدى وصايا والدي؛ بيع المنزل القديم وتقليل زيارة هذه القرية. نفذت هذه الوصية بحزم، على عكس وصيته الخاصة بعلاج يد الأعمى الصغير، فقد فعلتها بالنية فقط، ولم أبذل جهداً حقيقياً لتنفيذها. لكن لا بد من القول إن إمكانية تنفيذها شيء، وبذل جهد لتنفيذها شيء آخر: لم أبذل الجهد المطلوب، وأحياناً كنت أشعر بالذنب تجاه ذلك، وهذا أيضاً أحد الأسباب التي منعتني من العودة

إلى القرية، لأنني كنت أرى الأعمى الصغير دائماً عندما أعود، وعندما أراه، يمتلئ قلبي بالشعور بالذنب، لذا كان من الأفضل ألا أراه. كما أن مصانع الورق هنا كانت قد انتقلت إلى جيانغشي وأنهوي بسبب ارتفاع تكاليف العمالة والأراضي، ومن ثم نقلت شركتي أيضاً إلى هناك، وتركت ابن أخي ليدير هذه الشركة الصغيرة في مسقط رأسي، بحيث صار بوسعي الاستغناء عنها تماماً.

بعد سنوات عديدة من وفاة والدي -أعتقد كان ذلك في صيف عام 2008- كنت أتحدث مع صديق على برنامج التواصل QQ في أحد الأيام، وفجأة ظهر على نافذة رسائل البرنامج شخص جديد يستخدم اسماً مستعاراً هو «الحشرة المسكينة»، ناداني باسمي وقال إنه يريد التحدث معي، وطلب مني إضافته. تجاهلته، ظناً أن هناك كثيرين يعرفون اسمي، لذا من الأفضل ألا أرد عليهم، فلم يكن لدي وقت للتحدث مع أشخاص مجهولين. لو كنت صديقي بالفعل، فعليك أنت تخبرني اسمك.

بدا أن هذا الشخص قد فهم أفكارني، فأرسل لي رسالة على الفور يقول: «قال جدك ذات مرة: لا تتكبر، فالعالم أكبر مما تتخيل». سبق أن قال جدي هذا الكلام بالفعل، وعلى ما يبدو أن هذا الشخص من قريتي. إن لم يكن صديقاً، فلا بد أنه من أهل قريتي.

كتب هذا الشخص سطرًا آخر يقول: «لا تتكبر على أهل قريتك، حتى إن صعدت إلى القمر، فأسلافك أنفسهم تحت التراب». بالاستماع إلى نبرة هذه الجملة وفحواها، علمت أنها تخص جدي أيضاً، فقد سبق أن ترك لي جدي عبارات مشابهة كثيرة في حياته، لتكون دليلاً لي في تعاملني مع الآخرين.

وافقت على إضافته وسألته: «من أنت؟».

أجاب على الفور: «هلا خمنت!».

«هل أنت ابن عمي؟».

كتب الآخر بطريقة أسرع مني يقول: «هل تشفق على ابن عمك؟ حتى أنك فكرت فيه عندما رأيت اسم الحشرة المسكينة على الإنترنت، ابن عمك مشغول للغاية، يستيقظ باكراً وينام متأخراً، يجمع القمامة من أجلك، فكيف يجد وقتاً للدخول إلى الإنترنت».

بناءً على أخطائه في الكتابة، علمت أنه يستخدم طريقة إدخال الرموز الصينية بالحروف اللاتينية.

سألني ثانية: «خمن مرة أخرى، حاول أن تخمن».

خمنت أربع أو خمس مرات، لكن لم تكن أي منها صحيحة.

بدا واثقاً للغاية وهو يقول: «أنا متأكد أنك لن تستطيع التخمين بشكل صحيح، حتى إن حاولت مئة مرة».

في الواقع، لم أستطع تخمين من هو مهما حاولت، حتى إن فعلت مئة مرة أو ألف مرة. كان الأعمى الصغير!

ذلك المسكين الذي لا يستطيع حتى حمل وعاء الطعام بيديه، أصبح الآن ينافسني في سرعة الكتابة على لوحة المفاتيح. كيف لي أن أخمن من هو؟ لقد تغير الزمن، وتوَّعت طبيعة الفقر والفقراء، حتى أن معظمهم صارت لديه أجهزة الكمبيوتر واتصال بالإنترنت. كان الإنترنت قد وصل إلى القرية، وصار لدى كل منزل خط، وصار العالم بأكمله داخل خطوط بالإنترنت هذه. كان «اللقيط» هو من أهدها جهاز الكمبيوتر، كمبيوتر مكتبي مهمل لم يعد بحاجة إليه. لو تخلص منه لصار قمامة، لكنه أصبح كنزاً للأعمى الصغير الذي كان يلهو به كل يوم. كانت يده عديمتي الفائدة عقوداً، وأخيراً أصبح لديه شيء يلهو به، وكان هذا الشيء ساحراً لدرجة أن النقر عليه بأصابعه كان أشبه بالتحدث بفمه إلى الآخرين. وعندما يدخل إلى الإنترنت، كان بإمكانه التحدث مع أشخاص من جميع أنحاء العالم. علمتُ لاحقاً أن لديه مجموعة أصدقاء على برنامج QQ تضم أشخاصاً من جميع الأطياف، من ليوناردو دافنشي إلى تشين شيهوانغ، ومن

دو شينيانغ إلى الملكة إليزابيث، ومن وحوش خيالية إلى نجوم مشهورين، كانت لديه تشكيلة باهرة من الأسماء على الإنترنت. كانت صورة الملف الشخصي له على برنامج QQ طائر بطريق جائعًا بجناح مكسور، ربما كانت يشير إلى وضعه الحالي؛ يديه عديمتي الفائدة وبطنه فارغ.

لكنه وجد عالمًا افتراضيًا يلجأ إليه، وصار هناك كثيرون حوله يدعمونه. تظاهر بأنه عرّاف من عائلة متخصصة بالعرافة، يتحدث عن الحياة والموت مع هذا الشخص، وعن التضحية مع ذاك. كان مشغولاً للغاية، يعيش متصلًا بالإنترنت طوال الوقت تقريبًا، وكان لديه شخصيات عدة تتناوب الدخول على الإنترنت، وكان قادرًا على الإجابة عن أي سؤال بطلاقة. لقد حطمت الحياة وجعلته يعيش كشبح حي، كأنه وجد ضالته بعدما عاش سنوات طويلة بين الحياة والموت، لكن تجربته الحياتية جعلت منه شخصًا حكيمًا مستديرًا. صار يتمتع بشعبية كبيرة على الإنترنت، وكان عالمه الخاص، هذا العالم الافتراضي، جعله مفعماً بالطاقة والحيوية. لاحقًا، غيّر صورته واسمه على الإنترنت من «الحشرة المسكينة» إلى «الحشرة القابلة للتواصل»، وهو ما كان تلميحًا آخر لوضعه الجديد: لم يعد مثيرًا للشفقة، بل صار لديه أصدقاء من جميع أنحاء العالم، ولم يعد قلقًا بشأن الطعام والشراب، فبحسب ابن أخي، كان هناك من يتبرع له بالمال عبر الإنترنت، وهناك من وقع في حبه. من بينهم فتاتان قفزتا بشجاعة من العالم الافتراضي وجاءتا إلى القرية للقاءه. وبالرغم أنهما رفضتا لاحقًا، فإنه لم يئس أو يحزن إطلاقًا. كان يؤمن بأن هناك من سيأتي وسيبقى معه حتى النهاية.

طالعت في الصحف أن الإنترنت جعل أعدادًا لا تُحصى من الناس يموتون في انتظار الأمل، وآخرين يولدون وسط اليأس.

وفي أثناء مسار تحوُّله من «الحشرة المسكينة» إلى «الحشرة القابلة للتواصل»، كان يتواصل معي بين الحين والآخر، لكن لم يكن لدي وقت

للحديث معه، كنت أكتفي بالتحدث معه بعبارات مقتضبة. بعد حلول الشتاء، نزلت في أحد الأيام في فندق في شينيو بمقاطعة جيانغشي. تصادف أن الثلج تساقط في الخارج يومها، ولم يتمكن الشخص الذي اتفقت على لقائه في الفندق من الحضور، فجلست أتصفح الأخبار على الإنترنت، وتصادف حينها أيضاً أن تحدثت معي ثانية. كان الوقت مناسباً، فبدأت بالحديث معه. وبينما كنا نتحدث، خطرت لي فكرة، فكتبتُ سطرًا وأرسلته إليه: «لطالما أردتُ أن أسألك سؤالاً، يمكنك الإجابة إن شئت، ولا يهم إن لم تُرد، والسؤال هو: كيف تمكنت من رؤية الكلمات الموشومة على بطن العقيد؟ وما الذي حدث في تلك الليلة؟».

- «لحسن الحظ أنه صار مجنوناً الآن، فأنا وحدي من يستطيع الإجابة عن هذا السؤال».

- «دعني أصح لك، هذا ليس حسن حظ، هذه مصيبة».

- «نعم، لقد جعلني تغيثاً، عانيت طوال حياتي، ولكن لأن أحواله صارت أسوأ مني في النهاية، على الأقل لم أفقد عقلي مثله، لذلك لم أعد أعاني، وأشعر أن هذا من حسن حظي».

- «أنت الآن في الستين من عمرك تقريباً، ألا تمتلك أي تعاطف تجاه الآخرين؟».

- «شكراً لتعاطفك معي، لكنني لن أتعاطف مع أحد، تعاطفي مع الناس أمر غير منطقي، هل رأيت الفقراء يتعاطفون مع الأغنياء؟ أنا لست مؤهلاً للتعاطف مع أحد، لكنك مؤهل لذلك، شكراً لك مجدداً على تعاطفك معي».

- «توقف عن الحديث بهذه الطريقة؟».

لم يوافقني الرأي واستمر في التحدث بتلك الطريقة المستفزة، كان معظم حديثه هراء، وكلاماً بذيئاً، وتعليقات ساخرة. وعندما هددته بالخروج من المحادثة، توقف وعاد إلى صلب الموضوع.

- «حسنًا، دعني أخبرك ما حدث. في تلك الليلة شرب كثيرًا من الخمر، أضف إلى ذلك أنه لم يكن قد نام جيدًا بضعة أيام، فنام نومًا عميقًا وشخر بصوت أعلى من الرعد. رأيت الكلمات الموشومة على بطنه وهو يستحم، لكنني لم أستطع قراءتها بوضوح. رأيته نائمًا بعمق، مرتديًا سروالًا قصيرًا واسعًا، وكان مقيّد الأيدي حينها. كان الوضع مغريًا جدًا بالنسبة إلي كي أسترق النظر إلى تلك الكتابة. فتحت الباب ودخلت. أمسكت في البداية بعضًا ووخزته بها كي أتأكد من نومه. لم يستجب بعد أن وخزته مرات عدة، فعلمت أنه غارق في النوم. فأنحيت وفككت حزامه بحرص، ثم نزعته سرواله بكل سهولة، لكنني لم أكن أتوقع أنه كان يرتدي لباسًا داخليًا ضيقًا. لم يكن لباسًا داخليًا فضفاضًا كالذي كنا نرتديه حينها، بل كان نوعًا من الملابس الداخلية الضيقة، ضيقًا وعالي الخصر، قريبًا من السرة. لم يكن خلعه سهلًا كالسروال الخارجي. لكنني خلعت مع ذلك، فهو ثمل غارق في النوم ولن يشعر بشيء».

كانت هناك أخطاء إملائية كثيرة في كتاباته، وكان يخوض في تفاصيل لا فائدة منها. المهم هو أنه أخبرني في النهاية أنه على الرغم من ضوء القمر ذلك اليوم، فإن الغرفة كانت لا تزال مظلمة ولم يستطع رؤية الكلمات بوضوح. ولحسن الحظ أنه كان قد أحضر معه مصباحًا يدويًا، وكان يمسكه بيده طوال الوقت، تحسبًا لأن يستيقظ العقيد، حينها يمكنه استخدامه سلاحًا لضربه.

- «لاحقًا، لا أعلم ماذا حدث للمصباح اليدوي، كان ضوءه ساطعًا بشدة، وتصادف أن كان العقيد حساسًا للغاية للضوء، فبينما كنت أهم بتسليط الضوء على تلك الكلمات، استيقظ فجأة وركلني أرضًا. كان قويًا لدرجة لا تُصدق. قلب عجلة طاحونة الهواء التي قيّدناه بها. ثم ضربني بها فأسقطني بعدما هممت بالوقوف. وقبل أن أتمكن من النهوض ثانية، كان قد فك الحبل الذي يقيده، ثم لكمني وركلني مرات عدة، وفي النهاية

داس جسدي بقدمه وسألني عما رأيته. قلت إنني لم أر شيئاً. والحقيقة هي أنه بالرغم من أنني رأيت تلك الجملة، فإن الوقت كان قصيراً للغاية، كما أنها كانت مكتوبة بالرموز الصينية التقليدية، وفي وضع مقلوب بالنسبة إلي. بعض الكلمات كانت مشوهة بالندوب، لذلك لم أر الجملة بوضوح. أما الكلمات التي على جانبي السهم، فلم أنتبه لها إطلاقاً. كنت أصب تركيزي على تلك الجملة، لذلك لم أر شيئاً، لكنه لم يصدقني، ضربني بشدة، وهددني، وأصرّ على أن أخبره ما رأيته، لكنني لم أر شيئاً كي أخبره، ومهما شرحت له لم يصدقني، كان متأكداً أنني رأيت الكلمات، ويخشى بشدة أن أكون قد قرأت المكتوب كله، فحاول قتلي، لكنني حقاً لم أكن قد رأيته بوضوح فعلاً، لقد أذاني بالخطأ، لو لم يفعل ذلك لانتهى الأمر حينها، هذا الأحمق الذي يخال نفسه ذكياً هو الذي أذاني وآذى نفسه».

رأيت هذه الليلة في كوابيسي وخيالاتي مرات لا تحصى، لكن هذه التفاصيل والأحداث -كون العقيد قد آذاه بالخطأ- هي شيء لم أكن لأتخيله قط. أعتقد أنه كان يقول الحقيقة لسببين؛ أولاً، كنت أفتهم نفسية العقيد آنذاك، فجملة مقرزة للغاية كهذه، واسم خائنة موشوم على ذلك المكان الحساس في جسده، كانت أشبه بقنبلة قابلة للانفجار في أي لحظة في ذلك العصر الذي كانت فيه حاسة الشم السياسية لدى الجميع أقوى من أنوف الكلاب، فكيف يمكنه تجاهل الأمر؟ يجب نزع فتيل قنبلة هذا الأعمى الصغير. لذلك قرر إيذاءه بدلاً من إطلاق سراحه! وثانياً، لو كان الأعمى الصغير قد رأى حقاً تلك الجملة أو اسم الخائنة، لما احتاج إلى اختلاق أي هراء عن الشذوذ. كان بإمكانه فضحه بكل بساطة، فتلک الجملة أو اسم الخائنة وحده كان كفيلاً أن يجلس العقيد على خازوق العار المخصص للخونة. لذا، سؤالي الآن هو:

- «كنت تعلم أن الكلمات على بطن العقيد لا علاقة لها بالشذوذ، فلم أصررت على أنه شاذ؟».

- «لأن والدك شاذ».

- «هراء!».

- «أنت لا تُصدق ذلك، صحيح؟ أقول لك، هذا صحيح تمامًا، ولتحلّ عليّ لعنات السماء لو كنت أكذب».

كان الأمر هراء محضًا بالنسبة إليّ، فتظاهرت بالغضب والانزعاج الشديد، وتجاهلته.

بعد برهة، أرسل لي فقرة طويلة، بالطبع كانت ممتلئة بالهراء والأخطاء الكتابية:

«أتعلم، والدك كالكلب الذي لا ينبح لكنه يعضّ أكثر من غيره، أضف إلى ذلك أنني كنت كمن حرّك قطعة الجبن الخاصة به بعد تعذيبي العقيد، لذلك كنتُ خائفًا بشدة منه بعد عودتي إلى القرية من المستشفى، خمنتُ أنه سينتقم مني بالتأكيد، لم أتوقع أن يكون بهذه القسوة، وبهذه الطريقة الفظة، كانت المرة الأولى التي تتمرّ فيها عليّ في اليوم الثالث بعد خروجي من المستشفى وعودتي إلى منزلي، خرجتُ أول مرة للذهاب إلى المتجر لشراء سجائر، انعطفتُ إلى ممر قاعة الأسلاف، فظهر فجأة كالشبح، أمسك بي وألقاني أرضًا، وجرّني نحو كومة من روث الكلاب، وأمسك برأسي وجعلني أكل من روث الكلاب. في المرة الثانية، جعلني أكل روث البقر، وقال إنه سيجعلني أكل روث جميع الحيوانات في القرية كي ينتقم من أجل المجنون (العقيد). كنت أخافه بشدة لدرجة أنني لم أجرؤ على الخروج وحدي مدة طويلة. لاحقًا، ومع مرور الوقت، تجرأت وبدأت أخرج وحدي مجددًا. وفي أحد الأيام، كان يحرس بوابة منزل المجنون. وبمجرد أن مررت من هناك، جرّني إلى البوابة ثم إلى داخل المنزل. هزّزت رأسي بشدة خوفًا أن يُجبرني على تناول الروث مجددًا. لكنه فجأة أنزل سروالي ومارس معي الشذوذ، وكانت هذه هي المرة الأولى».

بعد ذلك، ورغم أنه كان دائماً في حالة استعداد لأي سؤال أسأله، فإنه كان دائماً عاجزاً عن الدفاع عن نفسه، وظل يهاجم مراراً وتكراراً. تكلم بتفاصيل جعلتني أشعر بالغثيان وأُغلق الحاسوب، لكنني لم أستطع إلا أن أستمر في قراءة ما أرسله:

«في ذلك الوقت، لم أكن أعلم أن الكلمات الموشومة على جسد المجنون ستُدينه، لكنني اشتبهت في أن هذه الكلمات مرتبطة بالشذوذ لأن والدك اغتصبني، لا أستطيع التحدث، ولا الكتابة، فكيف لي أن أتحدث بوضوح عما حدث من والدك، ولأن لا أحد يعرف بالتحديد ما هو مضمون الكلمات الموشومة على جسد المجنون، لذا اختلقت تلك العبارة التي تفيد بأنه شاذ، وحينها سيظن الجميع بطبيعة الحال أن والدك شاذ أيضاً، فقد كانت هناك بالفعل قبلها شائعات منتشرة في القرية عن علاقتهما، ظن والدك أنني لا أستطيع فضحه، لكنني لجأت إلى حيلة غير متوقعة، وضربت عصفورين بحجر واحد»، ثم أرسل بعدها عدداً من الرموز التعبيرية الضاحكة الباكية.

كان الثلج يتساقط في الخارج، والجو بارداً في كل مكان، لكن النيران كانت تتأجج في قلبي. صررتُ على أسناني وأخبرته أن والدي كان قد طلب مني أن أعالجه قبل موته، ثم انهلت عليه بالسباب. تخيّل لو كانت أكاذيبه هذه قابلة للتصديق، فلم يطلب مني لي والدي علاجه؟ فوفقاً لأخلاقه البذيئة هذه، كان سيضرب والدي حتماً إذا شُفيت يده، وقد يكتب شكوى لمقاضاته. كيف يُعقل هذا؟ حتى إن كان والدي عجوزاً خرفاً، فلا يمكن أن يصل به الخرف إلى هذا الحد. اللعنة، كنت غاضباً بشدة، لقد مات والدي، لكنه لا يزال يُصرّ على إهانته بهذه الطريقة القذرة. لقد كان والدي أعمى حقاً، يوصيني به قبل موته، لدرجة أنني شعرت بالذنب لعدم بذلي جهداً كافياً لتنفيذ وصيته.

لم أتوقع منه أن يستمع لصوت ضميره، لكن على الأقل كان عليّ أن أكشف أكاذيبه بأدلة دامغة حتى ألقنه درسًا في الأخلاق. لا توجد أكاذيب دامغة، بل أدلة دامغة. ففي مواجهة الأدلة، تُعدّ الأكاذيب شيئاً عديم الفائدة، مثل هذا الشخص تماماً!

لم يتوقف عند هذا الحد، بل تمادى في بذائه، واخلق أكاذيب أكثر وقاحة.

«نعم، أصدقك، فقد سبق أن أخبرني والدك سرّاً أنه سيعالجني. كان يعتقد أنني لن أنتقم منه بسبب علاقتنا. لكنه في النهاية، نقل لي المرض، لا يمكنك تخيّل الأمر، أليس كذلك؟ لا يمكنك فهم هذا النوع من الأشياء دون تجربة. كنت أكرهه بشدة في البداية، لكن لاحقاً، تغيرت الأمور. عندما تُهمل تماماً، وتصبح كالقمامة، أسوأ من الخنازير والكلاب، وتعيش حياة أسوأ من الموت، وتجد بعدها شخصاً يحتاج إليك ويعاملك معاملة جيدة تسعاً وتسعين مرة، ومرة واحدة معاملة سيئة، فماذا ستفعل؟ ستبتلع الشيء السيئ وتستمتع بالتسعة والتسعين الأخرى. ثم تعتاد ذلك الشيء السيئ تدريجياً، وتُصبح مدمناً. لقد درّبني لأصبح الشخص الذي أراده. بصراحة، لا أكرهه إطلاقاً، لأنه لو لم يدعمني ويعاملني جيداً، لكنت قد تضرّرت جوعاً، وتجمّدت حتى الموت، ومُت بسبب المرض. لقد تمكنت من العيش حتى اليوم بفضل والدك. ولكي يُعيلني، نهب ممتلكات عائلة المجنون، بما فيها ذهبه الثمين، وحقيبة أدواته الجراحية المصنوعة من الذهب، سرقها وباعها».

«هراء! هراء!»

اللغة، ألا تستحي من الحديث عن الذهب وأنت بهذه الحقارة؟ اللغة! أتظن أنني لم أرَ هيئتك الرثة من قبل، كنت كرهه الرائحة، أسوأ من الخنازير والكلاب، ومع ذلك تقول إن هناك من كان يُعيلك؟ أعلم جيداً أن والدي كان يخشى أن تصبح شبحاً شريراً بعد الموت وتأتي روحك

لتؤذيني، لذلك كان يريد إرضاءك كي يجعلني أعيش في سلام بعدما تموت. يمكنك أن تسأل الشرطي العجوز هل العقيد شاذ أم لا، بالطبع لا! لا مئة مرة! إذا لم يكن العقيد شاذًا، فكيف يكون والدي شاذًا؟ أيها الوغد، انظر إلى ما كتبته للتو، هل هناك عبارة مما قلته صحيحة؟ أنت تتحدث بهراء طوال اليوم لمجرد الاحتيال على الناس، والآن تريد ابتزازي، أليس كذلك؟ اذهب إلى الجحيم!».

في تلك اللحظة، انتابتي رغبة عارمة في أن أسبه بأقذع الألفاظ. أردتُ أيضًا أن أوبّخ نفسي، وكذلك والدي الميت على معاملتنا الحسنة له بعد عودتي! لكنني ترددتُ، وأغلقتُ الحاسوب بغضب، كان هذا قرارًا حكيمًا، قرارًا لا خيار فيه.

حالما أغلقتُه، شغلته مجددًا، واتصلتُ بالإنترنت، وحذفتُه من قائمة الأصدقاء بضغطة زرٍ عنيفة. بدا لي أنني لا أستطيع التنفيس عن غضبي إلا بهذا الفعل، كما لو أنني قتلته بهذه الطريقة، وكان ذلك مُرضيًا بالنسبة إلي. هل قتلته بهذه الطريقة؟ عليّ أن أقر بأن الإجابة لا. بصراحة، كان الأمر صعبًا للغاية، كصعوبة تخلص الشخص من ظله. كان والدي يخشى أن يُصبح شبحًا بعد موته ويعود ليؤذيني. لكنه في الواقع، أصبح شبحًا شرييرًا قبل موته، يتسلل دائمًا إلى داخلي، يعضُّني، ويهينني طوال الوقت. حاولت أن أعثر في الصحف على جملة لأعزي نفسي، لكنني لم أعثر على جملة مناسبة.

(100)

الساعة الآن 9:43 مساءً، الثاني من ديسمبر عام 2014 بتوقيت بكين. في هذا التوقيت، توفي العقيد.

توقفت آخر نبضات قلبه له دون شعور بألم أو خوف. كان جسده مسجى على سريريه مغطى ببطانية كشمير زرقاء داكنة، وكنت أنا والعمة

لين بجانبه. امتلأت الغرفة برائحة مكتومة من احتراق الشموع حولنا، وكانت العمة لين تؤدي واجبها بوصفها طبيبة لزوجها للمرة الأخيرة. وضعت السماعة الطبية في أذنيها، ووضعت رأس السماعة عند الشريان الأيسر من رقبتة لتستمع إلى نبضات قلبه، ثم وضعت السماعة، ونظرت إلى ساعة المنبه بجوار السرير وقالت لي بصوت خافت: «9:43، لقد رحل».

وُلد العقيد في السنة السابعة من جمهورية الصين، أي عام 1918 وعاش قرابة قرن من الزمان. لقد عاش عمرًا مديدًا يفوق تصور كل من عرفوه، وصاروا الآن في قبورهم ينتظرون قدومه: رفاق، أقارب، أصدقاء، أعداء!

في كل مرة زرتهما فيها في أثناء تلك السنوات، كانت العمة لين تقول لي دائمًا: «لديه قدرة فائقة على الحياة». لكن بينما كان على وشك بلوغ سن المئة، تعثر وسقط في أثناء نزوله على الدرج قبل أربعة أيام، فسقط وتدحرج، وفقد وعيه على الفور.

العمة لين طبيبة. كانت تعلم أنه سيموت هذه المرة، فنظّفت جسده، وجّهزت كفنه، وبقيت بجانب سريريه تنتظر خروج آخر أنفاسه، لكن أنفاسه الخافتة استمرت أربعة أيام أخرى. كنت في الصين حينها، فهرعت لتوديعه في اليوم التالي. في أثناء تلك الأيام الثلاثة، قالت لي العمة لين عشرات المرات على الأقل: «لديه قدرة فائقة على الحياة»، وقالت لنفسها أيضًا: «لقد تفوقت عليه هذه المرة». ارتسمت على وجهها علامات الارتياح، وكأنها حظيت بنعمة عظيمة كونها لم تمت قبله وبقيت بجواره حتى آخر لحظة.

جئتُ لأقدم بعض المساعدة، لكن لم يكن هناك ما أفعله، فالعمة لين كانت قد أنجزت كل ما يتعلق بما بعد وفاته قبل وصولي، من جمع متعلقاته كلها، وصولاً إلى قص أظفاره، بل وحتى شعر أنفه. كانت المقبرة

قد اختيرت قبل عشر سنوات، في مقابر الجبل الخلفي في مسقط رأسي، على سفح جهة الشرق. بُنيت المقبرة ونُحت شاهدها، بما في ذلك شاهد العمّة لين، فهي زوجة العقيد، وبدهي أن تُدفن في قريتنا. ولا يزال صراخها في جنازة والدّة العقيد يتردد في سماء مسقط رأسي وعلى ألسنة كبار السن هناك، وجميعهم سيشعرون بالفخر لدفنه بجوار امرأة مخلصّة مثلاً.

لثلاثة أيام، لم يكن لديّ سوى مهمّة واحدة، مرافقة العمّة لين في انتظار أن يلفظ العقيد أنفاسه الأخيرة. لم نتوقع أن يتأخر هذا الموعد هكذا، فكما كانت ولادة العقيد ولادة شاقّة بسبب وضعه غير الطبيعي وهو جنين، فقد كان موته أيضاً اختباراً كبيراً لصبرنا. كان دماغه قد مات بالفعل، ولم تبقَ سوى نبضات قلبه ودرجة حرارة جسمه. بين الحين والآخر، كانت العمّة لين تتحسّس جبهته وتمسك بيده لتشعر بتدفق الدم في عروقه. في اليوم الأول، جلست أنا والعمّة لين متقابلين على حافة السرير، وبالكاد كنا نتحدّث ببعض الكلمات. ربما شعرنا أن هناك حاجة إلى توديعه في مراسم صامته. كان المصباح الزيتي وزوجان من الشموع الحمراء مشتعلة في الغرفة، وهي أيضاً مراسم متعارف عليها وقت احتضار الميت. ريف شنغهاي يكون رطباً وبارداً في ديسمبر، وهو ما حبس الرائحة الخانقة لزيت المصباح والشموع المحترقة داخل الغرفة، الأمر الذي جعلنا نشعر ببعض الاختناق، لكن الرائحة لم يكن بوسعها التأثير في العقيد الذي يحتضر.

في أثناء الليل، نمت على الأرض كالعادة في غرفة ألعاب العقيد، ونامت العمّة لين بجواره ممسكة بيده طوال الليل، كما لو كان في غيبوبة حمى. في صباح اليوم التالي، ذهبُ لرؤيتهما. كانت العمّة لين جالسة أمام السرير، ممسكة بيده. عندما رأتي، كان أول ما قالته: «يبدو أن نبضه أقوى من أمس». أما الجملة الثانية فهي الجملة القديمة نفسها: «لديه

قدرة فائقة على الحياة». كانت هاتان الجملتان بمنزلة بداية لطقوس جديدة، فبدأنا نتحدث بعدما كنا قد اعتدنا الصمت وقت الجلوس بجواره. لقد أفرغتنا اللقاءات العديدة على مر السنين الماضية من أحاديثنا، فلم نجد ما نتحدث عنه سوى أمور قديمة. لكن في وقت متأخر من عصر اليوم التالي، حدثتني عن أمر جديد، صادف أنه تطرَّق إلى أمر كنت دائماً أعجز عن الحديث عنه.

في ذلك الوقت، لاحظت العمة لين أن نبضه أصبح ضعيفاً، فأخبرتني بلهجة طبيب محترف: «لا أعتقد أنه سيعيش للغد». كانت هادئة كالأطباء، لا يبدو عليها ألم أو خوف. أرادت النهوض، لكنها بدت ملتصقة بالكروسي فمدَّت يدها إليَّ لأساعدها على النهوض، شعرت حينها بيدها باردة وهزيلة، كأنها يد متجمدة. اصطحبتني إلى غرفة ألعاب العقيد؛ سبق أن قضيت الليل هنا مرات عديدة، ولم تكن قط بهذا الاتساع والترتيب الذي هي عليه الآن. كانت جميع الألعاب ولوازم الرسم قد رُتبت بعدها ضمن متعلقات العقيد، ثم وُضعت في غرفة المعيشة في الأسفل، في انتظار نقلها إلى محرقة الجثث برفقة جثة العقيد، ولم يبقَ سوى طاولة الرسم، ومفرش الطاولة، وعليه مفك ومطرقة.

دخلت العمة لين، ثم سارت نحو الطاولة دون تفكير، وطلبت مني أن ألتقط المفك والمطرقة، ثم مرَّقت مفرش الطاولة بنفسها وطلبت مني أن أفتح درج الطاولة. كان درج الطاولة مصنوعاً من خشب قديم، عليه لوح مزخرف بسمك 5 مم، مُثبت بمسامير عدة. كان اللوح هشاً جداً بسبب عوامل الزمن، ففتحته بالمفك بسهولة. أزلت اللوح ورأيت حقيبة جلدية سوداء مألوفة في داخله، عرفتُ أنها حقيبة العقيد من النظرة الأولى، فقد كان العقيد يحملها معه دوماً أينما ذهب.

أشارت لي العمة لين بفتحها. فتحتها بحرص كما لو كنتُ أتعامل مع قنبلة، وعندما فتحتها، لمع ضوء ذهبي فجأةً أمام عينيَّ.. رأيتُ

أخيراً ذلك الشيء الأسطوري؛ أدوات جراحية طبية مصنوعة من الذهب، مشارط ومقصات وإبراً مختلفة الأشكال والأحجام، عشرات القطع، جميعها جديدة تماماً، لامعة برّاقة، كما لو أن عقوداً من التخزين والظلام قد صقلتها أكثر، لدرجة أن ضوءها بدا على وشك الانفجار، ما جعلني غير قادر على فتح عيني.

أخبرتني العمة لين أن هذه الأدوات أنقذت أرواح كثيرين، وكانت شاهدة على موت كثيرين أيضاً.

التقطت العمة لين مشرطاً، وقلّبتة بيدها، ثم رفعت رأسها وقالت: «لكنني أعرف أن أولئك الذين شهدت موتهم لن يُلقوا باللوم عليها، فليس بوسع أحد أن ينقذ حياة من لا يستطيع العقيد إنقاذ حياته».

لهذا السبب، كانت العمة لين تعتقد أن قيمة هذه الأشياء الذهبية تفوق قيمة الذهب نفسه. أعادت المشرط إلى الحقيبة، وأغلقتها، ثم أعطتني إياه، وربّبت على ظهر يدي وقالت: «احتفظ بها، ستجلب لك البركة». هممت بالرفض، لكنها قالت: «لا يوجد أحد غيرك كان يهتم لأمرنا طوال هذه السنوات، وما من أحد أحق منك بالحصول عليها، لكن لدي طلب أخير، أن تتولى ترتيب جنازتي بعد موتي».

ثم أشارت إلى غرفتها وقالت: «لن يعيش حتى الغد، ولا أعتقد أنني سأعيش طويلاً. فقط عدني بأنك ستحتفظ بها وترتب لي جنازتي بعد موتي». لم يكن لديّ سبب للرفض، فما كان مني إلا أن واسيتها ووعدتها بتحقيق رغبتها. قلتُ: «بعد أن تنتهي من ترتيب جنازة العقيد، يُمكنني اصطحابكِ للعيش في القرية لو رغبت، حينها يمكنك زيارة قبره باستمرار، فهناك طريقٌ موصل للجبل الآن، ويمكن الذهاب إلى المقابر بالسيارة».

وافقت دون تردد: «حسناً، هذه رغبتِي أيضاً».

عدنا إلى سرير العقيد. شعرت العمة لين بأنه لم يتبقَّ له وقت كثير، فجلست ممسكة بيده طوال الوقت. وبعد أكثر من خمس ساعات، أفلتت

يدها، ووضعت سماعتها الطبية لتستمع إلى دقات قلب زوجها المرة الأخيرة، ثم وضعت السماعة وأخبرتني نبأ وفاته ووقت الوفاة. وبإشارة منها، تعاونتُ معها في إزالة البطانية التي تغطي جسد العقيد، ثم طلبت مني النزول إلى الطابق السفلي لإحضار الماء استعداداً لتنظيف جسده وتكفينه. أحضرتُ دلوًا من الماء الدافئ من الطابق السفلي، ورأيتُ العمة لين قد خلعت قميصه، وكانت على وشك خلع سرواله. خَمَّنتُ أنها والعقيد لا يرغبان في وجودي في هذه اللحظة، ففادرتُ في صمت.

«لا تغادر».

سمعتُ العمة لين تحدثني من الخلف. استدرتُ فرأيتُ سروال العقيد في يدها. كان جسد العقيد بالكامل أبيض لامعًا، فأغمضت عينيَّ لا شعوريًا، لكنني سمعتها تقول لي: «افتح عينيك، لا أظن أنه كان سيرفض أن ترى جسده».

فتحت عينيَّ فرأيتُ العمة لين جالسة على حافة السرير، تسند نفسها بيدها اليسرى، وتضع يدها اليمنى على بطن العقيد، وتخضض رأسها تحدّق في المنطقة المحيطة بيدها اليمنى بنظرة ثابتة، ثم قالت بهدوء وحزم: «انظر، هذا ما قضيتُ أشهرًا أفعله قبل ثلاث سنوات».

صُدمتُ مما رأيته. لكنها ضَمَّت شفثيها واستمرّت تقول: «تقنيات الوشم صارت بسيطة الآن، وأصبح هناك مكان لنقش الوشوم في القرية، وقد تعلمت الوشم هناك».

قبل أن أمد رأسي لأنظر، بدا لي كأنني رأيتُ صفًا من الكتابات الخضراء الداكنة تحت يدها. لكن بعدما مددت رأسي، صُدمتُ على نحو أكبر. كدتُ أشعر بالدوار لبرهة، وظننتُ أنني أهُلوس. لم أرَ كلمة واحدة. ما رأيته كان لوحة، شجرة بجذع بني سميك، فروع على شكل مظلة بلون أخضر داكن، وأربعة فوانيس حمراء معلقة عليها. كنت قد أضأت جميع أنوار الغرفة لكي نجهز العقيد للدفن، بما في ذلك مصابيح السقف، والأباجورات،

ومصابيح الزيت، والشموع، ودون وعي مني أضأت أيضًا مصباح الذاكرة في قلبي. كانت كل المصابيح في أوج سطوعها، لدرجة أنني شعرت أن الفوانيس الأربعة المعلقة على الشجرة الموشومة أسفل بطن العقيد كانت مضاءة أيضًا، الأمر الذي ساعدني على رؤية ماضي هذه الرسوم وحاضرها وتخيلها بوضوح. بدا واضحًا أن جذع الشجرة البني السميك كان في الأصل سهمًا أحمر، وفروع الشجرة الخضراء الداكنة المظلمة تغطي ببراعة صفًا من الكلمات، والفوانيس الحمراء الأربعة تحتوي على لهب أزرق خافت، كأنها بمنزلة شعلة تحرق اسم المرأة الخائنة. نظرتُ إلى الوشم بشغف وإعجاب، وتأثرتُ به بشدة، فانهمرت الدموع من عيني.

قالت العمة لين بنبرة هادئة: «لم أتمكن من كتابة الكلمات التي يريدها، لذا لم يسعني إلا أن أتصرّف بهذه الطريقة. أعتقد أن هذا ما كان يريده. انظر هنا، هنا».

أشارت إلى موضعين على قمم الأشجار، حيث كانت هناك ندوب داكنة بارزة، واستمرت تقول: «حاول إزالتها، لكنه فشل، فالجراح الماهر لا يستطيع تطبيب جراح جسده، تمامًا كما أن الحلاق لا يستطيع حلاقه شعر رأسه بنفسه، وأنا على يقين أنه حاول فعل ذلك بنفسه بشتى الطرائق، لكن لا يهم، فقد صارت الأمور على ما يرام الآن»، ثم أمسكت بيد العقيد ونادته بمودة: «أيها العجوز، لقد فعلتها من أجلك، يمكنك المغادرة في سلام، ويمكنك الزواج بي براحة بال في الحياة الآخرة». وبينما كانت تتحدث، انهمكت في تنظيف الجثة بجذ، ثم ألبسته الكفن الأبيض بعدما انتهت، وغطته من رأسه إلى قدميه، وملست عليه من رأسه إلى قدميه بيديها المرتعشتين، وهي تقول والدموع في عينيها: «الموتى لا يزعجهم البرد، ما يزعجهم هو التراب».

كان الكفن الأبيض جديدًا ناصع البياض، لا تخالطه ذرة غبار، وتحت تأثير الأضواء الكهربائية ومصابيح الزيت وضوء الشموع، انبعث منه ضوء

دافئ وناعم، كما لو أن حرارة جسد العقيد لا تزال تتبعث من أسفله. ملست على القماش الأبيض بيديها مراراً وتكراراً في صمت وعناية، كأنها لا تريد مفارقتة، حينها لاحظتُ أن دموعها كانت تتساقط على القماش الأبيض، تاركة أثراً مع كل قطرة.

بكت بصمتٍ جعلني أبكي. وكأن بكائي أثار انتباهها بشكل مفاجئ، فأشارت لي أن أقترُب منها. تقدمتُ نحوها، فمسحت دموعي قائلة: «اذهب إلى النوم». ثم قبضت على يدي بقوة، كأنها لا تريدني أن أغادر، لكنها أمرتني بحزم: «اذهب، ووفر دموعك هذه. فليس هناك سواي أنا وأنت لنبكي عليه، دع الأمر لي الليلة، ويمكنك أن تتولى المناوبة بدلاً مني غداً صباحاً».

غادرتُ وأنا في حالة ذهول، ثم جلستُ على فراشي. لم أغلق الباب لأنني لم أكن أنوي أن أنام، وأعتقد أنني لن أستطيع النوم حتى إن أردت. وبحسب العادة، يتعين على أهل الميت النواح عليه تعبيراً عن الحزن، وأن يتركوا الأبواب مفتوحة لتمكن أرواح المعزين من الأقارب والأصدقاء في عالمي الين واليانغ من الدخول في أي وقت. لكن ربما كانت العمّة لين متعبة للغاية، أو ربما لم ترغب في أن تزعجها أرواح الآخرين حينها، وتريد أن تكون بمفردها مع زوجها المتوفى. لم تتح، بل كان تبكي بأنين خافت، بالكاد يُمكن سماعه في الطابق العلوي. حاولت البقاء مستيقظاً طوال الليل، لكن التعب غلبني، فغفوتُ قليلاً. استيقظتُ قرابة الساعة الرابعة فجراً، فوجدتُ صوت الأنين قد اختفى، أعتقد أنها ربما انهارت من شدة الإرهاق.

وبينما كنت متردداً بشأن الذهاب للاطمئنان عليها، وقعت عيناى على حقيبة العقيد الموضوعة بجوار وسادتي.

قبل الفجر تكون السماء حالكة السواد، وأضواء المصابيح في أوج سطوعها، فبدت الحقيبة لامعة متوهجة كما لو كانت تحترق. لم أتمالك

نفسي من أن أمسكها بيدي، شعرت بحماسة شديدة وأنا أمسك بها، ليس بسبب الذهب الثمين، ولا بسبب المهمة التي عهدت إليَّ بها العمة لين، بل لأنني تذكرت ما قاله الأعمى الصغير، أن والدي سرق ممتلكات عائلة العقيد الثمينة وباعها، وأنفق مالها عليه. لطالما بحثُ جاهداً عن دليل يدحض زعم هذا الوغد! والآن ها هو الدليل أمامي، بين يديّ. لقد جلبت لي البركة كما أخبرتني العمة لين، كانت كالدواء لعلتي، بددت على الفور همّاً ظل يؤرقني سنوات طويلة. ربتّ على الحقيبة برفق، والدفع يغمر قلبي، وشعرت بيد ناعمة تربت عليّ، ربما كانت يد روح العقيد التي ذهبت إلى العالم الآخر.

لم تكن هناك أي حركة في الغرفة المجاورة، فعلمت أن العمة لين قد نامت من شدة الإرهاق. أردتها أن تنام مدة أطول، لذلك انتظرت حتى الساعة الثامنة حتى أذهب لرؤيتها.

كانت العمة لين نائمة بالفعل في السرير، لكنها بدت مختلفة بعض الشيء. كانت قد مشطت شعرها وغيّرت ملابسها، وارتدت ملابس بيضاء جديدة تماماً أشبه بالكفن، وعلى طاولة السرير، كانت هناك رسالة ورقية موضوعة بعناية، وفوقها زوجان من خواتم الزواج الذهبية. وأمام طاولة السرير، كان هناك حامل محاليل متحرك معلق عليه زجاجة دواء صغيرة. عادة ما يُستخدم الدواء الذي يتسرّب من زجاجات الدواء المماثلة في علاج المرضى، لكن هذه المرة كان هذا الدواء قاتلاً.

لقد خططت لكل شيء.

بصفتها طبيبة تخدير سابقة، أنهت العمة لين حياتها بأكثر الطرائق احترافية ولحقت بزوجها. لم يكن بإمكانها اختيار العيش برفقة العقيد، لكن كان بإمكانها اختيار الموت برفقته. هل اختارت الموت برفقة العقيد حتى تتمكن من العيش معه في الحياة الأخرى؟ أيتها العمة، أعلم أنكِ اخترتِ الموت برفقته حتى تتمكني من الاستمرار في حبه في الحياة الأخرى.

أيها العم العقيد، أيتها العمة لين، لتنعم روحكما بالسلام.
انفجرت في البكاء، لم أتوقف حتى بُحَّ صوتي، تمامًا كما حدث عندما
ماتت زوجتي بين ذراعيَّ قبل 38 عامًا. لكنني أبلغ من العمر 62 عامًا الآن،
لذلك بُحَّ صوتي أسرع هذه المرة بسبب التقدم في السن.
طالعت في الصحف أنه لا توجد حياة مثالية، وأن عدم المثالية هو
طبيعة الحياة.

بكيت وفكرت متسائلًا إلى أي مدى يمكن أن يصل صوت بكائي! وكم
من الأرواح والأشخاص من عالمي الين واليانغ قد يستجيبون لصوت
بكائي ويأتون لتشيعيهما؟

تمت

الانتهاء من المسودة الأولى في أغسطس 2018

الانتهاء من المسودة الأخيرة في الثاني من مارس 2019

تعديل صغير في ديسمبر 2020

تعديل بسيط في أبريل 2023

مكتبة

t.me/soramnqraa

人生海海

الرواية الصينية الأكثر مبيعاً

المركز الأول في قائمة
الروايات الصينية 2020م



يحكي لنا طفل في العاشرة بضمير المتكلم حكايات من قريته التي ولد فيها، وغادرها مجبراً عندما بلغ السادسة عشرة، ثم عاد إليها بعد سنوات طويلة في الخارج. تتخلل الرواية شخصيات وأحداث عديدة تمتد على مدار ما يقرب من قرن كامل. تدور أحداثها حول صديق والد هذا الطفل، شخصية غريبة الأطوار، مثيرة للجدل، تارة يصفه الآخرون بأنه بطل محارب، وتارة يصفونه بأنه جاسوس خائن. حياته ممتلئة بالقصص، والتناقضات والأسرار، والنجاحات والانتكاسات، والهدوء والتقلبات، تارة نراه يتحلى بالصلابة والشجاعة، وتارة يتكشف لنا ضعفه وعجزه، أشبه بشخصية أسطورية تتخلل أحداث الرواية كاملة، وتتشابك تجاربها مع بقية شخصوها، لترسم لنا صورة معقدة وغنية لحياة تلك الشخصية، وتفتح لنا نافذة نتعرف عبرها إلى تلك الحقبة المضطربة من تاريخ الصين البعيدة.

هذه الرواية ليست عملاً أدبياً فحسب، بل أيضاً فلسفة حياتية، تصور لنا الحياة كالبحر المتقلب؛ هادئة أحياناً، ومضطربة أحياناً أخرى، وفي النهاية، ستكشف لنا كيف نواجه الانتكاسات، ونتحمل المعاناة، ونتقبل العواقب، ونبحث عن الجمال وسط القبح.

الروائي الحاصل على جائزة "ماودون" أرفع الجوائز الأدبية الصينية

تعد روايته "الشفيرة" أكثر الروايات الصينية انتشاراً على مستوى العالم في القرن الحادي والعشرين، وأول رواية صينية تحفظ في المكتبة العالمية

"تحفة فنية من إبداعات الروائي ماي جيا المعتادة"
المخرج العالمي وونغ كار واي